



قصر الحمراء

بقلم

واشنطن ارفنج

ترجمة

ابراهيم الإبيارى

مراجعة

ابراهيم خورشيد

دار المعارف بمصر

قَصَصُ الحَمْراء

نشر هذا الكتاب بالاشتراك

مع

مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر

قصص الحمراء

تأليف

واشنجتن إرفنج

ترجمة

ابراهيم الابيارى

مراجعة

ابراهيم زكى خورشيد

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

هذه ترجمة كتاب « الحمراء »

This is a translation of "THE ALHAMBRA"
by Washington Irving.

إلى المحترم دافيد ويلكى

سيدى العزيز

لعلك تذكر أنّا فى جولاتنا التى قمنا بها مرة معاً فى بعض مدن أسبانيا القديمة، ولاسيما طليطلة وإشبيلية، قدرأينا امتزاجاً قوياً بين الحضارتين الإسلامية والقوطية ، لا يزال أثره باقياً من عهد عرب أسبانيا .

وكم من مشاهد وحوادث فى الطرقات استهوتنا وذكرتنا بحكايات «ألف ليلة » وقد طلبت إلى ملحاً فى أن أكتب شيئاً يجلو تلك الخصائص، بذلك الأسلوب الذى وُصفت به حياة الرشيد، تتضوع منه فيه تلك النفحة العربية التى عمت كل شىء فى أسبانيا .

وما أذكّرُك بهذا إلا لتعلم كيف كنت إلى حد ما مشاركاً فى هذا العمل الذى عرضت فيه جانباً من الصور العربية المنتزعة من الحياة، ومن القصص التى سندها الروايات الشعبية، التى تلفتك إليها لفتاً أنّى حللت فى ناحية من تلك النواحى التى كانت أكثر تأثراً بالحياة العربية .

وإنى أكتب إليك هذه الصفحات تخليداً لذكرى تلك المناظر الفاتنة التى رأيناها معاً فى تلك الأرض أرض المغامرات ، وشاهداً على أنى أقدرك قدراً لا يفوقه إلا الإعجاب بمواهبك .

صديقك ورفيق سفرك

المؤلف

مايو ١٨٣٢

الرحـــلة

فى ربيع عام تسع وعشرين وثمانمائة وألف ، كان مؤلف هذا الكتاب ، الذى حفزه حب التطلع إلى تعرف أسبانيا ، فى رحلة كشفية من إشبيليه إلى غرناطة ، يصحبه رفيق كان من رجالات السفارة الروسية فى مدريد .

وعلى ما بين الموطنين من تناء فقد جمعت بيننا الصدفة ووحدة المشرب على أن نطوف معاً بين مرتفعات الأندلس التى تهيج الخواطر وتثير المشاعر .

ولا أدرى هل ستطالعه هذه الصفحات ، حيث تطوح به مهام منصبه ، منغمساً فى مباهج القصور الملكية ، أو ناعماً بآيات للطبيعة أصدق روعة ، فتعيد إلى فكرته مشاهد صحبتنا الجريئة ، وتذكره مع هذا بمن لن يقوى كر الأيام ولا بعد الدار على أن ينسياه ظرفه وقدره .

وقبل أن أمضى فى الحديث ، دعنى هنا أقض حاجة فى نفس ممهداً بملاحظات قليلة عن معالم أسبانيا والنقلة . فكثيرون يخالون أن أسبانيا من الأقاليم الجنوبية غير الوعرة ، تزينها وفرة من المفاتن الخالبة الجاذبة التى عرفت بها أرض إيطاليا .

ولكنا ، إذا استثنينا بعض المناطق الساحلية ، نجد أن الجانب الأكبر منها على العكس من ذلك عابس كئيب تتخلله جبال وعرة ، وسهول ممتدة فسيحة ، خالية من الأشجار ، فى هدوء شامل ووحشة عميقة ، تحكى فى ذلك طبيعة البلاد الإفريقية فى وحشتها وعزلتها .

ومما يزيد فى هذا السكون وتلك الوحشة أنك لا تقع فيها على طيور مغردة ، نتيجة طبيعية لخلوها من الحرجات والشجيرات .

غير أنك قد تبصر بها النسور والعقبان محلقة حول قلل الجبال ، أو صائحة

فوق السهول ، كما تبصر جماعات من الحبارى النافرة تتسلل إلى المروج . ولكن الجموع الغفيرة من الطيور الصغيرة، التى تملأ جميع أجواء الأقاليم الأخرى بالحياة، لا تلقاها إلا فى جهات قليلة من أسبانيا ، وخاصة فى البساتين والحدائق التى تحيط بالبيوت . وإذا أوغل المسافر فى داخل أسبانيا فقد يجوز من حين إلى حين ببقاع ممتدة إلى مدى البصر متزرعة بالحبوب ، تتموج زمناً بالخضرة ، وزمناً جرداء قد لفحتها الشمس . وعبثاً يحاول إذا تلفت ليجد اليد التى فلحت هذه الأرض ، وأخيراً قد يشاهد قرية على تل صبب أو صخرة شماء وعرة بشرفات متصلة ، أو مرقب متهدم ، كان قديماً معقلا يصد للمنتقضين هجماتهم ويدفع للعرب غاراتهم ، إذ عادة الزارعين أن يحتشدوا معاً فى دفاع مشترك لا يزال العرف جارياً به إلى اليوم فى معظم جهات أسبانيا ، وذلك لحملات قطاع الطرق عليهم للنهب .

ومع أن الجزء الأكبر من أسبانيا ينقصه جمال الأدغال والغابات ، وزخرف النباتات الغضة الفاتنة ، فإن له ما يعوضه من مشاهده ذات الجلال والسمو ، والتى تحكى شيئا من صفات الأهلين . وأظن أننى منذ رأيت البلاد التى يعيش فيها الأسبانى فهمت حقاً لما كان أنفاً صلباً مقتصداً عفاً ، مكتمل الرجولة ، إنساناً يستهين بالمخاطر ويترفع عن تبذل المخنثين .

وإن من تلك الصورة الكئيبة الساذجة التى تتسم بها المناظر الأسبانية شيئاً يفيض على النفس أيضاً الشعور بالهيبة . فسهول قشتالة ولامانشا الواسعة الممتدة إلى مدى البصر يطبعها ذلك العرى الضافى ، وتلك السعة المترامية بطابع خاص . وتحس لها شيئاً من جلال المحيطات المهيب .

وإذا ما شخصت ببصرك فى هذه المفازات غير المحدودة وقعت هنا وهناك على قطيع من الماشية هائم فى رعاية حارس منفرد لا يبدى حراكاً كأنه تمثال ، بمتخس طويل أهيف فى يده ، يستدق صعدا كأنه حربة فى الفضاء . أو رأيت رتلا طويلا من البغال تسير الهوينى فى عرض القفر كأنها قطار من إبل فى البيداء ، أو راعياً وحيداً مزوداً بغدارته وخنجره الصغير وهو يعتس فى السهل .

ومن ثم نتبين أن فى البلاد وعادات أهلها ، وما عليه سكانها أنفسهم ، شيئاً من طباع العرب .

وإن اضطراب الأمن الذى يسود هذه البلاد سببه شيوع اتخاذ الأسلحة ، فراعى الماشية فى الحقل ، وحارس الأغنام فى السهل ، كلاهما معه غدارته وسكينه . وقلّ أن يخاطر ثرىّ من أثرياء القرية فيذهب إلى سوق المدينة دون بندقيته . وربما تبعه خادمه سيراً على الأقدام ببندقيته القصيرة على كتفه . وهم مع أقل الرحلات شأناً يعدون لها عدة الحرب .

وقد حملتهم مخاطر الطرق إلى السفر على حال تشبه بعض الشبه نظام القوافل فى الشرق . فالحمالون يجتمعون فى قوافل ويسافرون فى أيام معلومة ، فى صفوف طويلة كاملة العدة من السلاح ، ثم ينضم إليهم المسافرون الذين يزيدونهم عدداً إلى عددهم وقوة إلى قوتهم .

وبهذه الطريقة البدائية تُحمل التجارة فى البلاد . والمكارى هو معتمدهم فى ذلك . والرحالة المعترف به فى البلاد عبر شبه الجزيرة من جبال البرنية (البورتات) « وأشتوريش » إلى البشرات وجبال رندة وحتى معابر جبل « طارق » نفسه .

وهو يحيا حياة شظف وتقتير ، ففى حقيبة من نسج خشن يحفظ ما ادخر من زاد زهيد ، ويعلق إلى قربوس سرجه قربة من جلد قد ملئت نبيذاً أو ماء ، يتبلغ به عبر جبال عارية وسهول شفها الظمأ .

ومن جُل[1] بغلته يتخذ فراشا لنومه فى الليل ومن سرجها وسادة .

وهو قصير ، إلا أن ضمور أطرافه ، وعضلاته المفتولة ، يدلان على قوته . له بشرة سمراء قد لفحتها الشمس ، ذو عين تشع العزم ولكنها تطرف بالوداعة ، إلا إذا هيج بهائجة مفاجئة . صريح الطبع ، كامل الرجولة ، مهذب . وقلما يمر بك دون أن يحييك بتحيته الوقورة : حفظك الله . كان الله لك أيها الفارس .

ولما كانت ثروات هؤلاء الناس جميعها فى كثير من الأحيان عرضة للمخاطر

---

(١) الجل : ما تلبسه الدابة لتصان به .

وهى على ظهور البغال ، فإنهم يحملون سلاحهم فى أيديهم ، أو يعلقونه إلى سروجهم ليسهل عليهم انتزاعه ، يدافعون به عن أنفسهم دفاع المستبسل ، وإن كان خروجهم فى جماعات يجعلهم آمنين من شراذم النهابين ، أو من قاطع طريق متفرد تراه غارقاً فى شكته إلى ذقنه ممتطياً جواده الأندلسى ، يحوم حولهم كما يحوم القرصان بالقافلة البحرية ، دون أن يجرؤ على الهجوم عليهم . والمكارى الأسبانى عنده ذخيرة لا تنفد من الأغانى والقصص الشعرية يسرى بها عن نفسه فى سفره المتصل ، فى نغمة بدائية سهلة ، ليست إلا من مقاطع قليلة ، رافعاً بها عقيرته فى قوة ، مادًّا صوته ، مقطعاً نغماته . على حين قد جلس جانباً من ظهر بغلته ، التى تبدو كأنها تنصت إليه إنصاتاً ، موفقة بين خطوها والنغم .

والمقطوعات التى يغنيها هى فى كثير من الأحيان غراميات متواترة عن عرب أسبانيا ، أو شىء من أساطير القديسين ، أو بعض من أنشودات الحب ، أو مما لا يزال أكثر شيوعاً وتواتراً من قصص شعرية عن إقدام مهرب أو عتو عاتٍ من العتاة ، إذ المهربون واللصوص أبطال شعر الفتوة بين عامة أسبانيا .

وكثيراً ما يرتجل المكارى أغنية على البديهة يصف فيها مشهداً يقع عليه ، أو حادثة من حوادث الرحلة .

وهذه القدرة على الغناء والارتجال شىء شائع بين الأسبان . ويقال إنها موروثة عن عرب أسبانيا .

وله ولع جنونى بالأغانى الشعرية يستمع إليها بين مناظر الوحشة والوحدة مصحوبة أحياناً بجاجلة أجراس البغال .

وإنه لمشهد له فى النفس أكبر الأثر أن تلقى صفًّا من المكارين فى شعب من شعاب الجبال ، فتسمع أول ما تسمع صوت أجراس الهوادى تشق بنغمّها البدائية سكون أجواز الفضاء ، أو أن تسمع صوت المكارى وهو يستحث دابة متخلفة وأخرى شاردة ، أو مغنياً بملء رئتيه قصة شعرية مأثورة .

وأخيراً ترى البغال تتهادى دائرة فى درب جبلى وعر ، تهبط حيناً من القمم

الهاوية فتبدو كأنها الصورة قد برزت جلية فى صفحة السماء ، وحيناً كادحة بين المهاوى العميقة العارية أسفل منك .

وعند ما تقترب منك تتبين الاهداب الصوفية المزركشة فى زينتها البهية وجلال السروج. وعندما تمر بك تذكرك هذه البندقية القصيرة، المعدة والمعلقة على مؤخرة الأخراج والسروج ، بخطورة الطريق .

ومملكة غرناطة القديمة ، التى نحن على وشك اختراقها ، من أعظم الأقاليم الجبلية فى أسبانيا .فالهضاب الوعرة الواسعة وسلاسل الجبال الممتدة مقفرة كلها من الشجيرات والأشجار، ملونة بالصخور المرمرية والجرانيتية المرقشة تناطح بقممها السفعاء الجرداء السماء القاتمة الزرقة ، بينما تحتضن فى أكنافها الوعرة أينع واد وأخصبه ، حيث الصحراء والحدائق تتنافسان السيادة . وحيث الصخور ، كما هى ، تجود راغمة بالتين والبرتقال والليمون ، وتزهر بالآس والورد .

وفى الشعاب الجدباء من هذه الجبال تبدو المدن والقرى المسورة كأنها أوكار العقبان بين المهاوى تحيط بها الشرفات العربية ، أو بمرقبات أبراجها الخربة جاثمة فوق قنتها السامقة ، تعيد إلى الذاكرة أيام الفروسية فى ذلك الصراع الذى كان بين المسيحيين وعرب أسبانيا ، ذلك العراك الذى التهبت فيه المشاعر من أجل الغلبة على غرناطة .

وعند ما يجتاز المسافر هذه الجبال الشامخة يضطر فى الكثير من الأحيان أن يترجل عن جواده ، ويقوده مصعداً به أو هابطا فى تلك المراقى الوعرة والمهابط الشديدة الانحدار ، التى هى أشبه شىء بدرجات سلم مهشمة . كما قد يقوده الطريق إلى شفا جرف هار ليس عليه حاجز يحميه من التردى فى الهاويات أسفل منه . ومن ثم يخوض فى صبب مظلم سريع الميل محفوف بالمخاطر .

وأحياناً يهيم فى أخاديد ووهاد نالت منها سيول الشتاء، وهى لظلامها كانت معابر لقطاع الطرق ، فمن حين إلى حين يطالعك صليب قبر قائم على رابية ، فى ناحية منعزلة من الطريق ، يشير إلى ما كان من نهب وقتل ، ويذكر المسافر بأنه بين

منتجعات قطاع الطرق ، وربما كان فى هذه اللحظة نفسها يرقبه لص يتربص به الدوائر .

وقد يُراع وهو يعرج فى هذه الوديان الضيقة بخوار أجش ، فيبصر من فوقه فى ثنية مخضرة من الجبل قطيعاً من الثيران الأندلسية المتوحشة ، تعد لحلقة الصراع .

وإنك لتستشعر شيئاً من الهلع وأنت تتأمل هذه الحيوانات الرهيبة ، وقد بدت فى قوة هائلة ، تهيم فى مراعيها الخاصة فى توحش غير معهود ، تنفر أكثر ما تنفر من رؤية أى إنسان ، اللهم إلا راعيها الخالى بها الذى يقوم على رعايتها . وقد لا يجرؤ هو فى بعض الأوقات على أن يغامر بالدنو منها . وخوار هذه الثيران المتطامن ومنظرها المفزع ، وهى تطل من عل من فوق الصخور المرتفعة ، يزيدان فى وحشة هذه المشاهد الرهيبة من حولنا .

وقد انسقت غير مدرك إلى حديث طويل ، تاركاً ما قصدت إليه من الوصف العام عن الرحلة فى أسبانيا . ولكن هناك ما يثير المشاعر ويحرك الوجدان فى كل ما تضم شبه الجزيرة مما هو عزيز مع الذكرى .

* * *

فى الأول من مايو مضيت أنا ورفيقى من « إشبيلية » فى طريقنا إلى « غرناطة » . وقد أعددنا كل ما يجب إعداده ويتفق وطبيعة هذه الرحلة ، التى ستكون بين أقاليم جبلية ، حيث الطرق لا تفضل فى كثير ممرات البغال ، وحيث هى عرضة فى الكثير لمخاطر اللصوص .

وقد سبقنا فأرسلنا أكثر أشيائنا قيمة مع الحمالين ، واحتفظنا بشىء من ملابسنا وبكل ما هو ضرورى لنا فى الرحلة ، وبنقود لنفقات الطريق ، وبقدر آخر منها يفى لدفع ما عساه يقع عند ما يهاجمنا اللصوص ، نحمى به أنفسنا مما يتعرض له أشحاء المسافرين والفارغو اليد من معاملة غليظة . فاستأجرنا جوادين قويين لنا ، وثالثا لمتاعنا القليل ، وليكون مطية لشاب جلد « بشكوانى » فى نحو العشرين

من عمره ، ليكون دليلنا فى هذه المتاهات المضلة بين شعاب الجبال . وليرعى الجياد، وليقوم فى بعض الأوقات بخدمتنا، وفى سائرها بحراستنا . وقد كان يحمل بندقية تبعث الرعب وغدارة يدفع بها عنا اللصوص أو قطاع الطرق الفرادى .

وكان يباهى بسلاحه هذا كل المباهاة ، ولست أحط من شأنه إذا ذكرت أنه كان دائماً يعلقه فارغاً خلف سرجه .

وعلى أية حال فقد كان أميناً جذلا طيب القلب . يعى كثيراً من الأقوال المأثورة والأمثال، شأنه شأن « سانخو » نفسه الذائع الصيت ،والذى كان نادرة بين الوصفاء ، لذا أطلقنا عليه اسمه .

ومع أننا كنا نعامله رفيقاً فى غير كلفة ، فقد كان شأنه فى ذلك شأن كل أسبانى ، فلم يجاوز حد اللياقة والاحترام فى لحظة من اللحظات حتى فى أكثر أوقاته مرحاً .

وهكذا بدأنا رحلتنا مجهزين مؤمنين ، بنفوس مطمئنة . وما أحوج المسافر فى بلد مثل أسبانيا لمثل هذا الاطمئنان،حيث الكثرة من الفنادق الحقيرة مليئة بالمغامرات كأنها القلاع المسحورة ، والإعداد لكل وجبة ليس بالشىء اليسير .

وليشك من يشكو نقص الطرق المعبدة والفنادق الفخمة وجميع أسباب النعيم الشامل، التى لا تتوفر إلا فى بلد مهدت فيه الحياة فأصبحت رخية مألوفة .

فحسبى هنا جبل وعر أتسلقه ، وأن أهيم على وجهى فى السبل ، وأن أنعم بصحبة هؤلاء القوم الصرحاء الكرماء وإن بدت خلالهم أقرب إلى الهمجية . فهذه كلها تطبع أسبانيا أرض الخيال والمغامرات بطابع الفروسية . ولقد كانت مأدبتنا المسائية الأولى لها هذه اللذة نفسها فى نفوسنا ، فقد وصلنا بعد غروب الشمس بقليل مدينة صغيرة بين التلال عقب رحلة مضنية فى سهل واسع ليس به مساكن ، حيث أصابتنا السماء بطلها مراراً .

وفى هذا النزل لقينا جماعة من الشرطة كانوا يتعسسون فى المدينة فى تعقب اللصوص . وكان منظر الغرباء أمثالنا شيئاً غير مألوف فى هذه المدينة النائية . فأخذ رب النزل ، ومعه اثنان أو ثلاثة من رفاقه الثرثارين الطاعنين فى السن،

يفحصون جوازينا فى زاوية من زوايا النزل. وكانوا فى أردية رمادية. بينما جعل الضابط يكتب ملاحظاته فى ضوء مصباح معتم .

وكانت لغة الجوازات الأجنبية مما حيرهم .ولكن تابعنا « سانخو » أعانهم على واجبهم وعظم لهم من أمرينا فى ذلاقة أسبانية .

وقد عرفنا فى الوقت نفسه كيف نكسب قلوب الجميع حولنا بذلك الأسلوب البارع ، فوزعنا عليهم قليلا من لفائف التبغ .

وبعد برهة قصيرة كان الجميع معنيين بالترحيب بنا . وقد قام على خدمتنا عميد القرية نفسه. وزودت حجرتنا تزويداً جميلا بمقعد وثير ذى ذراعين ، حملته إلينا ربة النزل من أجل هذا العميد الخطر .

وقد تناول رئيس العسس العشاء معنا . وكان أسبانياً مرحاً متكلماً ضحوكاً . أخذ يقص علينا من مأثراته فى الحب والحرب ، أيام كان فى حملة إلى أمريكا الجنوبية ، فى عبارات طنانة ، يقلب جفنيه فى حركة غريبة وإشارات عصبية .

وأخبرنا أن معه قائمة بأسماء جميع اللصوص فى القرية ، وأنه يستطيع أن يعرفهم بأعيانهم . وقد زودنا فى الوقت نفسه بجندى من جنوده ليكون حارساً لنا ، وقال : إن جندياً واحداً كفيل بحمايتكم أيها السادة ، فاللصوص يعرفوننى ويعرفون جنودى ، وإن منظر واحد منهم كفيل بأن ينشر الرعب فى جبل بأكمله . فشكرنا له صنيعه ، وأكدنا له بالأسلوب نفسه بأنا بحماية تابعنا الجبار « سانخو » لا نخاف جميع لصوص الأندلس .

وفيما كنا نؤتى عشاءنا مع صاحبنا الثرثار استمعنا إلى ألحان القيثارة ، وقعقعة الصنج .وسرعان ما صحبتها أصوات غنائية تنشد لحناً شعبياً .

وتبينا الأمر فإذا رب النزل قد جمع المغنين والموسيقيين الهواة والغانيات الريفيات من النواحى المجاورة . وبهذا أصبحت ردهة النزل تصور مشهداً حياً لعيد أسبانى . فأخذنا مجلسنا بين رب النزل وربته ورئيس العسس تحت عقد الردهة .

وكانت القيثارة تتناوبها الأيدى . ولكن « موصلى » الحفل هذا كان مرحاً .

باش الوجه ، بلحية سوداء كثة ، قد شمر عن ساعديه حتّى المرفقين . وكان يعزف على القيثارة فى حذق فائق ويغنى شيئاً من الأنشودات الغرامية ، غامزاً بعينيه غمزات ذات مغزى عند الغوانى. وكان فيما يظهر ذا حظوة عندهن. ثم أخذ بعد ذلك يراقص عذراء أندلسية مكتملة الشباب رقصة أسبانية على وقع الصنج بين إعجاب للنظارة عظيم .

ولكن واحدة من اللاتى حضرن لم تبلغ مبلغ « بيبيتا » بنت رب النزل فى حسنها ، وكانت قد خفت لتأخذ زينتها للحفل ، فظهرت ، وقد توجت رأسها ، فى رقصة أسبانية مع فارس وسيم . وطلبنا إلى رب النزل أن يدير النبيذ والمرطبات بين الرفاق فى سخاء . ومع أن الجمع كان خليطاً من الجنود والمكارين والقرويين فلم يجاوز واحد منهم حد اللهو المباح .

ولقد كان المنظر فيه متأمل لمصور : فجماعة الراقصين كانوا فى منظر بهى ، والفرسان ظهروا فى حلاتهم شبه الرسمية ، والقرويون كانوا متدثرين بمعاطفهم السمراء . ولن يفوتنى ذكر الضابط العجوز النحيل بمعطفه الأسود القصير ، الذى لم يأبه لشيء مما يدور حوله وانتحى ناحية فى ركن جاداً فى الكتابة فى ضوء مصباح نحاسى كبير معتم ، كان يبدو أنه من عهد « كيخوت » .

وليس المجال مجال كتابة قصة متسقة ، ولست أقصد إلى أن أسوق الحوادث المختلفة لأيام تطوافى العديدة بالتلول والوديان والوهاد والجبال — فلقد كنا فى سفرنا أشبه بحال الخارجين على القانون — بل إنى أجمع الأشياء على علاتها غثها وسمينها نندس بين جميع الطبقات والبيئات كما يفعل المتسكعون العيارون .ولقد كان ذلك شيئاً لامندوحة عنه لمن يجوب أسبانيا .

ولعلمنا بقلة الزاد فى الفنادق ، وبأن البقاع التى كثيراً ما يخترقها المسافر مجدبة ، فقد أخذنا الحيطة عند ما اعتزمنا السير ، فملأنا حقائب سرج تابعنا ملئاً بالطعام المحفوظ ، كما ملأنا قربة ذات حجم كبير حتّى عنقها بالنبيذ الأسبانى الأحمر الفاخر .

ولما كان هذا هو زادنا لسفرنا، وكان عندنا أعظم شأناً من السلاح ، فقد أوصيناه بأن يجعله تحت بصره . ومن الإنصاف له أن أقول : إن سميه الرفيق « سانخو » نفسه ما كان له أن يبزه فى حسن تدبيره لمؤونتنا .

ومع ذلك فكثيراً ما استنفد ما فى الحقائب والقربة استنفاداً خلال السفر . وقد كان يبدو لنا أنها بما حوت من قدر، يفوق الوصف كثرة، لن تنفد أبداً. هذا إلى أن تابعنا الحذر كان معنيا بأن يحفظ كل ما يتبقى من وجبات المساء فى الفنادق ليزود به غداءنا فى اليوم التالى .

وما أحفلها من وجبات تلك التى كنا نعدها مع الظهيرة على المروج الخضراء إلى جانب جدول أو ينبوع فى ظل شجرة . ثم ما أنعمها من قيلولات تلك التى قلناها على معاطفنا وقد بسطناها على الأعشاب .

وقد تلبثنا يوماً مع الظهيرة لننعم بأكلة من تلك ، وكانت فى روض صغير نضر بهيج تحيط به التلال المغطاة بأشجار الزيتون ، فبسطنا معاطفنا على الحشائش فى ظل شجرة « دردار » إلى جانب نهير متدفق . وعقلنا جيادنا حيث ترعى الكلأ . وجاءنا « سانخو » بعيباته وقد بدا عليه الزهو ، وكانت تحوى زادنا لأربعة أيام من سفرنا ، كما قد أفعمت ببقايا أكلة لنا فى مساء الليلة السابقة فى فندق غنى بطعامه فى « انتكيرة » .

وبدأ تابعنا يخرج أمامنا ما حوت العيبات من مختلف الأجناس صنفاً بعد صنف ، وكأنها لا نهاية لها .

فأحضر بين أيدينا أولا كتف جدى مشوية . وسرعان ما التهمناها . ثم أحضر لنا حجلا غير منقوص . ثم جاء بقطعة كبيرة من سمك مملح قد لفت فى ورق معها بقية من فخذ خنزير مملحة . وبعدها جاءنا بنصف دجاجة . هذا إلى كثير من أرغفة الخبز ، وعدد من البرتقال المتنوع ، ثم تين وعنب وجوز . وكانت قنينته ملأى بصنف من فاخر النبيذ المالقى . وكان كأنه يشبع رغبة فى نفسه بدهشتنا التى لا توصف كلما أخرج جديداً من جعبته ، فيستلقى على ظهره على الأعشاب



بہو قمارش

مقهقهاً . ولم يكن شيء أكثر استخفافاً لهذا الخادم الساذج من أن تفاضل بينه وبين تابع دون « كيخوت » المعروف بالإخلاص لرفيقه، والذى كان واسع الخبرة بتاريخ « دون » ، شأن عوام أسبانيا الذين يعتقدون حقاً صدق هذه القصة التاريخية .

وذات يوم قال لى فى نظرة المستفسر : على أية حال فقد وقع هذا منذ زمن طويل يا سيدى . وكان جوابى : وقت طويل جدا .

فقال، وهو لا يزال ينظر إلىّ نظرة المتشكك : إنى أجرؤ أن أقول : أكثر من ألف سنة .

فجرؤت وقلت : ليس أقل من ذلك . واكتفى تابعى بهذا .

وفيما كنا نؤتى غداءنا الذى تحدثت عنه قبل ، ونحن نسرى عن أنفسنا بالمزاح مع تابعنا ، طلع علينا سائل ، وكان أقرب مظهراً بحاج يبدو أنه طاعن فى السن ، له لحية شهباء ، وقد اعتمد على عكازته ، غير أن الأيام لم تحن له ظهراً . وكان طويلا منتصب العود ، فيه بقية من طلعة جميلة . عليه قبعة أندلسية مستديرة، وحلة من جلد الأغنام، ووَثْر [1] من جلد وجُرموق [2] ، وقد انتعل خفاً .

ومع أن ثيابه كانت عتيقة ومرقعة فقد كانت غير مستهجنة . وكان فعله فعل الرجال . وكان حديثه معنا بذلك الأسلوب الأدبى الرزين الذى تتميز به الطبقة الدنيا فى أسبانيا .

وقد أحسنا لقاء هذا الزائر ، وفى نشوة من نشوات الإحسان أعطيناه بعض النقود الفضية ، ورغيفا من خالص البر ، وقدحاً من نبيذنا المالقى الفاخر . فتقبل هذا شاكراً ، ولكن دون أن يتورط فى إطراء يزرى به .

وعند ما تذوق النبيذ ، رفعه يرنو إليه فى الضوء ، وقد بدت فى عينيه لمحة

---

(١) الوثر : ما يقابل (الحرملة) .

(٢) الجرموق : ما يقابل (التزلك) .

من الاندهاش خاطفة، وقال : لقد مرت بى أعوام لم أذق فيها مثل هذا النبيذ، وإنه لمنعش لقلب عجوز مثلى . ثم نظر إلى الرغيف الخالص من البر وقال : نعما مثل هذا الخبز ! ما أتم حديثه حتى وضعه فى جرابه . وألححنا عليه فى أن يأكله غير مبق عليه . ولكنه أجابنا بقوله : لا ، أيها السادة، فالنبيذ كان علىّ أن أشربه أو أن أدعه، ولكن الخبز فعلىّ أن أحمله إلى منزلى لتقاسمنى فيه أسرتى .

ورأى رجلنا « سانخو » ما بعينينا من إسماح ،فعندها أعطى الرجل شيئاً من الكثرة الفائضة من فضلة طعامنا ، على شريطة أن يجلس ليأكلها . وعندها أخذ الرجل مجلسه بعيداً عنا قليلا، وبدأ يأكل متئداً ، فى تجمل ورزانة وكأنه شريف أسبانى .

وكان الرجل العجوز مع هذا كله فى حال من الاتزان والهدوء ورباطة الجأش، مما جعلنى أذهب إلى أنه لقى فى حياته أياماً أسعد . كما كان حديثه أيضاً ، على الرغم من سذاجته ، يتميز أحياناً بشىء من الطلاوة ، كما كان أسلوبه فى الأكثر شعرياً . وقد ظننته فارساً قد تقاعد، ولكنى كنت مخطئاً ، إذ لم يكن هذا بدعاً. فهذا الأدب الذي طبع عليه الأسبانى، وذلك الأسلوب الشعرى فى التفكير والكلام ، كثيراً ما تلقاه فى أدنى الطبقات من هؤلاء الناس الذين رزقوا صفاء فى الذهن . وقد أخبرنى أنه ظل راعياً خمسين عاماً . وهو اليوم معوز لا عمل له .

ثم قال : وعند ما كنت حدثاً لم توهننى الأحداث أو تعنينى ، كنت دائماً بخير فى غبطة . ولكنى اليوم، وأنا ابن تسع وسبعين، سائل قد أخذ قلبى يخوننى . ولم يكن الرجل حتى هذا الوقت قد احترف الشحاذة . فلم يكن شىء، حتى فى أيامه الأخيرة، يدفعه إلى هذه الخسة غير الحاجة . وقد أعطانا صورة مؤثرة للصراع القائم فى نفسه بين الجوع والإباء، حين نزل به الفقر المدقع أول ما نزل . فقد كان عائداً من « ملجار » خاوى الوفاض . ولم يكن قد ذاق طعاماً منذ حين . وكان مخترقاً سهلا واسعاً من سهول أسبانيا ، حيث لا تظفر إلا بقليل من القطان .

وعند ما عضه الجوع بنابه طرق باب فندق فى القرية ، فكان جوابه : معذرة بالله أيها الأخ . وكانت هذه هى الوسيلة الشائعة فى أسبانيا لرد السائلين . فقال : فعدت أدراجى خجلا أكثر منى جائعاً ، إذ كنت لا أزال شديد الإباء . فجئت نهراً قد ارتفع شطآه بعيد الغور جارف التيار ، وهنا ألقى فى روعى أن أقذف فيه بنفسى قائلا : ما فى الحياة مغنم لرجل عجوز مثلى خامل الذكر بائس . حتى إذا ما كنت على حافة الماء ذكرت العذراء المباركة فانثنيت راجعاً . ومضيت فى طريقى فرأيت مسكناً خلوياً على مسافة قريبة من الطريق ، فدلفت من الباب الخارجى إلى فنائه . وكان الباب مغلقاً ، ولكن كان هناك سيدان يطلان من نافذة ، فتقدمت سائلا . فكان جوابهما : معذرة بالله أيها الأخ . ثم أغلقا النافذة .

فخرجت من الفناء أجر رجلى جراً . ولكن الجوع كان قد غلبنى على أمرى ، وأسلمنى قلبى ، وظننت أن ساعتى دنت ، فاستلقيت أرضاً إلى جانب الباب الخارجى ، واستودعت نفسى العذراء المقدسة وألقيت على رأسى غطاء لأستقبل الموت . وما هى إلا برهة قصيرة حتى كان رب البيت آئباً فبصرنى راقداً إلى جانب الباب ، فكشف عن رأسى غطاءه فرحم شيبتى وأخذنى إلى بيته وقدم لى طعاماً . وهكذا أيها السادة ترون أن الإنسان يجب أن يثق بحماية العذراء . كان هذا الرجل قاصداً إلى موطنة أرشدونة التى كانت غير بعيد منا ، على قمة جرف من جبل وعر . وقد أشار إلى خرائب قلعتها العربية وهو يقول : هذه القلعة كان ينزلها ملك العرب إلى أيام حروب غرناطة . فغزتها الملكة « إيزابلا » بجيش جرار . ولكن الملك أطل عليها من قلعته الضاربة فى السماء وضحك منها مستهزئاً . وعندئذ تجلت لها العذراء وتقدمتها هى وجيوشها إلى شعب خفى من شعاب الجبال ، لم يكن يعلم علمه من قبل أحد . ولما رآها الملك العربى مصعدة أخذته الحيرة وقفز بجواده من فوق نفنف فتهشم إرباً إرباً . ثم قال الرجل الشيخ : ولا تزال موقع حوافر الجواد إلى اليوم متميزة فى حافة الصخرة .

ثم انظروا أيها السادة ، فها هو ذاك الطريق الذى أصعدت فيه الملكة فى

جيشها . فهو يبدو لكما شريطاً على جانب الجبل . ولكن الشيء العجيب أنه على حين يبدو مرئيًّا لنا ونحن بعيد فإنا نضل أثره حين نقترب منه .

وهذا الطريق الخيالى الذى أشار إليه كان من غير شك لهباً فى الجبل يبدو ضيقاً بيناً من بعيد ، ولكنه ينساح وتغيب معالمه إذا دنوت منه . وما استشعر قلب الرجل المسن الدفء بما شرب من نبيذ وما احتساه من نخب حتى ذهب يقص علينا قصة الكنز المطمور تحت القلعة حيث خلفه ملك العرب .

ويقع بيت هذا الرجل فى لصق أساس القلعة . وقد رأى القسيس والموثق فى المنام هذا الكنز ثلاث مرات حين ذهبا فحفرا حيث حدثتهما الرؤيا . وقد سمع زوج ابنته ضربات معاولهم وأصوات مجارفهم فى الليل . ولكن لم يعلم إنسان ماذا أصابا . غير أنهما أصبحا فجاءة من الأغنياء ، واحتفظا بخاص سرهما .

وهكذا كان هذا الرجل الطاعن فى السن على باب الغنى يوما ما ولكنه قضى عليه ألا تظله سماؤه .

وقد رأيت أن قصص الكنوز التى طمرها العرب ، والتى تسود أسبانيا كلها ، تشيع أكثر ما تشيع بين الفقراء المعدمين . وهذا شيء فى طبيعة النفوس التى حرمت ضروريات الحياة فهى تتعزى بالخيال . فمن شفه العطش يحلم بالنافورات والجداول الجارية ، ومن عضه الجوع فهو حالم بالمأدبات الفاخرة ، والفقير رؤياه أكوام الذهب المطمورة . وأروع من ذلك حقًّا ما يدور بخلد السائلين .

وآخر ما أنا مصوره لك من مناظر الرحلة أمسية قضيناها فى تلك المدينة الصغيرة مدينة «لوشة» التى كانت من المعاقل الحربية الأمامية أيام عرب أسبانيا . وقد ردت «فرديناند» عن أسوارها . فقد كانت معقل « ألياتك » الشيخ حمى « أبى عبدالله » عند ما هاجمها هذا العاتية الفاتك المحنك ومعه صهره فى غارته المشئومة التى انتهت بموت القائد وأسر الحاكم .

ومدينة « لوشة » مدينة آبدة تقع فى شعب جبلى متكسر يشرف على شاطئ نهر « شنيل » الذى يجرى بين صخور وحرجات ومراعى وبساتين .

والناس هنا لا يزالون يحتفظون من تراث الغابرين بروح الشجاعة المتأججة . وكان نزولنا فى ذلك المكان تقوم عليه أرملة أندلسية لطيفة ، لها حلة بشكوانية من حرير أسود، تدلت منها خرزات صغيرة تحكى البوقات، تشف عن قوام رشيق وأعضاء غضة لدنة. وكانت تخطو فى ثبات وتثن . كما كانت عيناها السوداوان تشعان حرارة ، وهيئتها المدلة ومحاسن جسمها المختلفة تدل كلها على أنها موضع الإعجاب والإطراء .

وكان لها نظير هو أخوها يشبهها كل الشبه ، ويقرب من سنها . وكانا فى الحق مثالين أندلسين لكيس وكيـه .

فكان هو فارع العود قويًّا حسن البنية ، ناصع السمرة ، أسود العينين متوقدهما ، يجتمع جانباً لحيته الشهباء المتجعدة عند ذقنه. وكان حسن البزة ، يلبس حلة قصيرة من الحمل الأخضر توائم شكله ، قد أسرف فى تحليتها بكثير من الأزرة الفضية . فى كل من جيبيها منديل أبيض حريرى . وهكذا كان وتره ، صفوف من الأزرة من الفخذ إلى الركبة. وحول رقبته منديل من الحرير القرنفلى اللون جمع طرفيه[١] ببُرة إلى صدر قميص قد أحسن طى غُروضه[٢]. قد شد وسطه بحزام، وحول ساقيه جرموقان من أجود الجلد الأحمر الداكن قد أحكم صنعهما ، مفتوحان عند[٣] ربلتى الساقين حيث تبدو جواربه الطويلة ، وانتعل حذاء من هذا الطراز قد صورت فيه قدماه فى أحسن تصوير .

وفيما هو إلى الباب ، أخذ أحد الفرسان وقد امتطى جواده يتحدث إليه فى صوت منخفض واهتمام كبير .

وكان يلبس هو الآخر على غراره ، حتى كأنه مثله فى تجمله. قد بلغ الثلاثين أو داناها ، اربعة ، رومانى القسمات ، جميل الطلعة لولا ندوب طفيفة من آثار جدرى ، له محيا قد اتسم بالسماحة وشىء من الجرأة .

(١) البرة : الحلقة .
(٢) الغروض : الطيات .
(٣) ربلة الساق : باطنها .

وكان جواده الأسود الفاره تزينه العذبات وتجفاف كثير البهرجة . وإلى خلف السرج يتدلى جرابان لبندقيتين . وكان له هيئة قطاع الطرق الذين رأيتهم فى جبال « رندة » . كما كان فيما يبدو قوى الصلة بشقيق ربة النزل . وقد يكون، إذا لم أكن مخطئاً ، حبيب الأرملة المقرب . وفى الحق لقد كان النزل بنازليه فيه شيء من مظاهر قطاع الطرق، فكانت البندقية تقوم جنباً إلى جنب مع القيثارة فى ركن .

وأمضى هذا الفارس المذكور فى النزل أمسيته ، وغنى أنشودات عدة جميلة حماسية ، ذات سحر وفتنة ، بروح قوية .

وعند ما كنا على عشائنا دلف إلى الخان فقيران من أهل « اشتورية » فى هيئة رثة . يسألان طعاماً ومبيتاً . فقد عدا عليهما اللصوص بين الجبال بعد عودتهما من السوق وسلبوهما جوادهما ، وكان محملا بجميع ما يملكان من تجارة ، وجردوهما من مالهما ، ونزعوا عنهما معظم لباسهما ، وضربوهما حين همّا أن يدفعا عن نفسيهما ، ثم تركوهما فى الطريق عاريين إلا من قليل .

وهزت الأريحية رفيقى . وكانت طبيعة فيه ، فأمر لهم بعشاء ومبيت ، وأعطاهما شيئاً من المال يعينهما على الرجوع إلى موطنهما .

وعند ما أجن الليل واكتمل المشهد التمثيلى انحدر إلى الخان رجل ضخم قد علت به السن فى نحو الستين من عمره ، قوى البنية ، وأخذ يثرثر مع ربة الخان .

وكان يلبس هذا اللباس الأندلسى المألوف ، غير أنه كان يتأبط سيفاً ضخماً . وكان له شارب كبير ، فيه شيء من التعالى والعجب . وكان الكل ، فيما يظهر ، ينظرون إليه فى كثير من الإكبار .

وأسر إلينا « سانخو » أنه « دون نبتوار رودريجز » فارس « لوشة » وبطلها ، الذى عرف بشدة بأسه وبإقدامه وقوة ذراعيه .

وقد باغت فى أيام الغزو الفرنسى ستة من الفرسان كانوا نياماً ، فحل أولا عقال خيولهم ، ثم عدا عليهم بسيفه فقتل بعضاً وأسر الباقين . ولهذا العمل الجليل

أجازه الملك بقرش عن كل يوم ، كما شرفه بلقب سيد . وقد استخفنى وهو يتمشدق بحديثه ويغلو فى تعبيراته ، فدل على أنه أندلسى حقا . فياش[١] بقدر ما هو شجاع ، سيفه لا يفتأ فى يده أو تحت ذراعه . وهو يحمله دائماً معه كما يفعل الطفل بدميته . وكان يسميه « تريزا المقدسة » ويقول وهو يسله : يالرجفة الأرض . وقد جلست إلى ساعة متأخرة أستمع إلى هذه القصص المتنوعة من ذلك الحشد المتباين ، الذى اختلط بعضه ببعض فى غير كلفة . وهو أمر عرفت به الفنادق الأسبانية .

فاستمعنا إلى أغانى قطاع الطرق ، وقصص عن اللصوص ، ومغامرات القتال ، وأساطير عربية . وكان آخر ما سمعناه ما حدثتنا به ربة النزل الوسيمة . فقد عرضت علينا وصفاً شعريًّا لتلك النواحى الشريرة من « لوشة » ، حيث الكهوف المظلمة تدوى فيها المجارى أسفل الأرض ومساقط المياه دويًّا عجيباً .

ويقول العامة : إن هناك مزيفى نقود حبسوا هنالك منذ أيام العرب ، وإن ملوك العرب حفظوا كنوزهم فى تلك الكهوف . وما قصدت بذكر هذه الحوادث ، ووصف تلك المناظر عن رحلتنا التطوافية ، أن أملأ الصفحات ، ولكن الحديث ذو شجون . واصلنا رحلتنا على هذه الحال . وأخيراً خرجنا من الجبال وأشرفنا على ربض « غرناطة » الجميل . وهنا كان آخر غداء لنا فى ظلال حرجة من أشجار الزيتون على حافة جدول ، وعلى مرأى منا العاصمة العربية القديمة ، تجملها الأبراج الوردية من قصر الحمراء ، على حين قد بدت على البعد أعلى منها قمم جبال « نقادا » تتألق الثلوج عليها تألق الفضة . وكان اليوم صحواً ، يلطف من حدة الشمس ذلك النسيم العليل الهابط من الجبال .

وبعد أن فرغنا من طعامنا بسطنا أرديتنا ونعمنا بقيلولتنا ، يهدر لنا النحل بطنينه بين الأزهار ، والمطوقات بسجعها على أشجار الزيتون المجاورة لنا . وما أن ولت الساعات اللافحة حتى استأنفنا رحلتنا . وبعد أن جزنا بين وشائع من شجيرات الصبر والتين الهندى وسلكنا فى حدائق فسيحة ، وصلنا أبواب غرناطة مع غروب

(١) الفياش : مقابل (فشار) . وهو الذى يظهر ما ليس عنده .

الشمس . وإن المسافر الذى يستهويه التاريخ والشعر لينظر إلى حمراء غرناطة نظرة إجلال وإكبار تحكى نظرة الحجاج صوب الكعبة، بيت مكة الحرام . وكم من أساطير ، وأحاديث متواترة ، من نسج الحقيقة أو الخيال ، ثم كم من أغانى وروايات خيالية أسبانية وعربية ، عن الحب والحرب والفتوة ، تعاورت كلها حول هذه الكثرة من الآثار التى تثير الخيال وتهيج العاطفة .

لهذا سيدرك القارئ كم كان سرورنا عند ما أذن لنا حاكم «الحمراء» فى أن ننزل بجناح خال من القصر العربى، وكان ذلك عقب وصولنا « غرناطة » بقليل .

ولكن سرعان ما خلفنى زميلى مستجيباً إلى نداء عمله وبقيت أنا أشهراً عدة مشدوهاً لا أستطيع تحولا عن هذا الحشد من الأبنية والآثار القديمة الساحرة .

وليست الصفحات التالية إلا نتيجة لما خلت ورأيت خلال أيام كنت فيها أسير تلك البدائع .

وإذا قيض لهذه الصفحات أن تنقل شيئاً من مفاتن المكان الساحرة إلى خيال القارئ ، فلا يلومنى على أنه لم يكن معى زمناً نختلف فيه بين أسوار الحمراء التى قد لا تجد لها مثيلا فى الأساطير وتهويلها .

* * *

حكومة الحمراء

الحمراء قلعة قديمة، أو قل هى قصر لملوك غرناطة من العرب ، حيط بالأبراج ، حيث كانت لهم السيادة على تلك الجنة الدنيوية البهية . وفيه كانت وقفتهم الأخيرة فى سبيل امبراطوريتهم بأسبانيا .

ويشغل القصر غير جزء من القلعة، قد رصعت جدرانه بالأبراج التى تمتد فى غير اتساق حول قمة ذلك التل السامق كلها الذى يشرف على المدينة ، وهذا التل شعبة من شعاب جبل « نڤادة » جبل الثلج .

وفى أيام العرب كانت القلعة بأرباضها تتسع لجيش يبلغ نحوا من أربعين ألفاً ، وكانت تتخذ فى الحين بعد الحين معقلا للسلاطين حين ينتقض عليهم رعاياهم.

وبعد أن انتقل السلطان إلى أيدى المسيحيين بقيت الحمراء بيت الملك ، وكان ينزل فيها بين الحين والحين ملوك قشتالة. وقد بدأ « شارل الخامس » فى بناء قصر فخم إلى جانب أسوارها ، ولكنه حالت بينه وبين تمامه هزات زلزالية متتالية. وآخر من نزله من الملوك «فيليب الخامس» وزوجه الحسناء الملكة «إليصابات» صاحبة «برما» فى أوائل القرن الثامن عشر. فأعد القصر لاستقبالهما إعداداً عظيما . فأعيد إصلاحه ، ونسقت الحديقة ، وأقيم جناح جديد من الغرف ، وتولى نقشه فنيون إيطاليون جىء بهم من إيطاليا . ولكن إقامة الملكين فيه لم تدم طويلا . وبعد رحيلهما عنه عاد القصر إلى وحشته . وهو لا يزال يحتفظ ببعض مظهره الحربى .

وسرعان ما تسلمه الحاكم من الملك ، وأصبح به مستقلا عن الحاكم العام لغرناطة . وكان سلطانه الشرعى يمتد إلى ضواحى المدينة . واحتفظ فيه بحامية مكافئة . واتخذ جناحه فى صفة القصر العربى القديم . ولم يكن ينزل إلى غرناطة إلا فى موكب عسكرى .

والقلعة فى الحق مدينة صغيرة مستقلة عن غيرها ، فيها صفوف من المنازل ذات الأسوار ، «ودير فرنسسكانى »وكنيسة. ولقد كان هجر السلطان للحمراء من أنكب ما منيت به ، فقد أوحشت ردهاتها الجميلة ، وانقض بعضها ، وأمحلت الحديقة ، تعطلت النافورة فلم تعد ترسل ماءها .

وأخذت الغرف رويداً رويداً تتسع للسفلة والمجرمين ، واغتنمها قطاع الطرق فرصة من استقلالها الشرعى وأخذوا يعيثون فى الأرض فساداً على حال أعم وجرأة أنكى ، وهكذا اتخذ اللصوص والأشرار من مختلف الضروب من هذا المكان ملاذهم ، ينقضون منه للسلب على غرناطة وما جاورها .

ولكن جيش الحكومة ببطشه حال بينهم وبين ذلك بأخرة. فاستصفوا المقيمين جميعاً استصفاء ، ولم تبح لواحد منهم الإقامة إلا من كان على أخلاق مرضية ،

وله حق شرعى فيها . وهدم الشطر الأكبر من البيوت فلم تبق منها إلا دسكرة ، بها الكنيسة الأبرشية والدير « الفرنسسكانى » .

وفى أيام القلاقل الأخيرة فى أسبانيا ، حينما وقعت غرناطة فى أيدى الفرنسيين ، نزلت الحمراء حامية من جنودهم . وكان القصر يتخذ فى الفينة بعد الفينة مقراً للقائد الفرنسى .

وبهذا الذوق المرهف ، الذى تميز به الفرنسيون دائماً فى فتوحاتهم ، كتب لهذا الأثر العربى الجميل الفخم أن يسلم من خراب محقق ووحشة تخيم عليه . فأصلحوا أسقفه ، وصانوا أبهاءه وردهاته من تقلبات الجو ، وغرسوا حدائقه ، وأجروا مجاريه ، وعادت نافوراته مرة أخرى ترمى بشآبيبها المتلألئة .

وقد لا يجد الأسبانيون مناصاً من شكر الغزاة على أن حفظوا لهم أجمل أثر من آثارهم التاريخية وأروعه .

وعند رحيل الفرنسيين دكوا كثيراً من أبراج السور الخارجى ، وتركوا الاستحكامات لا تكاد تقوى لشىء . ومنذ ذلك الحين فقد المكان قيمته الحربية . فحاميته ليست إلا آحاداً من الجنود العجزة ، جل عملهم حراسة بعض الأبراج الخارجية ، التى تتخذ سجناً فى تلك الناحية من حين إلى حين .

ونزل الحاكم من تل الحمراء العالى ليقيم وسط غرناطة ، حتى يتسنى له القيام بأعبائه الرسمية .

ولا أستطيع أن أختم هذه النبذة الموجزة عن حال القلعة دون أن أنوه بالجهد الكريم لقائدها الحالى «دون فرنسسكو دى سرنا» الذى فعل كل ما فى وسعه ليصلح من القصر ، فحماه بحيطة وحصانة وقتاً ما من خراب محقق . ولو قدر لأسلافه أن يقوموا بما تمليه عليهم وظيفتهم مخلصين إخلاصه ، لاحتفظت الحمراء فى الأكثر بجمالها القديم . ولو أن الحكومة يسرت له من الوسائل ما يشبع غيرته ، لبقى هذا البناء جمالا لهذه البلاد ، يجذب إليه الباحثين المتقصين والمثقفين من جميع الجهات على مر الأحقاب .

فى داخل الحمراء

لقد وصف الحمراء رحالة وصفاً هو من الكثرة والدقة بمكان ، لهذا ربما كان فى مجرد وصف موجز مقنع للقارئ يجدد به ما وعى. ومن هنا سأتناول بإيجاز الحديث عن زيارتنا لها صبيحة اليوم التالى لوصولنا غرناطة :

بعد أن تركنا فندق السيف جزنا حى الرملة المشهور ، الذى كان يوماً ما ميداناً عربياً للمثاقفة والمبارزة . وهو اليوم ساحة للأسواق الحافلة . ومن هناك تقدمنا إلى حى « السقاطين » الشارع الرئيس الذى كان أيام العرب السوق الكبيرة ، حيث الحوانيت الصغيرة والأزقة الضيقة لا تزال تحتفظ بطابعها الشرقى .

وعبرنا مكاناً فسيحاً أمام قصر الحاكم العام . فأصعدنا فى سكة منعزلة متعرجة ، ذكرنا اسمها بأيام الفتوة فى غرناطة. إذ اسمها سكة «قمارش» نسبة إلى أسرة عربية مشهورة تردد اسمها فى الأخبار والأغانى . . وقادنا هذا الشارع صعداً إلى باب كبير ضخم على الطراز الإغريقى بناه شارل الخامس وهو المنفذ إلى أراضى الحمراء . وعلى الباب الكبير كان جنديان أو ثلاثة من أعقاب بنى زكريا وبنى سراج فى ثياب رثة قد طعنوا فى السن ، وقد استسلموا للنوم على مقعد حجرى . بينما قد أوى إلى الشمس خادم طويل هزيل ، عليه معطف رمادى قد أكل عليه الدهر وشرب . وكأنه فيما يبدو أراد أن يستر تحته رثاثة ثيابه الزرية . وقد أخذ يثرثر مع حارس عجوز وهو يقوم بعمله . وقد انضم إلينا عند ما دخلنا من الباب الكبير وعرض علينا خدماته ليرينا القلعة . وكنت كغيرى من المسافرين أكره الدليل الفضولى . ومع هذا كله فلم ترقنى حلة هذا الراغب فى صحبتنا ، فقلت له : أظن أنك لست على علم صحيح بهذا المكان . فقال : ليس هناك حقاً من يفضلنى أيها السيد ، إنى أنا ابن الحمراء .

وإن العوام فى أسبانيا يحسنون حقاً الإعلان عن أنفسهم بأسلوب شعرى . فقد تملكنى فى الحال تلقيبه نفسه بابن الحمراء. وكان هذا الثوب الخلق البين الخلوقة لهذا

الزميل الجديد، مما أكسبه شيئاً من الجلال فى نظرى. فكان عندى كأنه يرمز إلى نصيب المكان من الثراء، ويشير إلى ماتوالى عليه من أحداث . وأخذت أمعن فى سؤاله، فوجدت أنه جدير بما لقب نفسه به . فقد عاشت أسرته فى القلعة عقباً بعد عقب منذ زمن الفتح . وكان اسمه « ماتيو اكسيمنس » .

فقلت له : لعلك بهذا من نسل الكردينال العظيم اكسيمنس . فقال : العلم عند الله يا سيدى . فلربما كان ذلك حقًّا . فنحن أقدم أسرة فى الحمراء عريقة فى المسيحية ، لم يشبها دم عربى أو يهودى . وإنى أعرف أنا نمت إلى بيت عريق ولكنى أنسيته . ويعرف والدى كل شىء حول هذا ، وهو يحتفظ بشعار الأسرة يعلقه إلى عل فى كوخه من القلعة .

ولن تجد أسبانيًّا ، بالغاً به الفقر ما بلغ إلاوهو يدعى أنه موصول النسب بسبب ما إلى أصل رفيع . وقد استهوانى أولا هذا اللقب الذى لقب به نفسه هذا السيد المهلهل الثياب ، فقبلت مسروراً خدمات « ابن الحمراء » .

ونحن الآن فى لهب ضيق قد ازدحمت فيه الحرجات الجميلة، بينها وهدات تحف بها الأشجار . تتخللها ممرات مختلفة متعرجة تجملها النافورات، وعلى جانبيها مقاعد حجرية . وكان إلى اليسار منا أبراج الحمراء تشرف علينا ، كما كان إلى اليمين وفى الجانب المقابل من اللهب أبراج تنافس تلك على صخرة شماء أخذنا بها أخذاً . وهى كما حدثنا : الأبراج القرمزية. سميت كذلك للونها المتورد . ولايعرف أحد أصلها، فهى أقدم من الحمراء زمناً . ويذهب بعضهم إلى أنها من آثار الرومان . كما يذهب آخرون إلى أنها لفئة عابرة من الفينيقيين .

وعند ما أصعدنا فى تلك الوهدة ذات السكك المظللة ، ألفينا أنفسنا عند قاعدة مربعة ضخمة لبرج عربى أشبه بحصن خارجى ، يخترقها الطريق الرئيس إلى القلعة . وإلى جانب هذا الحصن الخارجى اجتمع جبابرة المحاربين المقعدين ، وقف أحدهم للحراسة على الباب بينما التحف الآخرون بمعاطفهم الخلقان وناموا على المقاعد الحجرية . ويسمى هذا الباب الكبير : باب العدل ،

حيث كانت تعقد فى طنفه ، أيام سيادة المسلمين ، محكمة للفصل السريع فى الصغائر . عادة شاعت بين الأمم الشرقية ودرجوا عليها مهتدين فيها بالكتب المقدسة . وعلى غلق هذا العقد نقشت يد هائلة ، كما نقش مفتاح عظيم على هذا النحو عينه على غلق العقد من داخل الدهليز .

ويؤكد هؤلاء الذين يدعون أنهم على علم بالطلسمات الإسلامية أن هذه اليد رمز للعقيدة ، والمفتاح رمز للإيمان . والشيء الأخير الذى أضافوه : أن هذا كان حلية لعلم المسلمين حين أخضعوا الأندلس ، يقابلها الصليب على أعلام المسيحيين .

وعلى أية حال فلابن الحمراء الشرعى رأى آخر يتفق فى كثير مع أوهام عوام الناس ، الذين يلصقون بكل ما هو عربى شيئاً من الإبهام والسحر . وعندهم أن كل الخرافات ذات صلة بهذه القلعة الإسلامية القديمة .

وأما ما يراه « ماتيو » ، فشيء متوارث عن السكان الأقدمين ، وقد تلقاه هو أباً عن جد ، وهو أن اليد والمفتاح علامتان سحريتان يرتبط بهما مصير الحمراء ، فالملك العربى الذى بناها كان ساحراً عظيما ، أو كما يعتقد البعض ، ممن باعوا أنفسهم للشيطان ، وأنه قد جعل القلعة كلها قيد تعويذة سحرية . وبهذه الوسيلة بقيت قائمة مئات عديدة من السنين ، منيعة على العواصف والزلازل ، بينما الأكثر من الأبنية الأخرى الإسلامية قد انقضت وتخربت واختفت معالمها . وهذه التعويذة ، كما تذهب اليه الأخبار ، سيبقى أثرهما الى أن تدنو اليد ، التى إلى الناحية الخارجية من العقد ، من المفتاح وتقبض عليه . عندها ستنقض هذه المجموعة قطعاً ، وتخرج الأرض أثقالها من الكنوز التى طمرها العرب .

وعلى الرغم من هذه التنبؤات المشئومة فقد غامرنا بأن نمر من الباب المسحور ، يخالجنا شيء من الاطمئنان بحماية العذراء من هذا العمل السحرى ، والتى كان لها تمثال على الباب .

وبعد أن جزنا الحصن الخارجى أصعدنا فى زقاق ضيق يتعرج بين

---

(١) غلق العقد : ملتقى جانبيه .

التلال وينتهى إلى ساحة قرب القلعة تسمى ساحة الأجباب ، حيث صهاريج عظيمة للمياه حفرت فى الصخر الصلد لتزويد القلعة بالماء .

ووجدنا أيضاً بئراً بعيدة الغور تستمد منها القلعة الماء البارد النقى، وهى أثر من آثار تدل على ذوق للعرب مرهف ، وهمة لا تعرف الكلال فى استنباط الماء رائقاً صافياً .

وإلى الأمام من هذه الساحة كانت هذه الكتل الرائعة من المبانى التى بدأ شارل الخامس ببنائها ، قاصداً — كما قيل — أن يحط بها من قدر مقر ملوك المسلمين . وكانت وهى تبدو لنا فى عظمتها وروعة عمارتها كأنها قد أقحمت على الحمراء إقحاماً .

وحين مررنا بها دخلنا من باب ساذج لا أبهة فيه يوصل إلى داخل القصر العربى. وكم سحرنا هذا الانتقال أوكاد، فقد خيل إلينا أنا انتقلنا فجأة إلى أزمان غير الأزمان، ومملكة غير المملكة، وأنا نجوس خلال مشاهد القصص العربية، ثم ألفينا أنفسنا فى قاعة فسيحة، هى قاعة البركة، رصفت أرضها بالمرمر الأبيض، وزين كل ركن منها برواق عربى بدائى ذى أعمدة . وفى وسطها حوض عظيم للسمك طوله ثلاثون ومائة من الأقدام وعرضه ثلاثون، زخر بالأسماك الذهبية، وقامت على حوافه وشائع الورود . وفى الطرف الأعلى من هذه القاعة يطل برج « قمارش » الكبير .

ومن الطرف الأدنى منها مررنا أسفل عقد عربى إلى قاعة الأسود المعروفة. ولم نجد من العمارة ركناً إلا وهو يعطينا ببقائه على تقلبات الأيام، التى لم تنل منه إلا فى القليل، فكرة أكمل عن جماله الأصلى وعظمته الباقية .

وتقوم فى الوسط تلك النافورة التى يتردد اسمها فى الغناء والقصص ، فالأحواض المرمرية المعرقة لا تزال تذرف بنقاطها الماسية ، ولا يزال الاثنا عشر سبعاً الناهضة بها ترسل المياه البلورية كما كانت فى أيام أبى عبد الله . والقاعة قد زودت بأحواض الزهر ومحاطة بأروقة عربية بدائية ذات أعمدة مفرغة النقوش

تعتمد على أعمدة دقيقة من مرمر أبيض .

ومثل هذا الفن المعمارى الماثل فى كل ركن من أركان القصر ، والذى يتصف بالأناقة بله العظمة ، يشير أول ما يشير إلى ذوق لطيف مرهف ، وطبع نزاع إلى الرخىّ من اللذات .

وحينما يرنو الإنسان ببصره إلى تلك الأروقة ذات الزخرفة العبقرية ، وذلك التفريغ فى الجدران الذى يبدو هشاً ، يكاد لا يصدق كيف طاول تقلبات الأزمان ، وغالب هزات الزلازل وويلات الحروب. وشىء آخر لا يقل عن ذلك خطراً هو تطاول الرحالة المتذوقين الذين يختلسون ما يختلسون فى رفق وفى غير مشادة .

ولعل هذا ما يجعلنا نلتمس العذر للروايات الشعبية فيما تقصه من أن البناء كله يحميه طلسم سحرى .

وإلى جانب من القاعة باب غنى بزينته يوصل إلى ردهة مرتفعة ، مرصوفة بالمرمر الأبيض ، تسمى قاعة الأختين . تعلوها قبة ، أو قل هى مصباح ، ينفذ منها ضوء لطيف ويمر منها الهواء متجددا .

والجزء الأدنى من الجدران مغطى بقرميد عربى جميل ، قد زُوّق بعضه بشعار حكام العرب . بينما قد غشيت الأجزاء العليا بأشكال من المصيص صنعت فى دمشق ألواحاً كبيرة صبت فى قوالب وقد وصل بعضها إلى بعض بمهارة . حتى لتبدو وكأنها من حفر يد صناع ، بارزة بروزاً واضحاً . على طراز عربى مبهرج بالزينة ، قد امتشجت بآيات من القرآن وأبيات من الشعر ، بخط عربى أو كوفى .

وهذه الزخارف التى على الجدران والقباب قد ذهبت تذهيباً . وأما الكوى فقد زججت باللازورد وألوان أخرى وضاءة ثابتة لا تنصل . وعلى جانبى الردهة فُرج لأرائك وأسرة .

وإلى الأعلى من طنف داخلى شرفة تصل إلى مخدع الحريم .

ولا تزال هذه المشبكات التى كان الحريم يختلس من خلالها النظرات

بعيونهن السوداء الجميلة من حيث لا يرين، إلى تلك المأدبات التى كانت تقام فى القاعة أسفل منهن .

وبعيد أن ننعم النظر فى هذا المقام الذى كان يوماً ما المسرح المحبب بشمائله الشرقية، دون أن نشعر بما كان يلابسه فى الزمن القديم من قصص العرب الجياشة بالعاطفة والخيال، حتى لنكاد نخال أن ذراعاً بضة لأميرة من الأميرات قد تجلت من الشرفة. أو عينا حوراء تتألق من خلال خصاصات المشبكات .

والقصر بجماله البادى. كأنه معمور إلى الأمس، ولكن أين منه « ثريا » وحدائق الزيزفون. ويواجهه من ساحة الأسود قاعة بنى «سراج»، التى سميت باسم ذلك النفر من الفرسان الأبطال من سلالة الأمجاد الذين قتلوا هنا غيلة .

ومن الناس من يشك فى صدق القصة كلها . ولكن تابعنا المتواضع « ماتيو » أشار لنا إلى الباب المشئوم الذى منه — فيما يقال — أدخلوا واحداً بعد واحد، إلى النافورة المرمرية البيضاء فى وسط القاعة حيث قطعت رءوسهم .

وقد أرانا أيضاً بعضاً من البقع الوردية الكبيرة على أرض الغرفة. وكأنها آثار من دمائهم التى لا يمكن أن تنمحى ، كما يعتقد العامة . وحينما وجدنا نصغى إليه، مؤمنين بما يقول فى غير شك . أخذ يقول: إن كثيراً ما يسمع بالليل، هناك فى قاعة الأسود . صوت خفيض مضطرب يحكى همهمة حشد من الناس. يصحبها حيناً بعد حين رنين خافت كأنه قعقعة السلاسل تسمع من بعد .

وقد تكون هذه الأصوات للماء وهو يرغى فى جريانه ويجلجل من مساقطه، حيث يسير تحت الأرض فى أنابيبه وقنواته ليمد النافورات . ولكنها، وفق ما فى أسطورة ابن الحمراء ، أصوات لأرواح الشهداء من بنى سراج التى تطوف بالليل فى ساحة مصرعها ضارعة إلى الله أن ينتقم لها من قاتلها .

ومن قاعة الأسود تابعنا الخطا إلى قاعة البركة ، وبعد أن عبرناها تقدمنا إلى « برج قمارش » المسمى باسم مهندس عربى . وهو برج قوى التحصين سامق الارتفاع ، يزهى على سائر الأبنية ، ويشرف على جرف من جانب التل

ينحدر فى صبب حتى نهر « حدرة » . وجزنا من تحت عقد عربى إلى حيث ردهة فسيحة شاهقة داخل البرج ، وكانت قاعة الاستقبال للحكام المسلمين ، ومن ثم إلى قاعة السفراء .

وهى لا تزال تحمل آثار العظمة السالفة . فالجدران مغشاة بالمصيص ومزينة بالنقوش العربية ، والسقف المعقود من خشب الأرز لا يزال فى علوه يتلألأ بكثرة تموهاته الذهبية وألوانه العربية المشرقة التى تغيب فى ثنايا الظلمة .

وعلى جوانب ثلاثة من الردهة نوافذ عميقة قطعت فى تلك الجدران ذات السمك العظيم . وتطل شرفاتها (مشربياتها) على الوادى المخضر لنهر « حدرة » أسفل منها . وعلى شوارع حى البيازين وأديرته ، كما تشرف على الربض البعيد . وأحب أن أكون دقيقاً فى وصف الأجنحة الأخرى البهجة لهذا الجانب من القصر . فحجرة زينة الملكة ، مرتفعة طلقة الهواء ، على قمة البرج ، حيث كان ملوك العرب ينعمون بنسيم الجبال النقى ومناظر الحدائق المحيطة . وبذلك البستان الصغير بستان «لندراخا» بنا فوراته المرمرية ووروده الكثيرة وآسه ، وليمونه وبرتقاله ، وبالردهات الندية ، وظلل الحمامات . حيث وهج النهار وحره يعودان نوراً رخياً وطراوة شاملة .

ولن أطيل فى وصف هذه المناظر مسهبا فإنما قصدى أن أعطى القارئ فكرة عامة عن مقر سوف يألفه شيئاً فشيئاً إذا ارتاح لهذا الوصف ، فيتأنى بى ولا يتعجلنى فيما بقى من صفحات هذا الكتاب .

وتجلب وفرة وفيرة من الماء من الجبال فى مجارى عربية قديمة معلقة فى كل ناحية من القصر ، فتمد صماماته وبرك أسماكه ، متلألئة فى انبثاقها فى رحاب الردهات ، أو هادرة بخريرها فى قنواتها على طول الأرض المرمرية . وبعد ما تؤدى ما عليها لهذه القصور الملكية والحدائق والمراعى ، تفيض فى نهج طويل ينتهى إلى المدينة ، تجلجل فى السواقى وتشخب فى النافورات . حافظة على هذه الغيضات خضرتها الدائمة التى تظلل تل الحمراء كله وتجمله .

يستطيع هؤلاء الذين عاشوا فى حرارة الأقاليم الجنوبية أن يقدروا مباهج مقام، يضم إلى نسيم الجبال العليل خضرة الوادى وازدهاره . على حين تتلظى المدينة أسفل منه بحر الهاجرة، والمرج الملفوح يبدو للعين كأن به رعدة، إذ الهواء العليل من جبال « نقادا » يمرح فى تلك الردهات العالية حاملا على أعطافه نفح تلك الحدائق المحيطة .

وكل شيء فيه يدعو إلى الإخلاد إلى الدعة، التى هى نعمة الأجواء الجنوبية. وعند ما تنعم العيون الناعسة بالنظر من الشرفات المكللة على هذا المنظر المتألق ، تسكن الآذان إلى حفيف الحرجات، واصطخاب المياه فى مجاريها .

* * *

برج قمارش

قد يكون القارىء ، بعد أن عرف شيئاً موجزاً عن داخل الحمراء ، مشوقاً ليعرف شيئاً عامًّا عما يجاورها .

لقد كان اليوم هادئاً وجميلا . ولم تقو الشمس بعد على أن تمحو طراوة الليل . ونحن على أن نرقى فى قمة برج « قمارش » لنظفر من مشاهد غرناطة وما يحيط بها بنظرة خاطفة . فلتزمنى إذاً أيها القارىء الفاضل والرفيق الجليل ، واقف أثرى إلى هذا الدهليز المحلى بوفرة من المشبكات والذى يظل على ردهة السفراء . وسوف لا ندخل الردهة على أية حال ، ولكن فلننحرف إلى اليسار ، حيث هذا الباب الصغير المشقوق فى الجدار .

خذ حذرك ، فهنا منحدر ذو دركات متعرجة ، والضوء قليل ، ومع ذلك فعلى هذه الدرجات الضيقة المظلمة المتعرجة صعد الصيد من ملوك غرناطة، كما صعد عليها أيضاً ملكاتهن كثيراً، إلى حيث شرفات البرج، ليرقبوا جيوش المسيحيين الزاحفة ، أو ليتطلعوا إلى المعارك الدائرة فى الربض .

وها نحن أولاء أخيراً على السطح ذى الشرفات ، فلنتلبث قليلا لنلقى نظرة شاملة على هذا المنظر العام الرائع للمدينة والضاحية ، للجبال الصخرية فى الوادى المخضر والسهل المعشب ، للكاتدرائية ، للأبراج العربية ، وللقباب القوطية ، للأنقاض المهدمة والحرجات المزدهرة .

ولنقترب من الشرفات ولنرم ببصرنا إلى ما تحت أعيننا . ألا ترى إلى هذا الجانب حيث تبدو خطة الحمراء كلها مبسوطة أمامنا . نستطيع أن نرى ساحاتها وحدائقها . وفى سفح البرج قاعة البركة بحوض أسماكها العظيم على حوافه الأزهار . وهناك قاعة الأسود بنافوراتها المشهورة والعقود العربية البدائية . وإلى الوسط من هذه المجموعة حديقة «لندراخا» الصغيرة ، مستكنة فى قلب المبنى بورودها وليمونها وشجيراتها الزمردية الخضرة .

وهذا السور الذى تعلوه الشرفات والمرصع بأبراج مربعة ، والذى يدور بناحية التل كلها ، هو الحد الخارجى للقلعة . وبعض الأبراج كما قد يبدو لك متهدم ، أجزاؤها الضخمة مطمورة بين الكروم وشجيرات التين والصبر .

فلننظر إلى الجانب الشمالى من البرج . إنه جد مرتفع . وأساس البرج نفسه يعلو الحرجات التى فوق منحدر التل الهاوى . ثم لننظر إلى هذا الصدع الطويل فى الجدران الضخمة . إن هذا يدلك على أن البرج نالت منه بعض الزلازل التى ترمى غرناطة بالذعر من حين إلى حين . والتى ، إن عاجلا أو آجلا ، ستحيل هذه المجموعة المتداعية من المبانى كومة من الأنقاض . وهذا الوادى الضيق أسفل منا ، الذى يتسع رويداً رويداً كلما قرب من مأخذه من الجبال ، هو وادى « حدرة » . فأنت ترى هذا النهر الصغير يتلوى فى طريقه تحت السقائف المعرشة وبين البساتين وحدائق الأزهار . وهو مجرى له شهرته القديمة بنتاج الذهب . ولا تزال رماله تغربل فى بعض الأحيان للبحث عن التبر النفيس . وبعض تلك الجواسق البيضاء التى تسطع هنا وهناك بين الحرجات والكروم ، مفاءات خلوية كانت للعرب ، كانوا ينزلونها ليتمتعوا بطيب بساتينهم .

وذلك القصر الطلق الهواء بأبراجه السامقة البيضاء وعقوده الممتدة التى تحاضن ذياك الجبل، بين الحرجات المبهمة والحدائق المعلقة «هو جنة العريف» قصر المصيف لملوك العرب . الذى كانوا يلوذون به خلال الأشهر اللافحة ليتمتعوا بمكان أروح نسيما من الحمراء .

وإن تلك القمم العارية للمرتفعات من فوقه، حيث تقع عينك على أنقاض لا معالم لها ، هو ملاذ العربى . أطلق عليه هذا الاسم بعد أن لاذ به المنكود أبو عبد الله إبان الثورة وجلس عليه مطرقاً حزينا على مدينته حين شقت عليه عصا الطاعة. وفى الحين بعد الحين تسمع صوت خرير المياه يرتفع إليك من الوادى ، من القنطرة المعلقة لتلك الطاحون العربية القريبة من سفح التل . وذلك الطريق المظلل بأشجار الصنوبر فيما وراء الطاحون على طول شاطىء « حدرة » كان مكانا نزها مع المساء. وملتقى العشاق فى ليالى الصيف، حيث كنت تستمع إلى القيثار فى ساعات متأخرة من على المقاعد التى على طول الممرات . أما اليوم فلا ترى إلا قليلا من الرهبان يمشون فيه الهوينى . وجماعة من السقائين يحملون المياه من نافورة الوادى .

ثم مالى أراك فزعاً ؟ وما هو إلا صقر هجناه من عشه . فهذا البرج القديم يعد حقاً مربى للطيور الآبدة ، فما أكثر أنواع العصافير والخطاف فى كل شق وصدع ، وهى تحوم حوله طول اليوم كله ، بينما فى الليل ، عند ما تأوى الطيور كلها إلى أعشاشها. تخرج البومة الكئيبة من مكمنها وتصيح بصيحاتها المشئومة من الشرفات . ثم انظر إلى الصقر الذى هجناه يحوم بعيداً أسفل منا ، يُسف على رءوس الأشجار ثم يسبح مصعداً إلى الخرائب فوق جنة العريف . والآن فلندع هذا الجانب من البرج ولنتجه نحو الغرب بأبصارنا . فهنا ترى على البعد صفاً من الجبال تحدق بالمرج ، كانت الحد القديم الفاصل بين غرناطة المسلمة وأرض المسيحيين .

وبين مرتفعاتها قد تتبين مدناً حربية ، تبدو جدرانها وشرفاتها الرمادية التى عليها بنيت . بينما هنا وهناك أبراج منعزلة اتخذت مرقبات ، أقيمت

فوق بعض القنن السامقة ، وتشرف على كلا جانبي الوادى ضاربة فى السماء .

ومن بين شعب هذه الجبال ، حيث ممر « لوبه » هبطت الجيوش المسيحية إلى الربض . فمن حول قاعدة ذياك الجبل السامق الأشهب ، الذى يكاد يكون منعزلا عما سواه وقد مد أنفه الصخرى الصلد فى حضن السهل ، اندفعت الكتائب الغازية متدفقة ترفرف فوقها أعلامها ، وتدوّى طبولها و بوقاتها .

فانظر كيف حالت الحال ، فبدلا من الصفوف المتألقة للمحاربين المدرعين نرى صفوف المكدودين من المكاريين الصبورين ، تسير الهوينى فى صقع الجبل .

وإلى الخلف من أنف الجبل قنطرة الأراك المجللة بالأحداث ، شهرت بذلك لكثرة ما وقع عليها من المعارك الدامية بين العرب والمسيحيين . وهى فوق هذا مشهورة بأنها المكان الذى لحق فيه رسول الملكة إيزابلا بكولمبوس فى اللحظة التى آب فيها يائساً ، ودعاه إلى البلاط الفرنسى يمضى مشروع كشفه . وترى هناك مكاناً آخر مشهوراً فى تاريخ الكشف . فهذا الصف من الجدران والبروج ، الذى يتألق فى ضوء الشمس مع الصباح فى وسط المرج هو مدينة « شنت » التى بناها ملوك الكاثوليك أثناء حصار غرناطة ، بعد أن التهمت النار معسكرهم وأتت على كل ما فيه . فإلى جانب هذه الجدران دعت الملكة البطلة « كولمبوس » ثانية إلى رحابها وأبرمت معه المعاهدة التى انتهت بكشف العالم الغربى .

وهنا ، نحو الجنوب ، تنعم العين بجمال المرج الرائع ، بحرجاته وحدائقه المترامية المزهرة ، وبساتينه الغلب ، يتعرج خلالها نهر « شنيل » كسلسلة من فضة ، يمد الكثير من السواقى التى تصب فى قنوات عربية قديمة تحفظ على الأرض خضرتها الدائمة .

وهنا العرائش الجميلة والحدائق والمفاءات الريفية ، التى من أجلها دافع العرب دفاع المستبسل .

وتلك البيوت الريفية والأكواخ ، التى ينزلها الآن هؤلاء الأجلاف ، تحتفظ بآثار من الزخرفة العربية وبعض زخارف أخرى حسنة الذوق ، تشير إلى أنها كانت مساكن أنيقة أيام المسلمين .

ووراء إقليم المرج ذى الظلال ترى إلى الجنوب صفاً من التلال المجدبة ، فى سفوحها صف طويل من البغال تسير الهوينى . ومن على قمة تل من تلك التلال التفت المنكود أبو عبد الله إلى غرناطة يلقى عليها آخر نظرة ، ثم أطلق العنان لنفسه المحزونة . وهى البقعة المشهورة فى الغناء والقصص باسم : آخر زفرة للعربى.

والآن فلترفع بصرك إلى القمم الثلجية ، تلك السلسلة الحاشدة من الجبال ، وهى تتألق تألق سحابة الصيف فى السماء الصافية الزرقاء . أما جبال «نقادا» فخر غرناطة وسلوتها ، مهب نسيمها العليل ، ومنبع خصبها الدائم ، ونافوراتها المتدفقة ، وينابيعها الجارية ؛ فهى السلسلة الجبلية الحاشدة الجليلة التى تفيض على غرناطة مزيجاً من المسرات قل أن تجد مثله فى بلد جنوبى . فمن مزارع غضة إلى نسمات عليلة مأثورة عن الأقاليم الشمالية . إلى شمس استوائية تثير الحمية ؛ وسماء جنوبية صافية لا سحابة فيها . إنه هو الكنز المتعالى من الثلوج الذى يطرد ذوبانه باطراد زيادة حرارة الشمس . فيجرى بالجداول والمجارى فى كل شعب ولهب من شعاب « البشرات » ناشراً الخضرة الزمردية والخصب فى كل سلسلة من الأودية السعيدة المنعزلة . ومن الممكن أن تسمى هذه الجبال بحق فخر غرناطة ، فهى تتحكم فى جميع الرقعة الأندلسية . وتستطيع أن تراها من أبعد الجهات مكاناً . فالمكارى يحييها عند ما يشاهد قممها الجليدية من قاع السهل اللثق ، والبحار الأسبانى وهو على ظهر مركبه ممعن فى اللجج الزرقاء للبحر المتوسط ، يرقبها بعين ملؤها الحنان مفكراً فى غرناطة الجميلة ، وهو يغنى بصوت منخفض بعض الأناشيد الوجدانية القديمة التى تدور حول العرب .

ألا حسبنا هذا فقد علت الشمس الجبال وقد بدأت تصب حرها اللافح على رءوسنا ، كما أصبحت أسطح سقوف الأبراج ساخنة لا تستطيعها أرجلنا . فلنتركها ولننزل لننعش أنفسنا فى ظلال الأروقة قرب قاعة الأسود .

* * *

نظرات فى سيادة المسلمين لأسبانيا

كان من أحب المجالس إلىّ شرفة النافذة الوسطى من قاعة السفراء من برج « قمارش » الشاهق . فمنذ هنيهة جلست هناك أستمتع بمغيب شمس يوم صحو طويل ، وكانت الشمس خلف الجبال الأرجوانية وهى ترسل فيضاً من نورها على وادى « حدرة » يغشى أبراج الحمراء المتوردة بجلال كئيب . بينما تغطى المرج ببخار لثق يمازج الشعاع الغارب فيبدوان على البعد كبحر من ذهب ، فلا لفحة من هواء تقطع سكون تلك الساعة . بل إن هذه الأنغام الخافتة البعيدة التى كانت تنبعث من حين إلى حين من بساتين نهر « حدرة » كانت هى أيضاً تزيد فى هذا السكون الرائع لهذه المجموعة من المبانى التى كانت تظللنى .

لقد كانت ساعة من تلك الساعات ومشهداً من تلك المشاهد التى تهيمن فيها الذكرى على النفس بسحر تكاد لا تجد منه فكاكاً . وكانت الشمس عند المغيب وهى تغشى بنورها هذه الأبراج الحائلة ، تعاود فترسل إلينا أشعتها من ثنايا الماضى فتكشف لنا عن أمجاد تلك الأيام الغابرة .

وبينما أنا جالس أرقب النهار وهو يسحب ذيوله من فوق تلك المجموعة من المبانى العربية ، انسقت أفكر فى هذا الطابع البهيج المرهف المثير للحواس السائد على جميع فنها المعمارى من الداخل ، وأوازن بينه وبين نظيره فى المبانى القوطية التى أقامها الأسبان المنتصرون والتى تبدو فى جلالها عظيمة ولكنها كئيبة .

وهكذا كان هذا الفن المعمارى يعبر هو نفسه عن التنافر ما بين طبيعتى الخصمين اللذين تنازعا هنا طويلا السيادة على شبه الجزيرة تنازعاً لا يقبل المواءمة . وشيئاً فشيئاً استغرقت أفكر فى تلك الذخائر الفريدة لعرب أسبانيا الذين كانت حياتهم كلها ،من غير شك ، من أعجب أطوار التاريخ وأجلها .

وهؤلاء الذين أقاموا ملكاً قوياً ثابت الأركان، قلما نعرف ما ندعوهم به. لقد كانوا أمة ما لا تنسب إلى وطن واحد أو يجمعها اسم . ولكنها كانت دفعة اندفعت عن الجزيرة العربية العامرة غمرت سواحل أوربا وتجمع لها ما تجمع لأولاهم هناك من قوه . وصفحتهم الحربية ، من صخرة جبل طارق إلى شعاب « البيرينيه » كانت فى سرعتها وجلالها كتلك التى كتبت للفاتحين المسلمين فى الشام ومصر . ولو أنهم لولم يصدوا فى سهول « تور » لغلبوا على فرنسا كلها ، بل على أوربة جمعاء فى هذا اليسر الذى غلبوا به على امبراطورية الشرق . وربما كان الهلال اليوم يتألق على معابد باريس ولندن . وعند ما صدت هذه الحشود المختلطة من القبائل الأسيوية والافريقية ، التى فارت هذه الفورة العظيمة ، على حدود البيرنييه أقلعوا عن الفكره الإسلامية فى الغزو وبدءوا ينشئون فى أسبانيا دولة آمنة مستقرة . وإذا نظرنا لهم نظرتنا إلى الفاتحين وجدنا أن بطولتهم ليس دونها قصدهم واعتدالهم ، وقد تمكنوا بفضل هاتين الحكمتين أن يبزوا شيئاً ما الأمم التى تنازعهم . وما أن انقطعت الصلة بينهم وبين أوطانهم حتى أحبوا تلك البلاد التى أفاءها الله عليهم فيما يزعمون . وجهدوا فى أن يجملوها بكل ما يمكن أن يحقق السعادة للإنسان .

وقد أقاموا أركان سلطانهم على مجموعة من القوانين الحكيمة العادلة ، ودأبوا على تشجيع العلوم والفنون والنهوض بالزراعة وضروب الصناعة والتجارة . وعلى مر الأيام شادوا امبراطورية لا تنافسها امبراطورية أخرى مسيحية فى رفاهيتها ، وحرصوا على أن يجمعوا حولهم أسباب الترف والنعيم عن الامبراطورية العربية فى الشرق ، فى أوج مدنيتها . ونشروا نور المعرفة المشرقية بين ربوع الأقاليم الغربية من أوربة التى كانت فى ظلمات الجهل .

وأصبحت مدن أسبانيا المسلمة لأهل الفن من المسيحيين منهلا ينهلون منه فنون الشرق النافعة .

فأصبحت جامعات طليطلة وقرطبة وإشبيلية وغرناطة يسعى إليها الطلبة

الغرباء من البلاد الأخرى ليتزودوا بعلوم العرب ويأخذوا من مكنوز فنونهم القديمة .

ولجأ محبو الفنون الجميلة إلى قرطبة وغرناطة ليتذوقوا شعر الشرق وموسيقاه ، أما المحاربون المدرعون من أهل الشمال فقد خفوا إلى هنالك ليكملوا أنفسهم بالتمرينات الرشيقة ويأخذوها بآداب الفروسية . وإذا كانت الآثار الإسلامية فى أسبانيا ، وكان مسجد قرطبة والقصر الملكى فى إشبيلية وحمراء غرناطة ، إذا كانت كل هذه لا تزال تحمل نقوشاً تباهى بقوتهم وثبات ملكهم ، فهل يمكن أن يكون هذا التباهى هزؤا أو سخرية أو عبثاً وادعاء .

قد مرت أعقاب بعد أعقاب وقرون فى إثر قرون وكانوا لا يزالون هم الغالبيين على هذه البلاد . لقد مضى عليهم زمن دونه الذى مضى على إخضاع الفاتح النورماندى لانجلترا ، وما كان أخلاف موسى وطارق يخالون أن يُنفوا من الأرض عبر المجاز نفسه الذى اجتازه أسلافهم المنتصرون ، كما لم يحلم أخلاف روللو ووليم وأمرائهما الجبابرة أن يطردوا إلى شواطىء نورمانديا . ومع هذا كل فإن الامبراطورية الإسلامية فى أسبانيا لم تك إلا مدنية غريبة زاهرة لم تتأصل فى التربة التى كان لها الفضل فى تجميلها . وقد عاشوا فى عزلة تحول بينهم وبين جميع جيرانهم فى الغرب حوائل منيعة من العقيدة والأخلاق ، وتفصلهم عن ذويهم فى الشرق بحار وصحراوات . وكانت حياتهم كلها صراعاً طويلا ، وإن كان نبيلا جليلا ، فى سبيل التمكين لإقدامهم فى بلد مغتصب .

لقد كانوا الجبهة الأمامية للإسلام كما كانوا تخومه ، وكانت شبه الجزيرة أكبر ميدان حرب ، حيث التقى الغزاة القوط من الشمال بغزاة المسلمين من الشرق ، فى كفاح من أجل السيادة . ولكن شجاعة العرب الملتهبة انهارت أخيراً أمام شجاعة القوط الدائبة المستبسلة .

ولم يحدث قط أن استؤصلت شأفة قوم كما استؤصلت شأفة عرب أسبانيا . فأين هم؟ سل عنهم شواطىء البربر وصحراواتها . وإن البقية المطرودة عن امبراطوريتهم

التى كانت قوية يوماً من الأيام، اختفت بين برابرة افريقية ولم يعد لأمتهم وجود بين الأمم، ولم يتركوا وراءهم اسماً متميزاً يدل عليهم . ومع أنهم عاشوا هناك ما يقرب من ثمانية قرون قوماً متميزين ، فإن الموطن الذى تبنوه وعاشوا فيه عمراً طويلا أبى أن يدين لهم بشىء، اللهم إلا أنهم غزاة وغاصبون . ولم يبق لهم إلا آثار قليلة متهدمة شاهدة على سلطانهم وسيادتهم . فتلك الصخور المتخلفة فى جهات بعيدة من الداخل تشير إلى أن هناك كان غزواً بعيد المدى . وهذه الحمراء ، صف من المبانى الإسلامية فى قلب الدولة المسيحية ، وقصر شرقى مشيد بين منشآت قوطية غربية، تحمل ذكرى للشجاعة جميلة ، وتلهب القريحة بحسن الأحدوثة عن قوم غزوا فسادوا وحكموا ثم ذهبت ريحهم .

* * *

أهل البيت

لقد حان الوقت الذى أذكر فيه شيئاً عن حياتى المنزلية فى مسكنى المنفرد . كان يشرف على قصر الحمراء سيدة عجوز عذراء تدعى : دنيا أنتونيا مولينا . ولكنهم كانوا يدعونها بالعمة أنطونيا ، إذ عادة الأسبانيين أن ينادوا بما هو أكثر ألفة .

وكان إليها أمر القاعات العربية والحدائق تريها للغرباء ، على أن يسمح لها أن تأخذ من الزائرين ما تجود به أكفهم ،وأن تكون لها ثمار الحدائق كلها ، اللهم إلا ما كانت تحمله منها للحاكم من فاكهة وأزهار ضريبة غير مقررة .

وكان مقامها فى ركن من القصر . وكانت أسرتها من ابن أخ وبنت أخ ، وكانا الأخوين مختلفين. فكان ابن الأخ «مانويل مولينا» شاباً صغيراً نابه الشأن جاد رزين . وقد خدم الجيش فى كل من أسبانيا وجزر الهند الغربية . وهو الآن يدرس الطب رجاء أن يكون يوماً ما طبيب القلعة . وهو منصب يدر

عليه ما لا يقل عن أربعين ومائة ريال فى السنة . أما بنت الأخ فهى فتاة ربلة صغيرة العينين سوداوهما عذراء أندلسية تدعى « دولورز » . لقبت به لحسن طلعتها ونفسها المرحة ، وكانت خليقة باسم أكثر دلالة على الخفة والمرح . وكانت هى الوارثة الشرعية لجميع ما تملك عمها ، من بعض منازل خربة فى القاعة ، تدر ريعاً يقدر بنحو من مائة وخمسين ريالا . ولم أقض طويلا فى الحمراء حتى تبينت أن هناك غراماً وادعاً بين مانويل الفطن وابنة عمه المتألقة العينين ، وأنه ليس ثم شىء يحول بينهما وبين أن يعقد قرانهما فيحققا أملها إلا أن يحصل « مانويل » على إجازته فى الطب ويشترى فتوى البابا بالزواج ، لما بينه وبين ابنة عمه من صلة العصب .

وقد اتفقتُ مع العمة الطيبة « أنطونيا » على أن تأجرنى المسكن بأثاثه وطعامه . وكانت « دولرز » الصغيرة التى يطفح قلبها بشراً تقوم بترتيب مسكنى وبخدمتى مع وجبات الطعام . كما كان فى خدمتى أيضاً صبى طويل فيه تهتهة أشقر الشعر يدعى « بيبى » ، كان يعمل فى الحدائق ، وكان يرغب فى أن يكون لى تابعاً ، ولكن ابن الحمراء « ماتيو اكسيمنيس » كان قد سبقه إلى ذلك .

وكان هذا الإنسان الخفيف الحركة الفضولى يحاول بشتى الأساليب أن يلزمنى منذ قابلته للمرة الأولى عند الباب الخارجى للقلعة ، وأن يتدخل فى كل شئونى . حتى إنه نصب نفسه تابعاً لى وترجماناً ودليلا وحارساً ووصيفاً ومؤرخاً . وقد كنت مضطراً إلى أن أصلح من زيه حتى يصبح موائماً لأعماله المختلفة . فنقض عنه إتبه الرمادى القديم ، كما تنسلخ الحية من جلدها ، وبدا فى أرباض القلعة بقبعة أندلسية أنيقة ، وحلة تشبع رغبته العريضة ، وعُجب رفاقه العظيم . وكان العيب الرئيس « لماتيو » الأمين هو حرصه المفرط على أن يكون نافعاً . ولشعوره بأنه احتال فى الدخول فى خدمتى ، وأن خلقى الرضى السهل قد يسر عليه أداء مهمته ، فقد بذل قصاراه فى ابتكار كل ما من شأنه أن يجعلنى أحس أنه ذو خطر عندى . وكنت إلى حد ما فريسة لفضوله . فما كنت أضع قدمى على أسكفة القصر لأطوف بالقلعة إلا وأجده كتفه إلى كتفى يشرح لى

كل ما أرى . وإذا غامرت وجلست بين التلال المحيطة فإنه يصر على أن يتبعنى دليلا . وكنت قوى الريبة فى أنه سوف يكون أقدر على الانتفاع بقوة ذراعيه منه على الاعتماد على طول ساقيه إذا ما هوجمنا . وعلى كل حال فقد كان هذا التابع المسكين فى بعض الأوقات رفيقاً مؤنساً، فهو ساذج التفكير، مفرط فى الطيبة، فى ثرثرة حلاق القرية ولقلقته .

وكان ملماً بجميع نوادر المكان وضواحيه . ولكن الشىء الذى كان يعتز به هو تلك الذخيرة من المعلومات العامة، فقد كان لديه أعظم القصص روعة يرويها عن كل برج للقلعة وقبو ودرب، مضفياً عليها جميعاً إيماناً عظيما لايتزعزع . والكثرة من هذه القصص أخذها، حسبما يقول، عن جده وكان خياطاً وقصاصاً غير ذى شأن، عاش ما يقرب من مائة عام، لم يخرج خلالها خارج نطاق القلعة إلا مرتين . وكان حانوته معظم قرن من الزمان، منتدى عصبة من القوالين المعدودين، حيث كانوا يقضون نصف الليل عنده فى حديث عن الأيام الغابرة والحوادث العجيبة والأسرار الخفية لهذا المكان . وكانت جميع حياة هذا الخياط المؤرخ الصغير، وحركته وتفكيره وعمله بين جدران الحمراء التى فيها ولد وفيها عاش وتنفس . وكان فيها منقلبه وفيها مات ودفن .

ومن حسن جد أعقابه أن قصصه المتواترة لم تدفن معه، فإن الحجة الثبت « ماتيو » عند ما كان صغيراً اعتاد أن يجلس فى يقظة يستمع إلى حكايات جده وهذا الجمع الثرثار الذين كانوا يجتمعون إلى جانب الحانوت .

وبهذا وعى ذخيرة من الأخبار القيمة عن الحمراء، لاتجدها فى كتاب، يعنى بها كل غريب من المسافرين خير العناية . هؤلاء هم الأفراد الذين تعاونوا على توفير الراحة لى فى الحمراء . وإنى لأتساءل : هل قدر لسلطان من السلاطين، مسلماً أو مسيحياً، ممن سبقونى هنا فى هذا القصر، أن يظفر بمثل هذا الإخلاص العظيم الذى ظفرت به، ويتمتع بذلك السلطان الوادع الهادئ الذى لايشوبه كدر؟

فعندما كنت أستيقظ فى الصباح كان بيبي الصبي الفأفاء، يحمل إلى

من الحديقة باقة من الأزهار الغضة المختارة . وكانت « دولرز » تفرقها بعد ذلك فى لباقة فى زهريات ، مزهوة زهو المرأة وهى تنسق غرفتى .

وكنت أتناول وجباتى حسبما يمليه هواى، فمرة فى ردهة من الردهات العربية، وأخرى تحت قبو من أقباء حجرة الأسود تحيط بى الأزهار والنافورات . وحينما كنت أخرج فى صحبة « ماتيو » المثابر إلى المنازل الجبلية إلى التى كانت أقوى شىء إثارة للخيال وتحريكاً للمشاعر، وإلى المناجع الفاتنة من الوديان القريبة ، وما منها إلا وهو مشهد لقصة عجيبة .

وكان غرامى فى أن أقضى الشطر الأكبر من اليوم وحيداً ، إلا أنى كنت أحياناً ألوذ فى أمسياتى إلى تلك الحلقة المنزلية الصغيرة للعمة « أنتونيا » . وكانوا يعقدونها عادة فى قاعة عربية قديمة ، كانوا يتخذونها مطبخاً وردهة . فإلى زاوية منها أقاموا موقداً غير أنيق قد أفسد دخانه لون الجدران وكاد أن يطمس الزخارف العربية القديمة .

وكانت بها نافذة ذات شرفة تطل على وادى « حدرة »، يدخل منها إلى الحجرة مع المساء نسيم عليل . وهنا كنت أتناول عشائى الخفيف من فاكهة ولبن مشاركاً الأسرة فى الحديث . والأسبان معروفون كما يقال بالذكاء الطبيعى والحصافة الفطرية ، الشىء الذى يجعلهم رفقاء بصراء موائمين مهما كانت أحوال معاشهم ، ومهما قلت درجة ثقافتهم . ذلك إلى أنك لن تراهم أبداً متبذلين ، فقد خصتهم الطبيعة بموروث من كرم النفس .

وكانت العمة « تيا » امرأة قوية ذكية، إلا أنها كانت غير مثقفة . أما عن «دولرز» ذات العيون المتألقة، فمع أنها لم تقرأ طيلة حياتها إلا ثلاثة كتب أو أربعة، فقد كانت على مزيج من سذاجة فاتنة وحسن فهم . وكثيراً ما أثارت إعجابى بلاذع ملحها الساذجة .

وكان ابن العم يسرى عنها فى بعض الأحيان بأن يقرأ لها بعض الهزليات القديمة « لكالدرون » أو « للوب دى فيجا » .

وكان جليا أن الدافع له إلى ذلك رغبته فى تثقيف ابنة عمه « دولرز » وتلهيتها. ويا لخيبة أمله، فكثيراً ما كانت العذراء الصغيرة يغلبها النوم ولما ينته من الفصل الأول .

وفى بعض الأوقات كانت تستقبل العمة« تيا »قليلا من الرقيق الحال من الأصدقاء والخدم من سكان الدسكرة المجاورة أو زوجات الجنود المقعدين . وكان هؤلاء ينظرون إليها نظرة إكبار لأنها القائمة على القصر ، ويتزلفون إليها بما يحملون من أخبار المكان أو الشائعات التى تشيع فى غرناطة .

وعند ما كنت أجلس إلى هؤلاء أستمع إلى ثرثرتهم كنت أقتنص كثيراً من الحقائق الغريبة التى تصور أحوال الناس وخصائص الجيران . هذه تفاصيل أولى عن مباهج ساذجة ، فطبيعة المكان وحدها هى التى تكسبه هذه الميزة وذلك الشأن ، فقد وطئت أرضاً مسحورة ، يحيط بى ما يثير الوجدان ويلهب الخيال . ومنذ طفولتى الأولى، وأنا على شاطىء نهر «هدسن» استغرقت لأول مرة فى صفحات قصة أسبانية قديمة عن حروب غرناطة . ومنذ ذلك الحين أصبحت هذه المدينة من أحلام يقظتى . وكثيراً ما غشيت على أجنحة الخيال قاعات الحمراء الرائعة .

فاعجب كيف تحقق ذلك يوماً ما، وبات حقيقة ما كان حلما . ومع ذلك فقد كان صعباً على أن أصدق حواسى أو أن أعتقد أنى أنا أسكن حقاً قصر أبى عبدالله، وأنى أطل من شرفاته على غرناطة الجليلة . وعند ما كنت أتجول بين هذه القاعات الشرقية وأسمع هدير المياه فى النافورات وتغريد البلابل، أو أستنشق عبير الورود وأحس بأثر هذا الجو المعطر، كثيراً ما كان يصور لى الخيال أو يكاد بأنى فى جنة المسلمين ، وأن هذه الصغيرة « دولرز »البضة من الحور العين الساحرات الطرف اللائى خص الله بهن عباده المؤمنين ليوفرن لهم السعادة .

* * *

الشارد

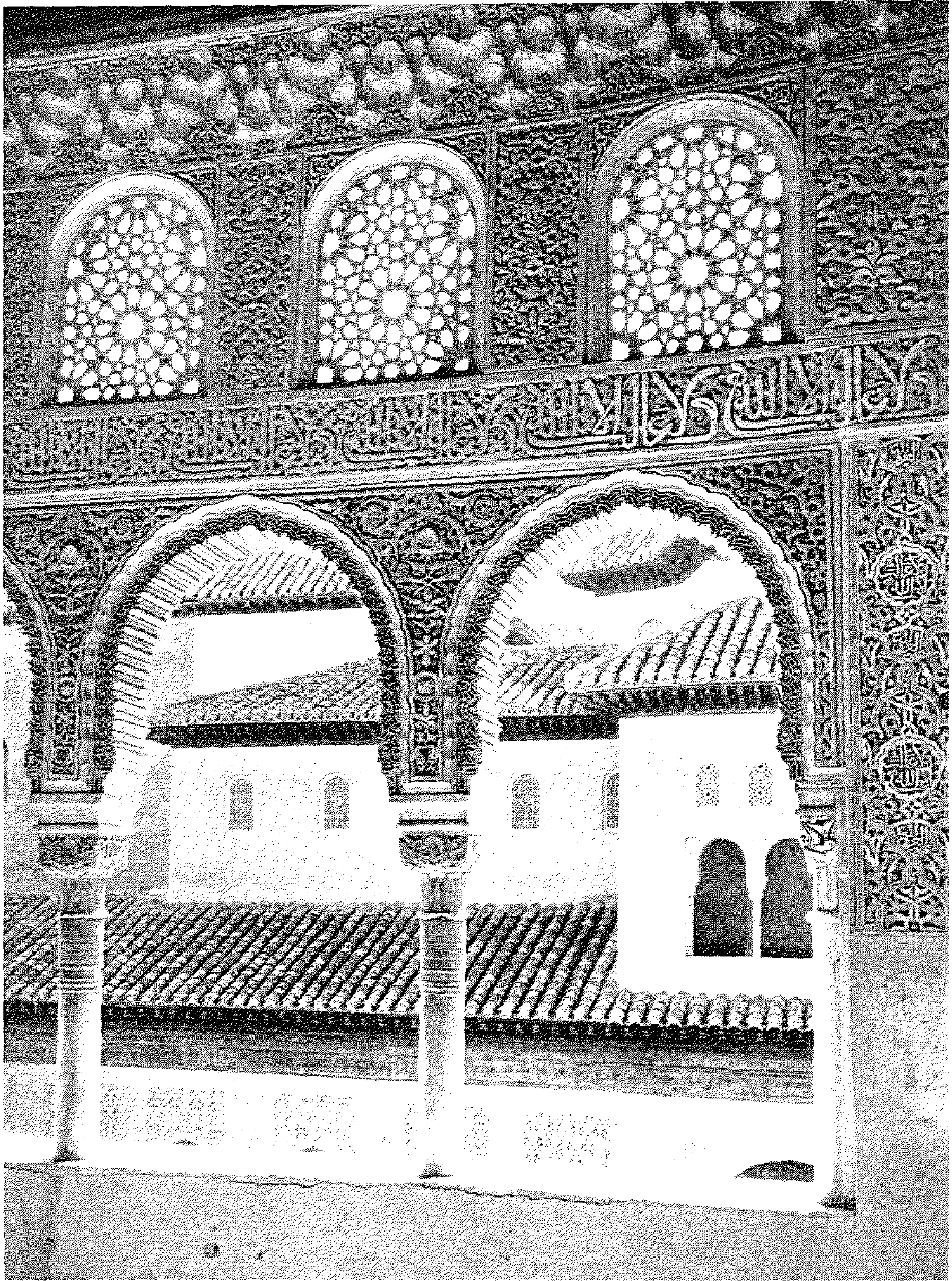
بينما كنت أكتب تلك الصفحات السالفة ، ألمت بنا محنة عارضة ، أظلت طلعة دولرز المشرقة بسحابة من الكآبة .

فلقد كان لهذه العذراء الصغيرة ، كما لغيرها من بنات حواء، هوى بالدواجن على مختلف ألوانها، وبدافع من طبيعتها المفرطة فى الرقة جمعتْ فى حجرة من حجرات الحمراء الخربة أعزاءها منها :

وكان من بينها طاووس عظيم ودجاجته. يدلان فى تيه ملكى على الديكة الرومية المتغطرسة، وعلى الدجاجات الحبشية الشكسة، وعلى أخلاط دنية من مختلف الديكة والدجاج . وكانت غبطة « دولرز » الكبرى بزوج من الحمام الفتى كانت قد جمعت بين فرديه أخيراً رابطة القران المقدسة . فانتزعا من قلبها أو كادا حبها لقطتها المرقطة وصغارها . وقد أعدت لهما غرفة صغيرة بالقرب من المطبخ مأوى لهما يبدآن فيه بتدبير شؤونهما المنزلية ، لها نافذة تطل على قاعة هادئة من القاعات العربية . وهنا عاشا سعيدين لا يعرفان عالماً آخر غير الغرفة بسقفها المشرق . فلم يحركهما شوق ما إلى أن يحلقا فوق الشرفات ، أو أن يصعدا إلى قمم الأبراج . وأخيراً توج قرانهما العف ببيضتين نقيتين تحكيان اللبن صفاء، ما كان أعظم سرور سيدتهما الصغيرة التى تعزهما بهما .

ولم يكن شيء أكثر إثارة للإعجاب من نهج هذه الأسرة الصغيرة من الحمام فى هذه المناسبة السعيدة، فقد تناوبا الجلوس فى العش حتى فقس البيض، وعند ما كانت ذريتهما الملطاء فى حاجة إلى الدفء والمأوى كان يجلس أحدهما فى العش بينما يرود الآخر فى الخارج طلباً للطعام ، ويعود بأقدار وفيرة منه . وفجأة أصيبت هذه الزيجة السعيدة بخيبة . ففى بكرة هذا اليوم، بينما كانت « دولرز » تطعم ذكر الحمام بدا لها أن تمكنه من نظرة خاطفة إلى الدنيا الواسعة، ففتحت نافذة تطل على وادى « حدرة » ودفعته فى الحال إلى ما بعد أسوار الحمراء . وكانت

المرة الأولى فى حياة هذا الطائر الذاهل التى اضطر فيها – فيما أرى – أن يجرب كل ما فى جناحيه من قوة . فأسف فى الوادى ثم ارتفع صعدا فى ثورة ، يحلق فى أجواز الفضاء . ومن قبل لم يبلغ هذا الارتفاع ، أو يجرب هذه النشوة فى الطيران ، فكان مثله مثل الحدث المنفاق حين يؤول إليه ماله ، فقد طاش صوابه مع تلك الحرية المفرطة . وهذا الميدان غير المحدود الذى تفتح أمامه فجأة . وبقى طيلة يومه يحوم متنقلا على هواه . من برج إلى برج ، ومن شجرة إلى شجرة . وفشلت كل محاولة لإغرائه بالرجوع بنثر الحبوب على الأسطح . وقد بدا وكأنه فقد كل فكرة عن البيت ، عن رفيقته الحنون ، وصغاره الملط . وزاد فى هيجة « دولرز » انضمامه إلى اثنين من حمام الغواية الذى هو بسليقته يستهوى الحمام الضال إلى تمراده . وهذا الآبق ، كان ككثير غيره من الشباب النزق . عند ما ينزل للحياة للمرة الأولى يبدو كالمفتون حقًّا بمن يلقى من الرفاق ، الذين يأخذون على عاتقهم أن يبصروه بالحياة ويصلونه بالمجتمع ، وإن كانوا شريرين . فطار معهم فوق جميع أسطح غرناطة وأبراجها . وهبت على المدينة عاصفة رعّادة ، ولكنها لم تحمله على التفكير فى بيته . وأظل الليل ، ولكنه لم يؤب ، ويزيد فى بلبلة هذا الأمر أن الأنثى بعد أن لبثت ساعات فى عشها دون راحة خلّته لتبحث عن رفيقها الغادر . وبقيت بعيداً وقتاً طويلا ، حتى كاد صغارها يهلكون لعوزهم إلى الدفء ورعاية الوالدين . وفى ساعة متأخرة من الليل نُقل إلى « دولرز » أن الطير الآبق رئى على أبراج جنة العريف . وهى تعرف أن القائم على القصر القديم يملك هو الآخر تمرادا ، من بين حماماته اثنتان أو ثلاث من حمام الغواية ، الشىء الذى كان يفزع هواة الحمام المجاورين . وسرعان ما جزمت « دولرز » بأن هاتين المحتالتين المريشتين اللتين رئيتا مع حمامتها الآبقة كانتا من حمام جنة العريف ، وفى الحال عقد مجلس حربى فى مخدع العمة أنتونيا . وكانت جنة العريف منفصلة بسلطتها عن الحمراء ، فكان طبيعيًّا أن يكون بين القائمين عليهما شىء من التدقيق فى المعاملة ، هذا إذا لم يكن حسداً وغيرة .



جانب من برج قمارش

فانتهوا حينئذ إلى إرسال « بيبى » فتى الحدائق الثرثار سفيراً إلى ذلك القائم على جنة العريف . يطلب إليه أنه إذا وجد آبقاً حل بحوزته أن يرده للحمراء ، فليس إلا من رعاياها . وعلى ذلك رحل « بيبى » فى مهمته السياسية ، يخترق فى ضوء القمر الحرجات والسكك المظللة ، ولكنه عاد بعد ساعة بنبأ محزن ، وهو أنه ليس ثم من طائر كهذا فى تمراد جنة العريف . ولكن الحاكم أعطى موثقاً على نفسه فى كلمة شرف بأنه إذا ظهر هذا الآبق ولو فى منتصف الليل فسيقبض عليه فى الحال ويرسله مكبلا إلى ربته الصغيرة ذات العيون السوداء . وبهذا سكنت تلك الأمور المبلبلة ، التى أثارت كثيراً من الهم فى القصر والتى أقضت مضجع « دولرز » تلك التى فاض بها الحزن عن العزاء . ويقول المثل : إن الهم يبقى ببقاء الليل فإذا ما أشرق الصباح حمل معه السرور . فكان أول ما وقعت عليه عيناى عند ما غادرت مخدعى فى الصباح ، « دولرز » بحمامتها الشاردة فى يديها وعيناها تشعان بشراً . فقد بدا فى بكرة الصباح على الشرفات يحوم خجلا من سطح إلى سطح ، وأخيراً دخل من النافذة وأسلم نفسه أسيراً . وعلى أى حال فقد كسب بعض الثقة برجوعه ، وبتلك الحال الشرهة التى كان يلتهم بها ما نثر أمامه من طعام ، فظهر أنه كالابن المتلاف ، تضطره المسغبة الظاهرة إلى أن يعود أدراجه إلى منزله .

وقد عنفته دولرز على جحوده ، ودعته بجميع أسماء العيارين ، ولكنها ، شأن النساء ، أخذت فى الوقت نفسه تدلله وتضمه إلى صدرها ، وتغمره بقبلاتها . ولكنى لاحظت أنها احتاطت للأمر فجزت جناحيه لتحول بينه وبين التحليق فى المستقبل . وما هو إلا تحفظ أذكره لخير هؤلاء الذين لهم محبون آبقون ، أو أزواج شاردون . وإنك لتجد فى قصة « دولرز » وحمامتها أكثر من مغزى جليل الشأن .

* * *

غرفة المؤلف

عند ما استقر بى المقام فى الحمراء ، أعدت حجرة لاستقبالى ، كانت من قبل لمقام الحاكم . وهى تقع فى نهاية جناح من حجرات خالية بنيت حديثاً ، وهى تواجه القصر وتطل على الرحبة . والطرف الآخر يتصل بمجموع من الغرف الصغيرة ، بعضها عربى وبعضها حديث ، تعيش فيها العمة أنطونيا مع أسرتها . وهذه تنتهى بحجرة كبيرة ، اتخذت منها السيدة الطيبة العجوز غرفة للاستقبال ومطبخاً ومكاناً للاجتماع .

وكانت تباهى ببقية من بهاء كان لها أيام العرب . ولكن الموقد الذى بنى فى ركن منها أحال دخانه ألوان الجدران ، وطمس الزينة تقريباً ، ونشر عليها جميعاً لوناً أقتم .

ومن هذه الحجرات المعتمة . تنحدر منحرفاً إلى برج « قمارش » فى دهليز شبه ضيق وسلالم متعرجة حالكة ، متعثاً فيها حتى تنتهى إلى القرار فتنفذ من باب صغير . وهنا يُخطف بصرك فجأة ، وأنت تطالع الغرفة الموصلة لقاعة السفراء ، بنورها الوضاء ونافورة ساحة البركة تتلألأ أمامك . ولم أرض مقامى فى جناح حديث البناء يقع من القصر فى مطلعه ، ورغبت فى أن أستكن فى قلب البناء . وفيما كنت أطوف ذات يوم بين الردهات العربية ، وجدت فى رواق ناء باباً لم أره من قبل ، كان واضحاً أنه يصلنا بجناح فسيح ، قد أوصد دون الجمهور . إذاً هنا شىء خفى . لقد كان هنا الجناح المعمور من القلعة . وعلى أية حال فقد حصلت على المفتاح دون عناء . وانفتح الباب عن صف من المخادع المهجورة ، على طراز أوربى ، مع أنها مشيدة فوق رواق عربى مقنطر على حديقة « لندراخا » الصغيرة .

وكانت هناك عليتان أحيط سقفاهما بإطارات من خشب الأرز المحفور

حفراً بالغاً ، قد زخرا بنقوش أنيقة الصنع لفواكه وأزهار قد تشاجبت ، ووجوه سُخَرة مستعارة ، قد تهشمت منها أجزاء كثيرة .

وكانت الجدران قديماً فيما يبدو مغطاة بالدمقس ، ولكنها الآن مجردة ، قد حفر عليها أسماء من لا يعتد بهم من المسافرين الطموحين . وكانت النوافذ المعطلة والمفتوحة لمهب الرياح وتقلبات الجو تطل على حديقة لندراخا . وقد نفذت أغصان البرتقال والليمون إلى المخدع . وإلى الوراء من هذه الحجر ردهتان أقل علواً يطلان على الحديقة أيضاً . وفى نواحى من تلك الحجر ذات السقوف المزينة بالإطارات قد صورت بيد صناع أسفاط فواكه وضفائر أزهار لا تزال على حال طيبة ، كما قد نقش على الجدران صور جصية من طراز إيطالى ، وإن كان الدهان كاد أن ينطمس . وكانت النوافذ والغرف الأخرى على حال سواء من التداعى . وكان هذا الجناح من الحجرات الغريب بزخارفه وبهارجه ينتهى بردهة مكشوفة لها درابزين على شكل زاوية قائمة تجرى إلى الجانب الآخر من الحديقة . ويتجلى الجناح كله بزيناته ذات الذوق والرشاقة . كما يتميز موقعه على طول هذه الحديقة الصغيرة المنعزلة التى تثير الاهتمام بتاريخها بشىء من حسن الاختيار والتفرد . وقد وجدت بالاستقصاء أن هذا المخدع تولته أيدى مفنين إيطاليين فى الشطر الأول من القرن الماضى حين كان الاستعداد لمجىء ڤيلب الخامس وإليزابث الجميلة إلى الحمراء ، وخصص للملكة ووصيفاتها . وكانت إحدى العليتين لنومها . وهى موصلة بسلم ضيق هو اليوم سور ينتهى إلى منظرة بهجة ، كانت فى الأصل للملكات العربيات ، ولكن هيئت بعد لتكون خدراً لإليزابث الحسناء . ولا تزال تحتفظ إلى اليوم باسم حجرة زينة الملكة . أما حجرة النوم التى ذكرتها قبل ، فليس لها إلا نافذة واحدة تطل على مشاهد جنة العريف وشرفاتها المعرشة . بينما تطل نافذة لها أخرى على نافورة حديقة لندراخا المرمرية بمياهها المتموجة .

وقد رجعت بى هذه الحديقة إلى الوراء البعيد تذكرنى بعهد آخر جميل ، أيام

الملكات العربيات . وقد نقش فيها : « ألا ما أبهى الحديقة ، حيث تبارى فيها أزهار الغبراء نجوم الزرقاء، وحيث لا شيء يحكى حوض النافورة المرمرى ، وقد فاض بمائه البلورى ـ إلا البدر فى التمام ، يتلألأ فى كبد السماء ولا غمام ». وقد مرت قرون ولا يزال جل هذا المشهد ، الذى يبدو هشاً ، محتفظاً بجماله . كما لا تزال حديقة « لندراخا » مزدانة بأزهارها . وهاهى ذى نافوراتها لا تزال مجلوة مرآتها البلورية . حقاً لقد خرج المرمر من بياضه ، وأصبح الحوض وقد غشته الأعشاب مأوى للسحالى ومربى ، ولكن فى هذا التحول نفسه شيئاً يزيد من الاستمتاع بهذه المشاهد ، فهو يكاد يحدثك عن تقلبات الأحداث ، التى هى القدر المحتوم للإنسان وما يشيد . وكان قيام هذه الغرفات بمعزل أيضاً ، تلك الغرفات التى كانت يوماً مقاماً لإليزابث ذات العجب والجمال ، مما فتن لبى فتنة ، دونها ما لو كنت رأيتها فى جلالها القديم تتألق فى أبهة القصور . وفى الحال صممت على أن أجعل مقامى فى هذا الجناح . وقد أثار عزمى دهشة كبيرة بين أفراد الأسرة الذين لم يقدروا أن يتعرفوا علة معقولة لاختيارى مثل هذا الجناح المنعزل النائى الكئيب . وعدتها العمة « تيا » مخاطرة كبيرة . وقالت : إن المناطق المجاورة ينتابها المتشردون ، وإن كهوف التلال المجاورة تعج بالغجر ، والقصر خرب ومن السهل اقتحامه من جهات كثيرة . وإذا ما أشيع أن غريباً يسكن وحده فى جناح عور ، بعيداً عن سمع سائر القطان ، فقد يغرى ذلك الواغلين من زوار الليل ، ولاسيما والظن بالأجانب أن معهم مدخراً طيباً . وكشفت « دولرز » عن وحشة المكان الرهيبة ولم يكن ثم كائن يلوذ به إلا البوم والخفاش ، وثعلب وقط برى يستكنان فى الأقبية نهاراً ويهيمان فيها ليلاً . ولم يكن هذا ليصرفنى عما قر فى نفسى ، فمضيت أطلب عون النجار ثم « ماتيو اكسيمنس » ، الذى كان دائماً مسارعاً إلى خدمتى .

وسرعان ما أمنت الأبواب والنوافذ . وبالرغم من هذه الحيطات ، فلا مناص لى من الاعتراف بأن الليلة الأولى التى قضيتها فى هذا الجناح كانت شديدة الوحشة . ورافقتنى الأسرة كلها إلى حيث مخدعى ، ومن ثم خلونى وحدى وعادوا

أدراجهم خلال الممرات الخاوية والدهاليز ذات الصدى، التى ذكرتنى بقصص الغيلان ، حيث ترك البطل ليتم مغامراته فى بيت مسحور . وحتى ذكرياتى فى اليزابث الحسناء ومحاسن بلاطها، التى كانت مرة زينة هذا المكان وجماله ، أصبحت الآن بهذا الوهم الملح تزيد فى وحشة هذا المكان . فهنا كان مشهد من مشاهد حبورهم وحبهم العابر ، وهنا كانت آثار لطفهم وهناءتهم ، ولكن متى كان ذلك ؟ وأين هى؟ تراب وهشيم ، اشتملت عليهم القبور. وإن مروا بالخواطر فمرور الطيف . وبدأت أحس رهبة غامضة لا توصف تسرى فى جميع أعضائى . وكنت أراح ، وأنا أعزوها إلى التفكير فى اللصوص الذين كانوا حديث المساء . ولكننى شعرت أنها شىء أكثر سخفاً وبطلاناً . وقصارى القول ، فقد بدأت أستعيد ذكريات الطفولة التى لقيتها من زمن بعيد. وبدأت تتملك خيالى . وأصبح كل شىء يبدو كما يشكله فكرى . فهمس الريح بين شجيرات الليمون من تحت النافذة كان فيه نذير بالشر . وحينما ألقيت ببصرى فى حدائق لندراخا . خلت الحرجات بحراً من الأشباح، وأن الأدغال أطياف باهتة كالحة . وقد ارتحت حين أغلقت النافذة . ولكن مخدعى نفسه قد انتقلت إليه العدوى . فقد وجد خفاش طريقه إليه وأخذ يحوم فوق رأسى قريباً من مصباحى الوحيد ، وهذه الوجوه السخرة المنحوتة فى السقف الأرزى بدت لى عابسة مقطبة .

فنهضت مفتر الثغر عن ابتسامة لهذا الخور العارض . وأردت أن أنفث فى روعى ، فأخذت مصباحى فى يدى واندفعت قدماً لأجول جولة فى القصر القديم . وعلى الرغم من أنى جمعت كل قواى العقلية فإن المهمة كانت شاقة ، فأشعة المصباح لم تمتد أمامى إلا لمسافة محصورة حولى . فمشيت كما بدا لى فى شبه هالة من نور . وكان كل شىء خلفى فى ظلام دامس ، فالدهاليز ذات العقود بدت كأنها كهوف . وحجبت الظلمة عنى عقود الردهات . وكأنه إلى خلفى أو أمامى عدو خفى يتربص بى . وكان ظلى يلعب على الجدران، وصدى وقع أقدامى يفزعنى .

إنها لحالة تثير . وفيما كنت أجوز ردهة السفراء الكبرى سمعت أصواتاً أخرى حقة زادت فى هذه الأوهام الخيالية .

فقد سمعت أنيناً خافتاً وصرخات غير واضحة وكأنها تنبعث من تحت قدمى، فتلبثت وأنصت . فتبين لى عندها أنه رجع صدى مأتاه من خارج البرج . وكانت هذه الأصوات حيناً أشبه بعواء حيوان وأحياناً أخرى كأنها صيحات مكتومة ، تخالطها خطرفة واضحة ، وكانت روعة تأثير هذه الأصوات فى مثل هذه الساعة الساكنة وهذا المكان المنعزل قد أماتت فى نفسى كل رغبة فى الاستمرار فى هذا الطواف وحدى . فرجعت إلى مخدعى أكثر نشاطاً منى حين اندفعت أولا . وبدأت أتنفس أكثر اطمئناناً منى حين ضمتنى جدران مخدعى ، وغلقت الباب من خلفى . وحينما استيقظت فى الصباح على ضوء الشمس وقد بدا فى النافذة ، وأنار كل ركن من أركان البناء بأشعته الجذلة الصادقة ، كان عسيراً علىّ أن أستعيد تلك الأشباح والخيالات التى وجدت سبيلها إلىّ فى ظلام الليلة السابقة ، أو أن أعتقد أن هذه المشاهد من حولى ، تلك المشاهد المجردة الواضحة ؛ قد تلابسها أمثال هذه التخيلات المفزعة .

أما عن ذلك العواء الموحش وتلك الصيحات التى سمعتها والتى لم أستطع تصورها فقد أحاطتنى بها علماً وصيفتى « دولرز » وذكرت أنها خطرفة معتوه مسكين هو أخ لعمتها ، وكانت قد اعترته نوبة شديدة ، حبسوه خلالها فى تلك الحجرة ذات العقود تحت ردهة السفراء .

* * *

الحمراء فى ضوء القمر

لقد صورت لك مسكنى أول ما حللت به . ولم تمض غير ليال قليلة حتى غيرت مشاهده من مشاعرى تغييراً تاماً .

فالقمر الذى كان حينذاك بالحجاب أخذ يستتم شيئاً فشيئاً مع الليالى . وهو الآن يسير فى دورته فى جلال كماله من فوق الأبراج ، يغمرها بفيض من لطيف

نوره ، يملأ عليها قاعاتها وردهاتها . وعم الحديقة التى تطل عليها نافذتى نور هادئ ، فبدت شجرات البرتقال والليمون وكأنها قد كسيت فضة . وظهرت النافورات متألقة فى شعاع القمر ، وحتى شجيرات الورد تبيناها ولكن فى غير جلاء . وقد جلست إلى نافذتى ساعات أستنشق عبير الحدائق مفكراً فى هذا المصير المحتوم لهؤلاء الذى أصبح تاريخهم يبدو طيفه الشاحب فى هذه الآثار الرشيقة المحيطة . وكنت أحياناً أخرج عند منتصف الليل ، حين يخيم السكون على كل شىء ، وأطوف بالبناء كله . ومن ذا الذى يستطيع أن يقدر ليلة من تلك الليالى القمرية قدرها فى مثل هذا الجو وفى مثل هذا المكان ، فالحرارة مع منتصف ليلة من الليالى الصيفية فى البلاد الأندلسية تبلغ غايتها من الرقة . حتى ليخيل إلينا أنا انتقلنا إلى جو أنقى ، فيه تسكن الروح والنفس . وينشط الجسم ، ونظفر بحياة كلها هناءة . وكذلك ما أروع ضياء القمر وهى تغمر الحمراء ، إن لها لفتنة . فالصدوع والشقوق التى أحدثتها الأيام ، والأصباغ التى أنصلتها الأجواء ، والشائبات التى تركتها ، كل هذا لا يرى منه شىء ، ويسترد المرمر بياضه الأصيل فتتألق تلك الصفوف الطويلة من الأعمدة فى شعاع القمر ، وتشرق الردهات فى نور رقيق . حتى إن البناء كله ليبدو معبداً إلى الذاكرة قصراً من تلك القصور العبقرية المأثورة عن القصص العربية . وفى وقت من هذه الأوقات صعدت إلى الجوسق الصغير المعروف بحجرة زينة الملكة ، لأمتع النفس بمطلها الممتد المتنوع . فإلى اليمين قمم جبال نفادا الثلجية تشع وكأنها سحائب من فضة تعكس ضوءها على القبة الزرقاء الداكنة ، على حين تبدو معالم الجبال كلها رقيقة رشيقة التكوين . وكان سرورى على كل حال فى أن أتكئ إلى سور الجوسق وأتتطلع إلى غرناطة ، وكأن خطتها قد نشرت تحت بصرى ، كل شىء هاجع فى سكون عميق ، وقد بدت قصورها البيضاء ودياراتها كأنها تغط فى ضوء القمر . وقد يرقى إلى سمعى فى بعض الأحيان أصوات الصنج الخافتة لجماعات من الراقصين وهم يتسكعون فى حدائق الأرائك . كما قد أسمع فى أوقات أخرى نغمات القيثار الغامضة وألحان صوت فريد ترتفع

من شارع من الشوارع المنعزلة ، تصورلى فارساً شاباً قد أخذ يناجى معشوقته من تحت نافذتها بلبيل ، تلك العادة التى درج عليها أهل الظرف فى سالف الأيام ، ولكنها اليوم أخذت للأسف تنقرض ، اللهم إلا فى المدن والقرى المبعدة من أسبانيا .

هذه هى المشاهد التى كانت تأسرنى ساعات طوالاً ، متلبثاً فى قاعات القلعة وشرفاتها ، مسرياً عن نفسى بمزيج من الرؤى والأحاسيس التى كانت تحلق بى فى مثل هذا الجو الجنوبى ، وكان يوشك أن يطالعنى الصباح قبل أن آوى إلى مخدعى ، فأهجع لأنام على وقع المياه فى نافورة « لندراخا » .

* * *

سكان الحمراء

وعلى قدر ما يكون حظ قطان بيت من البيوت من الجاه والعزة أيام رفاهيته تكون رقة حال آله أيام ضعته وامتهانه . وهكذا جرت الحال بأن يصبح قصر الملك هذا مباءة للسائلين .

وتوالت أمثال هذه التقلبات على قصر الحمراء سراعاً ، فكلما مال برج لينقض استولت عليه أسرة ذات أسمال ، تشركها فى قاعاته المذهبة الخفافيش والبوم ، ويشد هؤلاء ، الذى جمع بينهم الفقر ، إلى خارج منافذه وكواته أهداماً بالية . وأخذت أسرى عن نفسى بالنظر إلى بعض هذه الأجناس المختلفة التى اغتصبت القصر الملكى القديم على هذا النحو . والتى يبدو أنها ما خلت هنا إلا لتقوم بالنهاية الساخرة لمأساة كبرياء الإنسان . فقد أسفّ لقب الملك حتى حمله واحد منهم ، ولم تكن غير امرأة قميئة عجوز تدعى «مارية أنطونيا سابونيا» ، ولكنها عرفت باسم الملكة كوكينا . وكانت على حال من القماءة كأنها جنية ، وقد يكون ذلك كذلك لشىء لم أستطع تبيانه ، فإن أحداً فيما يظهر لم يكن يعرف لها أصلاً ، فقد كان مسكنها شبه حجرة أسفل السلم الخارجى للقصر . وكانت

تجلس فى الدهليز الحجرى الرطب تعمل إبرتها مغنية من الصباح إلى المساء، تبادر بالنكتة كل من يمر بها . وهى وإن عدت من أفقر الناس فقد كانت من أمرح من رأيت من الضئيلات الأجسام. وخير ماتمتاز به موهبة أوتيتها فى رواية القصص . وإنى لأعتقد حقاً أن بملكها ذخيرة من القصص لا تنفد، شأنها فى ذلك شأن شهرزاد بطلة ألف ليلة وليلة . وقد سمعتها وهى تقص بعضها فى أمسيات العمة أنطونيا ، وكانت تلم بهذه المجالس أحياناً إلمام التابع الحقير . وما من شك فى أن هذه المرأة العجوز القميئة ذات الأسرار الخفية قد أوتيت موهبة عبقرية تظهر لك من حظها الغريب . فبالرغم من أنها مفرطة فى القماءة والقبح والفقر ، فقد كان لها على زعمها ، خمسة أزواج ونصف زوج ، حاسبة هذا النصف فارساً شاباً مات أيام الخطبة . وكان هناك آخر ينافس هذه الملكة الخيالية الصغيرة ، رفيق ضخم عجوز بأنف كالزجاجة ، يسعى فى حلة صدئة سهكة، عليه قبعة من المشمع بوردة حريرية حمراء .

وكان واحداً من أبناء الحمراء الأصلاء . وقد عاش هنا عمره كله . وشغل وظائف مختلفة : وكيل شرطة ، وسادناً لكنيسة الأبرشية ، وملاحظاً فى ملعب كرة أنشئ فى سفح برج من الأبراج . وكان فى عوز الفأر ولكنه كان عزيزاً فى أسماله . يباهى بأنه من ورثة بيت «أجيلار» الشهير، الذى منه ظهر «جونسالڤو» القرطبى ، القائد العظيم . وصحيح أنه يحمل اسم «ألونسو أجيلار» المعروف بهذا فى تاريخ الفتح ، على أن مجان القلعة الغلاظ خلعوا عليه لقب الأب المقدس ، وهو اللقب الذى عرف به البابا والذى كنت أظنه عند الكاثوليك الخلص أقدس من أن يستخدم للهزء . وإنه لمن سخرية القدر وعجيباته أن يصبح ذلك الإنسان الهزأة ذو الأسمال البالية سمياً وخلفاً للعظيم ألونسو اجيلار ، ذلك الفارس المثالى الأسبانى . يتسكع يومه أشبه ما يكون بالمتسولين ، حول تلك القلعة التى كانت عزيزة، والتى كان لسلفه يد فى إخضاعها . على أن مثل هذا كان خليقاً بأن يحدث «لأجاممنون» «وأخيلو» لو أنهم تسكعوا حول خرائب طروادة . وبين هذا الجمع المختلط وجدت

أسرة تابعى الثرثار «ماتيو اكسيمنيس» ، وكانت بعددها على الأقل ، جزءاً مهماً من هذا الجمع . ولم يكن فخره بأنه ابن الحمراء يقوم على غير أساس . فقد سكنت أسرته القلعة منذ زمن الفتح . تتوارث الفقر ابناً عن أب . لم يُعرف واحد منهم أو يقدر بفلس . فأبوه الذى كان حائك شرائط ، والذى خلف رب الأسرة الخياط التاريخى ، هو اليوم يقرب من السبعين ويعيش فى كوخ من القصب والطين ، بناه بيديه فوق الباب الحديدى تقريباً . وأثاث البيت سرير مُفلَّع ومنضدة وكرسيان أو ثلاثة ، وصندوق خشبي يحفظ فيه ملابسه والوثائق الخاصة بالأسرة . ولم تك هذه الوثائق إلا وريقات تختص بقضايا قديمة ، وكان لا يحير لها قراءة .

وأعز ما فى كوخه شعارات لحروب الأسرة ، ساطعة اللون ومعلقة فى إطار على الجدار . تشير بأرباعها فى وضوح . إلى شتّى البيوت النبيلة التى يدعى الانتساب إليها هؤلاء الأعقاب الذين عضهم الفقر بنابه . أما عن ماتيو نفسه فقد عمل قصاراه ليحفظ عقبه ، فكان له من زوجه عديد من الذرية ، يعيشون من الدسكرة فى كوخ يكاد يكون مكشوفاً . ولكن كيف كانوا يدبرون معيشتهم . إنه لا يستطيع الإجابة عن ذلك إلا رجل كشف الله عن بصيرته كل حجاب . فقد كانت عقدة العقد عندى أنه كيف تكفى أسرة أسبانية من هذا الطراز نفسها ، ومع هذا فقد كفوا أنفسهم. وأدهى من هذا أنهم كان يبدون مستمتعين بحياتهم . وكانت الزوجة تقضى إجازتها تتسكع فى متنزهات غرناطة بطفل على ذراعها واثنى عشر فى عقبها ، بينما ابنتها الكبرى ، وهى اليوم كاعب قد نهد ثدياها ، تقضى وقتها وهى ترقص جزلة بصنجها وقد جملت شعرها بالأزهار . والناس هنا بصنفيهما الحياة عندهم كأنها إجازة طويلة ، سواء فى ذلك أغنياؤهم المكثرون وفقراؤهم المقلون . فأولئك لأنهم فى غنى عما يعملون ، وهؤلاء لأنهم لا يجدون ما يعملون .

ولكن ليس هناك من يعرف هذا الفن ، فن من لا يعملون شيئاً ويعيشون على

غير شيء ، خيراً من الطبقات الفقيرة فى أسبانيا ،فللمناخ النصف ولمزاجهم النصف الآخر . اضمن للأسبانى مكاناً ظليلاً فى الصيف ، وآخر مشمساً فى الشتاء ،وقليلاً من الخبز والثوم والزيت ،ومعطفاً رمادياً وقيثارة ،ولتجر الدنيا بعد ذلك بما تشاء ، ولتتحدث عن الفقر ماتتحدث ،فهذا مما لايشينه . وقد يجلببه الفقر بجلباب مهين يحكى معطفه الخلق ، ولكنه يبدو نبيلاً أسبانياً حتى فى هذه الأسمال. وأبناء الحمراء خير مثال بارز لهذه الفلسفة الواقعية . وإذا خال العرب أن الجنة السماوية كانت معلقة فوق تلك البقعة الكريمة ، فإنى أميل حيناً لأن أتوهم أن شعاعاً من ذلك العصر الذهبى لا يزال ماثلاً بين تلك الجماعات ذات الأسمال .

فهم معدمون لا يملكون ، فارغو اليد لا يعملون ،وهم مع هذين بالحياة لا يعبأون . ومع أنهم فى الظاهر يقضون الأسبوع كسالى ، إلا أنهم معنيون بجميع الأيام المقدسة والأعياد ، شأنهم شأن أكثر الصناع دأباً .

فهم يشاركون فى جميع الأعياد وحفلات الرقص فى غرناطة وضواحيها ، ويوقدون المشاعل على التلال ليلة «جون» المقدسة ، ويرقصون خارج دورهم إلى ساعة متأخرة فى الليالى القمرية قرب بيت حصاد فى حقل صغير من أرباض القلعة يجود عليهم بقليل من ويبات القمح . ويجب علىّ قبل أن أختم هذه الملاحظات أن أعرّف بألهية من ألهيات المكان ، التى كان لها أثر عظيم فى نفسى . فقد رأيت المرة بعد المرة رجلاً طويلاً نحيلاً جاثماً على قمة برج من تلك الأبراج يحرك فى يده فى مهارة عصوين أو ثلاثة من عصى الصيد ، كما لو كان يرصد النجوم . وقد بقيت مدة فى حيرة من أمر هذا الصياد الهوائى . وقد زادت حيرتى عند ما رأيت آخرين غيره يستخدمون الوسيلة نفسها فى أماكن مختلفة من الشرفات والأبراج . ولو لم أستوضح «ماتيو اكسيمنس» ما عرفت جلية هذا الأمر الغامض ، فكأن موقع القلعة الطلق التى قد جعلها فيما يظهر كقلعة «مكبث» مكاناً لتوالد عدد زاخر من العصافير والخطاف ، التى تحوم حول أبراجها آلافاً مؤلفة فى جذل أشبه بجذل صبيان المدارس بإجازتهم وهم منطلقون منها لساعتهم. وصيد هذه الطيور وهى تطير على

غير هدى ، بتلك العصى التى لصق بها الذباب ، من أبهج ما يسر به أبناء الحمراء ذوو الثياب الرثة . وهم بهذا الحذق الذى لا طائل تحته ، حذق الكسالى العابثين ، قد اخترعوا لهم فنًّا للصيد فى الهواء .

* * *

قاعة الأسود

لهذا القصر العتيق الذى يشبه قصر الأحلام سحر فريد يستعيد به رؤى الماضى الغامضة وصوره البعيدة ، فيضفى بذلك على الحقائق الساخرة لباساً من أوهام الخيال وتصورات الذاكرة . وكنت وأنا أمتع النفس فى كنف الأطياف التى صورها الوهم يشوقنى أن أفتش عن هذه النواحى من الحمراء التى كانت أكثر إيناساً لهذا العقل السابح فى هذه الروائع ، ولم يكن من بينها ثم شىء أقرب إلى هذا من قاعة الأسود والحجرات التى تكتنفها . وكانت يد الزمان هنا شفيقة رحيمة فلا تزال أناقة عرب الأندلس وعظمتهم ماثلة فى أكثر بهائها الأول . وقد هزت الزلازل أركان ذلك الحشد من البناء وصدعت أضخم أبراجه ولكنها كما ترى لم تزحزح عموداً من تلك الأعمدة الهيفاء عن مكانها ، ولا طوحت بعيداً عقداً من تلك العقود الهشة البسيطة من هذه الأساطين . وكل تلك الحليات العجيبة فى هاتيك القباب ، التى كأنها قطع بلورية قد صيغت من جليد الصباح ، تبدو غير مكينة وهى مع ذلك باقية على مر القرون ، نقية كما لو كانت يد المفن العربى قد خلتها منذ حين .

إنى أكتب بين ذكريات الماضى فى ساعة بليلة من الصباح المبكر فى القاعة التى لقى فيها بنو سراج حتفهم . وها هى ذى تحت بصرى النافورة بلطخاتها الدموية تذكر بآثار قصة مذبحتهم الخرافية . وهذه الفوارات العالية كثيراً ما تصيب بطلها ورقى . وما أعسر أن توفق بين تلك القصص القديمة ، قصص الثورة والدماء ، وبين هذه المناظر الآمنة من حولك . فكل شىء هنا يبدو وكأنه أعد ليلهم بالشفقة ويذكى

طيب المشاعر ، لأن كل ما هو هنا رشيق جميل . وينحدر هذا الضوء من عل فى رفق من بين خلال كوة فى القبة أبدع تلوينها وصنعها ، وكأن يداً سحرية تولته . ومن بين هذا الدرب الفسيح ذى العقد المفرغ رأيت قاعة الأسود تتألق أشعة الشمس على أساطينها ، وتتلألأ فى نافوراتها ، وتسف العصافير الخفيفة الحركة إلى أرض القاعة ثم تضطرب مرتفعة مارقة مشقشقة على الأسطح . وتلك النحلات العاملة الكادحة تسمع طنينها بين براعم الأزهار . وهاتيك الفراشات الملونة تخفق من نبتة إلى نبتة مهفهفة يداعب بعضها بعضاً فى هذا الجو المشمس .

ولن يعوز المرء إلا قليل جهد من الخيال ليتصور غادة حسناء ساهمة الطرف من غادات الحريم تتهادى بين هذه المراتع الممتعة ، الحافلة بأسباب النعيم الشرقى . وعلى أية حال فإن من يريد أن يرى هذا المشهد على صورة تجعله أكثر صلة بما كان له من مصير فليقصد إليه عند ما تخفف ظلال المساء من تألق الأضواء فى القاعة وتلقى عليها مسحة عابسة ، عندئذ فلن يرى شيئاً أكثر منه فى كآبته رصانة ولا أقوى فى مواءمته لقصة هذا المجد الزائل . وكنت فى مثل هذه الأوقات ، أجنح ساعياً إلى قاعة العدل التى كانت عقودها المعتمة تمتد عبر الطرف الأعلى للقاعة . وهنا فى حضرة فردناند وإيزابلا وحاشيتهما الظافرة أقيم هذا الحفل الرسمى الفخم ، حفل القداس الأعظم عند ما تم لهم الاستيلاء على الحمراء .

ولا يزال الصليب نفسه ظاهراً على الجدار حيث أقيم المذبح وحيث قام بالطقوس الدينية كردينال أسبانيا الأعظم ، وآخرون من علية رؤساء الأديان فى البلاد . وقد تصورت المكان حين كان يملؤه المضيفون الفاتحون . هذا الحشد من الفاتحين من أسقف متوج ، وراهب أمرد ، وفارس مدرع بالحديد ، ورجل من الحاشية يرفل فى الحرير .

حيث الصلبان والصوالج والأعلام الدينية كانت تختلط بالبيارق الحربية الجليلة ، وأعلام القادة المزهوين فى أسبانيا ترفرف مباهية بالنصر فى تلك الردهات العربية ، وتخيلت فى نفسى « كولمبوس» الذى قدر له أن يكشف عن عالم جديد . وقد

أخذ مكانه المتضع فى ركن بعيد ، وكان عندها أحقر النظارة فى المهرجان وأخملهم.

وصور لى خيالى ملوك الكاثوليك منبطحين أمام المذبح مترنمين بعبارات الشكر لهذا النصر ، على حين قد تردد فى الأقبية صدى الغناء المقدس فى صوت عميق بتسبيحة الشكر للاله .

وانطوت هذه الصورة العابرة ، وجر النسيان أذياله على الملك والكاهن والمحارب ،وعلى هؤلاء العرب المساكين الذين ابتهج هؤلاء بالانتصار عليهم . لقد أقفرت القاعة التى احتفلوا فيها بنصرهم وأوحشت ،وأصبح الخفاش يرفرف حول عقدها المغبش ، والبومة تنعب من أبراج قمارش المجاورة . وعند ما دخلت قاعة الأسود منذ ليال قليلة فزعت حين رأيت عربياً معمماً جالساً فى هدوء قرب النافورة . وقد بدا لى هنا وكأنه وهم من أوهام هذا المكان قد تحقق، وأن بعض سكان الحمراء قد تحلل من أسر القرون وعاد إلى الظهور. ولكنه ثبت لى على كل حال أنه لم يكن غير إنسان عادى مواطن مغربى من تطوان ، وكان له حانوت فى حى السقاطين بغرناطة يبيع فيه الراوند والمصوغات والروائح . ولما كان يتكلم الإسبانية بطلاقة كنت قادراً على أن أشترك معه فى حديث . ولقد وجدته أريباً ذكياً . وقد أخبرنى أنه كان يلم بالتل أحياناً فى الصيف ليقضى بعض الوقت فى الحمراء، فقد كانت تذكره بالقصور القديمة فى بلاد المغرب التى بنيت وزخرفت على طراز شبيه بذلك، وإن كانت دونه عظمة .

وفيما كنا نمر بالقصر أشار إلى عديد من النقوش العربية تتميز بكثير من الجمال الشعرى ثم قال : آه يا سيدى ! لما استولى العرب على غرناطة كانوا أكثر مرحاً مما هم عليه الآن . ولم يفكروا فى غير الحب والموسيقى والشعر . ولقد صنعوا القصائد فى كل مناسبة، ووضعوا لها ألحانها الموسيقية، وكان من يملك أن يقول خير الشعر ، أو من كان أعظمهم تطريباً بصوته ، خليقاً بالمنن والأفضال . وفى تلك الأيام كان المرء إذا سأل الخبز . كان جوابه : اصنع لى بيتاً من الشعر. وإذا ما سأل سائل بالقوافى ، فكان كثيراً ما يجزى بقطعة من ذهب . فسألته

هل حقًّا أن قد خمدت بين أفراد شعبكم ملكة الشعر فلم يعد لها قط وجود ؟

فقال : لا يا سيدى ، إنها لم تخمد بحال بين أهل المغرب . فأهل الطبقات الدنيا أنفسهم منهم لا يزالون يقرضون الشعر ، والجيد منه أيضاً . كما كانت عليه الحال فى الأزمنة الغابرة ، ولكن هذه الموهبة لم تعد تُقدر كما كانت بالأمس . والأغنياء يؤثرون رنين الذهب على صوت الشعر والموسيقى . وفيما كان يتكلم وقعت عيناه على نقش ينبئ بخالد القوة والجاه للحكام المسلمين ، سادة هذه المبانى . ثم هز رأسه وأنغض كتفيه وهو يترجمها ثم قال : كان يمكن أن تبقى الحال كما هى . وكان من الممكن أن يبقى المسلمون حكاماً للحمراء لولا خيانة أبى عبد الله ونزوله عن عاصمته للمسيحيين . ولم يكن ملوك الاسبان ليستطيعوا قط أن يأخذوها عنوة . وجهدت أن أخلص ذكريات المنكود أبى عبد الله من تلك المطاعن ، وأن أبين أن هذا التناحر الذى أدى إلى انهيار العرش العربى يرجع إلى قسوة الأب الغليظ القلب . ولكن العرب لا يسلمون بذلك من غير بينة .

ثم قال : قد يكون مولاى الحسن قاسياً حقًّا . ولكنه كان وطنيًّا شجاعاً يقظاً . ولو أنه وجد من يؤيده حق التأييد لبقيت غرناطة لنا إلى اليوم . ولكن هذا الابن أبا عبد الله عارض خططه وأضعف قوته وبذر بذور الفتنة فى القصر والتناحر فى المعسكر . ألا حلت لعنة الله عليه لخيانته . وما أن أتم هذا العربى كلامه حتى ترك الحمراء . وما أشبه حنق رفيقى المعمم بما سمعته فى قصة رواها لى صديق لقى خلال رحلة له فى بلاد المغرب ، باشا تطوان . وكان هذا الحاكم العربى فذًّا فى أبحاثه الخاصة بالتربة ، ولا سيما ما يتصل منها بالأندلس الحبيب ومباهج غرناطة وبقايا قصرها الملكى .

وهاج الحديث تلك الذكريات المحبوبة ، تلك الذكريات التى تحل فى سويداء القلوب لهؤلاء العرب فى امبراطوريتهم القديمة فى أسبانيا ، وعما كان لها من قوة وجاه . فالتفت إلى تابعيه من المسلمين ، وهو يعبث فى لحيته وانطلق يزفر الحسرات على هذا الصولجان الذى انتزع من سلطان المؤمنين الصادقين .

ولكنه على أية حال أخذ يعزى نفسه مؤكداً بأن قوة الاسبان وتقدمهم فى انحلال ، وأنه سيحين الحين الذى سيستعيد فيه البربر أملاكهم الشرعية ، وأن هذا اليوم قد لا يكون بعيداً جداً ، فتسود العبادة المحمدية مرة ثانية مسجد قرطبة ، ويتربع أمير مسلم على عرش الحمراء . هذا هو الأمل السائد والإيمان الراسخ بين عرب المغرب ، الذين يعدون أسبانيا ، ولا سيما الأندلس ، ميراثهم الشرعى ، الذى انتزع منهم خيانة وظلماً .

وهذه الأفكار التى يذكيها ويرددها أخلاف العرب المطرودين من غرناطة ، منبثة بين مدن المغرب .

ولا يزال الكثيرون من هؤلاء مقيمين فى تطوان محتفظين بأسمائهم القديمة : ويأبون الإصهار إلى أية أسرة لا تنتسب إلى مثل هذا الأصل العريق .

وتتمتع هذه الذرية المكرمة بحظ من تقدير العامة قل أن تتمتع بمثله فى أى بلد إسلامى آخر سلالة متميزة ، اللهم إلا الأسرة المالكة . ويقال إن هذه الأسر لا تزال تتحسر على تلك الجنة الدنيوية التى كانت لأسلافهم ، ولا يزالون يجأرون بالدعاء فى مساجدهم أيام الجمع سائلين الله أن يعجل بالوقت الذى تعود فيه غرناطة إلى المؤمنين . وهو حدث يتطلعون إليه وكلهم رغبة وثقة ، شأن المحاربين الصليبيين فى استرجاع البيت المقدس . ويزيدون إلى ذلك أن بعضهم لا يزال يحتفظ بالمصورات القديمة وبالوثائق المبينة لعقار أسلافهم وبساتينهم فى غرناطة ومفاتيح منازلهم . يمسكون ذلك كله بينات على دعاوى إرثهم . لتكون معدة لذلك اليوم المتوقع . يوم أن يكتب لملكهم أن يعود .

ولقاعة الأسود نصيبها أيضاً من تلك الأساطير العجيبة . وقد ذكرت قبلُ عقيدة الناس فى تلك الأصوات المهمهمة ورنات السلاسل التى تثيرها أرواح الشهداء من بنى سراج بالليل .

ومنذ ليال قليلة ، وفى مجتمع من تلك المجتمعات التى تعقدها العمة أنتونيا فى جناحها ، قص علينا ماتيو اكسيمنس حقيقة يعلمها جده ذاك الخياط القصاص.

فقد كان هناك جندى ، ممن أقعدتهم الحرب ، وكان من نصيبه أن يطلع الغرباء على الحمراء، وبينما كان هو ذات مساء مارًّا بقاعة الأسود سمع وقع أقدام فى قاعة بنى سراج . فظنها لبعض الزائرين المتلبثين هناك، وخطا إليهم ليكون فى خدمتهم، وما كان أدهشه حين رأى أربعة من العرب فى ثياب نفيسة، عليهم دروع مذهبة وسيوف وخناجر قد رصعت بالأحجار الكريمة .

وكانوا يجيئون ويذهبون فى خطوات وئيدة ، ولكنهم تلبثوا مشيرين إليه . وما أسرع ما طار الجندى العجـــوز هارباً ، ولم ير بعد ذلك أبداً يغشى الحمراء . وهكذا كان شأنه شأن من يواتيهم الحظ أحياناً فيولونه ظهورهم ، ذلك لأن ماتيو كان يعتقد اعتقاداً جازماً أن هؤلاء كانوا قد اعتزموا أن يكشفوا عن المكان الذى دفنت فيه كنوزهم .

وقد جاء إلى الحمراء واحد من سلالة هذا الجندى الذى أقعدته الحرب ، جاءها فقيراً ولكنه فى نهاية العام رحل إلى مالقه فاشترى بيوتاً واتخذ عربة . ولا يزال يعيش هناك غنيًّا من أغنى أغنيائها ومن أعرق سكانها . ويتكهن ماتيو بفطنته أن هذا كله كان لعثوره على مخبأ ذهبى من تلك الكنوز العربية الخيالية .

* * *

أبو عبد الله الصبى

وكان حديثى مع ذاك الرجل فى قاعة الأسود حافزاً لى لأتدبر فى مصير أبى عبد الله ، هذا المصير العجيب الذى انتهى إليه .

ولم أجد من بين الألقاب التى خلعها عليه رعاياه لقباً هو به أنسب من تلقيبه بالمنحوس . ولعل الحظ السيء قد لازمه وهو فى المهد صبيا . فحين كان فى ميعة الصبا زج به والده الفظ فى السجن على أن يقتله ، لولا تدبير أمه لإفلاته . وبعد سنين كان منغص الحياة ، تعرض للموت أكثر من مرة . وذلك لعداوة عمه

الغاشم له . وشغل فى مدة حكمه بغزوات خارجية ومنازعات داخلية . فكان يوماً عدواً لفرديناند، ويوماً أسيراً له، ويوماً صديقاً ، كما كان دائماً مخدوعاً به، حتى غزاه وخلعه عن عرشه بفضل ما اجتمع لهذا الملك الغادر من دهاء وبأس . ولما أبعد عن وطنه احتمى بأمير من أمراء إفريقية خاض معه معركة لا يعرف من شأنها غير أنه كان يقاتل فيها من أجل غريب . ولم ينته سوء حظه بموته . وإذا صح أن أبا عبد الله كان يتردد فى نفسه أمل بتحقيق رغباته، وأن يترك اسمه تخلده صفحات التاريخ، فما أقسى ما خدعته آماله . ومن ذا الذى على أقل عناية بتاريخ سيادة العرب فى أسبانيا، ذلك التاريخ الحافل بالعجائب، إلا وهو يضطرم حنقاً على الفظائع المنسوبة لأبى عبد الله .

ومن ذا الذى لم تهزه أنات الملكة اللطيفة الرفيقة حين قدمها للمحاكمة ليقضى عليها بالموت أو الحياة بتهمة زائفة هى خيانتها لزوجها ؟ ومن ذا الذى لم يثره ما نسب إليه من اغتياله المحقق لأخته وطفليها فى غمرة من غمرات الهوى؟ ومن ذا الذى لم يغل دمه ثورة لتلك المذبحة الوحشية التى قتل فيها ستة وثلاثين من أبطال بنى سراج فى قاعة الأسود ؟ فقد تواترت الأخبار على أنه أمر بقطع رءوسهم هناك .

وقد ترددت هذه الاتهامات كلها فى صور مختلفة . فجرت بها الأغانى والمآسى والقصص، حتى تمكنت من عقول العامة فأصبح من العسير انتزاعها . وما من باحث أجنبى يزور الحمراء إلا ويسأل عن النافورات حيث قطعت رءوس بنى سراج . ويحملق فزعاً إلى ذلك الرواق المسوّر الذى يقال إن الملكة سجنت فيه . وليس من زارع فى الربض قرب الجبل إلا ويغنى القصة فى أبيات مروعة على نغمات قيثارته، بينما السامعون إليه يلقنون منها ما يستنزلون به اللعنة على اسمه. وعلى هذا فلن تجد اسماً دُنِّس وافتيت عليه بغير حق أكثر من هذا الاسم.

ولقد خبرت كل الأخبار الموثوق بها ، والكتب التى كتبها المؤلفون الأسبانيون المعاصرون لأبى عبد الله ، وكان بعضهم موضع ثقة الملوك الكاثوليك ، وشهد المعارك فعلاً ، كما خبرت كل المراجع العربية الخاصة بهذا مستعيناً بالترجمة،

ولكنى لم أجد شيئاً يؤيد تلك الاتهامات البغيضة الباطلة . ويمكن أن ترد جميع هذه القصص إلى مؤلّف عرف باسم الحروب الأهلية فى غرناطة ، يضم تاريخاً مخترعاً عن المنازعات التى كانت بين بنى زكريا وبنى سراج أيام العراك الأخير للامبراطورية العربية فى اسبانيا . وقد ظهر هذا الكتاب أولاً بالاسبانية ، وقيل إنه ترجم عن العربية ، نقله إليها خيس بيرس أحد أهالى مرسية . ومنذ ذلك الحين ترجم إلى لغات كثيرة . واستقى منه فلوريان كثيراً من القصص الخرافية فى كتابه «جونسالفو» القرطبى .

وقد كتب لهذا الكتاب منذ ذلك الحين السيادة إلى درجة عظيمة على جميع المراجع التاريخية الحقة ، وشاع الاعتقاد به بين الناس ، ولا سيما زارعى غرناطة . ومع هذا فكل ما فيه حشد من الأوهام يشوبه قليل من الحقائق المشوهة التى تضفى عليه مسحة من الصحة . وهى تحمل بين طياتها الدليل على بطلانها ، فإن شمائل عرب اسبانيا وعاداتهم قد شُوه تصويرها تشويهاً ، كما أن المشاهد صورت تصويراً يناقض كل المناقضة ما كانوا عليه من سنن وعقائد . الشىء الذى لا يمكن أن يسجله أبداً كاتب مسلم .

وأقرر فيما يبدو لى أن الكتاب فيه مجافاة مقصودة للحق تكاد تبلغ حد الإجرام ، فصحيح أن مجال الابتكار واسع فى ميدان الروايات الخيالية ، ولكن لا تنس أن هناك حدوداً يجب ألا نتجاوزها ، وأن أسماء المشهورين من الأموات والتى هى فى ذمة التاريخ ، يجب ألا نفتات عليهم افتياتنا على عظماء الأحياء . وقد يظن بعضهم أيضاً أن المنكود أبا عبد الله قد لقى جزاءه على تلك الخصومة المشروعة التى كانت بينه وبين الاسبان بنزعه عن ملكه ، ولكن دون أن يدنس اسمه على هذا النحو جزافاً من غير حساب ، وأن يصير مضغة فى الأفواه ، ومعرة فى بلده وفى قصر أبائه نفسه . وليس قصدى هنا أن أقول : إن كل الأشياء التى نسبت إلى أبى عبد الله لا سند لها كلها من التاريخ ، ولكنا إذا ما تتبعناها ما وسعنا التتبع يظهر لنا أنها أعمال أبيه أبى الحسن ، الذى صوره كل من مؤرخى المسيحية

والإسلام قاسي الطبع شرساً . وكان هو الذى حكم بالموت على هؤلاء الفرسان تلك الصفوة من أمجاد بنى سراج ، حين ظن بهم أنهم يتآمرون على خلعه عن عرشه . أما قصة اتهام الملكة زوج أبي عبد الله وسجنها فى برج من الأبراج فيمكن أن نردها أيضاً إلى حادثة فى حياة أبيه ذى القلب الوحشي .

فقد تزوج أبو الحسن حين تقدمت به السن أسيرة مسيحية من أسرة نبيلة سميت بالاسم العربى « ثريا » وقد أنجب منها ولدين . وكانت ذات روح وثابة تطمح أن يتوج بنوها . وسعياً إلى هذا الغرض أخذت تثير الشكوك فى نفس الملك ، وتشعل الحسد فى قلبه على أولاده من نسائه الأخريات وخطيباته اللاتى اتهمتهن بتدبير المكايد لخلعه وقتله .

وقد ذبح هذا الأب الشرس بعضهن وكذلك «عائشة الحرة» الأم البارة لأبى عبد الله والتى كانت يوماً ما محبوبته الأثيرة أصبحت هى الأخرى ممن يرتاب فيهن.

وقد سجنها هى وابنها فى برج قمارش . وكان على أن يقتل أبا عبد الله فى ثورته ـ لولا أن هذه الأم الرحيمة دلته من البرج ليلاً بحبل فتلته من ملافحها وملافح وصيفاتها ، وبهذا مكنته من الهرب إلى قادش .

هذا هو الظل الوحيد من ظلال الحقيقة الذى أمكننى أن أستشفه من قصة اتهام الملكة وأسرها ـ ومنه يظهر أن أبا عبد الله هو المظلوم لا الظالم . ولقد كان أبو عبد الله طوال مدة حكمه القصيرة المضطربة المرزئة يعطى مُثلاً من الاعتدال ومحمود الأخلاق . فلقد كسب فى أول جولة قلوب الناس بطبعه الودود الخير ـ كما كان دائماً وادعاً لم يجنح إلى القسوة فى عقاب هؤلاء الذين كانوا يثورون به أحياناً.

وكان هو نفسه باسلاً ـ ولكن كانت تعوزه الشجاعة الأدبية . وحين يجدالناس وتضطرب الأمور كان مردداً لا عزم له ،وكانت هذه الروح الخائرة هى التى عجلت بسقوطه ، كما سلبته مجد البطولة الذى لو أنه رزقها لكتب لنفسه العزةوالكرامة ، وأصبح جديراً بأن تختتم به تلك المأساة الجليلة ـ مأساة حكم المسلمين فى اسبانيا .

* * *

ذكريات عن أبي عبد الله

كان موضوع أبي عبد الله المنكود لا يزال ماثلاً في مخيلتي حين أخذت أتعقب كل الذكريات التي تتصل بقصته . والتي لا تزال حية في هذا المشهد مشهد حكمه ونكباته . ففي ردهة الصور من قصر جنة العريف قد علقت صورته . فالوجه وادع وسيم ، ولكن عليه مسحة من الكآبة ، أبيض اللون أصفر الشعر . وإذا كانت هذه الصورة تحكي الرجل حقاً فما أدلها على التردد والتقلب . ولكنها طلعة ليس فيها ما يدل على القسوة والغلظة . وقد زرت بعد ذلك سجنه ، حيث أودع فيه أيام شبابه ، عند ما فكر أبوه الغليظ القلب في هلاكه ، فوجدتها حجرة ذات عقود من قلعة قمارش أسفل ردهة السفراء ، يفصلها عن حجرة أخرى مشابهة لها ، حيث سجنت أمه البارة ، ممر ضيق . وكانت الجدران ذات سمك عظيم ، والنوافذ الصغيرة مصونة بقضبان حديدية ، وكان هناك دهليز حجري ضيق ذو سور قصير يحيط بجهات ثلاث من البرج إلى الأسفل من النوافذ ، ليس بعيد الارتفاع عن الأرض . ومن هذا الدهليز يظن أن الملكة دلت ابنها بملاحفها وملاحف وصيفاتها في ظلمة الليل إلى جانب التل . وكان ينتظره عند السفح خادم بفرس سريع العدو ليحمل الأمير إلى الجبال .

وفيما كنت أخطو في هذا الرواق تخيلت الملكة القلقة وقد اتكأت فوق السور تنصت بقلب الأم الخافق إلى آخر صدى لوقع حوافر الفرس ، فيما كان ابنها يندفع في وادي حدرة الضيق . وكان مما بحثت عنه بعد ذلك الدرب الذي خرج منه أبو عبد الله حين ترك الحمراء ، لما كان على وشك تسليم عاصمته ، وبنفس كئيبة وروح متهدمة سأل الحكام المسيحيين ألا يسمح لأحد بعده أن يمر من هذا الدرب .

ويقول الإخباريون القدامى : إن رجاءه قد تحقق في عهد اليصابات وسور

الدرب. وقد استقصيت عن هذا الدرب وقتاً ولكن عبثاً . وأخيراً علم تابعى ماتيو المتواضع من بعض سكان القلعة المسنين بأن هناك درباً مخرباً لا يزال باقياً ، وهو الذى رحل منه الملك العربى عن القلعة فيما تقول الروايات ، ولكنه لم يُر مفتوحاً حسبما تعى ذاكرة أقدم السكان سناً ، وقد قادنى تابعى إلى المكان . فالدرب كان يوماً ما يقع من برج متسع كان يسمى البرج ذي السبع طبقات . وهو مكان مشهور فى القصص الخرافية فى المناطق المجاورة ، إذ كان مشهداً لأطياف غريبة ، وضروب من السحر العربى . وهذا البرج الذى كان موجوداً من غير شك هو اليوم شبه أنقاض ، بعد أن نسفته مدافع الفرنسيين حين أخلوا القلعة . ولا تزال كتل عظيمة من الجدران متناثرة حوله مطمورة بين الأعشاب الوفيرة أو تغشيها الكروم وشجيرات التين .

وعقد الدرب ، وإن كانت قد صدعته رجة المدافع ، إلا أنه لا يزال باقياً ، وكأن رغبة المسكين أبى عبد الله الأخيرة قد تحققت مرة ثانية ، وإن كان ذاك عن غير قصد . إذ قد سد الدرب بقطع الحجارة الساقطة المتجمعة من الأنقاض وبقى مغلقاً . واقتفيت طريق الملك المسلم ، وفق ما هو محفوظ فى الوثائق ، فاخترقت تل «مارتيروس» ممتطياً جوادى عبر حديقة الدير ، والتى تحمل الاسم نفسه ، ومن ثم إلى لهب وعر قد غشته أشجار الصبر والتين الهندى ، وعلى جانبيه كهوف وأكواخ تعج بالغجر . وهو الطريق الذى سلكه أبو عبد الله متجنباً المرور خلال المدينة . وكان سريع الانحدار متهدماً ، فاضطررت أن أترجل وأقود جوادى .

وبعد خروجي من هذا اللهب جزت بباب الطواحين ، ثم سرت قدماً فى حديقة عامة تسمى البستان ، محاذياً مجرى «شنيل» حتى وصلت إلى مسجد عربى صغير ، هو اليوم معبد « سان سبستيان » وكانت على الجدار لوحة تشير إلى أنه فى هذه البقعة سلم أبو عبد الله مفاتيح غرناطة إلى ملوك قشتالة . ومن ثم سار بى جوادى سيراً لينا عبر المرج حتى انتهيت إلى قرية ، فيها كانت

أسرة الملك التق وأهل بيته ينتظرونه ، إذ كان قد أرسلهم قبله من الحمراء بليلة سابقة حتى لا تشاركه أمه وزوجه فى مهانته هو ، أو حتى لا يتعرضوا لتفرس الفاتحين فيهم . ومضيت فى طريق العصبة الملكية الطريدة الحزينة حتى وصلت إلى سفح سلسلة من المرتفعات الجرداء الموحشة ، والتى هى تخوم لجبال البشرات. ومن فوق قمة من قممها ألقى المنكود أبو عبد الله آخر نظرة على غرناطة . وهى تحمل هذا الاسم المعبر عن أحزانه : « تلول الدموع » ومن خلفها طريق رملى يتعرج بين قفر وعر موحش ، أضاف همًّا إلى هم ذلك الملك التق وهو يسلمه إلى منفاه . وحثثت جوادى مصعداً إلى قمة صخرية حيث نفث أبو عبد الله آخر نفثاته الحزينة عند ما رجع بصره إلى الحمراء بعد ما رنا إليها مودعاً . ولا تزال القمة معروفة باسم : «الزفرة الأخيرة للعربى» . ومن يستطيع أن يتصور كم كان كمده عند ما أقصى عن مثل هذا الملك ومن مثل هذا المقام، فبنزوله عن الحمراء كأنه قد نزل عن كل شرف له ، ثم عن كل جلائل الحياة ومباهجها . ومما زاد هنا أيضاً فى مرارة ما يجد ويحس دنو أمه منه ، وهى التى كثيراً ما مدت إليه يد العون عند المخاطر، والتى حاولت عبثاً أن تبث فيه روح عزمها، وقالت له : إنك تحسن أن تبكى بكاء النساء على ما لم تستطع أن تدافع عنه دفاع الرجال . وهى قولة تفيض بكبرياء الامارة أكثر مما تفيض بحنان الأمومة . وعند ما قص القصة الأسقف جيفارا لشارل الخامس ، وأمن الامبراطور على قولها بامتهانه خور هذا المتردد أبى عبد الله ، ثم قال : هذا العاهل الغطريس، لو كنته أو لو كان إياى لآثرت أن أجعل من الحمراء قبرى على أن أعيش فى البشرات ولا ملك لى . وما أيسر على هؤلاء الذين لهم حظ من القوة والجاه أن يجودوا بالنصح للأبطال العاثرين، ولكن ما أقصرهم عن أن يفهموا أن الحياة نفسها قد تغلو مع الجد العاثر حين لا شىء يبقى غير الحياة .

* * *

الشرفة

فى قاعة السفراء وعند النافذة الوسطى شرفة، ذكرتها فيما ذكرت من قبل، وهى بارزة من جهة البرج كأنها القفص، مرتفعة الى كبد السماء فوق قمم الأشجار التى تنمو على جانب التل الوعر. وقد اتخذتها مرقباً ، فكثيراً ما كنت أجلس فيها أتأمل، لا فى السماء من فوقى فحسب، بل فى الأرض من تحتى. وإلى جانب ذلك المنظر الرائع الذى يشرف على الجبل والوادى والمرج، مشهد صغير ملىء بالحركة جياش بالحياة مبسوط تحت أقدام المطل من هذه الشرفة، وفى سفح التل سكة بين أشجار على الجانبين، وهى وإن كانت لا تبلغ مبلغ سكة «الشنيل» التى هى أحدث وأروع فى افتنان الناس بها، فهى لا تزال ساحة تباهى بمن يؤمها من مختلف الطبقات، وما يتوارد عليها من شتى صور الحياة، فإلى هنا يلوذ صغار أعيان الضواحى مع القساوسة والرهبان، حيث يسيرون إما تحريكا للشهية أو ليعينوا على الهضم، ظرفاء وظريفات، حسان وحسناوات، من الطبقات الدنيا فى زيهم الأندلسى، أو من غيرهم من الخارجين عن القانون فى عجرفتهم، وأحياناً نفر من مترفى الطبقات العليا يسيرون فى شبه تستر واستخفاء لبعض مواعيد سرية. وإنها لصورة حية مختلفة الألوان عن الحياة الأسبانية والأخلاق التى كنت سعيداً بدراستها. وكما يستعين عالم التاريخ الطبيعى بمجهره فى أبحاثه، فقد كان لى مجهر جيب صغير يقرب إلى ملامح تلك الجماعات المختلفة قرباً كنت أظننى معه فى بعض الأوقات أنى استطيع أن أتكهن بأحاديثهم من حركة وجوههم وتعبيراتها. وعلى هذا فقد كنت على وجه ما مشاهداً مستخفياً، وكنت قادراً من غير أن أترك خلوتى أن أزج بنفسى فى لحظة واحدة بين غمار الجماعات. وهذه ميزة نادرة لرجل على شىء من الخجل والطبع الهادئ. والذى هو - كما كان شأنى، مولع بأن يشاهد قصة الحياة دون أن يشارك فى تمثيلها. وهناك ضاحية كبيرة تقع أسفل

الحمراء وتحتل الافجيج الضيق من الوادى ، ممتدة تجاه تل البيازين . وقد بنيت الكثرة من بيوتها على الطراز الأندلسى : أفنية مستديرة أوساحات مستديرة معراة من السقوف ترطبها النافورات . ويقضى الأهالى الكثير من وقتهم فى هذه الساحات وفوق شرفات الأسطح خلال فصل الصيف ، مما يتيح للمشرف عليهم من عل ، شأنى وأنا أطل عليهم من خلل السحاب ، أن يشاهد كثيراً من حياتهم المنزلية . وقد قيض لى — إلى حد ما — ما قيض لذلك الطالب فى القصة الاسبانية المشهورة الذى رأى مدريد كلها فى مراقبته لها مبسوطة أمامه بلا سقف . ولكن تابعى الثرثار ماتيو اكسيمنس ، الذى كان يفرض نفسه أحياناً على كأنه شيطانى ، أمدنى بقصص عن مختلف البيوت وساكنيها . وعلى أية حال فقد كنت أوثر أن أصنع لنفسى قصصاً من حزْرى . ولذا كان فى مقدورى أن أجلس الساعات أنسج من الحوادث العارضة والدلائل التى تقع تحت نظرى كل خيوط الموضوع عن الخطط والمكايد والمشاغل لهؤلاء الناس ، الذين كانوا يضطربون فى الحياة من تحتى . وقلما كان يعرض لى وجه جميل أو شخص يلفت النظر ، ممن أراهم كل يوم ، إلا وقد نسجت حوله مع الأيام قصة حافلة بالحوادث . ولو أن بعض شخصيات الرواية التى كنت أنسجها كانت تلعب أحياناً دوراً يناقض تماماً الدور الذى رسمته لها ، فيفسد ذلك قصتى كلها . ومنذ أيام قليلة حينما كنت أتطلع بمنظارى إلى شوارع البيازين وقع نظرى على موكب لمترهبة على وشك أن تترهب . وشاهدت كثيرا من الأحوال التى أثارت فى أعظم الشفقة على مصير تلك المخلوقة اليافعة التى هى على وشك أن تسلم لحياة القبور . وقد كنت متأكداً من جمالها . ولكن شحوب وجنتيها دلنى على أنها كانت ضحية ولم تكن نذراً . وقد ألبست لباس العرس وتجملت بإكليل من الزهر الأبيض ، ولكن قلبها كان فيما يبدو ثائراً فى استهزاء على هذا الاتحاد الروحى ، تواقاً إلى هواها الدنيوى .

وكان يمشى إلى القرب منها فى الموكب رجل طويل القامة ساكن الطرف . كان فيما يظهر الأب الطاغية ، الذى أجبرها على التضحية مدفوعاً إلى ذلك بشية من

شيات التعصب أو رغبة من الرغبات الحقيرة . وفى وسط الزحام سار شاب أسمر وسيم فى حلة أندلسية ، وكان لا يحول نظرته الحزينة عنها . وكان فيما يبدو حبيب نجوتها الذى قدر له أن تنفصل عنه إلى الأبد. وقد زاد حنقى عند ما رأيت أمارات الحقد مرتسمة على محيا الذين يحفون بها من الرهبان والنساك . ووصل الركب إلى معبد الدير . وكانت الشمس ترسل آخر ومضة على إكليل هذه الراهبة المسكينة ، عند ما كانت تخطو فوق الأسكفة المشئومة ، ثم احتواها البناء . وتدفقت الجموع إلى الداخل بقلانسهم وصلبانهم ومعهم جماعات المنشدين ، ولكن المحب تلبث بالباب برهة . وأستطيع أن أتكهن كم كان اضطراب مشاعره ، إلا أنه تغلب عليها ودخل. ومضت مدة طويلة صورت فيها لنفسى المشهد الذى يجرى فى الداخل ، فتلك الراهبة المسكينة قد جردت من زينتها العارضة وألبست لباس الدير ، وأخذ إكليل العرس من فوق جبينها . وجزت من رأسها الجميل خصلاته الحريرية الطويلة. وكأنى أسمع همهمتها وهى تنذر نفسها نذراً مؤبداً . وكأنى أراها متمددة فى النعش تغشيها صفرة الموت ، والشعائر الجنائزية تؤدى . وكأنى أسمع أنغام الأرغن العميقة ، وصلاة الجناز الحزينة ترفع الراهبات بها أصواتهن ، والوالد ينظر إليها بمحيا ساكن جامد لا شعور فيه ، والمحب ، ولكن لا ، فقد أبى خيالى أن يصوره . ولهذا فقد بقيت اللوحة بيضاء فارغة . وبعد مدة خرج الجمع متدفقاً ثانية إلى الخارج وتفرق أيدى سبا ، يتمتعون بنور الشمس ويشاركون فى مشاهد الحياة الصاخبة . ولكن الأسيرة على كل حال قد خلفوها وراءهم .

وكاد يكون آخر من خرج هو الأب والمحب ، وكانا فى حديث هام . وكان ثانيهما عنيفاً فى حركاته . وقد توقعت نهاية قاسية لهذه المأساة ، لولا أن زاوية من زوايا البناء حالت بينى وبينهما وحجبت عنى منظرهما . وعدت بعد ذلك أنظر إلى الدير مراراً فى اهتمام الحزين . وقد شاهدت أخيراً مع الليل نوراً يشع من نافذة بعيدة من برج من أبراجه ، فقلت : هناك الراهبة الشقية تجلس باكية فى صومعتها ، وقد يكون محبها الساعة يذرع الشارع أسفل منها فى هم لا طائل وراءه.

وقطع عليّ الفضولى ماتيو تأملاتى ونقض فى لحظة نسج خيالى . وكان بما عرف عنه قد جمع حقائق تمس هذا المنظر طارت بكل تخيلاتى . فلم تكن بطلة قصتى الخيالية لا صغيرة ولا جميلة ، ولم يكن لها عاشق ، وقد دخلت الدير مريدة غير مضطرة ، على أنه ملجأ ملائم ، وقد أصبحت من أغبط المقيمين بين جدرانه . وقد مضى وقت قصير قبل أن أغفر لهذه الراهبة إساءتها لى بعد أن علمت أنها سعيدة فى صومعتها ، وهو أمر يخالف كل المخالفة جميع الأصول المرعية فى الروايات الغرامية التى تثير الخيال وتحرك المشاعر .

على أننى أخذت أروح عن نفسى يوماً أو يومين بالنظر إلى سمراء حوراء ذات دل وغنج ، توارت فى مكمن من شرفتها وراء شجيرات مزهرة وفى ظل ظلة حريرية ، وهى تبادل الإشارات فى خفية فارساً أسمر ملتحياً جميلاً . وكان هذا الفارس كثيراً ما يقف فى الشارع تحت النافذة ، وكنت أراه فى بعض الأوقات فى ساعة مبكرة ينسل قدماً ملتفاً حتى العينين فى عباءة . وأحياناً متلبثاً فى زاوية فى حالات مختلفة من التنكر ، كأنه فيما يظهر ينتظر إشارة خاصة ليندس إلى البيت . وعلى هذا فكان فى المساء رنين القيثارة ، ومصباح يتنقل من مكان إلى مكان فى الشرفة . وقد تخيلت مكيدة تشبه أخرى مما كان يدبره «المانيبا» .ولكن فروضى جميعها قد نقضت عليّ مرة أخرى عند ما أخبرت أن هذا الحبيب المزعوم كان زوج السيدة ، وأنه مهرب معروف ، وأن تلك الإشارات الغامضة والحركات كانت من غير شك خطة من خطط التهريب كان يدبرها فى ساعات النهار المختلفة .

وكنت أحياناً أسرى عن نفسى بالنظر من تلك الشرفة إلى تلك التغيرات التى كانت تتعارض على المشاهد التى تجرى من تحتى . وقلما كان يبزغ الفجر الأشهب من السماء ، وتصيح الديكة المبكرة فى أكواخها من على جانب التل ، حتى تبدو عليّ دلائل النهوض والحياة ، فما أعز ساعات الفجر الندية من فصل الصيف فى إقليم زمه . وما أشوق الجميع إلى أن يبدءوا مع مطلع الشمس أعمالهم

اليومية ، فالمكارى يسوق قدماً رتله المحمل للرحلة ، والمسافر قد امتطى جواده إلى باب النزل ودلى بندقيته خلف السرج ، والزارع الأسمر يستحث دوابه المتسكعة المحملة بأسفاط الفواكه الناضجة والخضراوات الطازجة الغضة ، ومن قبل قد أسرعت ربات المنازل المدبرات إلى الأسواق . وتعلو الشمس وتملأ الوادى بأشعتها كاسية أوراق النباتات والأشجار الشفافة فى غيضاتها ، وتصلصل أجراس الصباح مخترقة بإيقاعاتها الحلوة أجواز الصافية المشرقة مؤذنة بالصلاة . فيحط المكارى عن بغاله أرحالها أمام المعبد غارزاً هراوته فى حزامه خلف ظهره ، ثم يدخل بقبعته فى يده مرجلاً شعره الأسود الفاحم بيده ، ليسمع قداساً ويصلى ضارعاً لرحلة موفقة عبر الجبال . والآن ترى سيدة لطيفة تسترق الخطا بأقدام رشيقة فى حلة بشكوانية وفى يدها مروحة لا تهدأ ، ولها عينان سوداوان تمضان من خلل الطرحة اللطيفة المطوية عليها ، وهى تسعى إلى كنيسة من الكنائس التى يؤمها المصلون بكثرة لتؤدى فيها صلاة الصباح ، ولكن هذا الملبس الأنيق المسوى ، والحذاء الظريف ، والجوارب الشفافة ، والغدائر الغدافية الرائعة العقصة ، والوردة النضرة التى تتألق من بينها كأنها درة توحى بأن عالم الأرض والسماء قد تقاسما بينهما أفكارهما . ثم ارمقها بعينك تجدها قد سارت خلفها واحدة لا أدرى أهى أم حريصة ، أو عمة عذراء ، أو مربية يقظة . وعند ما يتقدم النهار يزداد ضجيج العمل فى كل مكان ، فتمتلىء الشوارع بالناس والخيل والدواب المحملة ، وترتفع الهمهمة والدمدمة كأنها جيشان المحيط . وفى الهاجرة تخف الهمهمة واللغط شيئاً فشيئاً . وعند الظهيرة عند ما تبلغ الشمس أوج ارتفاعها تسكن الحركة ويخلد الناس إلى الراحة فتغرق المدينة اللاهثة فى فتور وتدوم هذه الراحة العامة ساعات عدة . فتغلق النوافذ ، وتسدل الستر ، ويأوى السكان إلى خلواتهم الرطبة من منازلهم . والراهب المتخم طعاماً يغط فى غرفة نومه غطيطاً ، والحمال المفتول العضلات يرقد متمدداً على الطوار إلى جانب أحماله ، والزارع والعامل ينامان فى ظلال أشجار غيضات الأراك وقد سكنوا إلى دوى الجراد الذى لا يهدأ . وتخلو الشوارع إلا من

السقائين الذين يشنفون الآذان بإعلانهم المرح عن شرابهم البراق : أبرد من ثلج الجبال . وعند ما تأخذ الشمس فى الانحدار تعود الحياة شيئاً فشيئاً . وعند ما يدق جرس صلاة المغرب دقته الرهيبة تبدو الطبيعة كلها كأنها فى غبطة بانقضاء النهار بجبروته . والآن يبدأ لغط اللاهين ، عند ما يخرج السكان متدفقين أفواجاً لينشقوا هواء المساء، ويطاردوا مبتهجين أضواء الشفق القصيرة فى الممرات والبساتين لنهر حدره والشنيل . وعند ما يظل الليل يأخذ المنظر المتقلب صوراً جديدة . فالنور إثر النور يتألق دواليك . فهنا شمعة فى نافذة ذات شرفة، وهناك مصباح نذر أمام صورة قديس . وهكذا شيئاً فشيئاً تبزغ المدينة من الظلام السائد متلألئة بالأنوار وكأنها القبة الزرقاء قد رصعت بالنجوم . والآن تتناثر من القاعة والحديقة والشارع والزقاق ، نغمات قيثارات لا تحصى عدّا ، ورنات الصنج ممتزجة تنطلق فى هذا العلو الشاهق خافتة ولكنها فى جملتها متوائمة .

فانتهاز الفرصة هو معتقد الأندلسيين فى المرح والغرام . وما من وقت يقبل الأندلسى فيه على هذه الفرصة بشغف إقباله عليها فى ليالى الصيف الساحرة الندية، يتحببون إلى نسائهم بالرقص والأناشيد الغرامية ، وأغانى الليل المليئة بالعاطفة، يناجون بها معشوقاتهم من تحت النوافذ . وقد كنت ذات مساء جالساً فى الشرفة أستمتع بالنسم العليل الذى يهب إلى بحفيفه على طول جانب التل من بين قمم الأشجار ، وكان ماتيو المؤرخ المتواضع إلى جانبى ، فأشار عندها إلى بيت رحب فى شارع مغمور فى حى البيازين، ثم حكى لى عنه هذه القصة الآتية، أروى ما قدرت أن أعيه عنه تقريباً :

* * *

مغامرات البناء

فى يوم من الأيام كان يعيش بناء فقير فى غرناطة، يحرص على إحياء أيام القديسين المقدسة وأيام الآحاد، ذلك إلى الاثنين المقدس، ومع كل هذا الورع فقد كان يزداد فقراً إلى فقر، وما كان يحصل على الخبز لأسرته العديدة إلا بشق النفس. وذات ليلة ما كاد يستقر على فراشه لينام حتى استيقظ على طرق على الباب، وما فتحه حتى رأى أمامه قسيساً طويلاً هزيلاً شاحب اللون. فقال له هذا الغريب: استمع إلىّ أيها الصديق الأمين. لقد لحظت أنك مسيحى مخلص وأنى أستطيع أن أعتمد عليك. فهل لك أن تقوم بعمل هذه الليلة؟ فأجابه: بكل ما أملك أيها السيد الأب ولكن على شريطة أن أقبض أجرى عليه. فأجابه: هذا لك. ولكن يجب أن ترضى بعصب عينيك، ولم يعترض البناء على هذه. وبعد أن غميت عيناه، قاده القسيس بين أزقة مختلفة وعرة وممرات متعرجة حتى وقفا أمام باب بيت، وعندها التمس القسيس مفتاحاً أداره فى قفل سمع له صرير، وفتح باباً دلت حركته على أنه ثقيل جداً. وبعد أن دخلا أغلق الباب بالرتاج. واقتيد البناء خلال دهليز يتجاوب فيه الصدى، ثم إلى ردهة واسعة، ثم إلى جزء داخلى من البناء، وهنا حلت العصابة عن عينيه. فألفى نفسه فى فناء أو ساحة غبشة ليس فيها إلا مصباح واحد. وفى وسطها كان حوض جاف لنافورة عربية قديمة. وإلى أسفلها طلب القسيس من البناء أن يبنى قبوا صغيراً، وكان الآجر والملاط لهذا الغرض معداً بين يديه. وعلى هذا عمل طيلة ليله ولكن دون أن يتم عمله. وقبل بزوغ الفجر وضع القسيس قطعة من الذهب فى يده، ثم عصب عينيه ثانية وقاده راجعاً به إلى منزله. ثم قال له: هل أنت راغب فى أن تعود لتتم عملك؟ فقال: بكل سرور أيها السيد الأب، ما دمت أتقاضى أجراً طيباً. فقال: حسناً، غداً عند منتصف الليل سأدعوك ثانية. وكان هذا، وتم بناء القبو. فقال القسيس:

والآن عليك أن تساعدنى لنحمل إلى هنا الجثث التى سندفنها فى القبو. فانتفض شعر رأس البناء الفقير عند سماعه هذه الكلمات، ولكنه تبع القسيس بخطا مرتجفة إلى مخدع منعزل فى البناء، متوقعاً أن يرى منظر جثث موتى شاحبة، ولكنه سرّى عنه حين أدرك أنها ثلاث جرات ضخمة أو أربع موضوعة فى زاوية. وكانت فيما يظهر مملوءة بالمال، وكانت تحتاج إلى جهد كبير، فحملها هو والقسيس وأودعاها المقبرة. ثم سد القبو بعد ذلك، وأعيد رصف الحجرة وغطيت جميع الآثار. ثم أعيد عصب عينى البناء وقيد فى طريق آخر غير التى أتى منها. وبعد أن طافا طويلاً خلال أزقة وعطفات معقدة محيرة تلبثا، وعندها وضع القسيس قطعتين من الذهب فى يده، ثم قال له: انتظر هنا حتى تسمع جرس الكاتدرائية يدق دقة الصباح. وإذا حاولت أن تنزع الرباط عن عينيك قبل ذلك الوقت فستنصب عليك اللعنات. وما أن أتم كلامه هذا حتى رحل. وانتظر البناء أميناً بما وعد مسرياً عن نفسه بتعرف ثقل القطع الذهبية فى يديه صاكا إحداها بالأخرى. وفى الوقت المضروب دق جرس الكاتدرائية دقة الصباح، فنزع العصابة عن عينيه فألفى نفسه على شاطىء الشنيل، ومن هناك عمل جهده فى أن يعود إلى بيته. وقضى أربعة عشر يوماً مع أسرته مبتجهين بفضل كسب تلك الليلتين اللتين عملهما. ثم عاد فقيراً كما كان. وعاش يعمل قليلاً ويتعبد كثيراً محيياً أيام القديسين المقدسة والآحاد، سنة بعد سنة، والأسرة تزيد، هزيلة الأجسام، رثة الثياب كجماعة من الغجر.

وفيما هو كان جالساً ذات مساء أمام باب كوخه دنا منه غنى عجوز شحيح، وكان ملحوظاً بكثرة ما يملك من بيوت، وبأنه مالك مقبوض اليد. وأخذ هذا الثرى يتفرسه برهة من تحت حاجبين أشعثين قلقين، ثم قال: لقد حدثت أيها الصديق أنك رجل فقير جداً. فقال: ليس ما يدعو لإنكار الحقيقة يا سيدى، فهى تتحدث عن نفسها. فقال: أظن إذاً أنك ستكون مسروراً إذا وجدت عملاً، غير أنك ستعمل بأجر زهيد. فقال: شأن أقل البنائين

أجراً فى غرناطة . فقال : هذا ما أريد ، فلى بيت قديم على وشك أن ينقض . وفى هذا غرم لا يعد له إصلاحه ، إذ لا يستطيع إنسان أن يسكنه على حاله تلك. ولذا على أن أدبر ترميمه وأحفظه قائماً بأقل إنفاق ممكن .

وعلى هذا فقد اقتيد البناء إلى بيت كبير منعزل يبدو كأنه يريد أن ينقض . فمر خلال ردهات خالية ومخادع ، ثم ولج إلى ساحة داخلية حيث استرعت انتباهه نافورة عربية قديمة . فتلبث حيناً يستعيد حلمه عن هذا المكان الذى طالعه ، ثم قال : هل لك فى أن تخبرنى من كان يشغل هذا المكان من قبل ؟

فصاح المالك : عليه لعنة الله! لقد كان قسيساً عجوزاً تعساً ، لم يكن يعنى إلا بنفسه . وقد قيل عنه إنه واسع الثراء وإنه ليس له أقرباء . وكان الظن أنه سيترك ثروته للكنيسة ، ولكنه مات فجأة ، فتدافع القساوسة والرهبان ليستولوا على ثروته ، فلم يجدوا شيئاً غير قليل من بندقيات (نقود أجنبية قديمة) فى كيس من جلد . وكنت أسوأ الجميع حظاً ، إذ منذ موته والبيت كأنه مشغول بهذا الرفيق العجوز ولكن دون أجر ، فالقانون لا سلطان له على الأموات . ويدعى الناس أنهم يسمعون طول الليل رنين الذهب فى المخدع ، حيث كان ينام القسيس كأنه يعد نقوده ، كما يسمعون فى بعض الأوقات أنيناً ونحيباً حول الفناء. وسواء أكان هذا حقاً أم باطلاً ، فقد جلبت تلك القصص لبيتى السمعة السيئة ، وليس هناك أجير يريد أن يأجره . فقال البناء فى جد: حسبك ، دعنى أعش فى بيتك من غير أجر حتى توفق إلى ساكن خير منى ، وإنى أتعهد لك بأنى سأصلحه ، وسأسكن من روع تلك الأرواح التى تعكر صفوه ، وإنى لمسيحى مخلص ورجل فقير . ولكنى لن يفزعنى الشيطان نفسه ، وإن جاءنى فى هيئة حقيبة كبيرة من المال . فقبل الرجل راضياً ما عرضه البناء . وانتقل البناء بأسرته إلى البيت وقام بكل ما تعهد به . وقد أعاده شيئاً فشيئاً إلى سيرته الأولى . ولم يعد يسمع فى مخدع القسيس الميت رنات الذهب مع الليل ، ولكنها بدأت تسمع فى جيوب البناء الحى مع النهار .

وفى كلمة موجزة . فقد أخذ يزداد ثراؤه سريعاً ، مما أثار دهشة الجيران كلهم ، وأصبح من أغنياء غرناطة . فنزل عن مبالغ طائلة للكنيسة ، وكان هذا لإرضاء ضميره من غير شك . ولكنه لم يكشف عن سر القبو إلا على فراش الموت لابنه ووارثه .

* * *

جولة بين التلال

كنت كثيراً ما أسرى عن نفسى عند ما تؤذن الشمس بالمغيب ، وتخف حدة الحر . بجولات طويلة بين التلال المجاورة والوديان الظليلة . يرافقنى تابعى المؤرخ السيد ماتيو . وكنت أنتهز مثل هذه الفرص فأترك له أقصى الحرية المطلقة ليشبع ما فيه من ميل إلى الثرثرة . وقلما كانت ثم صخرة ، أو نافورة خربة أو محطمة ، أو نفنف منعزل ، إلاوعنده عنه شىء من القصص العجيب . ذلك إلى حكايات الذهب . ولم أر قط داهية مسكيناً مثل ماتيو على مثل هذا السخاء فى توزيع الكنوز المخبأة .

ومنذ ليالى قليلة كانت لنا جولة طويلة ، من تلك الجولات التى كان يجد فيها ماتيو مجال الحديث أكثر سعة . وكانت الشمس قد آذنت بمغيب حين غادرنا باب العدل الكبير وأصعدنا فى ممر مظلل بالأشجار . فوقف ماتيو فى ظل دغل من شجيرات التين والرمان ، فى سفح برج كبير متهدم يسمى برج الطبقات السبع . وهنا أشار إلى ممر منخفض مثقب فى أساس برج ثم أخبرنى أن طيفاً عجيباً — فيما يقال — يلم بهذا البرج منذ أيام العرب ليحمى كنوز ملك من ملوك المسلمين . وقد يخرج أحياناً فى هدأة الليل فى هيئة فرس مبتور الرأس ، تتبعه كلاب ستة فى عواء ونباح مروعين ، ويطوف بطرقات الحمراء المظللة وشوارع غرناطة .

وسألته : وهل قابلته أنت نفسك يا ماتيو فى جولة من جولاتك ؟

فقال : لا يا سيدى ، حمداً لله . ولكن جدى الخياط عرف أشخاصاً عدة رأوه ، لأنه كان أكثر خروجاً أيام جدى منه اليوم ، أحياناً فى هيئة وأحياناً فى أخرى ، وكل إنسان فى غرناطة قد سمع عن « البليادو » إذ العجائز من النساء والمربيات يخوفن أطفالهن به حين يبكون .

ويقول البعض: إنه روح طاغية من ملوك العرب قتل أبناءه الستة ودفنهم فى هذه الأقباء ، وأنهم يطاردونه بالليل للانتقام منه .

ولا أريد أن أسترسل فى التفاصيل العجيبة التى نقلها إلى هذا الساذج التفكير ماتيو عن هذا الطيف المخيف ، الذى كان فى الحق وقتا ما موضوعاً خارقاً من قصص المربيات والروايات الشعبية فى غرناطة ، والتى رواها العلماء من المؤرخين القدامى ورجال تخطيط البلدان بالإجلال والتقدير .

ولكنى لم أر فى داخل هذا البرج غير الباب الكبير الذى خرج منه المنكود أبو عبد الله ليسلم عاصمة ملكه . ثم خلينا هذه المجموعة من المبانى ذات الأحداث الكثيرة ووصلنا السير محازين بساتين جنة العريف المثمرة حيث لقينا بلبلين أو ثلاثة تشدو بألحان عذبة . وإلى الوراء من هذه البساتين مررنا بصهاريج عربية لها باب فى حضن صخرى من التل ولكنه مغلق . وقد ذكر لى ماتيو أن هذه الصهاريج كانت أماكن محببة للاستحمام له ولرفاقه ، حتى انصرفوا عنها يوماً خائفين عند ما سمعوا قصة ذلك الرجل العربى القبيح الصورة الذى اعتاد أن يخرج من باب الصخرة ليصيد المستحمين المستهترين .

وخلفنا تلك الصهاريج المليئة بالأشباح ومضينا فى تجوالنا فى طريق لابغال منعزل متعرج بين التلال ، وسرعان ما وجدنا أنفسنا فى وسط جبال مقفرة كئيبة عارية من الأشجار ، غير أن هنا وهناك بقعاً من خضرة قليلة . وكان كل شىء يبدو موحشاً جدباً . وكان عسيراً علينا أن نتصور أن إلى الوراء منا غير بعيد جنة العريف ببساتينها المزهرة وحدائقها ذات العرائش ، وأننا قاب قوسين أو أدنى

من غرناطة البهيجة ، مدينة الفيضان والنافورات. ولكنها هى الطبيعة الأندلسية ، وحشة وعبوس ، ولمّا تنفلت من بين غروس. والصحارى والرياض. كأنهما فى إباض. وهذا الشعب الضيق الذى جزناه يسمى ، حسبما ذكر ماتيو ، لهب الجرة ، لأنهم وجدوا هنا فى القديم جرة ملئت ذهباً عربياً .

ولقد كان خيال ماتيو المسكين يجرى دائماً فى إثر أساطير الذهب . ولكن إلى أى شىء يشير ذلك الصليب الذى أراه هناك فوق أكمة صخرية فى ذلك الجزء الضيق من اللهب ؟

فأجابنى ماتيو : ليس شيئاً ذا بال . فقد قتل هنا منذ سنين مكارى.

وقلت له : إذاً هنا يا ماتيو لصوص وقتلة حتى على أبواب الحمراء ؟

فقال : ليس اليوم يا سيدى . فقد كان هذا قبل عند ما كان حول القلعة نفر من فاسدى الأخلاق ، ولكنهم أقصوا عنها إقصاء ، ولم يبق إلا هؤلاء الغجر الذين يعيشون فى الكهوف إلى جوانب التل . وإنك لتجد الكثير منهم فيما يلى القلعة من الخارج مستعدين للقيام بأى شىء . ولم يقع هنا قتل منذ زمن طويل . وأما عن ذلك الرجل الذى قتل المكارى فقد شنق فى القلعة . وتابعنا سيرنا صعداً فى اللهب ، وكان إلى اليسار منا مرتفع أشم وعر . هو مقعد العربى ، وهو حسبما تشير الأخبار المتواترة التى ذكرتها قبل ، إن المنكود أبا عبد الله هرب من ثم خلال فتنه شعبية ، وبقى يوماً كاملا جالساً إلى تلك القمة الصخرية ينظر كئيباً على مدينته الشغبة .

وأخيراً انتهينا إلى أعلى جزء من رأس الجبل يشرف على غرناطة ويسمى جبل الشمس . وكان المساء قد بدأ يخيم . والشمس الغاربة قد غشت المرتفعات السامقة بأشعتها الذهبية . وكنت ترى هنا وهناك على البعد راعياً يسوق قطيعه وحده هابطاً به فى الأحادير ليأوى به إلى حظائره قبل الليل . كما ترى مكارياً بحيوانه المحملة سالكاً بعض الممرات الجبلية ليصل أبواب المدينة قبل أن يهجم عليه الليل .

وسرعان ما صعدت إلينا النغمات البعيدة لأجراس الكاتدرائية تخترق الشعاب ، مؤذنة بساعة الصلاة ، ومن ثم جاوبتها كل أبراج الكنائس الأخرى . وكذلك أجراس الأديرة الشجية من بين الجبال ، فتلبث الراعى عند ثنية التل والمكارى فى وسط طريقه . وخلع كل منهما قبعته وبقيا مدة دون حراك يتمتمون بدعاء السماء . وكان فى تلك العادة دائماً شىء جليل ترتاح إليه النفس ، فما من إنسان على وجه الأرض حين استمع إلى ذلك الصوت الرخيم إلا خف مشاركاً غير متلبث فى التسبيح بحمد الله على نعم النهار .

ومما يزيد المنظر شيئاً غير يسير من الرهبة أن هذا الطهر العارض الذى يعم وجه الأرض يكون والشمس منحدرة نحو المغيب فى كامل جلالها . وفى هذه اللحظة زدت تأثراً بطبيعة المكان الموحشة المنعزلة . فقد كنا على قمة جبل الشمس العارية الوعرة المعمورة بالجِنة حيث الصهاريج المتهدمة والأحواض . والأسس المتثلمة لكثرة من المبانى الممتدة ، تحدث عن سابق عهدها بكثرة القطان ، وهى اليوم جميعها فى صمت ووحشة . وفيما كنا نجول بين آثار تلك الأيام الغابرة لفتنى ماتيو إلى حفرة مستديرة ، تبدو كأنها صدع مستدير موغل فى الجبل . وكان ظاهراً أنها بئر عميقة حفرها العرب الذين لا يعرفون كلالا ، ليحصلوا على الماء الشهى فى أصفى صفائه . ولكن ماتيو كان يحفظ قصة تختلف عن ذلك ، هى أدنى إلى طبيعته وأقرب . فكانت كما تُحدث الروايات المتواترة . مدخلا إلى مغارات جبلية تحت الأرض ، فيها رقد أبو عبد الله وحاشيته بسحر ساحر . ومن ثم يخرجون قدماً فى الليل أوقاتاً معلومة ليعاودوا زيارة مقامهم القديم . وكانت ظلمة السَّحَر المتكاثفة التى يقصر أمدها فى مثل هذا المناخ نذيراً لنا بأن نترك هذه الأرض المسحورة . وفيما نحن هابطون فى الشعاب الجبلية لم يكن ثم راع أو مكارى لنراه . أو شىء آخر لنسمعه غير وقع أقدامنا وصرير الجدجد الموحش . وكانت ظلال الوادى تتسع شيئاً فشيئاً حتى أصبح كل ما حولنا ظلاماً دامساً . وبقيت قمة جبال نفادا العالية وحدها تحتفظ ببقية

حائرة من أشعة النهار. وكانت هاماتها الثلجية، وهى تبدو متلألئة فى كبد القبة الزرقاء الداكنة. تظهر كأنها منا قريبة لشدة صفاء الجو. فقال ماتيو: كم تبدو الجبال قريبة منا هذا المساء، حتى لتخال أنك تستطيع أن تلمسها بيدك، مع أنها تبعد عنا بفراسخ كثيرة جداً.

وفيما هو يتكلم بدا نجم فوق قمة الجبل الثلجية، وكان هو النجم الوحيد الذى ظهر فى السماء، شديد الصفاء كبير الجرم عظيم الضياء كثير الجمال، كان شيئا استخف ماتيو الأمين ليصيح صيحة فرح: ما أجمل هذه النجمة! ألا ما أصفاها وما أنقاها! لا أحسب أن فى السماء نجماً أكثر منها ضياء. وكثيراً ما أحسست فى عوام أسبانيا هذا الشعور المرهف فى الفتنة بالأشياء الطبيعية، فتألق النجم، وجمال الزهرة وشذاها، وهذا الصفاء المشرق البادى فى النافورة، كل هذا يبعث فى نفوسهم شيئاً من المرح الشعرى. وعندها فما أعذبها من كلمات تلك التى تمدهم بها لغتهم الجليلة، والتى بها يعبرون عن مشاعرهم.

ولكن ما هذه الأنوار يا ماتيو التى تتألق على طول جبال نفادا، أسفل المنطقة الجليدية وفى نصفها، والتى تخالها نجوماً لولا أنها صهباء، والتى تواجه الجانب المعتم من الجبل؟ هذه أيها السيد نيران يشعلها الرجال الذين يجتمعون لجمع الجليد والثلج الذى يمدون به غرناطة، وهم يصعدون فى عصر كل يوم ببغالهم وحميرهم يتناوبون العمل، فبينما يستريح فريق ويدفئون أنفسهم، يملأ فريق القوصرات بالثلج. ومن ثم يتركون الجبل منحدرين ليبلغوا أبواب غرناطة قبل مشرق الشمس. وجبال نفادا أيها السيد كتلة من الثلج فى وسط الأندلس تحفظها كلها ندية فى الصيف. وساد الظلام ونحن نجوز اللهب حيث صليب المكارى المقتول. فرأيت أنواراً تتحرك على مسافة، وكانت فيما يظهر مصعدة فى اللهب. وحينما قاربتنا تكشفت عن مشاعل يحملها صف من الناس بوجوه بشعة، متشحين بالسواد. وإنه لموكب جدير بأن يبعث الكآبة فى أى وقت، فكيف به فى هذا المكان الموحش المنعزل. واقترب منى ماتيو وأخبرنى فى صوت منخفض أن هذه جنازة تحمل

جثماناً إلى حيث المدافن بين التلال . وفيما الموكب يمر بنا كان نور المشاعل الكئيب ،وهو يسقط على تلك الوجوه البشعة وثياب الحداد للمشيعين ،يؤثر فى النفس أعجب الأثر ، فقد كان منظراً منكراً ، لأنه كشف عن محيا الجثة التى كانت تحمل فى النعش سافرة ، وفقاً للتقاليد الأسبانية . وقد بقيت مدة أتفرس فى هذا الموكب الكئيب وهو يتلوى مصعداً فى ذلك اللهب المظلم من الجبل . وقد ذكرنى ذلك بقصة قديمة لموكب للجن حمل جثة المذنب إلى فوهة بركان استرامبولى .
وصاح بى ماتيو : أيها السيد ، أستطيع أن أقص عليك قصة موكب ظهر مرة بين هذه الجبال ، ولكنك بعد ستسخر منى وتقول : إنها إحدى أسطورات جدى الحياط . أبدا يا ماتيو ، ليس شىء أكثر إمتاعاً لى من قصة شائقة .
حسناً أيها السيد ، إنها عن رجل من أولئك الرجال أنفسهم الذين تكلمنا عنهم ، الذين يجمعون الثلج من فوق جبال نفادا . ويجب أن تعرف أنه منذ سنين كثيرة جدا مضت قبل عهد جدى كان هناك رفيق عجوز اسمه تيو نيقولا . كان قد ملأ قوصرتى بغلته بالثلج والجليد ثم عاد أدراجه منحدراً فى الجبل . وكان جد وسنان . فركب بغلته واستغرق فى النوم ومضى ورأسه المطرق يترنح من جهة إلى جهة . على حين أخذت بغلته العجوز الثابتة القدم تخطو على طول حافة وهاد ونفائف عميقة وعرة فى اطمئنان وثبات ،وكأنها تخطو على أرض سهلة .

وأخيراً استيقظ تيو نيقولا وتفرس ما حوله ومسح عينيه ،ولقد كان له حقًّا العذر فيما فعل . فكأن القمر وهو يضىء قد جعل الليل نهاراً . فرأى المدينة أسفل منه واضحة وضوح يدك منك . مشرقة بمبانيها البيضاء كصفحة من فضة . ولكنها أيها السيد لم تكن أشبه بتلك المدينة التى خلفها منذ ساعات قليلة . فبدلا من أن يرى الكاتدرائية بقبتها العظيمة وأبراجها ، والكنائس بمسلاتها ، والأديرة بقبابها المستطيلة تحيط جميعها بالصليب المبارك ، رأى المساجد العربية والمآذن والقباب تعلوها الأهلة المتلألئة ، كتلك التى تراها على البنود العربية . حسناً يا سيدى فلتذهب بك الظنون حيث تشاء ،فلقد تملكت تيو نيقولا الحيرة

من كل هذا ، وفيما هو يتطلع إلى المدينة رأى جيشاً حافلا يأتى مجتازاً الجبال ، منعطفاً مع الشعاب فى امتدادها حيناً فى نور القمر وحيناً فى ظله . وعندما اقتربوا منه رأى فرساناً ورجالا كلهم فى شكة عربية . وقد حاول تيو نيقولا أن ينحرف عن طريقهم ولكن بغلته العجوز وقفت جامدة لا تتحرك وأبت أن تتزحزح ، وهى مع ذلك تُرعد كورقة الشجرة فى مهب الريح . إذ الدواب الخرساء يا سيدى لا يقل فزعها من هذه الأشياء بل يزيد . شأن بنى الإنسان . حسناً يا سيدى . وقد مر قريباً منه جيش المردة . وكان من بينهم — كما بدا — رجال ينفخون فى الأبواق وآخرون يضربون الطبول ، ويصكون الصنج دون أن يُسمع لذلك صوت ، كما لم يثيروا فى حركتهم أية جلبة ، كأنك ترى جيوشاً مصورة تمر على ستارة فى ملهى من ملاهى غرناطة . وقد علت وجوههم صفرة كصفرة الموت ، وأخيراً مر القاضى الأكبر لغرناطة راكباً فى مؤخرة الجيش بغلة بيضاء كالثلج بين فارسين عربيين أسودين . وما كانت أشد دهشة تيو نيقولا حين رآه بين هؤلاء ، إذ كان القاضى مشهوراً حقًّا ببغضه للعرب وجميع ألوان الكفار من اليهود والهراطقة ، وقد درج على أن يطاردهم بالنار والسوط .

وعلى كل حال فقد اطمأن تيو نيقولا نفسه حين رأى قسيساً له قداسته يمر قريباً منه يرمز رمز الصليب ، فسأله البركة . وما كان أعجبه حين تلقى ضربة أرسلته هو وبغلته العجوز إلى شفا وهدة ، فاندفعا يتدحرجان رأساً على قدم حتى انتهيا إلى القاع .

ولم يعد تيو نيقولا إلى وعيه إلا بعد مطلع الشمس بوقت طويل ، حين وجد نفسه فى قاع لهب عميق وبغلته ترعى إلى جنبه ، وقد ذاب ما فى قوصرتيه من الثلج ذوباناً . فسار متثاقلا إلى غرناطة قد دق جسمه دقًّا ورض رضًّا ، ولكنه سر حين تجلت له المدينة كعهدها بكنائسها المسيحية وصلبانها . وحينما قص قصة مغامرته الليلية على الناس سخروا جميعاً منه ، وقال بعضهم : أضغاث أحلام رآها كلها فى غفوته على بغلته . وظن آخرون أنها كلها من بدعة . ولكن الشىء الغريب أيها

السيد، والذى حمل الناس بعد على أن ينظروا للأمر فى جد ، أن القاضى الأكبر مات فى العام نفسه . وقد سمعت كثيراً جدى الخياط يحدث بأن هذا الجيش من المردة ، الذى مضى بشبيه للقسيس ، فيه معنى أجل مما اجترأ العامة أن يذهبوا إليه فى ظنونهم .

إذاً فأنت تلمح أيها الصديق ماتيو بأن هناك ما يشبه السجن العربى أو الأعراف فى جوف تلك الجبال ، حيث سيق القاضى إليها ؟ فليغفر الله لى أيها السيد ، فلا علم لى بشىء من هذا . وما حدثت إلا بما سمعت من جدى . وما أن أتم ماتيو قصته ، التى لخصتها تلخيصاً ، والتى تضمنت الكثير من التعليقات ، وبسطتها بسطاً بما ضم إليها من تفصيلات دقيقة ، حتى كنا قد بلغنا باب الحمراء .

* * *

قصص الأهلين

إن عامة أهل أسبانيا يشاركون المشارقة فى شغفهم بقص القصص ، ويولعون بكل عجيب ، فهم يتجمعون حول أبواب الأكواخ فى أمسيات الصيف ، أو فى الأقبية ، أو زوايا ردهات المدافئ المقببة الواسعة فى المنزل مع ليالى الشتاء ، مصيخين فى انشراح لا يمل إلى غرائب قصص القديسين ، ومغامرات الرحالة الخطرة ، وأعمال اللصوص والمهربين الجريئة .

ولعل طبيعة البلاد فى عزلتها ووحشتها ، وقلة انتشار المعرفة ، وندور موضوعات الحديث العامة ، وحياة المخاطرة التى تثير المشاعر وتلهب الخيال ، والتى يحياها كل إنسان فى بلد الرحلة فيه لا تزال فى حالتها البدائية ، هذه كلها تزيد فى شغف الناس فى تناقل الرواية مشافهة ، وتخلق مزيجاً قوياً يجمع بين المغالاة والبعد عن الحقيقة .

وعلى كل حال فليس هناك أكثر شيوعاً وذيوعاً من أحاديث الكنوز التى طمرها العرب . فهى قد عمت البلاد كلها . وعندما تخترق جبال نفادا الموحشة حيث مناظر المعارك القديمة والمآثر الباهرة ، لا ترى مرقبة عربية جاثمة بين أصقاع الجبال . أو بارزة فوق قرية شيدت على صخرة . وتسأل عنها مكاريك مدققاً . إلا وتوقف عن تدخين سيجارته ليقص عليك شيئاً من قصص الذهب العربى المطمور تحت أسس المبانى . كما لن تجد قصراً خربا فى مدينة إلا وعن ذهبه أخبار متواترة . يتلقاها جيل عن جيل . من هؤلاء المساكين الذين يعيشون فى أكنافها . وهناك كثير غيرها من القصص الخيالية الشعبية نبتت عن شىء قليل من الحقائق الموثوق بها . وفى أثناء الحرب التى نشبت بين العرب والمسيحيين . التى شغلت المملكة قرونا . فكانت المدن والقلاع كثيراً ما تتعرض فجأة لأن تستبدل ملاكاً بملاك . وكان السكان خلال الحصارات والغارات يحرصون على أن يدفنوا أموالهم وحليهم فى الأرض . أو يخفوها فى أقبية وآبار . كما يحدث اليوم كثيراً فى ممالك الشرق ذات النظام الاستبدادى ، أو المشتبكة فى حرب . وأيام أن طرد العرب أخفى الكثير منهم أيضاً أثمن ما يملكون متوقعين أن نفيهم لن يكون إلا إلى حين . وأن الأيام ستمكن لهم فيعودون ويستردون كنوزهم فى يوم من أيام المستقبل . وليس من شك أن المطمور من ذخائر الذهب والفضة كان يعثر عليه أحياناً فى الفترة بعد الفترة بعد قرون ، بين قلاع العرب المخربة ومساكنهم . وقد تجد آلافاً من القصص الخيالية يعوزها شىء كهذا من الحقيقة ليعلم أصلها . والقصص التى تنشأ على هذا النحو يكون لها عادة شىء من الطابع الشرقى . وتتسم بهذا المزيج العربى القوطى الذى يبدو لى أنه طبع كل شىء فى أسبانيا بطابعه ، ولا سيما فى الولايات الجنوبية . فالثروة المخبوءة دائماً معوذة بتعاويذ سحرية ومصونة بطلسم وتميمة . وأحياناً تكون فى حماية وحش فظ . أو تنين شرس ، وأحياناً بمغاربة مسحورين يجلسون فى سلاحهم إلى جانبها . بسيوف مسلولة — جامدين كأنهم تماثيل ، بعيون لا تنام على

مر الأعوام . والحمراء طبعاً ، نظراً لظروفها التاريخية الخاصة ، ممقل لأساطير شعبية من هذا النوع ،ومخلفات أثرية شتى يكشف عنها فى الحين بعد الحين ، تعين على التمكين لهذا .

وفى وقت ما كشف عن إناء فخارى يحوى نقودا عربية وهيكل ديك ، فكان رأى بعض ثاقبى الفكر من المفتشين أنه حتما قد دفن حياً . وفى وقت آخر حفر عن إناء يضم جعلا كبيراً من الآجر تغطيه نقوش عربية ضمنت عوذة هائلة ذات تأثير سحرى .

وعلى هذا فإن ذكاء هذه الذرية الشعثاء التى سكنت الحمراء تركز فى التعلق بالأوهام ، حتى إنه ليس من ردهة ولا برج ولا قبو فى القلعة القديمة إلا وجعل منه مشهد لأسطورة عجيبة . ولما كنت فى الصفحات السابقة فيما أعتقد. قد جعلت القارىء على حال من الأنس بالحمراء. فإنى خاط خطوة أوسع إلى الأساطير العجيبة التى تتصل بها ، والتى قد جهدت فى أن أصوغها على هذا الشكل وتلك الصورة من متناثرات أسطورية ، ولع التقطها التقاطا فى طريق جولاتى ، كما يستنبط عالم بالعاديات وثيقة تاريخية منسقة من خطابات قليلة مبعثرة تكاد تنطمس حروفها . وإذا زعزعت أسطورة من هذه الأساطير ثقة القارىء المفرط فى الريبة، فعليه أن يذكر طبيعة المكان ثم ليلتمس لى عذراً . وعليه ألا يتوقع أن يجد هنا ما ألف الناس من سنن تهيمن على مناظر البيئات العامة. ومجريات الحياة اليومية،وأن يذكر أنه يطأ ردهات قصر مسحور ، وأن كل ما هنا أرض مسحورة .

* * *

بيت دوارة الريح

على حافة تل البيازين الشاهق تقع أعلى ناحية من غرناطة،حيث تقوم أطلال بناء كان بالأمس قصراً من قصور الملوك، أقيم بعد الغزو العربى لإسبانيا . وقد استحال اليوم إلى مصنع وعميت معالمه على حال كلفتنى جهداً كثيراً فى تعرفه، هذا على الرغم من عون ماتيو اكسيمنس اللبيب الملم بكل شيء . ولا يزال هذا المبنى يحمل الاسم الذى عرف به قروناً. وهو بيت دوارة الريح. سمى بذلك نسبة إلى تمثال من البرونز لمحارب على ظهر جواده مجهز بدرعه وحربته. وقد أقيم فوق برج يدور مع الريح يحمل شعاراً عربياً كتب عليه : يقول العاقل ابن حبوس : بهذا النحو تحمى الأندلس .

وابن حبوس هذا ، كما يقول إخباريو عرب الأندلس، كان قائداً فى جيش طارق الغازى. وقد خلفه طارق على غرناطة حاكماً لها . والمفروض أنه قصد بهذه الدمية الحربية أن تكون تذكاراً خالداً للسكان المسلمين الذين يحيط بهم الأعداء، يلفتهم إلى أن أمنهم لن يتحقق إلا إذا كانوا دائماً على حذر مستعدين للمعركة . وعلى كل حال فقد جاء فى الأخبار المتواترة رواية أخرى عن ابن حبوس وقصره تؤكد أن هذا الفارس البرونزى كان فى الأصل طلسما ذا تأثير عظيم ، إلا أنه على مر السنين فقد خواصه السحرية وانحط إلى دوارة ريح . وإليك الأخبار المتواترة عن ذلك :

* * *

أسطورة المنجم العربى

فى سالف الأزمان، ومنذ مئات كثيرة من الأعوام، كان هناك ملك عربى يدعى ابن حبوس يحكم مملكة غرناطة ، وكان فاتحاً متقاعداً ، أعنى أنه كان فى عنفوان شبابه يحيا فى غزوات مستمرة وغارات . وما أن ضعف ونالت منه الأيام حتى اشتهى الدعة والراحة . ولم يرغب فى أكثر من أن يحيا حياة سلم مع الناس كلهم، وأن يعيش فى ظل أمجاده يتمتع فى هدوء بما انتزعه من جيرانه .

ومهما يكن من شىء فإن هذا الملك المسن الذى بلغ الغاية فى رجاحة العقل وحب السلم ، كان له منافسون من الشباب يناوئونه ، أمراء ملئوا بمثل هواه الأول للشهرة والحرب . وأعدوا العدة لأن يناقشوه الحساب على ما سلف منه نحو آبائهم . كما أن بعض ولايات بعيدة من أملاكه، التى سلك معها مسلك المتجبر أيام بأسه، كانت الآن — وقد أخلد هو للراحة ضعفاً — متأهبة أيضاً لتشق عصا الطاعة وتهدده بالإحداق به فى عاصمته. وعلى هذا فقد كان له فى كل ركن عدو . وبما أن غرناطة كانت محاطة بجبال موحشة شامخة تخفى وراءها تقدم العدو . فقد بقى السيئ الحظ ابن حبوس فى حال من اليقظة والذعر لا تنقطع ، لا يدرى من أى ركن سيقتحم عليه خصومه . وكان عبثاً ما أقامه من مرقبات على الجبال وإقامته حراساً على كل ممر ، وأمره لهم بأن يشعلوا النار ليلا ويثيروا الدخان نهاراً عندما يقترب عدو . وكان أعداؤه المتيقظون ، الذين أحبطوا كل ما احتاط له، ينبثون من بين بعض الشعاب المجهولة يعيثون فى بلاده تحت سمعه وبصره ، ثم يؤوبون بالأسرى والأسلاب إلى الجبال . وهو أبداً مسالم لا يقدم على الحرب حتى فى أكثر المآزق ضيقاً . وبينما كان ابن حبوس تقض عليه مضجعه هذه الورطات وتلك المعاكسات ، وصل إلى ساحته نطاسى من العرب القدامى . وكانت لحيته الشهباء تضرب إلى زناره ، وكان كل شىء فيه يدل على

أنه بلغ أرذل العمر . ومع ذلك فقد سار أكثر الطريق كله من مصر إليه على الأقدام ، لا يعتمد إلا على عكازة عليها نقوش هيروغليفية . وقد سبقته شهرته . وكان اسمه ابراهم بن أبى عجيب . ويقال إنه أدرك أو كاد أيام محمد « صلعم » وإن ابن أبى عجيب آخر أصحاب النبى . وقد صحب فى طفولته جيش عمرو إلى مصر حيث بقى هناك سنين عدة يدرس المعميات ، وعلى الأخص السحر . على الرهبان المصريين . وفوق هذا فقد قيل إنه كشف عن سر إطالة الحياة . وبفضله وصل إلى عمر طويل يزيد على القرنين ، ولأنه لم يكشف عن هذا السر إلا بعد أن أخنى عليه الدهر إخناء فلم يستطع غير أن يحتفظ بتجعداته وشيبة شعره . وقد أكرم الملك وفادة هذا الرجل العجيب العجوز . وكان الملك قد أخذ يقبل على النطاسيين فى لهفة عظيمة ، شأنه شأن الحكام الذين نالت منهم الأيام . فخص هذا النطاسى بجناح فى قصره . ولكن الفلكى آثر عليه كهفاً فى جانب التل الذى يشرف على غرناطة ، حيث تقوم الحمراء على الجانب نفسه منذ أن بنيت . وقد طلب أن يوسعوا له الكهف حتى يتمكن من إنشاء ردهة فسيحة مرتفعة لها كوة مستديرة فى أعلاها ، من خلالها يستطيع أن يتطلع إلى السماء كأنه يتطلع من بئر . وينظر نجوم السماء حتى فى رابعة النهار . وغطيت جدران هذه الردهة بنقوش هيروغليفية لها رموز سرية . وبصور النجوم بسماتها . كما أثثت هذه الردهة بأدوات عدة صنعت بتوجيهه على يد صناع مهرة من غرناطة . ولكن ما لها من خصائص سحرية . فهو وحده الذى يعلم علمها . وفى وقت قصير أصبح الحليم إبراهم موضع سر الملك الذى يلجأ إلى رأيه فى كل أمر طارئ . وكان ابن حبوس مرة متململا من جور جيرانه . ويشكو تلك اليقظة الدائبة التى اضطر إليها اضطراراً ليحمى نفسه من غاراتهم . وحين انتهى من حديثه بقى هذا المنجم صامتاً برهة ثم انطلق يجيب : أنت تعرف أيها الملك أنى لما كنت فى مصر رأيت أعجوبة عظيمة من صنع كاهنة وثنية عجوز . فعلى جبل يشرف على مدينة يورسا . ويطل على وادى نهر النيل العظيم . كان هيكل

كبش من فوقه هيكل ديك وكلاهما من مسبوك النحاس الأصفر ويدوران على مدار . فإذا ما هددت المملكة بالغزو اتجه الكبش إلى حيث مقدم العدو وصاح الديك . وفى هذا إنذار لسكان المدينة بالخطر وبالناحية التى يقدم منها . فيستطيعون أن يعدوا العدة فى حينها ليدفعوه . فصاح ابن حبوس المسالم : الله أكبر ! ما أجله من كنز أن يكون لى مثل هذا الكبش فيرعى هذه الجبال من حولى بعين ساهرة ، ومثل هذا الديك ليصيح إبان الخطر : الله أكبر ! عندها أنام ملء جفنى آمناً فى قصرى اعتماداً على هؤلاء الحراس على القمة .

وانتظر المنجم حتى سكن خاطره ثم وصل حديثه . وبعد أن أتم عمرو — أنزل الله عليه السكينة فى قبره — المنتصر فتح مصر بقيت أنا بين الكهان القدامى فى بلادٍ أدرس طقوس عقيدتهم الدينية وشعائرها . جادا فى أن أجعل هذه العلوم الخفية ، التى بها شهروا ، ملك يمينى . وكنت يوماً جالساً على شاطىء النيل أتحدث إلى كاهن قديم . فأشار إلى الأهرام العظيمة الناهضة نهوض الجبال من بين الصحراوات المجاورة . ثم قال لى : كل الذى أستطيع أن نعرفك به شيء لا يذكر إلى جانب ما انطوت عليه تلك الأبنية الشامخة ، ففى وسط الهرم الأوسط مخدع اتخذ ضريحاً أودعت فيه مومياء الكاهن الأعظم ، وهو الذى أعان فى تشييد هذه الأبنية الرائعة . وقد دفن معه كتاب عجيب فى المعرفة يحتوى على جميع أسرار السحر والفن . وهذا الكتاب هو الذى نزل على آدم بعد هبوطه . ثم انتقل من جيل إلى جيل حتى انتهى إلى الحكيم الملك سليمان ، وقد استعان به فى بناء هيكل بيت المقدس . ولكن كيف انتهى إلى ملك بانى الأهرام؟ فهذا علمه عنده وحده وهو الذى يعلم كل شيء . وعندما سمعت هذه الكلمات من هذا الكاهن المصرى تحرق قلبى شوقاً للحصول على هذا الكتاب . وكنت أستطيع أن أستعين بخدمات كثير من جنود جيشنا الغازى ، وبعدد من المواطنين المصريين . وبهؤلاء شرعت فى العمل واخترقت كتلة الهرم الصماء من الأهرام حتى انتهيت إلى مدخل من مداخله الخفية وممراته بعد عناء شديد ، وتبعت السد مصعداً سالكاً

متاهة مفزعة حتى دخلت إلى الصميم من جوف الهرم، بل إلى الضريح، حيث رقدت مومياء الكاهن الأعظم المحنطة قروناً، وكشفت عن المومياء الصناديق التى ضمتها، وفككت عنها لفافاتها وعصاباتها الكثيرة، وأخيرا وجدت الكتاب اليتيم فى حضنه. فتناولته بيد مضطربة، وتحسست طريقى للخروج من الهرم تاركا المومياء فى ضريحها المظلم الساكن لتنتظر اليوم الآخر يوم النشر والحساب. وصاح ابن حبوس: يابن أبى عجيب، ما أعظمك من رحالة. وما أعظم ما شاهدت من عجائب. ولكن ما نفع هذا السر سر الأهرام لى، وهذا الكتاب كتاب المعرفة للحكيم سليمان. ها هو ذا أيها الملك، فبدراستى لهذا الكتاب ثقفت جميع الفنون السحرية، وأستطيع أن أسخر الجن لتنفيذ ما أرسم. وهذا السر الغامض لطلسم بورسا أصبح شيئاً معروفاً لى. وفى استطاعتى أن أعمل مثل هذا الطلسم، لا بل واحداً ذا تأثير أعظم. وصاح ابن حبوس: أيها الحكم ابن أبى عجيب. إن مثل هذا الطلسم خير عندى من جميع المرقبات على التلال وهؤلاء الحراس على التخوم. هيئ لى مثل هذا الحارس ولك أثمن ما فى كنوزى.

وشرع المنجم لساعته فى العمل ليشبع رغبات الملك فى إنشاء برج عظيم أعلى القصر الملكى. الذى يقوم على قمة تل البيازين. فبنى البرج من حجارة جلبت من مصر. وفيما يقال من هرم من أهرامها. وكان فى الجزء الأعلى من البرج فناء مستدير له نوافذ. تلقاء كل جهة من جهات بيت الإبرة، وأمام كل نافذة منضدة قد صف عليها ما يصف على رقعة الشطرنج. أمثال جيش فيه الفارس والماشى، معها مثال للعاهل الذى يحكم تلك الجهة. وكلها منحوتة من الخشب. وإلى كل منضدة من هذه رمح صغير لا يكبر المتك، حفرت عليه بعض حروف كلدانية. وكانت هذه الردهة تحفظ مغلقة دائماً، عليها باب من نحاس أصفر بقفل كبير من الصلب، كان مفتاحه فى يد الملك.

وعلى قمة البرج تمثال من البرونز لفارس عربى، مثبت على مدار، بدرع فى إحدى ذراعيه، وقد شرع رمحه قائماً. وكان وجه هذا الفارس إلى المدينة كأنه

قائم على حراستها ، ولكن اذا اقترب منها عدو يتحول هذا التمثال إلى حيث يقبل العدو ويسدد رمحه كما لو كان يريد أن يُعمله .

وعندما تم هذا الطلسم كان ابن حبوس قلقاً كل القلق ليعرف آثاره ، ومشوقاً شوقه الحار إلى غزوة من الغزوات بعد لهفة غب راحة . فقد تحققت رغبته وشيكاً . وجاءت الأخبار فى بكرة صباح عن طريق الديدبان المعين لحراسة البرج بأن وجد الفارس البرونزى تحول نحو جبال البيرة . وأن حربته صُوبت تماماً نحو ممر لوبة . فقال ابن حبوس : فلتدق الطبول . ولينفخ فى الأبواق مؤذنة للجيوش . ولتأخذ كل غرناطة أهبتها .

وقال المنجم : أيها الملك . دع مدينتك لا تزعجها . ومحاربيك لا تدعهم إلى السلاح . فلا حاجة لنا بالقوة لتخلصك من أعدائك . ولتصرف تابعيك ولنتقدم نحن وحدنا معاً إلى الردهة السرية من البرج . وصعد ابن حبوس فى سلم البرج متكئاً على ذراع من لا يزال أكبر منه سناً إبراهيم بن أبى عجيب . وفتحا الباب البرونزى ودخلا . وكان الشباك المطل على ممر لوبة مفتوحاً . ثم قال المنجم : فى هذا الاتجاه يكمن الخطر . اقترب أيها الملك وانظر سر المنضدة . فاقترب الملك ابن حبوس من تلك الرقعة التى تشبه رقعة الشطرنج . التى عليها صفت الأمثال الخشبية الصغيرة . وما كانت أشد دهشته حين أدرك أنها كلها تتحرك . فالخيل تثب وتقفز . والمحاربون يلوحون بحرابهم . وانبعثت الأصوات خافتة : أصوات الطبول والأبواق وقعقعة السلاح وصهيل الجياد ، ولكنها كلها لم تكن أعلى ولا أكثر وضوحاً من طنين النحل ، أو ذباب الصيف فى أذن وسنان قد اضطجع فى الظل وقت الهاجرة .

ثم قال المنجم : انظر أيها الملك دليلا على أن أعداءك هم الآن فى ساحة المعركة ، وأنهم لا شك يتقدمون خلال تلك الجبال فى ممرات لوبة . إذا شئت أن تحدث بينهم الذعر والاضطراب . وأن تحملهم على التقهقر دون ضياع فى الأرواح . فاضرب هذه الأمثال بمؤخرة الرمح السحرى . وإذا شئتها بينهم حرباً دموية ومذبحة فاضربها بمقدمة الرمح . وغشيت وجه ابن حبوس المسالم قتمة ،

وأمسك الرمح السحرى، وفى لهفة المشوق المضطرب، مشى متحاملا نحو المائدة. ولحيته الشهباء ترتجف بنشوة الانتصار، ثم صاح : يابن أبى عجيب. أظن أننا لن نهرق دماً كثيراً. وفيما هو يقول هذا طعن بهذا الرمح السحرى بعض هذه الأمثال الصغيرة، وضرب آخر بمؤخرة الرمح. وعندها وقع المتقدم شبه ميت على المنضدة، وانكفأ الآخرون بعضهم على بعض، واختلط الحابل بالنابل، فى مذبحة غير مدارة. وكان عسيراً على المنجم أن يقف يد أكثر الملوك سلماً، وأن يمنعه من أن يقضى على أعدائه قضاء مبرماً. وأخيراً أقنعه بأن يترك البرج وأن يرسل كشافين إلى الجبال عند ممرات لوبة. فعادوا بالنبأ أن جيشاً مسيحياً تقدم خلال جوف جبال نقادا، وبينما كان على مرأى العين من غرناطة أو يكاد، دب الشقاق بينهم وصوب بعضهم الحراب إلى بعض، وكانت مذبحة كبيرة ارتدوا بعدها عن التخوم. واستخف الطرب ابن حبوس عند ما ثبت له تأثير الطلسم ثم قال : وأخيراً سأحيا حياة هادئة، وسيكون أعدائى فى قبضة يدى أيها الحكيم ابن أبى عجيب. ماذا أهب لك كفاء هذه النعمة ؟.

فقال ابن أبى عجيب : إن رغبات رجل عجوز فيلسوف أيها الملك قليلة هينة. وما أطلب إليك إلا أن تعطينى من الوسائل ما أصلح به كهفى ليكون منسكاً ملائماً. وفى هذا مقنعى. فصاح ابن حبوس، وهو يخفى سروره : ما أرخص الجزاء! وما أنبلك فى تواضعك أيها الحكيم الصادق!

واستدعى خازن كنوزه وأمره أن يعطى إبراهيم كل ما يطلبه من مال لإتمام مسكنه وتجهيزه.

وعندها أصدر المنجم أوامره بنحت مخادع مختلفة فى الحجر الصلد، حتى تكون صفوفاً من الغرف تتصل بردهته التى أراد إعدادها لتنجيمه. وطلب أن تزود هذه بفاخر المتكآت والأرائك، وأن تغطى الجدران بأغلى الحرائر الدمشقية، وقال : إنى رجل عجوز ولم تعد عظامى تطيق مس المضاجع الحجرية. وما أحوج هذه الجدران الرطبة إلى أن تغطى. وأنشئت أيضاً له حمامات زودت

بجميع ألوان الطيوب والزيوت العطرية ،وقال : إن الاستحمام ضرورى ليمنع يبوسة السن وليجدد ما يذبله الاستذكار من نضارة وطراوة .

وطلب أن يعلق فى الأجنحة أعداد لا تحصى من المصابيح الفضية والبلورية ، التى ملأها بالزيت العطر الذى جهزه هو وفق وثيقة كشف عنها فى المقابر المصرية . وكان الزيت ذا طبيعة ثابتة ، يشع نوراً رخياً كالنور اللطيف بالنهار . ثم قال : إن نور الشمس زاه ومثير لعينى رجل مسن ، ولكن نور المصباح أكثر ملاءمة لدراسات الفيلسوف . وضجر خازن الملك ابن حبوس بهذه المبالغ التى كانت تطلب كل يوم لإعداد هذا المنسك ، وحمل إلى الملك شكواه . ومع أنه قد سبقت بذلك كلمة ملكية إلا أن ابن حبوس هز كتفيه ، وقال : علينا بالصبر ، فقد نقل هذا الرجل العجوز فكرته عن خلوة فلسفية من داخل الأهرام ومن خرائب مصر الممتدة ، ولكل شيء نهاية ، وهكذا يكون لتأثيث الكهوف نهاية . ولقد كان الملك على حق ، فقد تم المنسك أخيراً ،وأصبح قصراً فخماً تحت الأرض .

وهناك قال إبراهيم بن أبى عجيب لخازن الكنوز : حسبى الآن . وسأعتزل فى خلوتى . وأخصص وقتى للدرس . ولست راغباً فى غير سلوى زهيدة أسرى بها عن نفسى فيما بين عملى العقلى .

فقال : أيها الحكيم إبراهيم ، سل ما تريد ، إنى ملتزم بكل ما هو ضرورى لخلوتك .

فقال الفليسوف : ما أشوقنى إلى أن يكون عندى قليل من الراقصات ! فصاح الخازن دهشاً : نساء راقصات ! وأجاب العجوز فى رزانة : نساء راقصات ، وفى قليل منهن مقنع ، فإنى رجل مسن وفليسوف ، لى عادات سهلة ورغبات ميسورة . وعلى كل حال فلتخترهن صغاراً فاتنات المنظر ،إذ رؤية الشباب والجمال مما يجددان عمر العجوز . وفيما كان الفليسوف إبراهيم بن أبى عجيب يقضى عمره فى صومعته على هذا النحو فى حكمة ، كان ابن حبوس المسالم يشنها

حملات ضاربا بالتماثيل فى برجه . وكان شيئاً مجيداً لعجوز مثله هادئ الطبع أن يثيرها حرباً سهلة ، وأن يمتع نفسه وهو فى مخدعه بأن يدفع بعيداً جيوشاً بأكملها كما يدفع أسراباً كثيرة من الذباب . ولفترة من الزمن أخذ يشتط فى إشباع أهوائه ، على ما فيه من تسامح خلقى حتى إنه ضايق جيرانه واستفزهم ليحملهم على شن الغارات عليه . ولكنهم شيئاً فشيئاً أخذوا حذرهم لتلك الكوارث التى توالت عليهم فلم يبق واحد منهم يجرؤ على أن يغير على أصقاعه .

وثبت الفارس البرونزى فى وضعه السلمى أشهراً كثيرة بحربته مرفوعة فى الهواء ، وبدأ الحاكم الفاضل العجوز يسأم هذا راغباً فى رياضته المحببة ، وأخذ يزداد نكداً بهذا الهدوء المطرد .

وأخيراً وفى ذات يوم دار فجأة هذا الفارس الطلسمى وخفض رمحه وأشار به إلى خطر داهم بين جبال قادش . فأسرع ابن حبوس إلى برجه ، ولكن المنضدة السحرية بقيت ثابتة فى هذا الاتجاه ولم يتحرك غير محارب واحد . فانزعج لهذه الحال وأرسل قدماً فصيلة من الفرسان لترود الجبال وتستطلع ، فعادوا بعد غيبتهم أياماً ثلاثة وقالوا : لقد بحثنا فى كل ممرات الجبال . فلم نجد أثراً لخوذة أو رمح . وكل ما وجدناه فى طريق كشفنا عذراء مسيحية ذات جمال فائق نائمة فى الهاجرة إلى جانب نافورة . وقد حملناها أسيرة . وصاح ابن حبوس وعيناه تبرقان بالحياة : حسناء ذات جمال فائق ! فلتأتوا بها إلى حضرتى . وعلى هذا فقد قيدت العذراء الجميلة إلى حضرته ، وقد ألبست فاخر الحلى مما شاع بين قوط أسبانيا أيام الفتح العربى ، من لآلىء تخطف الأبصار ببريقها شدت إلى غدائرها الغدافية ، ومن جواهر متألقة توج بها جبينها . تنافس بهاء عينيها ، وأدارت حول جيدها سلسلة ذهبية علقت فيها قيثارة من فضة تدلت إلى جانبها .

وكانت عيناها السوداوان المتألقتان ، وهما تمضان ، كنار تقذف بشررها قلب ابن حبوس ، الذى وإن مسه الذبول فما أسرعه إلى الاضطرام . وكانت وهى تتثنى فى مشيتها الناعمة الآخذة تسحر لبه . فصاح جزلا : يا أجمل النساء ! من

أنت؟ ومن تكونين ؟ فقالت : ابنة أمير قوطي كان يحكم هذه البلاد بأخرة . وقد فنيت جيوش أبي بين الجبال كما لو كان ذلك بسحر ساحر . وقد طوح به إلى المنفى وأصبحت ابنته أسيرة . فهمس ابن أبي عجيب : حذار أيها الملك ، فقد تكون هذه إحدى عرافات الشمال اللائى نسمع عنهن ، يتراءين فى أعظم الألوان خداعاً ليستهوين المستخفين ، وإخالنى قرأت فى عينيها العرافة . وفى كل حركة من حركاتها السحر . ولا شك عندى أنها هى العدو الذى أشار إليه الطلسم . وأجابه الملك : يا بن أبى عجيب ، إنى مؤمن أنك رجل حكيم ، وأنك ساحر عليم ، ولكنك قليل الخبرة بأحوال النساء . وفى هذه البابة فإنى لا أسلم لإنسان ما ولا لسليمان الحكيم نفسه . على الرغم من كثرة زوجاته وحظياته . وأما عن هذه العذراء فإنى لا أرى معها ضيراً ، فهى جميلة المحيا وقد نالت الحظوة لدى . فأجابه المنجم : ألق إلى بسمعك أيها الملك . لقد نصرتك كثيراً بفضل طلسمى . ولكنى لم أقاسمك الأسلاب ، فاعطنى إذاً هذه الأسيرة الشاردة لتسرى عنى فى خلوتى بقيثارتها الفضية ، وإذا كانت ساحرة حقاً فعندى ما يفسد عليها سحرها ويدع رقاها لا قيمة لها . فصاح ابن حبوس : ماذا ؟ نساء أخريات ! أليس فيما بين يديك من النساء الراقصات بعد مقنع للترفيه عنك ؟ فقال : حقاً ، إن عندى راقصات . ولكن ليس من بينهن مغنيات . وما أرضانى بقليل من المغنيات يجددن للعقل نشاطه حين ينهكه عناء الدرس . وقال الملك ، وقد نفذ صبره : هدئ من شهواتك أيها الناسك . فقد اصطفيت هذه العذراء لنفسى . وقد أنست بها أنساً كثيراً . ما أشبهه بذلك الذى وجده داود ، أب سليمان الحكيم ، فى صاحبته أبيشج الشونمية .

ولم يبد المنجم توسلا أو احتجاجاً إلا استفز الملك إلى مزيد من الرفض البات . وافترقا على كدر كبير . وحبس الحكيم نفسه فى صومعته مفكراً فى خيبته . على أنه قبل أن يرحل حذر الملك مرة أخرى ليأخذ حيطته من تلك الأسيرة الخطيرة . ولكن أنّى لهذا الرجل العجوز ، وقد شفه الحب ، أن يستمع

إلى النصيحة . وأسلم نفسه لسلطان هواه العاتى . وكان كل همه أن يجعل نفسه محبباً لتلك القوطية الحسناء. وفى الحق إنه لم يك يملك شباباً ليهديه ، ولكن فى يديه الثراء . وإذا ما أسن المحب فما أكثر ما يكون كريماً . فأرسل ينقب فى حى السقاطين بغرناطة عن أثمن بضاعات الشرق. من حرير وجواهر وأحجار كريمة وطيوب فاخرة. مما تنتجه أسيا وإفريقية. من كل ثمين ونادر. وأغدقه على الأميرة .

وأقيمت للتسرية عنها الحفلات والولائم بشتى ألوانها . والغناء والرقص والمثاقفة ومصارعة الثيران. وأصبحت غرناطة إلى حين مشهداً لمهرجانات دائمة . وشهدت الأميرة القوطية كل هذه المباهج شهود ربيبة النعمة . كل شىء فيها مما يقضى به الولاء لمنزلتها . أو بالأحرى فلجمالها .إذ الجمال أعلى فروضاً حتى على الأقدار. وكأنها كانت تسر سروراً خفياً بدفعها الملك إلى هذا الإسراف الذى كاد يأتى على خزائنه . ونظرت إلى كرمه الواسع نظرتها إلى شىء مألوف.

ولن يستطيع أن يدعى هذا المحب الجليل أنه بما بذل من جهد وجوذ قد مكّن لنفسه من قلبها أى تمكين . فى الحق إنها لم تتجهم له أبداً . ولكنها مع ذلك لم تبسم له أبداً . وعندما أخذ يبثها هواه ضربت على قيثارتها الفضية فانبعث منها صوت سحرى فاتن. سرعان ما مال معه رأس الملك وغلبه النعاس . وأخذ شيئاً فشيئاً يغرق فى نومه. حتى إذا ما استيقظ أحس انتعاشاً عجيباً. وهدأت فيه إلى حين هدوءاً تامًّا عاطفة الهوى .

وكان هذا مثبطاً له فى هواه ، إلا أن هذا النعاس كان مصحوباً بأحلام سارة استولت على مشاعر هذا المحب الوسنان استيلاء تامًّا . فعاش فى تخيلاته. وغرناطة كلها تستخف بهواه وتتحسر على تلك الكنوز التى تبدد فى سبيل أغنية . وأخيراً انصبت المصائب على رأس ابن حبوس ، ولم يغن فيها طلسمه فتيلا لتحذيره . فشبت ثورة فى العاصمة نفسها وأحاط بقصره رعاع مسلحون وهددوا حياته وحياة حظيته المسيحية . واضطرمت فى صدر الملك فورة من فوراته

الأولى للحرب . فخرج إليهم على رأس حفنة من حراسه ، واضطر العصاة للفرار وقضى على الثورة فى مهدها . وما أن استتب الأمن حتى فكر فى المنجم الذى لا يزال حبيساً فى صومعته يجتر مرارة الحنق والغيظ .

فتزلف إليه ابن حبوس فى نغمة المتودد قائلا : أيها الحكم ابن أبى عجيب ، حسناً فعلت بتحذيرك إياى من تلك الأسيرة الجميلة ، ولكن أخبرنى إذاً يا من تتنبأ سريعاً عن المخاطر قبل وقوعها : ماذا أفعل لأدرأها عنى ؟ فقال له : أبعد عنك تلك الفتاة الخائنة التى كانت السبب . وصاح ابن حبوس إذاً ما أسرعنى للتخلى عن ملكى ! وأجابه المنجم : ولكنك عرضة لأن تفقدهما معاً .

وقال الملك : لا تكن غليظ القلب حنقاً ، يا أكثر الفلاسفة تبحراً ، ولا يغيبن عن بالك ما أعانيه من همين : هم الملك وهم الحب . وتلمس بعض الوسائل لحمايتى من تلك الشرور التى تهددنى . لست مفتوناً بالعظمة ، ولست أجرى وراء السلطان ، ولكنى لا أحن إلا للراحة والسكون . فهل أستطيعها خلوة هادئة ، أعتزل فيها العالم وكل ما فيه من مشاغل وأبهة ومتاعب . وأجعل ما بقى لى من عمر للهدوء والحب .

وتفرسه المنجم برهة من تحت حاجبيه الكثيفتين ، وقال : وماذا أنت معطينى إذا هيأت لك مثل هذه الخلوة ؟

وقال له الملك : تستطيع أن تسمى ما تحب أن تجزى به ، بالغاً ما بلغ ، ما دام فى مقدورى ، وسأكون لك ما حييت . فقال له : هل سمعت أيها الملك عن جنة إرم إحدى عجائب بلاد العرب السعيدة ؟

قال : لقد سمعت عن تلك الجنة وقد جاء ذكرها فى القرآن فى سورة « والفجر » . ذلك إلى أنى سمعت أشياء عجيبة يرويها الحجاج الذين كانوا فى مكة . ولكنى كنت إخالها أساطير مغرقة فى الخيال . كما هى عادة المسافرين إلى بلاد بعيدة فيما يخبرون به . فوصل المنجم حديثه مقطباً جبينه : لا تشكن أيها الملك فى قصص الرحالة ، فهى تشمل نوادر قيمة من المعرفة ، يحملونها إلينا من أطراف الدنيا . مثال ذلك قصر إرم وجنته ، فعامة ما نقلوه إلينا عنهما حق . وقد رأيتهما

بعيني رأسي . فاستمع إليّ أحدثك عن مغامرتي ، فإنها تحمل فى طياتها جواب ما سألت : فى أيامى الأولى حينما كنت عربياً قُحاً من عرب الصحراء ، كنت أرعى جمال أبى . وفيما أنا أخترق صحراء عدن ند جمل عن سائر الجمال وضللته . وبقيت أبحث عنه أياماً عدة ،ولكن دون جدوى ،حتى عنانى البحث وأضنانى . فاستلقيت ظهر يوم تحت نخلة إلى جانب بئر معطلة ونمت . ولما استيقظت وجدت نفسى على باب مدينة ، فدخلتها فرأيت شوارع وميادين وأسواق جليلة . ولكنها كانت جميعاً ساكنة لا يسكنها أحد ، وطفت بها حتى انتهيت إلى قصر ممرد جملت حديقته بالنافورات وبرك الأسماك والحرجات والأزهار ، وبساتين قد زخرت بلذيذ الفواكه . ولكنى لم تقع عيناى أيضاً على إنسان . وعندها أسرعت بالرحيل بعد أن استوحشت بوحدتى . وفيما أنا أتابع السير إلى باب المدينة التفت لألقى نظرة على القصر ،ولكنى لم أر شيئاً غير الصحراء الممتدة الساكنة تحت بصرى . وفى ذلك الجوار التقيت بناسك مُسن ، عنده علم أخبار الأرض وأسرارها ،ورويت له ما وقع لى . فقال لى : هذه هى جنة إرم الذائعة الصيت وإحدى عجائب الصحراء . وهى لا تتراءى إلا فى بعض الأوقات لنفر من الجائلين مثلك ، تستهويه بمناظر أبراجها وقصورها ،وأسوار حدائقها ، قد أطلت منها أشجار الفاكهة تنوء بثمارها ، ثم تختفى غير مخلفة شيئاً إلا الصحراء الموحشة ،وهذا هو حديثها . وفى سالف الأزمان عند ما كان العدنانيون يسكنون هذه المملكة ، بنى هنا الملك شداد بن عاد ،وحفيد نوح ،مدينة فخمة ، ولما أتمها وشاهد عظمتها امتلأ قلبه زهواً وعجباً . وعزم على أن يبنى قصراً ملكياً بحدائق تناظر تلك الجنات السماوية التى ورد ذكرها فى القرآن . ولكن لعنة السماء حلت عليه لجرأته . فاستأصل الله شأفته هو ورعيته من على ظهر الأرض. ولكن مدينته الفخمة وقصره وحدائقه فقد بقيت برُقية أزلية تحجبها عن أنظار بنى الإنسان إلا الذين يمرون لماماً فيحتفظون بذكرى اسمه حيا فى مخيلاتهم. وهذه القصة أيها الملك ،والعجائب التى رأيتها ، لا تبرح ذهنى أبداً . وبعد كر السنين

حينما كنت فى مصر . ووقع فى يدى كتاب المعرفة لسليمان الحكيم ، عزمت على أن أعود وأجدد زيارتى لجنة إرم . وفعلا فعلت . ورأيتها قد تراءت لى رأى العين . فأقمت فى قصر شداد وأمضيت أياماً عدة فى جنته الكاذبة . وكان الجنى القائم على القصر مسخَّراً لى بقوة سحرى . وكشف لى عن الرُّقى التى برزت بها هذه الجنة المسحورة إلى الوجود . والتى خفيت عن أعين الناس .

أيها الملك . أستطيع أن أحقق لك هذا حتى هنا على الجبال المشرفة على المدينة . ألست أعرف جميع الرقى السحرية . أو ليس فى ملك يمينى كتاب المعرفة لسليمان الحكيم . فصاح به ابن حبوس . وهو ترعد فرائصه متلهفاً : أيها الحكيم ابن أبى عجيب . إنك لرحالة حقًّا . وقد رأيت وعلمت عجائب الأشياء . ابتدع لى جنة كتلك ثم سلنى أى جزاء تحب . حتى ولو كان نصف ملكى . فأجابه الآخر : يا للأسف . فإنك تعلم أنى رجل عجوز وأنى فيلسوف . وما أيسر رغباتى . وكل ما أرجوه من جزاء هو الدابة الأولى بما تحمل . التى ستدخل الباب السحرى للقصر . فرضى الملك منه مسروراً هذا الشرط المتواضع . وبدأ المنجم عمله . وعلى قمة التل . وفى الحال فوق صومعته المنحوتة فى جوف الجبل . أمر بشق مدخل فى وسط برج عتيد . وكان هناك دهليز خارجى معقد مرتفع إلى القرب منه درب ضيق بأبواب ضخمة . فصنع المنجم بيده هو صورة مفتاح كبير . وعلى غلق العقد الخارجى للدهليز . وكان أكثر علوًّا من الباب الأول . نحت يداً هائلة . وكانا طلسمين ينطويان على قوة كبيرة أخذ يتلو عليهما كثيراً من الجمل بلسان غير معروف . ولما تم هذا الممر حبس نفسه هناك يومين فى ردهته التى يرصد فيها النجوم مشغولا بتعاويذ سحرية . وفى اليوم الثالث صعد فى التل وقضى اليوم كله على قمته . وفى ساعة متأخرة من الليل هبط ومثل بين يدى ابن حبوس . ثم قال : وأخيراً أيها الملك . قد أنجزت عملى . فعلى قمة التل يقوم قصر من أجمل القصور التى لم يفطن إليها أبداً عقل أو خطرت على قلب بشر . فهو يضم ردهات ودهاليز فخمة وحدائق ممتعة ونافورات رطبة وحمامات عطرة . وصفوة

القول فقد استحال الجبل كله إلى جنة كجنة إرم محفوظة بتعويذة عظيمها، تحجبها عن الأنظار ومحاولة بنى الإنسان. إلا عن الذين يملكون سر طلسمها. فصاح ابن حبوس فرحاً : غداً صباحاً مع مطلع الشمس سنصعد فى الجبل ونأخذ مكاننا . ولم يذق الملك السعيد النوم فى هذه الليلة إلا غراراً. وما كادت الشمس ترسل أشعتها تتأرجح حول قمة جبال نقادًا الثلجية حتى كان ممتطياً جواده. لايصحبه إلا نفر من مختار تابعيه يصعدون فى طريق صبب ضيق يُسلم إلى التل . وإلى جانبه فرس أبيض ركبته الأميرة القوطية تتلألأ الجواهر من ثيابها كلها. وحول عنقها علقت قيثارتها الفضية . ومشى المنجم إلى الجانب الآخر من الملك يعتمد فى خطوه على عكازته الهبر وغليفية. إذ لم يركب جوداً ما فى حياته أبداً . وتطلع ابن حبوس ليرى أبراج القصر متلألئة من فوقه وشرفات حدائقه المظللة ممتدة على طول المرتفعات . ولما لم يكن ثمّ شىء من هذا قد تكشف . قال المنجم : هذا هو السر الذى يحمى القصر . فلن تدرك شيئاً حتى تلج الباب المسحور وتتملك القصر .

وعند ما وصلوا إلى الممر تلبث المنجم وأشار إلى الملك يلفته إلى تلك اليد العجيبة وذلك المفتاح المنحوتين على الباب والعقد . ثم قال : هذان الطلسمان يحرسان الطريق إلى هذه الجنة. وإلى أن تمتد تلك اليد البعيدة إلى أسفل لتقبض على المفتاح فلن تستطيع قوة بشرية أو عمل سحري أن يتغلب على رب هذه الجبال . وفيما كان ابن حبوس يتطلع فاغراً فمه مشدوهاً. وقد أخرسه العجب بتلك الطلسمات الغامضة ، تقدم جواد الأميرة ورمى بها على الباب فى وسط الحصن الخارجى . فصاح المنجم : انظر أيها الملك. هذا جزائى الموعود. الحيوان الأول بما يحمل الذى يكون أول داخل من الباب السحرى . وتبسم ابن حبوس يحسبه شيئاً من مداعبات الرجل العجوز . ولكنه عند ما أحس منه الجد ، أخذت لحيته الشهباء تضطرب حنقاً ، ثم قال متجهماً : يابن أبى عجيب . ما هذه المواربة ؟ فأنت تعلم ما قصدت إليه بعهدى لك : أولى الدواب المحملة بحملها التى تدخل من

هذا الباب . فخذ أقوى البغال من اصطبلى . وحمّلها أنفس ما فى خزائنى ، ولتكن هذه لك ، ولكن لا يجدر بك أن تتطلع بفكرك إلى من هى مبعث السرور إلى قلبى . وصاح المنجم فى ازدراء : وما حاجتى إلى المال ! أليس لى كتاب المعرفة لسليمان الحكيم ، وفيه أمر كنوز الأرض السرية ؟ إن الأميرة من حقى ، وإن كلمة الملوك موفاة ، وإنى أطالب بها خالصة لى . ونظرت الأميرة من فوق جوادها الأبيض فى كبرياء ، وقد تقلصت شفتاها المتوردتان عن ابتسامة خفيفة ، فيها الازدراء لهذا الجدل الثائر بين ملتحيين أشهبى اللحية على الفوز بالشباب والجمال . وغلب حنق الملك على رُشده فصاح به : أيها الوضيع ابن الصحراء ! إنك وإن كنت ربّاً لكثير من الفنون ولكن لا تنسى أنى سيدك ولا تحسبن أنك خادع الملك .

فرد المنجم : سيدى ! ملكى ! أيها الحاكم لتل صغير ، يامن تطلب أن تتحكم فيمن بيده طلسمات سليمان ! وداعاً يابن حبوس : فلتتسلط على هذه المملكة الصغيرة ولتمرح فى جنة حماقاتك . أما عنى فسوف أهزأ بك فى خلوتى الفلسفية . وما قال هذا حتى أمسك بلجام الجواد الأبيض ثم ضرب الأرض بعكازته ، واختفى بالأميرة القوطية فى الحصن الخارجى . وانطوت الأرض عليهما . ولم يبق لانشقاق الأرض حيث هبطا أثر . وعقدت الدهشة لسان ابن حبوس حيناً . وعندما أفاق أمر ألفاً من العمال أن يحفروا بمعاولهم ومرفشاتهم حيث اختفى المنجم ، فحفروا وأطالوا الحفر ولكن دون جدوى ، وكانت آلاتهم لا تقوى على هذا الحصن الصلد من التل ، وكانوا إذا ماشقوا طريقاً صغيراً سارعت الأرض إلى إعادة ملئه سراعهم إلى حفره . وفكر ابن حبوس فى مدخل الكهف عند سفح التل . وأنه يقود إلى قصر المنجم الذى فى جوف التل ، ولكنه لم يعد له وجود . فلقد كان مرة مدخلا ولكنه الآن سطح صلد لصخرة عتيقة .

وما أن اختفى ابن أبى عجيب حتى تعطلت آثار طلسماته ، فبقى الفارس البرونزى جامداً فى مكانه وقد ولى وجهه شطر التل . مشيرة حربته إلى حيث

هبط المنجم ، كأن هناك أعدى أعداء ابن حبوس لا يزال متلبثاً . ومن حين إلى حين كانت أصوات الموسيقى ونغمات صوت أنثى تسمع خافتة من حضن التل ، وذات يوم جاء زارع إلى الملك يخبره أنه فى ليلته السابقة وجد سلعة فى الصخر زحف منها إلى أن أطل على ردهة تحت الأرض . قد جلس فيها المنجم على أريكة فخمة مترنحاً متمايلا على نغمات قيثارة الأميرة الفضية ، تلك القيثارة التى كان لها فيه أثر سحرى على مشاعره . وفكر ابن حبوس فى هذه السلعة الصخرية . ولكنها عادت مغلقة . وجدد محاولته لينبش عن منافسه ولكن ذهبت كل محاولاته أدراج الرياح . وكان فعل تعويذة اليد والمفتاح أيضاً أفعل من أن توهنها قوة من قوى البشر . وكان إلى قمة الجبل حيث موقع القصر الموعود والحديقة فضاء عار . فهل اختفى هذا الفردوس البهى عن الأنظار بسحر ساحر ، أم أنه كان أسطورة من أساطير ذلك المنجم . إن الناس ليحسنون الظن بالثانية . ولقد اعتاد البعض أن يطلق على المكان اسم : حماقة الملك . بينما يسميه آخرون : جنة الأحمق . ومما زاد فى هم ابن حبوس أن جيرانه ، الذين قاومهم وآذاهم وفرق شملهم فى فرصته تلك التى كان فيها سيداً للفارس الطلسمى . حين وجدوه لم يعد محمياً برقية سحرية أغاروا على حدوده من جميع الجهات .

وعاش من كان أميل الملوك إلى السلم بقية حياته فريسة للهموم . وأخيراً مات ابن حبوس ووورى التراب وقد مرت على موته السنون . وها هى ذى الحمراء قد بنيت على هذا الجبل المجلل بالأحداث تحقق إلى حدما تلك الطلاوات الخرافية عن جنة إرم . وذلك المدخل المسحور لا يزال سليما ، مصوناً من غير شك بتلك اليد العجيبة والمفتاح . وهو اليوم باب العدل ، ذلك المدخل الكبير إلى القلعة . وتحت هذا المدخل لا يزال المنجم فيما يقال مقيما فى ردهته تحت الأرض ، يهوم على أريكته على أنغام قيثارة الأميرة الفضية . وهؤلاء الحراس المتقاعدون الذين وقفوا لحراسة الباب يسمعون الألحان أحياناً فى ليالى الصيف ، ويستسلمون لقوتها المنومة فيهجعون فى أماكنهم ساكنين .

وليس ثم مكان مثله يخيم النعاس عليه . حتى إن هؤلاء الذين يقومون بالحراسة نهاراً قد تراهم عادة خافقة رءوسهم وهم جلوس على الأرائك الحجرية من ذلك الحصن الخارجى . أو نائمين فى ظلال الأشجار المجاورة . وهو لهذا يعد حقاً أكثر المراكز الحربية فى المملكة المسيحية مجلبة للنعاس والركود . وهذا كله، كما تحدث الأساطير القديمة، سيبقى مع مر الأزمان . وستبقى الأميرة أسيرة للمنجم . والمنجم أسير نعاسه السحرى بفعل الأميرة حتى اليوم الآخر . إلا إذا قبضت اليد العجيبة على المفتاح المقدر فطردت الرقى جميعها عن ذلك الجبل المسحور .

* * *

برج الأميرات

فى جولة من جولات المساء . إلى عل من وهدة ضيقة قد ظللتها أشجار التين والرمان والآس، تفصل ما بين أرض القلعة وبين أرض جنة العريف . أخذت بمنظر برج عربى عجيب رائع يقوم على الجدار الخارجى للحمراء . يرتفع عالياً فوق هامات الأشجار فتلفه الشمس ساعة المغيب بأشعتها الشفقية .

وهناك على ارتفاع عظيم نافذة وحيدة تشرف على الوهدة . وفيما كنت أتطلع إليها رأيت فتاة صغيرة تطل منها متوجة الرأس بالأزهار . وكان جليا أنها من طبقة غير تلك الطبقات العامة التى تسكن البرج القديم من القلعة . وقد ذكرنى ظهورها المفاجئ البهيج بأحاديث الجميلات الأسيرات فى قصص الجن .

ومما مكن لهذه الملابسات فى نفسى ما أخبرنى به تابعى ماتيو أن هذا كان برج الأميرات، قد سمى كذلك لأنه فيما ورد فى الأخبار . كان مقاماً لبنات

ملوك العرب . وعند ذلك زرت البرج ، وهو وإن لم تجر العادة بالسماح للغرباء برؤيته . إلا أنه جدير بالالتفات . فداخله ليس أقل جمالا فى فنه المعمارى . ولا أناقة فى حليته من أى جزء من أجزاء القصر . وإن رشاقة الردهة الوسطى بنافورتها المرمرية وعقودها المرتفعة وقبتها الفنية بنقوشها المفرغة وأعمال المصيص ذات الطراز العربى فى هذا المخدع . الذى وإن كان صغيراً إلا أنه جميل التناسق ، مع ما أصابت منه يد الأيام والإهمال ، كل هذا يؤيد القصة التى تقول : إنها كانت مقاماً للحسان من البيت الملكى . وتلك الملكة العجوز الشيطانة القميئة ، التى تسكن تحت سلم الحمراء . والتى كانت تتردد على أمسيات السيدة أنطونيا ، تحدث بعض الأخبار الخيالية عن أميرات عربيات ثلاث قصرهن أبوهن مرة فى هذا البرج . وكان ملكاً طاغية من ملوك غرناطة ولم يكن يسمح لهن إلا بالركوب ليلا إلى التل . كما لم يسمح لأى إنسان أن يمر فى طريقهن وإلا عرض نفسه للقتل . وقد بقين . حسبما تقول . ولا يُرين إلا أحياناً حين يكون البدر تماً ، فى أماكن منعزلة على طول جانب الجبل على خيول بيضاء غنية بتجافيفها متلألئة بجواهرها . وكن يختفين إذا حاول متحدث أن يتحدث إليهن . وقبل أن أذكر مزيداً عن هذه الأميرات ، أرى أن القارئ قد يكون على شوق فى أن يعرف شيئاً عن ساكنة البرج الجميلة ، ذات الشعر المكلل بالأزهار والتى كانت تطل من النافذة المرتفعة . لقد تبين لى أنها الزوجة الحديثة للمحترم معاون الحراس المتقاعدين . وهو وإن كان قد بلغ من العمر أرذله إلا أنه كان يملك من الشجاعة ما يضم بها إلى حضنه عذراء أندلسية صغيرة بشوشة . وقد يكون هذا الفارس العجوز سعيداً فى اختياره ، ولعله وجد من برج الأميرات مقاماً أكثر أمناً للجمال النسائى مما كان عليه أيام المسلمين . هذا إذا آمنا بصحة الأسطورة الآتية :

* * *

أسطورة
الأميرات الثلاث الجميلات

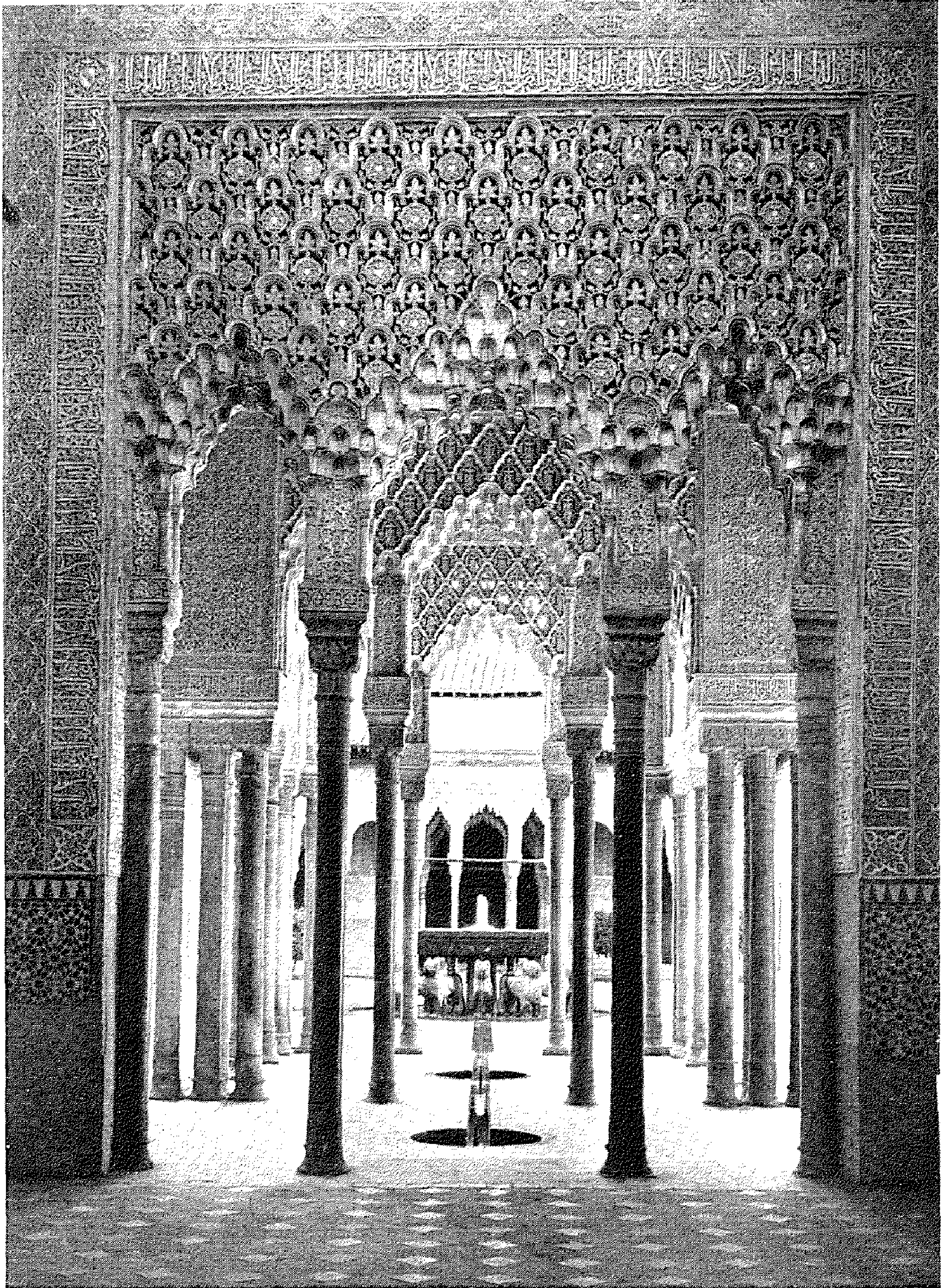
كان فى سالف الأزمان على غرناطة ملك عربى . وكان اسمه محمداً . إلا أن رعاياه زادوه لقباً هو الهيجرى (El Haygary) . ويقول البعض إنه سمى بهذا لأنه كان حقًّا ماهر اليد اليسرى عن اليمنى ، ويقول آخرون إنما سمى بهذا لما كان فى ميله من أخذه بالناحية الخاطئة حين يعالج الأمور . أو بعبارة أخرى : يضر أنى تعرض. وسواء أكان ذلك عن سوء جد أو سوء تدبير ، فقد عاش فى عناء مستمر ، فقد خلع عن عرشه مرات ثلاث . وقد تمكن فى فرصة ما من الهرب بشق النفس إلى إفريقية مع زوجه متنكراً فى زى صائد أسماك ،ولكنه كان شجاعاً كما كان خطّاء. ومع أنه كان أعسر إلا أنه جعل سيفه الصارم مطيته إلى غرضه ، حتى إنه كان فى كل مرة يعيد نفسه إلى العرش بنضال مرير . على أنه بدلا من أن يستفيد من البلوى عظة فقد زاد مع غلظ رقبته وصلابة يده اليسرى تصمياً وعزماً . أما مساوئه فلم تكن قاصرة عليه بل قد جاوزته إلى غيره ، فجرت عليه وعلى مملكته الويلات . وهذه أمور يمكن أن يتبينها أولئك الذين سينقبون عن أخبار غرناطة فى عهد العرب . أما هذه الأسطورة فلم تعرض إلا لسياسته المنزلية خاصة : ففيما كان محمد هذا راكباً ذات يوم فى طليعة حشد من ندمائه ، قابل عند سفح جبل أليبرة ، عصبة من الفرسان عائدين من غارة على أرض المسيحيين . وكانوا يسوقون صفًّا طويلا من البغال محملة بالأسلاب ، وكثيراً من الأسرى رجالا ونساء . وكان من بينهم عذراء فى حلة فاخرة ، أخذ الملك بجمال طلعتها . وكانت وهى على ظهر جوادها الأبيض القصير تبكى غير ملقية بالا لمواساة وصيفة كهلة قد ركبت إلى جوارها . واستهوى الملك جمالها . وعرف من قائد الفرقة أنها ابنة حاكم

قلعة من قلاع الحدود ، أخذ على غرة بهذا الهجوم ونهب فى غمرة القتال . وقد جعلها محمد نصيبه الملكى من الأسلاب وحملها إلى الحريم فى الحمراء . وهناك أعد لها ما يسرى عنها همها . وأخذ الحاكم يزداد هيامه بها شيئاً فشيئاً ، وفكر فى أن يتخذها ملكة . ولكن السيدة الاسبانية لم تجبه أولا إلى ما طلب ، إذ كان من الكفار ، كما كان خصما لدوداً لبلادها ، وشر من هذا أن السنين كانت نالت منه .

وعندما وجد الملك أن كل محاولاته دون جدوى عزم على أن يستعين فى حبه بالوصيفة التى كانت مأسورة مع سيدتها ، وكانت أندلسية المولد . وقد أنسيت اسمها المسيحى ، ولكنها لا تذكر فى الأساطير العربية بلقب آخر غير الحصيفة خديجة . ولقد كانت حصيفة حقاً ، كما هو واضح من تاريخها كله . وما أن اجتمع بها الملك العربى فى جلسة صغيرة خاصة ليتحدث معها ، حتى رأت هى فى الحال قوة حجته وأخذت على عاتقها قضيته مع سيدتها الصغيرة ، وصاحت بها : أقلعى عن هذه الآن ، أى شىء فى هذا كله يستدعى أن تبكيه وتنوحى عليه ؟ أليس من الخير لك أن تكونى ربة قصره ببساتينه ونافوراته عن أن تكونى سجينة فى برج أبيك العجوز ؟ أما عن كفر محمد ، فما علاقة هذا بالغرض ، فأنت ستتزوجينه هو لا عقيدته . وإذا كانت السن قد علت به قليلا فما أسرع ما ستكونين أرملة وسيدة نفسك . وعلى أية حال فأنت فى قبضة يده وعليك أن تختارى بين الملك والعبودية . وإذا كان مصيرنا فى يد لص فمن الخير للمرء أن يبيع بضاعته بثمن غال من أن تنتزع منه بالقوة .

وأخذت السيدة الاسبانية بحجة خديجة ، وكفكفت من عبراتها ، وأصبحت زوجة لمحمد الأعسر . كما أنها امتثلت فى الظاهر لعقيدة زوجها الملك . وسرعان ما أصبحت وصيفتها الحصيفة مؤمنة غيورة على العقيدة الإسلامية . وعندها تسمت هذه الثانية بهذا الاسم العربى خديجة . وسمح لها بأن تظل وصيفتها وموضع سرها . وبمرور الزمن أصبح الملك العربى أباً فخوراً وسعيداً لبنات ثلاث جميلات .

وُلدن ثلاثتهن توائم . وكم كان راغباً فى أن يرزقهن بنين ،ولكنه أخذ يسرى عن نفسه بما خطر له من أن ثلاث بنات توائم شيء جد جميل لرجل أعسر أصابت منه السنون بعض الشيء . وكما هى عادة كل الحكام المسلمين استدعى المنجمين فى هذه المناسبة السعيدة فنظروا فى طوالع الأميرات الثلاث وهزوا رءوسهم ثم قالوا : أيها الملك، إن البنات دائماً ملك غير مستقر ،ولكن ما أحوج هؤلاء إلى عنايتك عند ما يبلغن سن الزواج . فعندها اجمعهن إليك ولا تكلهن إلى رعاية أخرى . وقد كان محمد الأعسر معروفاً بين جاسائه بحكمته ، ولقد كان كذلك حقاً، ولكن نبوءة المنجمين لم تسبب له غير قليل من البلبلة لأنه كان واثقاً بحذقه فى رعايتهن ومغالبته للأقدار . وكانت التوائم الثلاث آخر ما خلدت به الملكة حياتها الزوجية . فلم تلد للملك غيرهن من الأولاد وماتت بعدها بسنين قلائل تاركة صغيراتها فى رعاية حبه وإخلاص الحصيفة خديجة . وكان أمام الأميرات بعد سنون عدة . حتى يبلغن ذلك السن الخطر ، سن الزواج . فقال الملك الأريب : من الخير على أية حال أن نحتاط للشيء فى إبانه . ولذا فقد عزم على أن يقمن فى قلعة شلوبينة الملكية . وكانت قصراً فخماً تنطوى عليه قلعة عربية حصينة على قمة تل يشرف على البحر الأبيض المتوسط . وكان ملاذاً ملكياً ؛ كان الملوك المسلمون يودعون فيه ذوى قرباهم ليأمنوا عليهم من الخطر . وكانوا يهيئون لهم جميع أسباب النعيم واللهو . وفيه كانوا يقضون حياتهم غارقين فى الملذات . وهنا عاش الأميرات فى عزلة عن العالم ولكن محوطين بالمسرات فى رعاية جاريات يقمن على خدمتهن . وكان لهن الحدائق البهجة لرياضتهن ، مليئة بأندر الفواكه والأزهار ، والحرجات العطرة والحمامات الأرجة . وكانت القلعة تطل من جهات ثلاث على واد خصب تكسوه جميع ألوان الزروع وتحده جبال البشرات العالية ويشرف من الجانب الآخر على البحر الواسع المشمس . وفى هذا المقام الممتع ، وهذا الجو المواتى ، وتحت سماء صافية شب الأميرات فى جمال فاتن . ولكن مع أنهن كن حبيسات على هذا النحو



بهو السباع

فقد بدت عليهن دلائل الاختلاف فى الطبائع مبكرة . وكانت أسماؤهن : ساره، وسارية، وسرية . وهكذا على حسب أعمارهن، إذ كان بين ميلاد كل واحدة والأخرى ثلاث دقائق . وكانت كبراهن سارة ذات روح وثابة وكانت تتزعم أختيها فى كل شىء ، إذ كانت أسبقهن إلى الحياة ، وكانت فضولية سآلة مغرمة بأن تنفذ إلى بواطن الأمور. وكانت سارية مزهوة بجمالها، وكان هذا من غير شك سبب ارتياحها بوقوفها إلى مرآة أو نافورة تطالع فيها صورتها ، كما كان سبب هيامها بالأزهار والجواهر والحليات الأخرى المتصفة بحسن الذوق . أما عن سرية صغراهن ، فقد كانت سمحة خفرة ، شديدة الحساسية . عظيمة الرحمة فيما تأتيه . كما كان ذلك واضحاً فيما تؤثره من أزهار وما تدلله من طيور وحيوان، كانت تعنى بها جميعاً أرق عناية . وكانت مسراتها كذلك ذات طابع لطيف، يُمازجها التفكير والاستغراق فى الرؤى والأحلام. وكانت تجلس الساعات فى شرفتها تتطلع إلى النجوم المتلألئة فى ليالى الصيف أو إلى البحر حين يضىء القمر صفحته . وربما كانت أغنية لصائد سمك تنبعث خافتة من الشاطىء فى مثل هذا الوقت، أو نغمات ناى عربى من مركب شراعى تدفعها الريح إليها، كفيلة بأن تهيج أشجانها وتملؤها نشوة ، على أن أقل ثورة من ثورات الطبيعة كانت تملؤها فزعاً ، كما كانت قصفة الرعد كفيلة بأن تلقيها مغشياً عليها .

ومرت الأعوام رضية هادئة فإن خديجة الحصيفة التى استؤمنت على الأميرات برت بعهدها ولم تفرط فى العناية بهن. وكانت قلعة شلوبينة، فيما قبل، مبنية على تل إلى ساحل البحر، وكان جدار من جدرانها الخارجية ينحدر إلى جانب التل حتى ينتهى إلى صخرة بارزة مشرفة على البحر ، بسيف رملى ضيق على سفحها ، تبلله موجات البحر المترقرقة، وعلى تلك الصخرة أقيمت مرقبة وكأنها الفسطاط بنوافذ شعرية، ينفذ منها نسيم البحر . وهنا اعتاد الأميرات أن يقضين الساعات الزمهة حين الهاجرة . وفى يوم من الأيام كانت المتطلعة سارة تجلس إلى نافذة من نوافذ الفسطاط بينما اضطجعت أختاها على أرائك فى قيلولتهما .

وكانت مأخوذة بمراقبة مركب يأتى محاذياً للساحل ، قد اتسقت ضربات مجدفه ، وعند ما اقترب لحظت أنه زاخر برجال مسلحين عند سفح البرج . ونزل منه عدد من الجنود العرب إلى الأرض فى ذلك السيف الضيق يقودون عديداً من الأسرى المسيحيين . فأيقظت المتطلعة سارة أختيها وأخذ ثلاثتهم يسارقون النظر فى حذر من خلال حصيرة الشباك التى تحجبهم عن الأنظار . وكان من بين الأسرى ثلاثة من الفرسان الأسبان فى ثياب فاخرة . وكانوا فى زهرة الصبا تبدو عليهم سيما النبل . وكانت أمارات الجاه التى يبدون فيها، على الرغم من أنهم مثقلون بالسلاسل ومحاطون بالأعداء ، تنبئ بعظمة نفوسهم . وحملقت الأميرات فى اهتمام شديد مبهورات الأنفاس مشدوهات . فلم يكن عجيباً، وكن محبوسات فى القلعة بين تابعات . ولم تقع أعينهن على رجل ، اللهم غير العبيد السود أو صيادى الأسماك الغلاظ على الساحل ، أن يحرك فى صدورهن شيئاً من الاضطراب مشهد ثلاثة من الفرسان النبلاء الظرفاء فى أوج الشباب وجمال الرجولة . وصاحت سارة كبرى أخواتها : هل هناك على وجه الأرض مخلوق أنبل من ذلك الفارس فى حلته القرمزية؟ انظرن كيف يدل بنفسه وكأن كل من حوله عبيد . وصاحت سارية : ولكن انظرن إلى هذا فى حلته الخضراء، ما أظرفه وما أرشقه وما أخف روحه .

أما اللطيفة سرية فلم تقل شيئاً ولكنها فى نفسها آثرت الفارس ذا الحلة الخضراء . وبقيت الأميرات متطلعات إلى الأسرى حتى غابوا عن أبصارهن، فتنهدن تنهدات طويلة والتفتن ينظر بعضهن إلى بعض برهة ثم جلسن حالمات مفكرات على أرائكهن. وألفتهن خديجة الحصيفة على هذه الحال ، فأخذن يقصصن عليها ما رأين . وكاد قلب هذه الوصيفة الذابل ينتعش ، فصاحت : أيتها الشابات المسكينات ، أراهن أن أسرهم قد أورث الحسرة كثيرات من حسان النساء ونبيلاتهن فى وطنهن . آه يا طفلاتى ، إنكن لا تعلمن إلا قليلا عن الحياة التى يحياها هؤلاء الفرسان فى بلادهم . فهى أشبه بحياة الصخب فى المثاقفة ،

حياة تودد إلى النساء ، ومطارحة غرام ، ومناجاة من تحت النوافذ بالليل . وفاض الفضول بسارة ، ولم تكن قد أشبعت رغبتها فى الاستقصاء ، فأخذت تستخلص من الوصيفة أملأ صور مشاهد شبابها بالحياة فى موطنها . ولكن الجميلة سارية قامت مدلة وأخذت تطالع المرآة فى دهاء ، حينما تناول موضوع البحث جمال السيدات الأسبانيات ، بينما كبتت سرية فى نفسها تنهدة مضطربة عند ذكر المناجاة من تحت النوافذ فى ضوء القمر . وفى كل يوم كانت المتطلعة سارة تجدد استفساراتها والوصيفة العاقلة تكرر قصصها التى كن يستمعن إليها فى اهتمام بالغ ، ولكن بتأوهات متكررة تصدر عن هؤلاء السامعات الرقيقات . وأخيراً تنبهت العجوز الحصيفة إلى السوء الذى عساها أن تفعله . فقد كانت عادتها أن تفكر فى الأميرات على أنهن طفلات فحسب ، ولكنهن قد شببن تحت بصرها من حيث لا تدرى . وقد تفتحن الآن أمامها عن ثلاث عذراوات حسان فى سن الزواج . وظنت الوصيفة أن الوقت قد حان لتنبه الملك . وذات يوم كان محمد الأعسر جالساً على أريكة فى ردهة ندية من ردهات الحمراء عندما وصل إليه عبد من قلعة شلوبينة برسالة من العاقلة خديجة تهنئه فيها بعيد ميلاد بناته السنوى . وكان العبد قد أحضر فى الوقت نفسه سلة أنيقة صغيرة محلاة بالأزهار فيها ، على طبقة من أوراق الكروم والتين ، خوخ ومشمش ورحيق متورد قد ندى أعلاه وأسفله حلاوةً . وكانت كلها فى الطور الأول من مستهل نضجها . وكان الملك خبيراً باللغة الشرقية للفواكه والأزهار ، وسرعان ما أدرك المراد من الهدية الرمزية . فقال : وهكذا جاء الوقت العصيب الذى أشار إليه المنجمون ، فقد أصبح بناتى فى سن الزواج وماذا على أن أفعل ، إنهن مقصورات عن عيون الرجال ويعشن فى رعاية خديجة الحصيفة . كل شىء جميل ولكنهن لم يظفرن بشىء من رعايتى ، كما أشار بذلك المنجمون ، فعلى أن أجمعهن فى ظلى وألا أثق برعاية أحد غيرى . وما أتم حديثه حتى أمر أن يعد برج الحمراء لاستقبالهن ورحل على رأس حراسه إلى قلعة شلوبينه ليعود بهن بنفسه . وكانت

قد مرت على محمد أعوام ثلاثة أو نحوها لم ير فيها بناته ، فلم يكد يصدق عينيه لهذا التغير الغريب الذى أحدثته هذه الفترة الصغيرة من الزمن فى محياهن . فخلال فترة التحول جاوزن هذا الحد الفاصل فى حياة المرأة الذى يفرق بين فتاة غريرة ساذجة غضة لما يكتمل نموها وامرأة كاعب خفرة متطلعة . وما أشبه هذا بالانتقال من سهول لامانشا المستوية القارسة الكئيبة إلى وديان الأندلس البهجة المثيرة وتلالها المرتفعة .

وكانت سارة طويلة جميلة البنية ، رفيعة المسلك، ذات عينين أخاذتين . فدخلت بخطاً ثابتة مهيبة وحيت محمداً باحترام بالغ وعاملته معاملة الحاكم أكثر من معاملة الأب . وكانت سارية معتدلةالقوام فاتنة المحيا، متثنية فى مشيتها ، بهية الجمال ، تزيدها زينتها حلاوة . فاقتربت من أبيها مبتسمة وقبلت يده وحيته بأبيات لشاعر من شعراء العرب مشهور ، مما سر الملك به . وكانت سرية صغرى أخواتها خفرة حيية ، وكانت ذات جمال غرير يوحى بالإعزاز والرعاية ، ولم تكن قد استوت بعد لتأمر شأن كبراهن ، أو لتبهر البصر شأن الثانية ، ولكنها كانت أقرب فى هيئتها إلى أن تظفر بقلب رجل محب تسكن إليه وتعيش قانعة . واقتربت من أبيها بخطاً خفرة يغلب عليها الاضطراب . وكان عليها أن تأخذ يده لتقبلها ، ولكنها عند ما نظرت وجهه ورأته يشع بابتسامة أبوية دفعها حنانها الطبيعى ورمت بنفسها حول عنقه . وتطلع محمد الأعسر إلى بناته الكاعبات بمزيج من الكبر والحيرة ، مفتوناً بجمالهن برهة تحدثه نفسه بنبوءات المنجمين ، وهمهم يكرر فى نفسه : ثلاث بنات ! ثلاث بنات ! كلهن فى سن الزواج، هنا فاكهة مغربية مغرية ولكنها فى حاجة إلى حراسة تنين . وأعد العدة لرجوعه إلى غرناطة ، فأرسل النذر قبله يأمرون كل إنسان أن يتنحى بعيداً عن الطريق الذى سيمر به ، وأن جميع الأبواب والنوافذ يجب أن تغلق عند مرور الأميرات . وعند ما فعل هذا، بدأ طريقه مخفوراً بفرقة من الفرسان السود القبيحى الصورة، عليهم شكة لامعة . وركب الأميرات إلى جنب الملك مقنعات كل التقنع

على جياد بيضاء جميلة عليها تجافيف من الحمل، مطهمة بالذهب، تطوى الأرض طيًّا . وكانت الشكائم والركابات من ذهب ، كما كانت اللجم من حرير مطعم باللآلىء والأحجار الكريمة . وكانت الجياد البيضاء مغطاة بأجراس صغيرة من فضة تثير أشجى رنين موسيقى وهى تعدو على طول الطريق فى رفق . والويل لأى إنسان منكود بالغاً ما بلغ يتلبث فى الطريق حين يسمع رنين هذه الأجراس، فقد كان الحراس مأمورين بأن يقطعوه إرباً دون رحمة .

وحينما كان الموكب قرب غرناطة باغتوا عند شاطىء نهر النيل مجموعة صغيرة من الجنود العرب على حراسة أسرى . ولم يعد أمام الجنود فرصة لإخلاء الطريق، فانبطحوا على الأرض وأمروا أسراهم أن يفعلوا فعلهم . وكان بين الأسرى هؤلاء الفرسان الثلاثة أنفسهم الذين رآهم الأميرات من الفسطاط . ولعل هؤلاء لم يفهموا ما أمروا به أو أبوا أن يطيعوا الأمر تكبراً ، فثبتوا فى مكانهم واقفين يحملقون إلى الموكب وهو يقترب . واضطرم حقد الملك على هذا التحدى الصارخ فى تنفيذ أوامره ، وسل سيفه وتقدم إلى الأمام ، وكان على وشك أن يضرب بيده اليسرى ضربة كانت ستكون القاضية على الأقل لواحد من هؤلاء المتطلعين، ولكن الأميرات اجتمعن حوله وسألنه الرحمة بالأسرى ، بل إن الخفرة سرية نسيت خجلها وأصبحت فصيحة فى الدفاع عنهم . فتوقف محمد والسيف مسلول فى يده حين قبّل رئيس الحرس الأرض بين رجليه وقال له : لا تفعل يا صاحب الجلالة عملا قد يسبب فضيحة عظيمة فى المملكة، فهؤلاء فرسان ثلاثة شجعان محاربون أسبان نبلاء أخذوا فى المعركة، وكانوا يقاتلون كأنهم أسود، وهم من أصل رفيع . وقد يفدون أنفسهم بفدية عظيمة. وقال الملك : مَه، سأبقى على حياتهم ، وسأعاقبهم على وقاحتهم فلتذهبوا بهم إلى برج «فرمليون» . ولتكلفوهم شاق الأعمال. وكاد محمد أن يقترف بهذا سوءة من مأثور سوآته عن يده اليسرى. وفى أثناء الجلبة والهياج فى هذا المشهد الصاخب انزاحت النقب إلى الخلف من على وجوه الأميرات الثلاث وبدأ بهاء جمالهن . وطال النقاش ، وكأن الملك قد أتاح به الفرصة لهذا الجمال ليبلغ مبلغه .

وفى تلك الأيام كان الناس أكثر وقوعاً فى الهوى العارض منهم اليوم . بذلك تنطق جميع القصص القديمة . فلم يكن عجيبا أن يملك الهوى قلوب هؤلاء الفرسان الثلاثة جميعها ، لا سيما أن الإحسان إليهم قد زاد من إعجابهم . على أنه وإن بدا غريباً بعض الشىء فإنه يكاد يكون من المحقق أن كل واحد منهم قد استهواه لونٌ ما من حسن الأميرات . أما عن الأميرات فقد ازددن افتتاناً بمحيا الأسرى النبيل ، وأنعش ذلك فى نفوسهن كل ما سمعوه عن شجاعتهم وعراقة أحسابهم . ووصل الموكب سيره ، والأميرات الثلاث ساهمات على جيادهن البيضاء المجلجلة ، يسترقن النظر من حين إلى حين إلى الوراء يبحثن عن الأسرى المسيحيين الذين كانوا يقادون إلى سجن خصص لهم فى أبراج فرمليون . وكان المقام الذى هيئ للأميرات من ألطف وأجمل ما يبتدعه خيال . فقد نزلن فى برج يبعد قليلا عن قصر الحمراء الرئيس إلا أنه يتصل به بالسور الذى يدور بقمة التل كلها . ويطل جانب من جوانبه على الجزء الداخلى من القلعة ، وإلى سطحه حديقة صغيرة مليئة بأندر الأزهار . ويطل الجانب الآخر على واد عميق مظلل يفصل أراضى الحمراء عن أراضى جنة العريف . وينقسم البرج من الداخل إلى أجنحة صغيرة . قد أبدع فى تزيينها على الطراز العربى البدائى ، تحيط بردهة مرتفعة . وسقفها المعقود يكاد يبلغ فى ارتفاعه قمة البرج . وزينت جدر الردهة وسقوفها بالنقوش العربية وبالحليات المفرغة ، تتموه بالذهب وتتلألأ منها رسومها . وفى وسط الرصف المرمرى نافورة تحيط بها شجيرات وأزهار عطرة . وهى تقذف بشؤبوب من ماء يلطف الجو فى جميع المبنى . وله صوت يحكى الهدهدة . وحول الردهة قد علقت أقفاص ذات أسلاك من ذهب وفضة انطوت على طيور مغردة من أبهاها ريشاً أو أعذبها لحناً . وكانت الأميرات يبدون جد مقطبات حين كن فى قلعة شلوبينة ، وقد توقع الملك أن يراهن مفتونات بالحمراء . غير أنه أدهشه أن يراهن وقد بدأ الهزال يدب إلى أجسامهن ويزددن كآبة ويبرمن بكل ما حولهن . فلم تعد الأزهار تغنيهن بعرفها . وأمسى صوت البلابل

يؤرق عليهن مضاجعهن، وسئمن كل السأم هذه النافورة المرمرية بنقاطها المتصلة ورشها من الصباح إلى الليل ، ومن الليل إلى الصباح. وغضب الملك لذلك أولا أشد الغضب ، وهو المعروف بشيء من عتو الطبع وثورة النفس. ولكنه فكر فى أن بناته قد بلغن السن التى يتفتح فيها عقل المرأة وتتسع رغباتها ، وردد فى نفسه : لقد كن من زمن غير بعيد طفلات . وقد بلغن مبلغ النساء وهن فى حاجة إلى أشياء ملائمة تسرى عنهن . وعلى هذا فقد أحضر صانعى الثياب والجوهريين ومهرة صناع الذهب والفضة من حى السقاطين بغرناطة . ورفل الأميرات فى جلابيب الحرير والسندس والمطرزات والشيلان الكشميرية. وبدين فى العقود اللؤلؤية والماسية والخواتم والأسورة والدمالج وفى كل ما هو نفيس . ولكن كان هذا كله دون جدوى . فازدادت الأميرات شحوباً ووهناً فى مكتمل يناعتهن . وبدون كأنهن ثلاث وردات ذابلات ذوى عودهن . ونفدت حيلة الملك . وكان على العموم حسن الثقة بما يقضى به وما عرف أنه استشار أبداً . فقال : إن أوهام عذراوات ثلاث كاعبات ونزواتهن وأهواءهن كفيلة على كل حال بأن تشوش رأس أكبر داهية ، ولقد كانت الأولى فى حياته حين سأل العون من المشيرين .

وكان الشخص الذى لجأ إليه هو الوصيفة المجربة . فقال لها الملك : خديجة ، إنى أعلم أنك من أعظم النساء حصافة فى الدنيا . كما أنك من أولاهن بالثقة ، ولهذه الأسباب كنت أترك لك الإشراف المتصل على بناتى . ولن يستطيع الآباء أن يبالغوا فى الحيطة مع من يولوهم مثل هذه الثقة . وأريد منك الآن أن تكشفى لى عن سر هذا الداء الذى أضنى الأميرات ، وأن تلتمسى الأسباب التى تردعليهن صحتهن وهناءتهن . ووعدته خديجة بالطاعة الأكيدة . وكانت فى الحق تعلم عن ضنى الأميرات أكثر مما يعلمن هن أنفسهن . فحبست نفسها معهن ، وحاولت بشتى الوسائل أن تكون موضع ثقتهن ، فقالت لهن : طفلاتى العزيزات ، لماذا أنتن هكذا مستوحشات مكتئبات بمثل هذا القصر الجميل ، حيث قد توفر فيه كل ما يمكن أن يشتهيه القلب .

ودار الأميرات بأبصارهن فى الجناح غير معنيات وتنهدن . ثم قالت : وفى أى مزيد أنتن راغبات؟ هل أحضر لكن الببغاء العجيبة التى تتكلم كل اللغات ، والتى هى مبعث السرور فى غرناطة؟وصاحت الأميرة سارة : يا للفظاعة! طائر مزعج يصيح يثرثر بكلمات لا فكرة فيها ، يجب أن يكون الإنسان دون عقل حتى يستطيع أن يصبر على مثل هذا الوباء . فقالت :هل أرسل فى طلب قرد من صخرة جبل طارق ليسليكن بغرائبه . وصاحت سارية: قرد ! يا للضيق . المقلد البغيض الهزلى للإنسان . إنى أبغض هذا الحيوان الكريه . فقالت : وما قولكن فى المغنى الأسود المشهور قاسم ، فى الحريم الملكى فى مراكش والذى يقال إن صوته كصوت النساء . فقالت الرشيقة سرية: إنى ليزعجنى منظر هؤلاء العبيد السود، ذلك إلى أنى فقدت كل لذة بالموسيقى . فقالت المرأة العجوز فى خبث : آه يا طفلتى ، ليس لك أن تقولى هذا ، هلا سمعت الموسيقى؟ لقد سمعتها الليلة الماضية من الفرسان الثلاثة الإسبانيين الذى قابلناهم فى سفرنا . ولكن لى الله يا طفلاتى ، فيم هذا الخجل الذى أصابكن ولم هذا الاضطراب . فقلن: لا شىء ، لا شىء أيتها الأم الطيبة ، نرجوك أن تستمرى . فقالت: حسناً ، فيما كنت أمر بأبراج فرميليون الليلة الماضية رأيت الفرسان الثلاثة يستريحون بعد عملهم اليومى ، وكان أحدهم يلعب بقيثارته فى رشاقة بالغة ، بينما كان الاثنان الآخران يتناوبان الغناء . وقد فعلوا هذا على نحو جعل الحراس أنفسهم يبدون وكأنهم تماثيل أو رجال مسحورون. اللهم عفواً . فلم يكن منى غير أن هاجت شجونى لدى سماعى أغنيات من أغانى بلادى ، وعند ما رأيت ثلاثة مثل هؤلاء الفتيان النبلاء الظرفاء فى السلاسل والأسر . وهنا لم تستطع المرأة العجوز الرحيمة القلب أن تمنع دموعها . فقالت سارة : علك يا أماه تستطيعين أن تيسرى لنا رؤية هؤلاء الفرسان . فقالت سارية: أظن أن قليلا من الموسيقى سينعشنا حقًّا . ولكن الخفرة سرية لم تقل شيئاً ولكنها لفت عنق خديجة بذراعيها . وصاحت المرأة الحصيفة : فليرحمنى الله ! عما تتكلمون يا طفلاتى ، فسيكون مصيرنا جميعاً الموت

إذا سمع أبوكن بشيء من هذا . ولتتأكدن أن هؤلاء الفرسان تبدو عليهن جليًّا عراقة المحتد وسعة العقل . ولكن مالنا ولهذا . فهم خصوم عقيدتنا ، وعليكن ألا تذكروهم إلا بالمقت ، وإرادة النساء عجيبة فى جرأتها ولا سيما إذا كن فى سن الزواج الذى لا يعبأ بالمخاطر والمحظورات .

والتفت الأميرات بوصيفتهن العجوز وأخذن يلاطفنها ويتوسلن إليها وأعلن لها أن أى رفض سيحطم قلوبهن . ولكن ماذا تعمل ، وقد كانت حقًّا أحصف عجوز فى الدنيا ومن أعظم خدام الملك المخلصين . ولكن هل هى راضية بأن ترى ثلاث أميرات حسان تتحطم قلوبهن لمجرد رنين قيثارة ؟ ذلك إلى أنها مع عيشتها بين العرب مدة طويلة أو تغييرها عقيدتها تقليداً لسيدتها ، شأن التابعة الأمينة ، فقد كانت أسبانية النشأة ، ولا زال فى قلبها عقابيل من المسيحية . ولهذا فقد شرعت تدبر كيف تحقق للأميرات رغباتهن .

وكان الأسرى المسيحيون محبوسين فى أبراج «فرمليون» فى حراسة شرس كث اللحية ، عريض الكتفين يسمى : حسين بابا . وكان مشهوراً بأنه شيخ المقترين . فذهبت إليه خفية ودست فى يده قطعة كبيرة من الذهب وقالت له : حسين بابا ، سيداتى الأميرات الثلاث المقصورات فى البرج واللائى هن فى حاجة ملحة إلى التسرية قد سمعن بفوق هؤلاء الفرسان الأسبان الثلاثة فى الموسيقى . وهن جد مشوقات لسماع شيء من بدعهم ، وإنى واثقة أنك أطيب قلباً من أن ترفض لهن مثل هذه اللذة البريئة . فقال : ما هذا؟ أتريدين أن ترى رأسى معلقاً متجهماً على باب برجى ؟ فلن يكون جزائى غير هذا إذا علم الملك .

فقالت : لن يصيبك ضر من هذا القبيل . وسندبر كل شيء لتحقق للأميرات ما يتخيلن . ولن يكون أبوهن أمهر منا . فأنت تعلم هذا الوادى العميق خارج الجدران الذى يمر أسفل البرج وفى لصقة . فلتدع المسيحيين الثلاثة يعملون هناك . وخلال فترة الراحة دعهم يمرحون ويغنون ، كما يفعلون فى لهوهم . وبهذه الطريقة يستطيع الأميرات أن يسمعنهم من نوافذ البرج ، ولتثق

أنهن سيسخون عليك لإجابتهن إلى رغبتهن .

وعند ما أتمت المرأة العجوز الطيبة حديثها شدت على تلك اليد الخشنة لهذا الرجل الشرس فى رفق وتركت فيها قطعة أخرى من الذهب . ولقد كانت حجتها غير مدفوعة . فنى اليوم التالى نفسه كان الفرسان الثلاثة يعملون فى اللهب . وفى حر الهاجرة عند ما كان المشرفون نائمين فى الظل والحارس يهوم برأسه نعاساً فى مكانه أخذوا أماكنهم بين الأعشاب على سفح البرج وغنوا أغنية أسبانية على أنغام القيثارة . وكان الأخدود عميقاً والبرج عالياً ولكن أصواتهم ارتفعت واضحة فى سكون ظهيرة الصيف . وأنصتت الأميرات فى شرفتهن . وكن قد تعلمن الأسبانية على الوصيفة فأثارتهن رقة الغناء . وعلى العكس من ذلك كانت خديجة الأريبة ترتجف رعباً وصاحت : ليكن الله فى عوننا ! فإنهم يغنون أغنية شائعة محبوبة أنتن بهامقصودات. يالهامن قحة لم يسمع بها إنسان أبداً ! سأخرج لرئيس العبيد ليجلدهم جلداً .

ماذا ؟ أيجلد مثل هؤلاء الفرسان الأمجاد ؟ ولأنهم يغنون على هذا النحو من السحر؟ وامتلأ الأميرات الثلاث الحسان رعباً عند سماعهن هذه الفكرة . فقد كانت تلك المرأة العجوز الطيبة مع كل تلك الثورة العفة ذات طبيعة رحيمة ومن السهل تهدئتها . وإلى جانب هذا فقد كان للموسيقى فيما يظهر أثر أى أثر فى سيداتها الصغيرات . فسرعان ما علت خدودهن حمرة الأزهار . وبدأت عيونهن تتألق ، فلم تثر هى لهذا أى اعتراض على أغنية الفرسان . وعندما انتهت الأغنية بقيت الأميرات جامدات برهة . وأخيراً تناولت سارية عوداً وبصوت عذب ، وإن كان خافتاً مرتجفاً ، غنت أغنية صغيرة عربية كانت كلماتها : الورد وإن كان مختفياً بين الأوراق إلا أنه يصغى مسروراً إلى ترنم البلبل . ومنذ ذلك الوقت أخذ الفرسان يعملون كل يوم تقريباً فى اللهب . وأصبح الحذر حسين بابا شيئاً فشيئاً أكثر تسامحاً وأكثر ميلا فى كل يوم لأن ينام فى مكانه ، واستمرت هذه العلاقة الغامضة قاصرة على تلك الأغانى الشعبية التى تثير الوجدان وتحرك

الشعور ، والتي كانت إلى حدما صدى لما فى نفس كل من الفريقين ، ومتنفساً لما يحس به كل منهما ، وهكذا دواليك بدأ الأميرات يخرجن إلى الشرفة حين يجدن أنفسهن فى مأمن من رؤية الحراس لهن . وبدأن يجعلن الأزهار وسيلتهن فى الحديث إلى الفرسان ، وعن طريق تلك اللغة الرمزية تبادلن وإياهم المعرفة . وزادت صعوبات هذه الواصلة فى افتتانهن . ومكنت لذلك الهوى الذى أحسسنه على هذا النحو الفريد . فإن المحب يراح عندما يغالب المصاعب ويستبسل الاستبسال حين يضيق به الأمل . وقد أدهش الملك الأعسر وسره هذا التغير الذى لم يكن كله معلوماً له ، والذى كان له أثر فى وجوه الأميرات وأرواحهن. ولم يكن أحد أكثر عجباً من الأريبة خديجة التى عزت هذا كله إلى قوة تدبيرها . وأخيراً توقفت هذه المراسلة الأثيرية إذ حجز الفرسان عدة أيام عن الظهور فى اللهب ، وعبثاً كانت تتطلع الأميرات من البرج وعبثاً كن يمددن رقابهن الجميلة من الشرفة ، وعبثاً غنين كالبلابل الحبيسة فى أقفاصها فلم يشاهدن للمحبين المسيحيين أثراً ، حتى ولا إشارة مجيبة من بين الحرجات . وخرجت خديجة الأريبة انتحسس الأخبار ولكنها سرعان ما عادت بوجه قد تملكه القلق . وصاحت : آه ياطفلاتى ! لقد كنت أعلم ما سيؤول إليه كل هذا ، فعليكن أن تخترن طريقكن . والآن علقن أعوادكن فى جراباتها . فقد افتدى الفرسان الأسبان من أسرهم وهم الآن فى غرناطة يتجهزون للعودة إلى أوطانهم . وكادت الأميرات الثلاث الجميلات يتولاهن اليأس لهذه الأنباء ، واغتاظت الجميلة سارة لهذا الاستخفاف الذى كان منهم وأنهم رحلوا دون أن يقولوا كلمة وداع . ولكن سارية أخذت تفرك يديها وتبكى ونظرت إلى المرآة وجففت دموعها. ثم عاودت البكاء . أما الوديعة سرية فاتكأت على الشرفة وبكت فى صمت وسقطت دموعها عبرة عبرة بين الأزهار فى أحواضها حيث كان الفرسان الجاحدون يجلسون . وعملت الأريبة خديجة كل ما فى استطاعتها لتخفف من حزنهن فقالت لهن : خففن عن أنفسكن طفلاتى ، فما أيسر الخطب حين تعتدنه ، وهذه هى سنة الحياة .

آه ! فعندما تصبحن عجوزات مثلى فستعرفن كيف تزن الرجال . وإنى أراهن أن هؤلاء الفرسان لهم حبيباتهم من بين حسان الأسبان فى قرطبة وإشبيلية ، وسوف يناجونهن قريباً من تحت الشرفات بليل ، وسوف لا يفكرون بعد فى حسان الحمراء العربيات . فخففن عن أنفسكن إذن يا طفلاتى وانبذنهم من قلوبكن .
ولم تفعل الكلمات المواسية للأريبة خديجة إلا أن ضاعفت من خطب الأميرات الثلاث ، وبقين يومهن لا يقبلن عزاء . وفى صباح اليوم الثالث دخلت عليهن جناحهن المرأة العجوز الطيبة . وكان الكل يضطرم غيظاً ، وصاحت عندما وجدت ما يسعفها من الكلمات لتفصح عما فى نفسها : من كان يعتقد مثل هذه الحماقة فى الرجال؟ وقد أحسنتُ صنعاً حين أخفيت هذه الخديعة عن أبيكن الجرىء ، فلا تذكرن لى شيئاً بعد عن فرسانكن الأسبان . فصاحت الأميرات فى لهفة المبهور : لماذا؟ وماذا حدث أيتها الطيبة خديجة ؟ فقالت : ماذا حدث ! ! لقد خنت أو ارتكبت ما هو شر من الخيانة . أنا أعظم الرعايا إخلاصاً وأصدق الوصيفات ، نعم يا طفلاتى . فقد جرأ الفرسان الأسبان على أن يغرونى لإقناعكن بالهرب معهم إلى قرطبة لتصبحن زوجات لهم . وهنا غطت العجوز الماهرة وجهها بيديها لتخلى السبيل لانفجارها العنيف حزناً وغضباً . وعادت الأميرات الثلاث الجميلات تصفر وجوههن وتحمر ، وتصفر وتحمر ، ويرتجفن ويخفضن أبصارهن ثم يتبادلن النظرات فى خجل ، ولكنهن لم يقلن شيئاً . بينما جلست العجوز تهتز إلى الخلف وإلى الأمام فى غضبة ثائرة ، وكانت من حين إلى حين تصيح متعجبة : أأعيش حتى أصبح هكذا سبة ، أنا أعظم الخادمات إخلاصاً ! وأخيراً اقتربت منها كبرى الأميرات ، التى كانت أقواهن روحاً ، وكان إليها دائماً أمرهن ، ووضعت يدها على كتف العجوز وقالت : حسناً يا أماه ، هبى أنا كنا راغبين لنهرب مع هؤلاء الفرسان المسيحيين ، فهل هذا أمر ممكن؟ فتلبثت العجوز الطيبة فجأة عن الاسترسال فى أساها وتطلعت إلى أعلى وقالت : ممكن ، وانتأكدن أنه ممكن ، ألم يرش الفرسان حسين بابا رئيس الشرطة الشرس ويرتبوا كل الخطة ؟ ولكن

عليكن إذن أن تفكرن كيف نخدع أباكن . أباكن الذى وضع مثل هذه الثقة فىّ . وهنا خلت المرأة المحترمة السبيل لهمها المتجدد . وبدأت ثانية تهتز إلى الخلف وإلى الأمام وتفرك يديها .

وقالت كبرى الأميرات : ولكن والدنا لم يضع أبداً أى ثقة فينا . اللهم إلا إذا كانت ثقته هى هذه الأغلاق والقضبان . ومعاملته لنا كما يعامل الأسرى . وأجابت العجوز بعد أن هدأت من حزنها ثانية : لماذا ؟ هذا هو الحق بعينه . لقد عاملكن أكثر ما عاملكن بطريقة تجافى العقل ، وأودعكن هنا محبوسات لتضيعن زهرة شبابكن فى هذا البرج الكئيب القديم ، كما تترك الزهرات لتذبل فى زهرية ، ولكن أتهربن إذن من موطنكن ؟ ولكن أليست الأرض التى سنهرب إليها هى وطن أمنا حيث نعيش فى حرية ؟ أو ليست كل منا سيكون لها زوج شاب بدلا من هذا الأب القاسى العجوز ؟ ولم لا ؟ وهذا أيضاً هو الحق بعينه . ويجب أن أعترف أن أباكن كان أكثر من ظالم . ولكن ماذا — وعادت إلى وجومها — أتتركننى خلفكن لأذوق وبال انتقامه ؟ لن نتركك بحال أيتها الطيبة خديجه . ألا يمكنك أن تهربى معنا ؟ هو الحق بعينه ياطفلاتى . ولأخبركن بالحقيقة ، فإنى لما ناقشت الأمر حسين بابا وعدنى أن يعنى بى إذا صحبتكن فى هربكن ، ولكن إذن يجب أن تفكرن يا طفلاتى ، هل أنتن راغبات فى أن تتركن دين أبيكن ؟ فقالت كبرى الأميرات : لقد كان دين أمنا الأول هو المسيحية ، وإنى مستعدة لاعتناقه ، كما أنى متيقنة أن أختىّ سيفعلان مثلى . وصاحت العجوز متهللة : لقد أصبت الحق ثانية ، فلقد كانت الديانة الأولى لأمك ، وما أسفت على شىء وهى على فراش الموت إلا لأنها تركتها ، وقد وعدتها أن أعنى بأرواحكن ، وإنى لمغتبطة أن أراكن الآ ن فى الطريق الحق نحو الخلاص . نعم يا طفلاتى ، فإنى أنا أيضاً ولدت مسيحية وبقيت مسيحية بقلبى وعزمت على أن أعود للإيمان . وقد ناقشت هذا الموضوع مع حسين بابا الذى هو أسبانى المولد ، وقد أتى من بلد غير بعيد من موطنى ، وهو مشوق مثلنا لأن يرى موطنه الأصلى . وليعود إلى

الكنيسة . وقد وعدنا الفرسان أننا إذا كنا نرغب فى الزواج عند عودتنا إلى وطننا فإنهم سيهيئون لنا ذلك على خير وجه . ومجمل القول فقد ظهر أن هذه العجوز التى بلغت من الحنكة والحيطة مبلغاً عظيما . قد تشاورت مع الفرسان والحارس المرتد واتفقوا على الخطة كلها للهرب . وفى الحال سلمت الأميرة الكبيرة بها . وكان نهجها كعادتها إلزام أختيها بمتابعتها . وفى الحق لقد ترددت الصغرى . فقد كانت لطيفة هيابة النفس ، وكانت تحمل فى صدرها صراعاً بين الشعور بالبنوة وبين نزعة الشباب . وعلى كل حال فقد كتبت لثانيتهما ، كما هى العادة ، الغلبة . وقامت تعد العدة للهرب بدموع صامتة وتنهدات عميقة . وكان هذا التل الوعر الذى تقوم عليه الحمراء ، قديماً تنفذ فيه ممرات تحت الأرض قد قطعت فى الصخر تسلك فيه من القلعة إلى جهات مختلفة من المدينة ، ثم تنفذ بعيداً إلى شاطئ نهر حدرة وشنيل . وقد أنشأ هذه ملوك العرب فى أزمنة مختلفة لتكون وسيلتهم إلى الهرب إذا ما وقعت فتن مفاجئة . أو لتكون لهم منافذ سرية لأغراض لهم خاصة . وقد عطل الآن الكثير منها تعطيلا ، بينما بقى بعضها قد غصت أجزاء منها بالنفايات . كما قد سورت أجزاء منها أخرى . كل هذا أثر من حيطة الحكومات العربية السالفة . وخدعهم الشبيهة بخدع الحرب .

وفى ممر من هذه الممرات تعهد حسين بابا أن يقود الأميرات إلى منفذ خلف أسوار المدينة ، حيث الفرسان قد أعدو جياداً سريعة العدو ليحملوا الجميع إلى ما بعد الحدود . وفى الليلة المضروبة أغلق برج الأميرات كعادته . واستغرقت الحمراء فى نوم عميق . وقريباً من نصف الليل تسمعت الحصيفة خديجة من الشرفة من نافذة تطل على الحديقة . وكان حسين المرتد عندها إلى أسفل ، فأعطى الإشارة المتفق عليها . فربطت الوصيفة طرف السلم بالحبال إلى الشرفة . ثم دلته إلى الحديقة وهبطت فيه . وتبعتها الأميرتان الكبيرتان بقلوب مضطربة . وعند ما انتهى الأمر إلى الأميرة الصغيرة سرية ترددت وأرعدت . وقد حاولت مراراً أن تضع قدمها الصغيرة الدقيقة على السلم . ولكنها كثيراً ما كانت تعود بها ، على

حين كان قلبها الصغير المسكين يزيد اضطرابه شيئاً فشيئاً كلما طال بها التلبث. وألقت بنظرة مشتاقة خلفها إلى مخدعها الحريرى. فقد عاشت فيه حقًّا كما يعيش الطائر فى قفصه ولكنها إلى جانب هذا كانت آمنة. ثم من ذا الذى يخبرها بما سيصادفها من أخطار عند ما ستضطرب فى الدنيا الواسعة؟ وأخذت تفكر فى عشيقها المسيحى الشهم. وفى الحال كانت قدمها الصغيرة على السلم. ولكنها سرعان ما فكرت فى أبيها فتراجعت إلى الوراء. وعبثاً يحاول الواصف أن يصف هذا العراك الذى انطوى عليه صدر صغيرة مثل هذه رقيقة محبة ثم هى هيابة جاهلة بالحياة. وعبثاً ذهبت توسلات أختيها. وتعنيف وصيفتها، ولعنات الحارس المرتد من أسفل الشرفة. ووقفت العذراء العربية اللطيفة فى حيرة وتردد على شفا الفرار، تغريها حلاوة الخطيئة وتفزعها مخاطرها. وكان الخطر فى افتضاح أمرهن يزداد مع كل لحظة، وسمع على البعد وقع أقدام. فصاح الحارس المرتد: إن القسس يمرون فى طوافهم. وإذا نحن تلبثنا فإنا هالكون. أيتها الأميرة. فلتهبطى سريعاً وإلا فإنا ذاهبون. وعرت سرية برهة من الزمن ثورة جامحة من الغضب ففكت السلم من الحبال. وفى عزمة اليائس قذفت به من الشرفة، ثم صاحت: لقد قررت، لقد أصبح الفرار الآن شيئاً خارجاً عن طوقى. هداكن الله وبارك لكن يا أختى العزيزتين.

وأخذت الأميرتان الكبيرتان حين فكرتا أنهما تاركاها وراءهما، وودتا لو تلبثتا. لولا أن العسس كانوا يقتربون. وكان الحارس يتميز غيظاً. وأسرعوا بعيداً إلى الممر الأرضى يتلمسون طريقهم خلال طريق مضلة مخيفة، قد شقت فى جوف الجبل، وقد نجحوا فى الوصول دون أن يفتضح أمرهم إلى باب حديدى يؤدى إلى خارج الأسوار. وكان الفرسان الأسبان فى انتظارهن متنكرين فى زى جنود من العرب من الحراس التابعين للحارس المرشد. وقد جن جنون حبيب سرية حين علم أنها أبت أن تترك البرج. ولكنه لم يكن هناك وقت ليضيعوه فى التحسر. وركبت الأميرتان خلف الحبيبين، وركبت الحصيفة خديجة خلف الحارس.

ومضوا فى عدو سريع قاصدين إلى ممر لوبة الذى يمر بهم خلال الجبال إلى قرطبة . ولم يبعدوا كثيراً حتى سمعوا صوت الطبول والأبواق من شرفات الحمراء . فقال الحارس : لقد اكتشفوا فرارنا . وأجاب الفرسان : إن جيادنا سريعة والليل حالك ، وسنفوت كل مطارد . وأعملوا المهاميز فى جيادهم ومضوا عبر المرج حتى بلغوا سفح جبل ألبيرة الذى يبرز فى السهل كأنه رَعْن .

وتلبث الحارس يتسمع وقال : حتى الآن ليس هناك أحد يقفو أثرنا ، وسوف نصل الجبال سالمين . وبينما هو يتكلم اندلع لسان من نار من قمة مرقبة برج الحمراء . فصاح الحارس : يا لحيرتنا ! ستنبه هذه النار جميع الحراس على الممرات . إلى الأمام إلى الأمام ، حثوا جيادكم فى سرعة جنونية فلم يعد لدينا وقت يضيع هباء . واندفعوا إلى الأمام . وكان وقع حوافر الخيل يرن صداه من صخرة إلى صخرة فيما كانوا هم يطوون الطريق التى تكتنف جبال ألبيرة الصخرية . وفيما هم يعدون رأوا أن نار الحمراء الباهتة قد استجاب لها كل مكان . وبدأت الأنوار تلو الأنوار تنبثق من مرقبات الجبال . وصاح الحارس مستحلفاً إياهم بشتى الأيمان : إلى الأمام إلى الأمام . إلى القنطرة . إلى القنطرة . قبل أن يسبقنا إليها الخطر . وطووا أنف الجبال وأصبحوا على مرأى من قنطرة الصنوبر الشهيرة الممتدة على نهر جارف ، كم صبغت مياهه بدماء النصارى والمسلمين . ويا لخيبة آمالهم عند ما رأوا البرج المقام على القنطرة قد توهجت أنواره وتألقت أسلحة حراسه . وكبح الحارس فرسه وشب معتمداً على ركاب سرجه ونظر حوله برهة ثم أومأ إلى الفرسان ، وانحاز عن الطريق وجارى النهر قليلاً ثم خاض فى الماء . وصاح الفرسان بالأميرتين ليتعلقا بهما وأن يفعلا فعلهما . وحملهم التيار السريع قليلاً . واصطخب الموج من حولهم . ولكن الأميرتين الجميلتين تعلقتا بفارسيهما المسيحيين ولم تنبسا قط بشكوى . وبلغ الفرسان الشاطئ المقابل سابحين . وقادهم الحارس فى ممر وعر غير مألوف ونفانف موحشة خلال أجواز الجبال لينحيهم عن هذه الطرق المألوفة .

ومجمل القول فقد نجحوا فى الوصول إلى مدينة قرطبة القديمة حيث قوبل

رجوعهم إلى وطنهم وأصدقائهم بحفاوة عظيمة ، إذ كان هؤلاء الفرسان من أنبل أسرها . وسرعان ما اتسع صدر الكنيسة لاستقبال الأميرتين . وبعد أن أديتا كل ما يجب لتكونا مسيحيتين أصبحتا زوجتين سعيدتين .

وقد عجلنا ونحن نسوق هرب الأميرات عبر النهر وفوق الجبال ، فنسينا أن نذكرما لقيته الأريبة خديجة . فقد تعلقت بحسين بابا تعلق القطة . وهو يجتاز المرج هارباً ، تصيح عند كل قفزة . وتستحلف الحارس الملتحى بكل قسم . ولكنه عند ما همّ أن يخوض بفرسه النهر جاوزت مخاوفها كل حد . وصاح بها حسين بابا : لا تمسكينى هكذا مُعنِفة . حسبك أن تقبضى على حزامى ثم لا تخافى شيئاً. فأمسكت بكلتا يديها وفى قوى الحزام الجلدى الذى يطوق به الحارس ظهره العريض . ولكنه عند ما وقف مع الفرسان ليستريحوا على قمة الجبل ، لم يروا لخديجة أثراً .

فصاحت الأميرتان فى فزع : ماذا حدث لخديجة ؟ فأجاب الحارس : العلم عند الله وحده . فقد انحل حزامى وسط النهر وسقطت معه خديجة فيه . وهكذا كانت إرادة الله ، ولقد كان حزاماً موشى عظيم القيمة . ولم يكن ثم وقت للوم الفاتر . وإن كانت الأميرتان قد بكتا بحرارة على فقد المشيرة الأريبة .

وعلى كل حال فإن هذه المرأة العجوز الحاذقة لم تفقد فى النهر أكثر من روح واحدة من أرواحها التسع . فإن أحد صيادى السمك فيما هو يشد إليه شبكته قريباً من قاع المجرى جذبها إلى الأرض . وكم كان اندهاشه بعجيب ما أخرج . وهنا تقف القصة ولا تذكر ماذا حدث بعدهذا للأريبة خديجة ، ولكن المحقق أنها لم تستخدم ذكاءها فى المخاطرة للمثول بين يدى محمد الأعسر . وكذلك لا تعرف إلا اليسير عما فعله هذا الملك الأريب حين كشف عن هرب ابنتيه ، وتلك الخديعة التى حاكتها له أكثر خادماتها إخلاصاً . ولقد كانت المرة الوحيدة التى طلب فيها عون المشيرين . ولم يعرف عنه بعد أنه اقترف هذا الإثم ، فى مثل هذا الضعف . وعلى كل حال فقد أخذ حذره ليحمى ابنته الباقية التى لم

تعزم الهرب . وكان يظن حقاً أنها نادمة لقعودها. وكانت من حين إلى حين تتكيء على شرفات البرج وتنظر حزينة نحو الجبال صوب قرطبة . كما كانت تسمع مغنية مع رنات العود أغانى حزينة يقال إنها كانت تبكى فيها فقد أختيها وحبيبها . وتندب حياتها الموحشة. وقد ماتت صغيرة . ودفنت حسب الشائعات العامة . فى قبو أسفل البرج .

وكان موتها المبكر مبعثاً لتأليف أكثر من قصة خرافية مأثورة .

* * *

زوار الحمراء

لقد مضى ما يقرب من ثلاثة شهور منذ أن اتخذت بالحمراء مقامى . وكم صنع خلالها تبدل الفصول من تغيرات . وعند ما وصلت أولاً كان كل شيء يبدو فى نضرة الربيع . فكانت أوراق الأشجار لا تزال غضة شفيفة ، والرمان لما يستبدل بزهراته القرمزية المتألقة ، وبساتين الشنيل وحدرة كانت فى مكتمل إزهارها. وكانت الصخور مغشاة بورود برية مختلفات . وكانت غرناطة تبدو وكأن الأزهار البرية قد أحدقت بها إحداقاً . يشدو خلالها عدد عديد من البلابل ، ليس فى الليل فحسب ، بل وطيلة النهار .

وكان اقتراب الصيف مؤذناً بذبول الورود وصمت البلابل ، وأخذ ذلك البلد البعيد يبدو وكأنه قد علته سفعة وغشته من الشمس لفحة . ومع ذلك فما أكثر ما تحيط الخضرة الدائمة بما حول المدينة ، والوديان العميقة الضيقة . حيث سفوح الجبال المغطاة بالثلوج . وبالحمراء مفاءات ، تتناسب وحرارة الطقس ، من بينها

وهو أشهرها جناح الحمامات الذي كاد يكون مطوياًّ تحت الأرض . وهو لا يزال يحتفظ بطابعه الشرقي ، وإن كانت قد بدت عليه آثار الانحلال . ومن المدخل تنفذ إليه ساحة صغيرة، كانت مزينة قبل بالأزهار. وهي ردهة متوسطة المساحة ذات نقوش عربية بسيطة ولكنها بديعة . ويطل عليها دهليز صغير مزود بأعمدة مرمرية وعقود عربية . وإلى وسط الرصف نافورة من المرمر لا تزال ترمى بشؤبوب من ماء تلطف به الأرجاء .

وعلى كلا الجانبين كنات غائرة بمصاطب مُشرعة، حيث يضطجع المستحمون عقب الاستحمام على منابذ فاخرة. وادعين بتلك الراحة التي توقظ فى الجسم الحواس بأريج الهواء العطر ، ونغمات الموسيقى الناعمة التى تنبعث من الدهليز . وخلف هذه الردهة المخادع الداخلية التى لا تزال فى عزلة غير مطروقة ، حيث لا ينفذ إليها النور إلا من خلال كوى فى السقوف المعقودة . وهنا كان محراب النساء المنعزل . حيث كانت حسناوات الحريم ينغمسن فى نعيم الحمامات. ويسود أرجاء المكان نور عجيب هادئ . ولا تزال الحمامات المتكسرة قائمة هناك أثراً من آثار الأناقة القديمة . ومن ذلك السكون السائد والظلام الشامل وجدت الخفاشات مراحاً محبباً تأوى فيه مع النهار إلى أعشاشها فى الأركان المظلمة والزوايا . حتى إذا ما فزعت انطلقت فى خفية فى أرجاء الغرف المغبشة. فتزيد هذه الغرف وحشة أى وحشة مع ما فعلته بها يد الأيام . وفى هذا المكان الندى الأنيق ، الذى يحكى المغارة خلوة وطراوة ، كنت أقضى فيه أخيراً على الرغم من تهدمه ساعات الحر الخانقة حتى مغيب الشمس ، مستحماًّ ، أو سابحاً بالليل فى خزان المياه العظيم من القاعة الرئيسة .

وبهذه الوسيلة كنت قادراً إلى حدّ ما على أن أدفع عن نفسى أثر الجو الذى يبعث على الوخامة والفتور . غير أن أحلامى بأننى سيد المكان المطلق قد تقشعت ، فقد صحوت منها أخيراً على طلقات نارية تجاوبت بين الأبراج ، كأن القلعة قد أخذت على غرة . وعند خروجى لقيت فارساً مع نفر من الخدم فى

ردهة السفراء . لقد كان « كونتا » قديماً جاء من قصره فى غرناطة ليقضى وقتاً قصيراً فى الحمراء ليستمتع بهوائها النقى . وكان رجلاً قد حنكته الحروب ، وعملاقاً رياضياً عريقاً . لذا حاول أن يشهى إليه فطوره بصيد العصافير من الشرفات . وإنها لتسلية غير ضارة . ولذا فقد استطاع أن يجعلها ناراً متصلة بفضل يقظة تابعيه فى ملء قطع سلاحه . وما أستطيع أن أتهمه أنه قتل طائراً ما . ولعل الطيور نفسها قد أنست فيما يظهر بهذه الرياضة . ولتنوت عليه شهوته فى إظهار مهارته ، كانت تسف فى طيرانها فى دوائر قريبة من الشرفات . وتزقزق وهى تمر به . وكان وصول هذا السيد العجوز مغيراً لمجريات الأمور بعض التغيير ، ولكنه أتاح أيضاً شيئاً من المنافسة المحمودة . فقد تقاسمنا ضمناً بيننا الامبراطورية ، كما فعل من قبل ملوك غرناطة . إلا أنه كان يربط ما بيننا أوثق حلف ودى . فكان له الحكم المطلق على قاعة الأسود والردهات المجاورة ، على حين قد احتفظت أنا بالسيادة السلمية على منطقة الحمامات وحديقة الزيزفون الصغيرة .

وكنا نتناول وجباتنا معاً تحت عقود القاعة ، حيث النافورة تلطف الهواء ، والجداول المزبدة تجرى فى قنواتها على أديم الأرض المرمرى . وفى المساء كنا نجتمع محيطين بالفارس العجوز المحترم كما يجتمع الأهل ، وحضرت السيدة زوجه من المدينة معها ابنة لها ، لطيفة تقارب السادسة عشرة من عمرها . وعلى هذا فكان هناك أتباع الكونت الرسميين وقسيسه ومحاميه وناموسه وخَوْليه ، وقليل من الضباط ، ووكيل لأملاكه الواسعة . لذا كان يعقد شبه محكمة أهلية ، حيث كان كل إنسان يبحث عما يشارك به من سرور دون أن يجور على هناءته هو أو يمس وقاره .

وفى الحق إن كل ما قد يقال عن كبرياء الإسبان فإنك لا تحس له أثراً فى حياتهم العامة أو الاجتماعية . ولن تجد الصلة بين الأقارب أوثق منها بين الأسبان ، كما لن تجدها بين الخاصة وتابعيهم أكثر صراحة وأنساً منها فى أسبانيا . وهم فى هذا ، ما يزالون يحتفظون فى حياتهم الريفية بالكثير من البساطة المعجبة المأثورة عن

أسلافهم . وعلى كل حال فقد كان أكثر الأفراد إيناساً من بين هذا الجمع المنزلى ، « كارمين » الفاتنة ابنة الكونت ، وإن كانت كالطفلة الصغيرة لما تبلغ بعد نضجها . ولكنها بلغت الغاية فى تناسق الأعضاء ورشاقتها ونعومتها ، فعيناها الزرقاوان ومحياها الجميل وخفة روحها مما يندر مثله فى الأندلس ، وكان هذا يسبغ على طبيعتها رقة ولطفاً ، على العكس مما تراه عادة مع الجمال الاسبانى المفرطه ، ويوائم فى الحق منازعها الصريحة الطاهرة البريئة . وعلى أية حال فقد كان لها مالداتها من الريفيات الاسبانيات من نزعات غريزية وفتنة متعددة الجوانب . وكانت تغنى وترقص وتضرب على القيثارة وآلات أخرى . على حال تثير الاستحسان . وبعد مجيئها إلى الحمراء بأيام قلائل أقام السيد حفلاً منزلياً لعيد ميلاده ، فجمع إليه أفراد أسرته وأهل البيت ، كما أتى عديد من الخدم المسنين من أملاكه البعيدة لتهنئته وليشاركوا فى الاحتفاء . وهذه الروح الأبوية التى كان يتصف بها نبلاء اسبانيا فى أيام جاههم ، تضاءلت بتضاؤل ثرواتهم . وإن كان بعضهم كهذا السيد الذى قد احتفظ بأملاك الأسرة القديمة ، لا يزال مستمسكاً بشىء من تلك الرسوم ، التى كثيراً ما نستنقد مالهم وتكاد تأتى عليه ، وفاء منهم لهؤلاء الأعقاب من الأتباع الخاملين .

ووفقاً لهذا النظام العظيم القديم فى اسبانيا ، الذى تقوم جنبتاه على كبرياء الأهلين وكرمهم ، فإن الخادم المتقاعس لا يستغنى عنه أبداً ، ولكنه يصبح أمانة بقية أيامه ، وليس هو فحسب بل أولاده وأولاد أولاده . بل وأقاربه فى كثير من الأحيان من اليمين ومن الشمال ، يصبحون على مر الأيام محسوبين على الأسرة . ومن ثم فقد كان بقاء قصور نبلاء اسبانيا الضخمة ، التى اكتسبت عظمتها الكاذبة من ضخامة بنائها ، ضخامة لا تتناسب وما انضمت عليه من أثاث قليل عادى ، ضرورة ملحة قوامها النظام الأبوى اقتضاها ما درج عليه أسلاف هؤلاء النبلاء . ولقد كانت أحسن شيئاً من ثكنات واسعة لهؤلاء الأخلاف الوارثين من الأتباع ، الذين يعيشون على حساب كرم النبلاء من الاسبان . وكان هذا

« الكونت » العجوز المحترم ، الذى كان له أملاك فى نواحى مختلفة من المملكة ، يؤكد لى أن بعضها لا يكاد يفى بإطعام هذه الجماعات من الأتباع الذين يعيشون عليها ، والذين يخالون أنفسهم أهلاً لأن يبقوا فيها دون أن يدفعوا شيئاً ، ذلك لأن أسلافهم درجوا هنا على هذا جيلاً بعد جيل . وكان الحفل المنزلى الذي أقامه السيد شيئاً خارجاً على مألوف الحياة الجارى فى الحمراء ، فترددت نغمات الموسيقى ، وعلت القهقهة فى الأرجاء التى كان يخيم عليها الصمت من قبل . وكان هناك جماعات من الضيوف يسرون عن أنفسهم بين الأروقة وفى البساتين ، وخدم رسميون من المدينة يهرولون فى القاعات يحملون اللحوم إلى المطبخ العتيق ، الذى عادت إليه الحياة ، فأخذ يدوس أرضه الطباخون ومساعدوهم . وعلا وهج نيرانه التى لا عهد له بها . وأقيمت الوليمة فى الردهة العربية الجميلة التى تسمى ردهة الأختين ، والوجبة الرئيسة إذا دعى إليها أحد كانت وليمة حقا .

فزخرت المائدة بما حملت من ألوان الطعام ، وساد الطاعمين الجو المعهود فى الحفلات المرحة ، ذلك أن الإسبان ، وإن كانوا على الجملة قوماً معتدلين ، إلا أنهم مرحون كل المرح مع الولائم . أما عن نفسى فقد شعرت بشىء من المتعة الخاصة حين جلست فى مثل هذا المكان إلى وليمة فى الردهات الملكية من قصر الحمراء ، يدعونى إليها نائب عن أعظم فاتحيها المعروفين ، إذ كان السيد المحترم ، مع أنه لم يكن محارباً ، فهو خلف ونائب للقائد العظيم الشهير « جونسالفو » القرطبى ، الذى لا يزال يحتفظ بسيفه بين محفوظاته فى قصره بغرناطة .

ورفعت المائدة وانفض الجمع إلى ردهة السفراء . وهنا شارك كل واحد فى التسلية العامة ، فهذا يعرض شيئاً من مواهبه الخاصة . وذاك يغنى ، وآخر يبتده ، وهنا قاص يقص غريب القصص ، وهناك رقص على القيثارة ، تلك الآلة السحرية الشائقة التى يرتاح إليها الاسبانيون . وعلى كل حال فقد كانت روح هذا المجلس كله وفتنته تلك الفتاة الصغيرة الموهوبة « كرمن » . وقد شاركت فى مشهدين أو ثلاثة من تلك المشاهد الاسبانية المنزلية ، فأظهرت مهارة تمثيلية فاتنة . فقلدت المغنين

الإيطاليين الشعبيين فى خفة فريدة غريبة ، وصوت نادر فى صفائه . فحاكتهم فى لهجاتهم ورقصهم وأناشيد غجرهم والزارعين المجاورين . وفعلت هذا كله فى يسر ودقة ورشاقة وجمال يأخذ بالألباب . وعلى أية حال فقد كان أعظم ما يفتن فى تمثيلها هو أنها لم تكن متصنعة أو طامحة فى التظاهر ، فكانت فيما يبدو غير مدركة مواهبها العظيمة . وفى الحق إنها لم تكن قد عوّدت أن تفعل هذا إلا عرضاً كما يفعل الطفل حين يسرى عن جماعة منزلية . ولا شك أنها كانت عجيبة فى دقة ملاحظتها ونفاذ بصيرتها ، مع أنها تعيش حياتها بين أحضان أسرتها . ولم يكن لها إلا لمحات عارضة عابرة عن مختلف الأشخاص والخلال المتباينة التى تعرض لها مبادهة فى أمثال تلك اللحظات من المسرات المنزلية التى نتكلم عنها .

وإنه لمن الغبطة أن ترى كل فرد من أهل البيت يلحظها بالإعزاز والإعجاب ، ولم يكن أحد ليناديها ، حتى خدمها ، بلقب غير هذا اللقب « الصغيرة » هذه التسمية التى كان استعمالها يدل على شىء من التدليل والإعزاز فريدين فى اللغة الإسبانية . ولن أذكرا الحمراء إلا ذاكر معها «كارمن» الصغيرة الجميلة تمرح فى صباها الطاهر السعيد فى ردهاتها المرمرية ، راقصة على رنات الصنج العربى ، أو مازجة شدى صوتها الفضى بهدير النافورات الموسيقى . وفى هذة المناسبة مناسبة هذا الحفل كم من قصص سارة غريبة رويت ، وأخبار قصت . ولقد مر كثير منها دون أن تعيه ذاكرتى . ولكنى أخذت بواحدة كانت أكثرها أثراً فى نفسى سأحاول أن أقدمها متعة للقارئ .

* * *

قصة
الأمير أحمد الكامل
أو
الحاج إلى كعبة الحب

كان يحكم غرناطة فى يوم من الأيام ملك عربى لم يكن له غير ولد واحد سماه أحمد . ثم أضاف إليه رجال حاشيته لقب « الكامل » لأمارات الكمال البينة التى لمسوها فيه منذ طفولته الأولى . وقد أيدهم المنجمون فيما ذهبوا إليه، فتنبئوا له بأن الأمور ستجرى وفق ما يريد ، وأنه سيصبح أميراً كاملاً وحاكماً موفقاً . ولن يكون هناك إلا سحابة واحدة فى صفحة أقداره . وحتى هذه فلونها متورد. وسوف يكون عاطفى المزاج . وسيلاقى مخاطر عظيمة من جراء هذه العاطفة الرقيقة . ومع ذلك فإذا قدّر أن يحال بينه وبين غواية الحب ، حتى يستوى ، فلن يصيبه شيء من هذه المخاطر ، وستكون حياته من ثم موصولة الهناءة .

وأراد الملك الحكيم أن يدفع عنه كل خطر من هذا القبيل. فقرر بثاقب رأيه أن يربى الأمير فى عزلة حيث لا تقع عينه قط على وجه من وجوه بنات حواء، بل ولا تطرق سمعه كلمة الحب .

وبنى له قصراً جميلاً على حافة التل إلى أعلى من الحمراء ، وسط حدائق بهيجة ، ولكنه أحاطه بجدران عالية . وقد أصبح فى الحق ، المكان نفسه الذى يحمل فى أيامنا الحاضرة اسم جنة العريف .

وفى هذا القصر أودع الأمير ، ووكل أمر رعايته وتثقيفه إلى ابن حبان أعقل حكماء العرب وأصلبهم رأياً . وكان ابن حبان قد أمضى الشطر الأكبر من حياته فى مصر يدرس الهيروغليفية ويقوم بأبحاث بين القبور والأهرام ، فكان يرى فى أية مومياء مصرية من الفتنة ما يفوق فتنة أعظم الجميلات سحراً. وقد أمر الحكيم أن يثقف

الأمير بجميع ألوان المعرفة إلا شيئاً واحداً وهو أن يبقى جاهلاً كل الجهل بالحب. وقال له الملك : خذ كل حيطة تراها جديره بتحقيق هذا الغرض . ولكن تذكر يا بن حبان أنه إذا علم الولد شيئاً من تلك المعرفة المحرمة . وهو فى رعايتك ، فسيكون رأسك جزاء هذا. وعلت هذا الوجه الجامد ، وجه العاقل ابن حبان . ابتسامة ذابلة حينما هدده الملك وقال له : ليطمئن قلبك يا صاحب الجلالة على ابنك اطمئنانى على رقبتى ، فهل لرجل مثلى أن يعطى دروساً فى العاطفة التى لا تحل إلا قلوب الخليين .

وتحت رعاية الفيلسوف اليقظة نشأ الأمير فى عزلته من القصر وفى الحدائق . وكان له عبيد سود يقومون بأمره ، قبيحو الصورة ، بكم لا يعرفون شيئاً عن الحب ، وإذا عرفوه فليسوا بمستطيعين التحدث عنه . وكانت العناية بتنمية الملكات العقلية هى شغل ابن حبان الشاغل .وقد رأى أن يثقفه بمعارف المصريين العويصة . ولكن الأسير لم يُبد هنا إلا تقدماً يسيراً . وسرعان ما ظهر أنه ليس له ميل إلى الفلسفة . ولكنه قد كان على أية حال لين العريكة ليناً غريباً على أمير شاب ، لا يعصى لناصح نصحاً ، ويتبع دائماً آخر ناصح ، فكبح ما اعتراه من سأم وملل واستمع صابراً على دروس ابن حبان العلمية الطويلة ، غير أنه لم يفد منها إلا قشوراً من مختلف العلوم . وهكذا أدرك العشرين من عمره سعيداً نادرة بين ذوى الفطنة من الأمراء . ولكنه كان جاهلاً كل الجهل بالحب .

غير أن الأمير فى هذا الوقت قد طرأ عليه ما غير نهجه . فهجر الدرس هجراناً وأخذ يجول بين الحدائق ويتسلى بالجلوس إلى جوار النافورات . وكان قد لقن شيئاً من الموسيقى فيما لقن من ثقافاته المختلفة . فأصبحت تستغرق الشطر الأكبر من وقته ، وبدا عليه ميل إلى الشعر ، فانزعج العاقل ابن حبان وجهد فى أن يصرفه عن هذه الهوايات التى هى من طباع الخليين بإعطائه دروساً صعبة فى الجبر . ولكن الأمير كان يلفظها نافراً ويقول : أنا لا أطيق الجبر ، إنه شىء مبغّض لى ، إنى أتوق إلى شىء أكثر صلة بالقلب .

فهز العاقل ابن حبان رأسه الصلد عند سماعه هذه الكلمات وقال فى نفسه : إلى هنا انتهت الفلسفة . لقد علم الأمير أن له قلباً . وبدأ يرعى تلميذه قلقاً . ورأى أن العاطفة الكامنة فى نفسه قد أخذت تتوثب ، وهى لا تنشد إلا ضالتها . وأخذ يجوس خلال جنة العريف فى غمرة من الشعور لا يعرف لذلك سبباً . وكان أحياناً يجلس مستغرقاً فى هواجسه الجميلة ، ثم يمسك بعوده فينطقه بأشجى النغمات ، ثم يلقيه جانباً . ويسلم نفسه لتأوهاته وأناته . وعلى مر الأيام بدأت ميوله الغرامية تزداد تعلقاً بالأشياء غير الحية . فكانت الأزهار حبيبة إلى نفسه ، يقوم عليها فى صبر ورفق . وبدأ ينزع إلى مختلف الأشجار ، فالتفت إلى شجرة هناك كانت على هيئة فريدة لطيفة ذات أوراق متهدلة ، وخصها بفيض غرامه ، وحفر اسمه على لحائها وعلق إلى غصونها طاقات الزهور ، وغنى المقطوعات فى وصفها على نغمات العود . وفزع ابن حبان لما بدا على تلميذه من عاطفة مهتاجة ، ورأى أنه على شفا المعرفة المحرمة ، وأن أقل إشارة قد تكشف له عن السر الرهيب . وساوره الخوف على نجاة الأمير وخلاص رأسه هو . وأسرع ينحيه عن مغريات الحديقة . وألزمه أعلى برج من جنة العريف ، كان ينضم على أجنحة جميلة ويطل على منظر يكاد لا يبلغ البصر مداه . ولكنه كان يرتفع به عن جو المفاتن . وتلك التعريشات السحرية الشديدة الخطر على مشاعر أحمد السريع التأثر . وعلى أية حال فماذا عليه أن يفعله بعد ليحبب إليه هذا الانفراد وليقطع عليه تلك الساعات المملة . لقد استنفد كل أنواع المعرفة الملائمة أو كاد ، واستبعد الجبر وسكت عنه فلم يعد يذكره . ومن حسن الحظ أن ابن حبان قد حذق لما كان فى مصر لغة الطير على ربانى يهودى توارثها أباً عن جد ، عن سليمان الحكيم الذى تعلمها عن ملكة سبأ . وما أن ذكرها للأمير حتى بدأت عيناه تشعان بالحياة وألزم نفسه بها فى شغف ، حتى إنه سرعان ما أصبح فيها متضلعاً عظيماً مثل أستاذه . ولم تبق جنة العريف مدة طويلة فى عزلة . فقد أصبح له فيها رفقاء يمكن أن يتحدث إليهم ، وكانت أول صلة له عقدها مع صقر . اتخذ عشه فى شق من الشرفات

العالية ، ومن ثم فقد كان يحلق طولاً وعرضاً فى البحث عن فريسة . ولم يجد فيه الأمير إلا القليل مما يحببه إليه أو يرفع من شأنه فى نظره. فلم يكن غير قرصان من قراصنة الهواء متعجرفاً متغطرساً. ولم تكن أحاديثه إلا حول النهب والجرأة فى المغامرات . وكان ثانى من عرف بومة ، طائر عظيم حكيم فى مظهره . ذو رأس ضخم وعينين محملقتين . يجلس طول يومه يزر عينيه ويحملق بهما من جحر فى الجدار . ولكنه يخرج هائماً فى الليل . وكان الأمير على شىء من الحكمة يعرف قليلاً عن الهيئة والقمر ويلم بطرف من العلوم الغامضة . ولكنه كان مولعاً أشد الولع بالعلوم العقلية . فوجد هنا مجال الحديث أكثر سعة منه عند الحكيم ابن حبان. وكان له بعد ذلك خفاش ، يتعلق يومه كله بأرجله إلى ركن مظلم من القبو. ثم يخرج مع الغبشة فى هيئة متحشفة . على أنه قد كانت عنده فكرة عن كل الموضوعات ولكنها غير واضحة. يسخر من الأشياء حين ينظر إليها وإن كانت نظرته إليها غير كاملة . وكان يبدو وكأنه لا يسر لشىء . وإلى جانب هذه الثلاثة كان هناك عصفور . أخذ به الأمير أولاً أخذاً. إذ كان شجى التغريد . ولكنه كان فى حركة دائمة وصخب لا يهدآن . دائم الطيران. قلما يستقر فى مكان وقتاً طويلاً استقراراً يسمح باتصال الحديث معه .

فأصبح أخيراً مجرد ثرثار. لا يفعل ولكنه يمر بظواهر الأمور . مدعياً أنه يعرف كل شىء ، ولكنه لا يعرف شيئاً حق المعرفة . وكانت هذه كلها هى عشيرته المريشة التى وجد منها الأمير فرصة ما يمرن فيها لغته التى تعلمها حديثاً .

وكان البرج شديد العلو لا يستطيع أى طير آخر أن يتردد إليه. لذا سرعان ما برم بمعارفه الجدد. الذين لم يكن حديثهم إلا شيئاً ليس فيه غير القليل مما يغنى به الرأس. ولا غناء فيه للقلب . وأخذ شيئاً فشيئاً يخلد إلى عزلته .

ومر الشتاء وأشرق الربيع بأزهاره وخضرته ونسيمه العليل ، وحل الوقت السعيد للطيور الذى تتزاوج فيه وتبنى أعشاشها . وفجأة انبعثت إليه من جميع الأرجاء هيجة من الأغانى والألحان فاضت من حرجات جنة العريف وحدائقها واقتحمت

عليه عزلته فى البرج . وكان يسمع فى كل رجاً من الأرجاء هذه الصيحة التى يشدو بها كل قلب ويترنم بها : الحب . الحب . الحب ، فتردد إليه فى مختلف النغمات والألحان . وأصغى الأمير صامتاً حائراً وأخذ يفكر : وماذا يمكن أن يكون هذا الحب ، الذى تبدو الدنيا وكأنها امتلأت به . وأبدو أنا لا أعلم عنه شيئاً .

والتمس المزيد عند صديقه الصقر . فأجابه هذا الطائر الوبش فى نغمة فيها رنة من الازدراء ، عليك أن تلتمس هذا عند عامة طيور الأرض الدارجة الوادعة التى خلقت لنعيش عليها نحن أمراء الجو ، فإن فى الحرب تجارتى وفى الكفاح لذتى . ولا أطيل عليك ، فإنى محارب لا علم لى بشىء عن هذا الذى يسمى الحب.

وانقلب الأمير من عنده ضيق النفس ، وفكر فى البومة فى عزلتها ، وقال : هذا طائر سلم وادع الطبع فيما تعود ، وقد يستطيع أن يحل عقدة سؤالى . ولذا فقد سأل البومة لتخبره عن الحب ، هذا الذى تغنت به كل الطيور فى الحرجات أسفل منه . وعند هذا نظرت إليه البومة فى كبرياء المغيظ وقالت : إنى أقضى ليالى فى الدرس والبحث ونهارى فى عشى أتدبر كل ما وعيته ، أما عن هذه الطيور المغردة التى عنها تتكلم فإنى لم أستمع إليها قط ، إذ أنى أحتقرها ولا ألقى بالاً لها ولا لشئونها ، وإنى أحمد الله على أنى لا أغنى ، فإنى فيلسوفة لا أعرف شيئاً عما يسمونه الحب .

وأوى الأمير إلى القبو حيث صاحبه الوطواط معلقاً برجليه وبسط له المسألة نفسها . ولكن الوطواط شم بأنفه وبدت على وجهه أشد أمارات السلاطة والقحة وقال ساخطاً : كيف تفسد علىّ هجعة الصباح بمثل هذا السؤال التافه . فإنى لا أطير إلا مع الغسق حين تهجع كل الطيور ولا أعنى نفس أبداً بشئونها ، وإنى أشكر الله على أنى لست بطائر ولا حيوان . فقد خبرت دناءة طبعهم جميعاً ، وإنى أبغضهم آحاداً وجماعات . ولا أطيل عليك فإنى من مبغضى جنسى ولا أعرف شيئاً عن هذا الذى يسمونه الحب .

وعندئذ فكر الأمير فى العصفور على أنه آخر من سيلجأ إليه ، فاستوقفه

حينما كان يحوم حول قمة البرج . وكان العصفور كعادته جدّ مسرع ليس لديه متسع من الوقت للإجابة ، فقال : أقسم بشرفى إن لدى كثرة كثيرة من الأعمال العامة علىّ أن أنظر فيها ، وهى أمور من الوفرة بمكان أسعى إليها . وليس لدى وقت لأفكر فى هذا الموضوع ، فلى فى كل يوم آلاف الزيارات علىّ أن أقوم بها وآلاف من الأعمال الخطيرة لأنظر فيها ، حتى إنه لم تبق لى لحظة من فراغ لهذه الأمور المملة . وخذها كلمة واحدة فإنى من رجال الأعمال . وما أن أتم العصفور كلامه حتى أسف إلى الوادى واختفى عن الأنظار فى لحظة ، وبقى الأمير مخيب الرجاء مبلبل البال ، ولكنه بما فيه من حب الاستطلاع كان أكثر استياء لتعذر تحقيق ما أراد . وفيما هو فى تلك الحال دخل عليه البرج مؤدبه القديم . وخطا الأمير مشوقاً ليلقاه ، وصاح به : أيها الحكيم ابن حبان ، لقد كشفت لى عن كثير من حكمة العالم ، ولكن بقى منها شىء لا أزال أجهله جهلاً ، وإنى مشوق إلى عرفانه. فقال له : أيها الأمير ، ما عليك إلا أن تسأل ، وكل ما يحيط به علم خادمك المحدود فهو رهن أمرك . فقال له : أخبرنى إذاً أيها الحكيم ، يا أبعد الحكماء غوراً ، ما طبيعة هذا الشىء الذى يسمى الحب ؟ وكأن ابن حبان قد رُمى بصاعقة عند سماعه هذا ، فأصابته رجفة وانقلب مصفراً وأحس كأن رأسه تتأرجح فوق كتفيه وقال : أى شىء أوحى بهذا السؤال إلى مولاى ؟ وأين ومن أين علم بهذه الكلمة التافهة الرخيصة ؟ فقاده الأمير إلى نافذة البرج وقال له : ألق بسمعك يا بن حبان. فأنصت الحكيم . وكانت البلابل فى أيكة أسفل من البرج تغنى لحبيبها الورد ، وكان ينبعث من كل غصن مزهر وكل حرجة موشاة نغمة رخية تتردد ترددا لا ينقطع : الحب ، الحب ، الحب .

فصاح الحكيم ابن حبان : الله أكبر ! من ذا الذى يحاول أن يحفظ هذا السر بمنأى عن قلب الإنسان ، على حين قد ائتمرت طيور الجو نفسها على أن تذيعه . ثم التفت إلى أحمد وصاح به : أيها الأمير ، فلتصم أذنيك عن سماع هذه النغمات الغاوية ، ولتجعل على قلبك كنة أن يفقه هذه المعرفة الخطرة.

ولتعلم أن الحب هو مصدر نصف العلل التى تصيب الإنسان الفانى المنكود، إنه هو الذى يلقى العداوة والشحناء بين الإخوة والأصدقاء، وهو الذى يدفع إلى القتل غيلة ويثير الحروب المدمرة، أصحابه فى شغل وهم، نهار مكدود وليل مؤرّق، به يذبل كل نضر، وتغيض مسرات الصبا، وتحل محلها العلل والأحزان، ويصاب الشباب بعلل الشيخوخة المبكرة وأحزانها. ألا فليحفظك الله أيها الأمير جاهلاً كل الجهل بهذا الشىء الذى يسمى الحب. وانسحب ابن حبان مسرعاً تاركاً الأمير مستغرقاً فى هم عميق. وكان عبثاً ما حاول من انتزاع تلك الأشياء من ذهنه، فهى لا تزال لها الغلبة على تفكيره، تضاره وتُعنّيه بالأوهام الكاذبة. وقد قال لنفسه وهو يصغى إلى انسجام نغمات الأطيار: حقّاً إن هذه الألحان لا تنطق بهَم، وكل ما فيها فهو رقة وجذل. وإذا كان الحب سبباً لمثل هذا الشقاء والنزاع فلمَ لم تمعن هذه الطيور فى عزلتها؟ ولمَ لم يمزق بعضها بعضاً إرباً إرباً؟ بل تراها على العكس من ذلك مرفرفة فى نشوة حول الحرجات، يلاعب بعضها بعضاً بين الأزهار. واضطجع صباح يوم على وسادته يفكر فى هذا اللغز الغامض، وكانت النافذة مفتوحة، ونسيم الصباح يحمل إليه أرج زهرات البرتقال من وادى حدرة، ولا يزال البلبل يغنى بصوته الخافت أغنيته المألوفة. وفيما كان الأمير يصغى ويتأوه دفع الهواء إليه هبة مباغتة مجلبة. فإذا يمامة فى إثرها صقر ترمى بنفسها إلى النافذة وتسقط على الأرض لاهثة، ويبتعد المطارد محلقاً فوق الجبال بعد أن حيل بينه وبينها. وتناول الأمير الطائر اللاغب يمسح ريشه فى رفق ثم ضمه إلى صدره. وبعد أن سكّن من روعه بتدليله إياه وضعه فى قفص من ذهب وقدم إليه بيديه أنقى البر وأحسنه، وأصفى الماء وأعذبه. على أن الطائر قد أبى أن يذوق طعاماً، وبقى ذاوياً هزيلاً، يصوت بأنات حزينة. فقال أحمد: ما شكاتك؟ أليس بين يديك كل ما يمكن أن يخطر على قلبك؟ وأجابت اليمامة: مع الأسف لا. ألم يحل بينى وبين شريك قلبى، ثم لم يكن هذا إلا فى فصل الربيع فصل الحب الحق.

وردد أحمد : الحب . إنى أضرع إليك يا طائرى الجميل ، هل تستطيع إذاً أن تخبرنى عن الحب ما هو؟ فقال : نعم أستطيع ذلك حقًّا أيها الأمير . هو شقاوة لفرد وهناءة لاثنين ، والخصومة والشحناء لثلاثة . إنه السحر الذى يؤلف بين حيين ، ويربط بينهما برباط من العاطفة الهنيئة . هو السعادة ما عاشا معاً والشقاء إذا انفصلا . ثم أليس لك من بين الناس من تربطك به هذه الروابط روابط المحبة الرقيقة ؟ فقال : إنى أحب معلمى العجوز ابن حبان أكثر مما أحب إنساناً آخر ، ولكنى كثيراً ما أحس الملل فى عشرته . وقد أجدنى أحياناً أسعد منى حالاً فى البعد عنه . فقال : ليست هذه هى العاطفة التى أعنيها . إنى أتحدث عن الحب سر الحياة الأكبر الذى عليه يقوم أصلها ، ومرح الشباب الفاتن ، وبهجة الشيوخ الوادعة . تطلع فيما حولك أيها الأمير وانظر كيف تزخر الطبيعة بالحب فى هذا الفصل الجميل من السنة ، فلكل مخلوق أليفه . فأقل الطيور شأناً يغنى لعشيقه ، والخنفساء نفسها تتألف أنثاها بين التراب ، وتلك الفراشات التى تراها ترفرف عالياً فوق البرج وتلعب فى الهواء سعيدة بحب بعضها لبعض . واحسرتاه أيها الأمير ! أهكذا ضيعت الكثير من أيام شبابك الغالية دون أن تعرف شيئاً عن الحب ! ألم يكن هناك لك مخلوق لطيف من الجنس الآخر؟ ألم تكن هناك أميرة جميلة أو عذراء حسناء تغزو عليك قلبك وتملأ صدرك بذلك اللجب الناعم ، لجب الآلام السارة والرغبات الرقيقة ؟

وقال الأمير متنهداً : لقد بدأت أن أفهم ، لقد جربت مثل هذا اللجب أكثر من مرة دون أن أعرف سببه . وأين يجب أن أفتش عن هذا الغرض كما تصفه . أفى هذه العزلة الموحشة ؟ وتبع الحديث حديث أبعد من ذلك قليلاً ، وأتم الأمير أول درس له فى الغرام . وقال : يا للأسف. إذا كان الحب حقًّا هو هذه اللذة ، وانفصام عروته هو هذا الشقاء ، فليعصمنى الله من أن أضار كما يضار من نذروا أنفسهم له . وفتح القفص وأخرج اليمامة وقبلها فى حنان ، ثم حملها إلى النافذة وقال : انطلق أيها الطائر السعيد ، ولتهنأ برفيق قلبك فى أيام الشباب وأزمان الربيع ، وكيف لى أن أجعل منك أسيراً فى هذا البرج الموحش ،

الذى لن ينفذ إليه الحب أبداً . وصفقت اليمامة بجناحيها وقد غمرها السرور وألقت بنفسها فى الهواء، ثم هوت إلى عرائش حدرة المزهرة، ولجناحيها فى خفقهما صفير . ولاحقها الأمير بعينيه ، ثم خلى نفسه لسأم ممر . وعاد تغريد الأطيار يزيد فى همه . وقد كان حيناً يبعث المسرة فى نفسه: الحب ، الحب ، الحب . واحسرتاه لهذا الشاب المسكين ، لقد أخذ يفهم اللحن الآن . وقذفت عيناه بالشرر حين لقى ابن حبان ثانية وصاح فى وجهه : كيف رضيت لى تلك الجهالة الجهلاء! وكيف منعتنى سر الحياة الأكبر وأصلها ، وقد وجدت دنيا الحشرات أوسع به علماً ! ألا ترى إلى الطبيعة كلها فى قصف من المرح، وكل حى هانئ بإلفه . هذا هو الحب الذى فكرت أن ألعنه . ومالى أمنع أنا دون سواى من التمتع به! وكيف يمضى الكثير من شبابى ولم أكابد نشواته! ورأى الحكيم ابن حبان أن أية حيطة بعد ذلك لا غناء فيها ، فلقد لقن الأمير أخطر العلم وممنوعه . وعلى هذا فقد أخذ يكشف له عن تخرصات المنجمين، وتلك الحيطة التى أخذ بها فى تثقيفه ليحال بينه وبين الشرور التى تهدده ، ثم زاد : والآن أيها الأمير، إن حياتى فى يديك فما هو إلا أن يعلم أبوك أنك عرفت وَجْد الهوى وأنت فى رعايتى حتى يكون جزائى عنده قطع رقبتى . وكان الأمير مصيخاً شأن الكثير ممن هم فى صغر سنه، فأصغى لاعتراضات مؤدبه فى يسر ، حين لم يجد شيئاً يأخذه به . بعد هذا فقد كان كلفاً بالحكيم ابن حبان ، وآثر — وقد سمع عن الهوى — أن يحبس معرفته به فى صدره على ألا يعرض رأس الفيلسوف لخطر ، على أنه قد قدر لعقله أن يبتلى بتجارب أخرى .

وبعد أيام قلائل وفيما كان ينعم النظر من شرفات البرج رأى تلك اليمامة التى أطلقها من قبل تقترب محلقة فى الهواء، ثم حطت على كتفه آمنة مطمئنة . وضمها الأمير إلى صدره فى إعزاز وقال : أيها الطائر السعيد، من ذا الذى يستطيع أن يطير مثلك على أجنحة الصباح إلى أقصى أنحاء الأرض؟ وأين كنت منذ افترقنا؟ فقال : فى إقليم بعيد أيها الأمير ، وقد حملت إليك منه أخباراً جزاء ما منحتنى



بهو الساقية

من حرية . فنى طيرانى البعيد المدى ، فوق السهل والجبل ، فما كنت أحلق فى الهواء ، وقع نظرى على حديقة بهجة من تحتى ، قد جمعت شتى الفواكه والأزهار ، وكانت فى مرج خصيب يحف بشاطىء مجرى هائم ، وفى وسط هذا المرج يقوم قصر عظيم . فحططت على عريشة من عرائشه أستريح من عناء الطيران . إلى الشطء المخضر من تحتى ، كانت أميرة شابة فى أزهر سنى عمرها وأحلاه . وكان من حولها تابعات لها صغيرات مثلها كن يحملنها بأكاليل الزهر ومضفوره . ولكن لم تبلغ زهرة من مرج أو حديقة مبلغ ملاحتها . وعلى أية حال فقد كانت تترعرع هنا محجوبة عن أعين الرقباء ، فكانت الحديقة محاطة بأسوار عالية ، ولم يكن يسمح لإنسان ما بدخولها . وعند ما رأيت تلك الفتاة البهية ، فى مثل هذه الحداثة والبراءة والطهر من أدران العالم ، فكرت فى أن هنا الإنسان الذى سواه الله ليلهم الأمير الحب .

وكان هذا الوصف كشرارة من نار على قلب أحمد المهيأ للاشتعال . ووجدت كل لواعج غريزته الكامنة فى الحال ما تصبو إليه ، وأصبح يكن لتلك الأميرة هوى مبرحاً ، فكتب إليها كتاباً مصوغاً فى لغة تفيض بالعاطفة نفس فيه عن حار إخلاصه . ولكنه نعى إليها هذا الأسر المؤلم الذى يحول بينه وبين أن يخرج ساعياً إليها ليلقى بنفسه على أقدامها . وأضاف أبياتاً أرق ما تكون لغة وأبلغ ما تكون تعبيراً فى إثارة النفس ، فقد كان شاعراً بطبيعته وملهماً بالحب . وعنون كتابه : إلى الحسناء المجهولة من الأمير أحمد الأسير . ثم عطره بالمسك والورد وأعطاه لليمامة وقال : هيا يا أوثق الرسل ، طيرى فوق الجبل وفى سماء الوادى والنهر والسهل ، لا تحطى على عريش ولا تطئى بقدم أرضاً حتى تسلمى هذا الكتاب لمالكة قلبى .

وحلقت اليمامة عالياً فى الهواء وأخذت طريقها مندفعة فى وجهة لا متحول عنها . وتبعها الأمير بنظره حتى أصبحت وكأنها ذرة على صفحة السحاب ، ثم أخذت تختفى شيئاً فشيئاً وراء الجبل .

وأخذ يرقب عودة رسول الحب يوماً بعد يوم ولكن عبثاً ، وأخذ يتهمه بالنسيان.

وذات مساء، والشمس منحدرة نحو المغيب، ظهر الطائر الأمين يرفرف فى سماء حجرته ثم سقط عند موطئ قدميه وهو يسلم النفس الأخير . فقد أصابه نابل نزق بسهم نفذ إلى صدره ولكنه غالب وبه رمق من حياة ليتم رسالته .

وانحنى الأمير كاسف البال على هذا الوديع شهيد الإخلاص . فرأى سلسلة قد انتظمت لآلئ حول عنقه وقد علق بها تحت جناحه صورة قد نقشت على الميناء، تحكى أميرة جميلة فى أينع شبابها . وكانت من غير شك حسناء الحديقة المجهولة، ولكن من هى؟ وأين مكانها؟ وكيف تسلمت كتابه؟ وهل فى إرسالها هذه الصورة دليل على أنها تبادلنى هوى بهوى ؟ ويا لسوء الحظ فقد ترك موت هذه اليمامة الأمينة كل شىء غامضاً يحيط به الشك . وحملق الأمير فى الصورة حتى اخضلت عيناه بالدمع ، فضمها إلى شفتيه ثم إلى قلبه، وجلس الساعات يتأملها، يغلب عليه حنان يشيع فيه الأسى، وقال: أيها الخيال الجميل، يا للأسف، لن تكون غير خيال، ومع هذا فعيناك المخضلتان تشعان بالحنان علىّ، وهاتان الشفتان المتوردتان تبدوان وكأنهما على أن يلفظا بآيات التشجيع . يا لها من أوهام كذاب ! هلا كانت هذه النظرة إلى غريب أكثر منى سعادة، ولكن أنى لى أن أجد فى هذا العالم الواسع أصلها، وما يدرينى كم من جبال وممالك تفصل بيننا، وكم من عقبات مانعة قد تعترض طريقنا . وقد يكون الآن فى هذه اللحظة محبون قد تزاحموا عليها، على حين قد جلست أنا هنا سجيناً فى برجى أهيم بطيف قد تمثل فى صورة .

وانتهى الأمر بالأمير أحمد إلى أن قال : سأهرب من هذا القصر الذى أصبح سجناً مبغضاً، وسأخرج حاجًّا إلى كعبة الحب أبحث عن هذه الأميرة المجهولة فى أنحاء العالم . وإن الخلاص من البرج فى النهار والكل فى يقظة قد يكون أمراً صعباً . ولكن القصر فى الليل كانت تخف الحراسة عليه، إذ لا يتوقع إنسان أية محاولة من هذا النوع للأمير ، الذى كان مستسلماً للأسر . وكيفما كانت الحال فأنى له أن يهتدى فى ظلمة الليل مع جهله ببلده . فأخذ يفكر فى البومة التى اعتادت أن

تهيم فى الليل ، فمن المحقق أنها عالمة بكل زقاق وممر سرى . فالتمسها فى صومعتها وسألها يتعرف ما عندها عن البلاد .

وعندها نظرت البومة نظرة العارف الشامخ بقدره وقالت : يجب أن تعلم أيها الأمير أننا معشر البوم لنا نسب قديم وأقرباء عديدون . ولكننا آخذون فى الانقراض . نملك المعاقل الخربة والقصور فى كل أنحاء أسبانيا ، وقل أن تجد برجاً فى الجبال ، أو حصناً فى السهول ، أو قلعة قديمة فى المدينة إلا وفيها منا إخوة أو أعمام أو أبناء أعمام يسكنونها . وفى طوافى لزيارة هؤلاء الأقارب العديدين نفذت إلى كل ركن وزاوية ، وأحطت نفسى علماً بكل سر من أسرار البلد . وطرب الأمير أى طرب حين وجد أن البومة جد خبيرة بتخطيط البلدان .

وأخذ يكشف لها وكله ثقة عن هواه الرقيق واعتزامه الهرب مستحثاً إياها لتكون رفيقته ومشيرته . وقالت البومة فى نظرة عابسة : اذهب عنى فلست طيراً يعنى نفسه بشئون الحب ، وقد خصصت وقتى كله متأملة سابحة فى الملكوت . فأجاب الأمير : لا يهيجنك هذا يا أجل البوم ، فلتتجردى لحظة عن التفكير والتسبيح فى الملكوت ، وساعدينى على هربى أحقق لك كل ما يخطر على قلب . وقالت البومة : لقد نلت ما أشتهى ، فحسب مائدتى التى لا إسراف فيها قليل من الفئران . وما أرحب هذا الحجر من هذا الجدار لدرسى . ثم أى شىء أكثر من هذا يرجوه فيلسوف مثلى . فقال لها : فكرى يأيتها البومة العظيمة الحكيمة ، إنك حين تجلسين كئيبة فى حجرك سابحة فى الملكوت تحرمين العالم كل مواهبك ، وسأكون يوماً ما ملكاً وقد أخصك بمنصب شريف جليل القدر . ومع أن البومة كانت فيلسوفة ، تتنزه عن شئون الحياة العامة ، ولكنها كانت غير منزهة عن الأطماع . ولذا فقد اقتنعت أخيراً بأن تهرب مع الأمير وأن تكون دليلته وناصحته فى رحلته الغرامية . وسرعان ما نفذت خطط المحب ، فجمع الأمير جميع جواهره وأخفاها معه ، يستعين بها على سفره ، وفى الليلة نفسها دلى نفسه بملحفته من شرفة البرج متشبثاً بالجدران الخارجية بجنة العريف . وقادته البومة تذلل له الفرار حتى

بلغت به الجبال قبل الصباح . وعندها جلس الأمير يستشير ناصحه فى خطة الغد .
فقالت البومة : إذا كان لى أن أشير فإنى أوصيك أن تلوذ بإشبيلية ، فيجب أن تعلم أنى منذ سنين كثيرة كنت فى زيارة لعمى ، وكانت بومة لها شأن خطير وقوة عظيمة ، تعيش فى جناح من قلعة ذلك المكان ، وفيما كنت أحلق بالليل فى سماء المدينة رأيت مراراً نوراً يتألق من برج منعزل ، وأخيراً حططت على الشرفات ووجدت هذا النور ينبعث من مصباح لساحر عربى ، وكانت حوله كتبه السحرية وقد جثم على كتفه أليفه ، ولم يكن غير غراب عجوز جاء به من مصر . وقد اتصلت بهذا الغراب وإنى أدين له بشطر عظيم مما لدى من معرفة . ومات الساحر منذ ذلك الوقت ولكن الغراب لا يزال يسكن البرج . إذ هذه الطيور تعمر عمراً طويلاً يكاد ينكره العقل . وإنى أنصحك أيها الأمير أن تبحث عن هذا الغراب ، إذ هو عراف وساحر ويشتغل بتلك العلوم المحجبة التى اشتهرت بها كل الغربان ، ولا سيما غربان مصر . وأخذ الملك بنصيحتها الثاقبة ونزل على رأيها ثم مال فى طريقه نحو إشبيلية ، وكان لا يسافر إلا ليلاً حتى لا يضار رفيقته ، ويستريح النهار فى بعض المغارات المظلمة ، أو فى مرقبة برج خرب . إذ كانت البومة تعرف كل جحر خفى من هذا النوع ولها خبرة أعظم عالم بالآثار القديمة فى تعرف الخرائب . وأخيراً بلغوا مدينة إشبيلية فجر يوم من الأيام حيث تلبثت البومة واتخذت مستقرها فى جوف شجرة . لأنها كانت تكره سطوع النور وجلبة الشوارع المزدحمة . ودخل الأمير من باب المدينة وسرعان ما وجد البرج السحرى الذى يسمو فوق بيوت المدينة كأنه النخلة تعلو فوق شجيرات الصحراء . وفى الحق إنه هو البرج نفسه الذى لا يزال قائماً إلى اليوم ويعرف باسم « خيرالدا » أشهر برج عربى فى إشبيلية . وصعد الأمير فى سلم عظيم متعرج إلى قمة البرج ، حيث وجد الغراب الذى يكشف عن الطلاسم والرموز . فوجده عجوزاً تحيط به الأسرار ، رمادى الرأس مشعث الريش ، على إحدى عينيه غشاوة كأنها ومضة طيف ، وكان معتمداً على رجل وقد مال برأسه ناحية مصوباً بعينه الباقية إلى شكل هندسى قد صور على الأرض . واقترب منه

الأمير فى رهبة واحترام بعثتهما فى نفسه بطبيعة الحال هيأته الوقورة وحكمته الغامضة ، وصاح به : يا شيخ الغربان وأعمقهم حكمة ، عفواً إذا قطعت عليك لحظة دراستك التى هى أعجوبة الدنيا . فأنت ترى أمامك رجلاً نذر نفسه للحب . مشوقا إلى تعرف رأيك ليصل إلى مأموله من هواه . وقال الغراب فى نظرة ذى مغزى : وبعبارة أخرى أنت تحاول أن تجرب مهارتى فى قراءة الكف ، اقترب وأرنى يديك ودعنى أقرأ لك خطوط الحظ الخفية . فقال الأمير : عفواً ، ما جئت لأستطلع أحكام القدر التى حجبها الله عن أعين الإنسان الفانى ، إنى حاج إلى كعبة الحب ، ولا أبحث إلا عن الدليل الذى أصل به إلى من حججت من أجله. فقال الغراب العجوز ناظراً إليه شزراً بعين واحدة : أيمكن أن تحار فى إشبيلية بلد السحر والفتنة؟ أو يمكن أن تضل عن غايتك فى بلاد الأندلس بلاد الحب؟ حيث العذارى النجلاوات العيون يرقصن الرقصات العربية فى ظل كل حرجة من حرجات البرتقال .

فاحمر الأمير خجلاً وأصابه شىء من الرعدة عند سماعه طائراً عجوزاً خطا إلى القبر بإحدى رجليه يسترسل فى غير حرج ، وقال فى جد : صدقنى إننى لست أسعى لمثل هذا الغرض التافه الضال كما تطرق إلى ذهنك . فعذراوات الأندلس السوداوات العيون اللائى يرقصن فى حدائق برتقال الوادى الكبير لسن لى على بال . ولكنى أبحث عن واحدة مجهولة لا يشوب جمالها أى دنس ، هى الحقيقة لهذه الصورة ، وإنى أضرع إليك أيها الغراب العظيم القدر أن تخبرنى أين أجدها ، إذا كان هذا مما يحيط به علمك أو تدركه بفنك .

وعرتْ الغراب الرمادى الرأس خجلة حين رأى الجد من الأمير ، وأجاب فى جفاء : وما علمى أنا بالشباب والجمال ، فلم أكن ألم إلا بالعجائز الذابلات لا الحسان البضات ، فإنى نذير القضاء الذى ينعب بنُذر الفناء من فوق قمم المداخن ، وأخفق بجناحى على نافذات المرضى ، فألتمس فى مكان آخر الأخبار عن حسنائك المجهولة. فقال : وأنى لى بذلك إذا لم أنشدها بين أبناء الحكمة الذين تضلعوا فى قراءة كتاب

القدر ، إنى ولى عهد مملكة رسمت لى النجوم قدرى ، وقد خرجت لمغامرة عجيبة قد يرتبط بها مصير امبراطوريات .

وعند ما سمع الغراب أن الأمر يتصل بأمر جليل الخطر قالت فيه النجوم كلمتها ، غير من لهجته وحاله وأصغى فى انتباه بالغ إلى قصة الأمير ، حتى إذا أتمها أجاب : قد لا تجد عندى شيئاً يتصل بهذه الأميرة ، فلم أكن أطير فى جو البساتين ولا حول مخادع السيدات ، ولكن أسرع إلى قرطبة والتمس نخلة عبد الرحمن العظيم التى تقوم فى فناء المسجد الجامع ، وعند أسفلها ستجد رحالة جليلاً زار جميع الممالك والقصور الملكية ، وهو مقرب إلى الملكات والأميرات ، وسيخبرك هذا بأخبار ما تنشده .

فقال الأمير : شكراً لك على تلك الأخبار الغالية ، ثم وداعاً أيها العراف الجليل.

وقال الغراب فى جفاء : إلى اللقاء أيها الحاج إلى كعبة الحب ، ثم استغرق ثانية يتأمل هذا الشكل الهندسى . وخرج الأمير قدماً إلى إشبيلية ، بعد أن بحث عن البومة رفيقة سفره ، التى كانت ما تزال ناعسة فى الشجرة الجوفاء . ثم مضى إلى قرطبة وجاز إليها بين حدائق معلقة وحرجات من البرتقال والليمون تطل على الوادى الكبير الجميل ، وحين وصل أبوابها طارت البومة إلى جحر مظلم فى جدار ، وتابع الأمير خطواته يلتمس النخلة التى غرسها فى سالف الأيام عبد الرحمن العظيم . وكانت قائمة فى وسط الفناء العظيم للجامع ترتفع بين أشجار البرتقال والسرو ، وقد جلس الدراويش والفقراء جماعات تحت أروقة الفناء ، وكان كثير من المؤمنين يتوضؤون على النافورات قبل دخولهم إلى المسجد . وفى أسفل النخلة جلس جمع يصغى إلى متحدث بدا أنه يتكلم بطلاقة عظيمة . فقال الأمير فى نفسه : لاشك أن هذا هو الرحالة الذى سيزودنى بالأخبار عن أميرتى المجهولة . فانخرط فى الحشد ، ولكنه دهش حين أدرك أنهم كلهم كانوا يستمعون إلى ببغاء ثرثارة بدت فى حلتها الخضراء الزاهية ونظرة المعنى بشئون الناس وقنزعتها المعجبة ، لها هيأة طائر مدل بنفسه .

وقال الأمير لواحد من النظارة : كيف يمكن لحشد من الناس الجادين أن يرتاح إلى لغو طائر ثرثار. فقال له الآخر : إنك لا تعلم عمن تتكلم . فهذه الببغاء من نسل ببغاء العجم المشهورة والمعروفة بمقدرتها فى قص القصص، وتحفظ كل علوم الشرق عن ظهر قلب، وتستطيع أن تقول الشعر كما لو كانت تتكلم . وقد زارت ملوكاً مختلفين، وكانوا يعدونها علامة لوذعياً. كما كانت مقربة إلى قلوب الجنس اللطيف كافة الذى كان عظيم الإعجاب بلوذعية الببغاوات اللاتى يقدرن على رواية الشعر. ولذا قال الأمير : حسبي ذلك، سيكون لى مع هذا الرحالة الشهير حديث خاص . والتمس مقابلته على انفراد وشرح عن ماهية مهمته، وما أن بسطها حتى انفجرت الببغاء مسترسلة فى قهقهة جافة فاترة لم تستمسك معها دموعها التى انحدرت من عينيها وقالت : اعذرنى على نشوتى، فإن مجرد ذكر الحب يثير فى الضحك دائماً ، وصُدم الأمير بهذا المرح الذى جاء فى غير حينه وقال : أليس الحب هو لغز الطبيعة الأعظم، وأصل الحياة الأكبر، والرابطة التى تربط بين قلوب الناس ؟ وصاحت الببغاء مقاطعة له : ما أتفه ما تقول ! بربك أين لقنت هذه الرطانة العاطفية، صدقنى إن الحب ليس حقاً من مألوف الناس، ولن يسمع به الإنسان بين جمع من العقلاء أو قوم مثقفين . وتأوه الأمير حين تذكر لغة تختلف عن لغة صديقته اليمامة . وفكر كيف لا تعرف هذه الببغاء شيئاً عما يسمى الحب، بينما هى تعيش فى قصور الملوك وتصطنع الذكاء وتتخذ سمة الأماجد الظرفاء . ولم يشأ أن يثير مزيداً من هذه السخرية بالشعور الذى كان يملأ قلبه . وهدف فى الحال بأسئلته إلى مرماه الأصلى من هذه الزيارة وقال : أخبرينى أيتها الببغاء التى قد بلغت الغاية من الكمال، يا من فتحت لها أخفى مخادع الحسان، هل قابلت فى طريقك وأنت تطوفين صاحبة هذه الصورة . وأخذت الببغاء الصورة بمخلبها وهزت رأسها يميناً وشمالاً وتفحصتها فى استغراب بكلتا عينيها، ثم قالت : بحياتى إنه لوجه جميل جدا ، جميل جدا ، ولكن كم يرى الإنسان فى الرحلة الواحدة من نساء جميلات حتى إنه ليتعذر على المرء . . . ولكن انتظر . وفقنى الله .

الآن سأنظر إليها ثانية . إنى واثقة كل الثقة أنها الأميرة « الديجوندا ». وكيف أنسى من كانت أعز محبوبة علىّ .

وردد الأمير : الأميرة« الديجوندا » . وأين أجدها . وقالت الببغاء: هوناً هوناً فالعثور عليها أيسر من تملكها ، فإنها وحيدة الملك المسيحى الذى يحكم طليطلة ، وقد قُصرت عن العالم حتّى السابعة عشرة من عمرها وذلك بسبب تخرصات المنجمين ، هؤلاء الأتباع الفضوليين . ولن تظفر منها بنظرة ، فليس لرجل أن يراها. ولقد أتيح لى أن أمثل بين يديها لأنادمها . وإنى أؤكد لك ، بكلمة ببغاء رأت العالم ، أنى تحدثت فى حياتى إلى أميرات أشد منها غرارة . وقال الأمير : خذيها منى كلمة صدق يا عزيزتى الببغاء أنى أنا الوارث لمملكتى ، وسوف أجلس على عرشها يوماً ما ، وأراك طائرة قديرة لك بصر بالعالم ، فساعدينى على الفوز بهذه الأميرة وسأخصك ببعض المراكز المقدورة فى القصر .

فقالت الببغاء : بكل قلبى ، على أن يكون هذا تطوعاً غير مأجور ، لأنا معاشر الأذكياء ما أكثر ما تعاف أنفسنا أن تُؤجر . وسرعان ما أعدوا للأمر عدته ، وخرج الأمير قدماً من قرطبة من الباب نفسه الذى دخل منه . ونادى البومة لتهبط إليه من جحرها فى الجدار ، وقدمها إلى رفيقهم الجديد فى الرحلة على أنه أخ مشير ، ومضوا فى رحلتهم. إلا أنهم أبطئوا فى سيرهم إبطاء ضاق به الأمير القاق. وكانت البيغاء معودة رغد الحياة وكانت تتأذى إذا استنهضت فى الصباح المبكر ، وكانت البومة هى الأخرى ممن عودا أن يناموا وقت الظهيرة ، فكان يضيع كثيراً من الوقت بسبب هذه القيلولة الطويلة . زد إلى ذلك شغفها بالعاديات فكانت تصر على أن تتلبث منقبة فى كل مكان خرب ، وكانت لا تنفك تقص قصصاً خرافيا طويلا حول كل برج وقلعة فى المملكة . وخال الأمير أن البومة والببغاء ستأنس كل منهما بصحبة أختها فكلتاهما على علم ، ولكنه لم يسئ التقدير أبداً كما أساءه هنا. فلقد كانتا فى منازعة دائمة وكانت إحداهما ذكية والأخرى فيلسوفة. وكانت البيغاء راوية للشعر ناقدة للمؤلفات الحديثة وملمة ببعض نواحى العلم

والبحث . وكانت البومة تنظر إلى مثل هذه المعرفات على أنها ترهات . ولا تتلذذ بالغيبيات . وعلى هذا فقد كانت الببغاء تغنى أغنيات وتروى المستملح من مأثور القول ، وتسوط جارتها الوقورة بقارع نكاتها ، وتبالغ فى السخرية بحذقها وفطنتها . وكل هذه التصرفات كانت البومة تعدها تجريحاً منكراً لكبريائها ، وقد تتجهم وتعبس وتنتفخ أوداجها ولكنها كانت تخلد إلى السكون . ولم يكترث الأمير لهذا النزاع بين رفيقتيه فقد كان مغموراً بأحلامه فى خاص هواه ، وتأملاته فى صورة الأميرة الحسناء . وعلى هذه الحال جازوا خلال ممرات جبال « مورينا » الوعرة ، ثم عبروا سهول « لامنشة » « وقشتالة » السعفاء التى على طول شاطئ التاجة الذهبى الذى يهيم فى دروب معقدة ساحرة تغطى النصف من اسبانيا والبرتغال . وأخيراً أصبحوا على مرمى البصر من مدينة منيعة مسورة ذات أبراج شيدت على رعن صخرى يدور التاجة بسفحه فى صخب صاخب . فصاحت البومة : نظرة إلى المدينة القديمة المعروفة مدينة طليطلة ، الشهيرة بعادياتها ، انظروا إلى هذه القباب والأبراج الجليلة ، تقادمت عليها العهود وأضفت عليها الأساطير أبهة وجلالاً ، وكم لأسلافى فيها من تأملات .

وصاحت الببغاء مقاطعة هذه العالمة الأثرية الجليلة . فى نشوتها : صه ، ما لنا والعاديات والأساطير وأسلافك . انظرى إلى ما هو أجدى لقصدنا ، انظرى إلى حيث يأوى الشباب والجمال . وأخيراً انظر ، أيها الأمير ، هذا مقام أميرتك التى شغلت خاطرك طويلاً .

ونظر الأمير إلى حيث أشارت الببغاء فرأى على عبرى « التاجة » وفى مرج بهيج قصراً جليلاً يسامق العرائش من حوله فى جنة حالية ، وكان المكان يشبه الشبه كله ذلك الذى وصفته اليمامة مقاماً لصاحبة الصورة . فتطلع إليه بقلب خافق وقال فى نفسه : لعل الأميرة الحسناء فى هذه اللحظة تلعب فى ظلال تلك العرائش أو تذرع بخطاً رشيقة تلك الشرفات العظيمة ، أو لعلها مستلقية تحت تلك السقف المنيفة . وفيما هو يمعن النظر أدرك أن أسوار الحديقة شاهقة تمتنع على المتسور ، وأن حولها نفراً

من الحراس فى السلاح يخفرونها .

والتفت الأمير إلى الببغاء وقال : يا أجل الطيور . يا من وهبك الله منطق الإنسان ، فلتسرعى إلى تلك الحديقة ولتلتمسى لى معبودة روحى ، ولتخبريها أن الأمير أحمد ، الذى خرج يحج إلى كعبة الحب تهديه النجوم ، قد انتهى به المطاف فى البحث عنك إلى شواطئ التاجة المزدهرة . وطارت الببغاء إلى الحديقة فخورة بسفارتها ، وعلت أسوارها العالية ، وحلقت برهة فوق المروج والحرجات ، ثم حطت على شرفة جوسق يشرف على النهر . وهنا وقفت تستشف النظر من خلال زجاج النافذة ، فرأت الأميرة مضطجعة فى مضطجعها تديم النظر إلى ورقة والدموع تنساب بعضها فى إثر بعض فى رفق على خدها الشاحب . وأخذت الببغاء تنفض جناحيها لحظة وتسوى من بردتها الخضراء الزاهية ، وتنفش من قنزعتها ثم حطت قريباً منها متجملة ، وقالت لها متصنعة الرقة فى نبراتها : جففى من دموعك يا أجمل الأميرات ، فقد جئت أحمل العزاء إلى قلبك . وفزعت الأميرة لهذا الصوت وتلفتت ولكنها لم تر شيئاً غير طائر صغير فى بردة خضراء يتمايل وينحنى أمامها ، فقالت لها : واأسفاه ، وأى سلوى تستطيعينها ولست إلا ببغاء ، واغتاظت الببغاء لهذا السؤال وقالت : وكم حملت السلوى عمرى إلى قلوب كثير من الحسناوات . ولكن عدّى عن هذا . والآن فإنى قد جئت إليك سفيرة عن ولى عهد يعرف بأحمد أمير غرناطة ، وقد جاء باحثاً عنك ، وهو يحط رحله فى هذه الساعة نفسها على شواطئ التاجة المزدهرة . وبرقت عينا الأميرة عند سماع تلك الكلمات بريق حبات الماس فى إكليلها أو أكثر من ذلك ، وصاحت به : ياأحلى الببغاوات ، ما أسر أخبارك حقاً ، فلقد شقيت وضنيت ، وبلغ بى المرض مبلغ الموت ، لأنى كنت فى شك من بقاء أحمد . فلتعودى إليه مسرعة ولتخبريه أن كلمات كتابه منقوشة فى قلبى ، وأن شعره أصبح غذاء روحى . وعلى أية حال فخبريه أن يستعد ليجعل من قوة سلاحه شاهده على حبه . فغداً ، لسبعة عشر عاماً من يوم ميلادى سيقيم والدى الملك مثاقفة عظيمة ، وسيشترك فيها أمراء عديدون ، وستكون يدى جزاء الظافر

منهم . وعادت الببغاء طائرة لها حفيف بين الحرجات ، إلى حيث كان الأمير يترقب أوبتها . وكان فرح أحمد بعثوره على صاحبة الصورة وبأن يجدها عطوفة صادقة فى حبها شيئاً لا يتصوره إلا هؤلاء المجدودون من بنى الإنسان ، الذين حقق لهم حظهم السعيد أحلام أيامهم ، وجعلها حقيقة بعد أن كانت خيالا . ولكنه كان ثمّ شىء يعكر عليه صفوه ، هو هذه المبارزة الوشيكة . وفى الحق لقد كانت جنبات التاجة متألقة بالسلاح ، مدوية بطبول مختلف الفرسان ، الذين كانوا يحضرون صوب طليطلة ، كل فى حاشية معجبة ، ليشاركوا فى هذا الحفل . وكان النجم الذى تحكم فى قدر الأمير هو عينه الذى تحكم فى قدر الأميرة . فلقد قُصرت عن العالم من يوم مولدها حتّى السابعة عشرة من عمرها ، مخافة أن يشفها الهوى . وعلى أية حال فبدلاً من أن تخمل هذه العزلة من ذكرها فقد زادت من شهرة جمالها ، وناضل عديد من الأمراء الأقوياء فى سبيل الزواج منها ، ولكن أباها وكان داهية دهياء ، شاء أن يجنب نفسه خلق أعداء إذا هو انحاز لأحدهم ، فقصد إلى أن يحكم السلاح بينهم . وكان بين المتنافسين من الراغبين عديد من المعروفين بالبأس والإقدام . فما أشدها من ورطة لهذا المنكود أحمد . فهو كما ترى غير مجهز بحراب ، ولا هو بالمتمرس بتدريبات الفتوة ، فقال : ما أتعسنى من أمير حين أسلمونى فى عزلتى إلى رعاية فيلسوف ! وماذا يغنى الجبر والفلسفة فى شئون الحب ؟ واحسرتاه لابن حبان ! كيف بلك تهمل تنشئتى على استخدام السلاح . وعند هذا خرجت البومة من صمتها وقدّمت لحديثها بصيحة من صيحات الورع ، فلقد كانت مؤمنة قانتة ، فقالت : الله أكبر ، فى يده كل مفاتيح الغيب وبيده وحده قضاء الأميرة وقدرها . ولتعلم أيها الأمير أن هذه الأرض مليئة بالأسرار التى تخفى على الجميع إلا على من على شاكلتى الذين يستطيعون اكتناه المعرفة من الكلمات . فلتعرف أن هناك كهفاً فى تلك الجبال المجاورة ، وأن فى هـذا الكهف منضدة من حديد فوقها طائفة من الأسلحة السحرية ، وإلى جانبها وقف فرس مسحور ، مضى عليه هناك قرون كثيرة ، وحملق الأمير فى

دهشة ، وأطرقت البومة بعينيها الضخمتين المستديرتين ونصبت قرنيها ثم تابعت حديثها : منذ سنوات كثيرة صحبت والدى إلى هذه النواحى فى سياحة له فى مملكة ونزلنا هذا الكهف ، ولهذا تبينت سره . ومن الأخبار المتواترة فى أسرتنا والتى سمعتها عن جدى ، حينما كنت عندها فرخا صغيراً جدا ، أن هذا السلاح لساحر مغربى ، وكان يتخذ من هذا الكهف مأوى له حينما استولى المسيحيون على طليطلة ، وقد مات فيه مخلفاً فرسه وسلاحه بعد أن عوذهما بتعويذة سحرية لا يمكن لغير مسلم الانتفاع بهما ، على ألا يستخدمها إلا بين مطلع الشمس والظهيرة . وفى هذه الفترة فالنصر مكتوب لكل من استخدمها على أى خصم. وصاح أحمد: حسبك، دعنا نبحث عن هذا الكهف . وبهدى ناصحه الأمين العجيب . وحد الأمير الكهف . وكان مخبأ فى أمنع المخابئ وأوحشها بين تلك القمم الصخرية التى ترتفع حول طليطلة . وليس لعين غير عين بومة بصيرة بمواقع الفئران ، أو عالم بالعاديات ، تستطيع أن تهتدى إلى مدخله . وكان هناك مصباح من مصابيح الأضرحة فيه زيت أزلى ينبعث منه نور رهيب فى أرجاء المكان ، وعلى منضدة حديدية فى وسط الكهف وضع السلاح السحرى ، وتجاهها قد ركز رمح ، وإلى جانبها وقف فرس عربى . عليه تجافيف الميدان . ولكنه أشبه بتمثال لا حراك به . وكان السلاح براقاً نقى الصفحة كما كان فى سالف أيامه . والفرس على حال طيبة ، وكأنه عائد ساعتها من المرعى . وعند ما وضع أحمد يده على رقبته ضرب الأرض برجليه وأرسل صهلة عالية فى مرح ارتجت لها أركان الكهف . وقر عزم الأمير على أن ينزل إلى الميدان فى هذا الصراع الوشيك مزوداً أتم تزويد ، بفرس يركبه وسلاح يصول به . وحل الصبح الخطير ، ورتبت الأسماء للصراع فى المرج حيث أقيمت المنصات والأبهاء للنظارة وقد غطيت بأقمشة غنية بزركشتها ، وظللت من الشمس بظلل حريرية . وقد تجمعت جميع حسان هذا البلد فى تلك الأبهاء ، بينما أخذ يخطر أسفل منهن الفرسان ، كل بريشته ومن حوله

الخدم والبطانة ، وقد تميز من بينهم فى جلاء الأمراء الذين سيشاركون فى الصراع .

وعلى أية حال فقد بهتت جميع الحسان حين طلعت عليهن الأميرة « الديجوندا » فى مقصورتها الملكية . وكانت الأولى لتبزغ بينهن فتلقى نظرة على عالم معجب بها . وسرى بين الجمع همس الإعجاب بجمالها الفائق . أما هؤلاء الفرسان الراغبون فى خطبتها ، والذين كان حسبهم مقنعاً ما شاع عن جمالها ، فقد بلغ شوقهم إلى النزال عشرة أمثال . غير أن الأميرة قد بدت قلقة ، يفيض لون وجنتيها ويغيض ، وهى تنظر بعينين زائغتين لا تهدآن ، متنقلتان لا تستقران ، وطلعة حائرة إلى هذا الحشد ذى الريشات من الفرسان . وكانت الطبول على وشك أن تقرع إيذاناً ببدء النزال عند ما نادى المنادى بوصول فارس غريب . ونزل أحمد إلى الميدان ، عليه خوذة من الفولاذ مرصعة بالجواهر من فوق عمامته . وقد زينت درعه بالذهب . وكان سيفه وخنجره من صنع فاس ، قد تألقا بالأحجار الكريمة . وعلى كتفه مجن مستدير ، وحمل فى يده حربته ذات القوة السحرية . وكان تجفاف فرسه العربى غنيّاً بتوشيته التى تنجر على الأرض . وخطا الحيوان الفخور وعطس فى الهواء ، وصهل فرحاً حين رأى نفسه مرة أخرى بين هذا الحشد من السلاح . وكان مما لفت الأنظار جميعاً إلى الأمير محياه الأشم ، ولما نودى بلقبه : الحاج إلى كعبة الحب ، شاع الاضطراب والقلق بين العذراوات الحسان فى أبهائهن . وكان أحمد حين أراد أن يسجل اسمه أبوا عليه ذلك ، وأخبروه أنه ليس لغير الأمراء يباح البراء . فكشف عن اسمه ومنزلته . ولكنه لم يغير من الأمر شيئاً . فلقد كان مسلماً ولا يمكن أن يشارك فى صراع جزاؤه يد أميرة مسيحية ، وأحاط به الأمراء المزاحمون وقد بدت على محياهم الغطرسة والتوعد ، وعرض له واحد جبار البنية علت محياه القحة وأخذ يهزأ بضآلته وحداثة سنه ويتهكم على هذا اللقب الغرامى . وثار حنق الأمير وتحدى مناوئه أن ينازله . وتباعدا وتداورا وتلازما . وعند أول مسة مس بها البدين الذى سخر منه بحربته السحرية أوقعه عن سرجه . وهنا كان يصح للأمير أن يتلبث ولكنه يا للأسف ، قد كان يخوض المعركة على فرس محضور وبسلاح

مسحور ، فإذا ما بدأ فما من شيء يستطيع رده . واقتحم الفرس العربي وسط المعمعة ، وكان الرمح يقلب كل شيء عرض له ، وكان الأمير يكر في غير نظام في الميدان ، ينثر على أرضه الرفيع والوضيع ، والشريف والحقير ، إلا أنه كان مهموماً لتلك الفعال التي لم يكن إليه زمام أمرها . وهاج الملك وماج لهذا الاعتداء على رعاياه وضيوفه ، وصاح بحراسه جميعاً ، ولكنهم ما امتطوا خيولهم حتى رجّلهم عنها ، ورمى الملك عنه ثيابه واختطف ترساً ورمحاً وركب قدماً ليلقى الرعب في قلب هذا الغريب بعظمته . ولكن ياللأسف ، لم تغن العظمة خيراً مما أغنى الاتضاع . فما كان الفرس والرمح ليعرفا للأشخاص احتراماً . ومما ملأ قلب أحمد همّاً وغمّاً أن الفرس مال على الملك ، وما هي إلا برهة حتى انقلب الملك في الهواء رأساً على عقب ، وهوى التاج إلى الأرض . وعند هذا كانت الشمس قد أدركت الظهيرة وتعطلت قوة التعويذة . فسار الفرس العربي عبر السهل يثب من فوق الحواجز ، ويغطس في التاجة يغالب تياره المائج ، حاملاً الأمير لاهثاً ذهلاً إلى الكهف . وعاد إلى حاله كأنه التمثال إلى جانب المنضدة . وترجل الأمير فرحاً حقّاً ، ووضع السلاح مكانه منتظراً ما سيجرى به القدر ، ثم جلس في الكهف ينعم النظر في تلك الحال السيئة التي انتهى إليها بفعل هذا الفرس المحضور وذلك السلاح المسحور . ولم يعد يجرؤ أن يظهر في طليطلة بعد أن أوقع بفرسانها مثل هذا العار ومثل هذا الاعتداء على ملكها . ثم ماذا سيكون حكم الأميرة على الفعل الفظ العربيد . وامتلأت نفسه همّاً ، فأرسل قدما رسوله ذا الأجنحة ليحمل إليه الأخبار . فطافت الببغاء بالمحال العامة وبالمباءات المزدحمة في المدينة ، ثم عادت مسرعة بدنيا القال والقيل . فلقد كانت طليطلة كلها في ذعر ، وقد حملت الأميرة فاقدة الشعور إلى القصر . وانتهى الصراع بهرج ومرج . وما من إنسان إلا وقد بات يتكلم عن هذا الخيال المفاجئ وتلك الأعمال الجسام . وهذا السر الخفي العجيب لذلك الفارس المسلم . وسماه بعضهم ساحراً مغربيّاً ، وظنه آخرون عفريتاً حل في جسم إنسان . على حين روى غيرهم أخباراً عن المحاربين المسحورين المختبئين في كهوف الجبال ، وظنوه أنه واحداً من هؤلاء برز فجأة من مغارته .

وكلهم مجمعون على أن ليس لإنسان من عامة البشر أن يقوي لمثل هذه العجائب، أو يطرح أرضاً مثل هؤلاء المحاربين المسيحيين عدة وقوة. وطارت البومة ليلاً وطافت بأرجاء المدينة المغبشة، وحطت على الأسطح والمداخن، ثم دارت فى طيرانها بالقصر الملكى الذى يقوم على القمة الصخرية فى طليطلة، وذهبت تجوس خلال شرفاته وكواته فى كل شق، وتتطلع بعينيها الواسعتين المحملقتين إلى كل نافذة. فكان منظرها سبباً فى أن يغشى على وصيفتين أو ثلاث من وصيفات الشرف، ولكنها لم ترجع من رحلتها فى استشفاف الأخبار، حتى بدا الفجر الأغبش يلوح على الجبال، فعادت أدراجها من بعثتها وقصت على الأمير ما قد رأت. فقالت: فيما كنت أتعسس فى أعلى برج فى القصر رأيت من خلال زجاج النافذة أميرة حسناء، وكانت مضطجعة فى مخدعها ومن حولها وصيفاتها وأطباؤها. ولكنها لم تلق بالاً لخدماتهم ومحاولاتهم التخفيف عنها، وحينما خلفوها رأيتها تخرج خطاباً من صدرها وتقرؤه ثم تقبله وتسلم نفسها للبكاء بصوت عال، لم تملك نفسها معه فيلسوفة مثلى من أن تتأثر به تأثراً عظيماً. وتألم قلب أحمد الرقيق لهذه الأنباء، وصاح: ما أصدق كلماتك أيها الحكيم ابن حبان، فالهم والحزن والليالى الساهرة هى نصيب المحبين. ألا فليحفظ الله الأميرة من فعل هذه العلة التى تسمى الحب.

وجاءت الأنباء بعد من طليطلة تؤيد أخبار البومة، فقد وقعت المدينة فريسة للقلق والفزع، وحملت الأميرة إلى أعلى برج فى القصر، وحرست المنافذ المظللة الموصلة إليه حراسة قوية. وقد استحوذ عليها فى نفس الوقت هم بالغ لم يعرف له أحد سبباً. فعافت الطعام وأصمت أذنها عن كل عزاء. وعبثاً حاول أمهر الأطباء بطبهم، وقد ذهبوا إلى أن روحاً سحرية تقمصتها، وأعلن الملك مصرحاً أن من يستطيع أن يشفيها فله عنده أغلى جوهرة فى الكنز الملكى. وعند ما سمعت البومة هذا الإعلان، وكانت غافية فى زاوية، أدارت عينيها الواسعتين ونظرت أكثر إغضاء من ذى قبل وصاحت: الله أكبر، ما أسعد الرجل الذى سيشفيها، هذا إذا عرف ما سيختاره من الكنز الملكى. وقال أحمد: ماذا تعنين أيتها البومة الجليلة؟

فقالت : اصغ أيها الأمير إلى ما سأقصه عليك . يجب أن تعلم أننا معاشر البوم قد أشربنا العلم ، وفينا كفاية عظيمة لاستشفاف ما وراء الحجب وما تخفى الأرض . وخلال جولتى الأخيرة ليلاً حول قباب طليطلة وأبراجها رأيت مجمعاً لعلماء عاديات من البوم ، يعقدن اجتماعهن فى برج عظيم مقبوّ حيث الكنز الملكى . وهناك كانوا يبحثون فى أشكال الجواهر القديمة المكدسة فى الكنز ـ والحلى والأوانى الذهبية والفضية والنقوش والعلامات التى عليها . وفى أسلوب كل مملكة وكل عصر فى ذلك . وكان أكثر اهتمامهم ببعض أثار وطلسمات حفظت فى الكنز من أيام « ردريك القوطى » .

وبين هذه صندوق من خشب الصندل مصون بأربطة من الصلب صنعت فى الشرق ـ ونقشت عليه رموز خفية لا يحيط بها إلا القليل من العالمين .

وقد شغل هذا الصندوق بنقوشه المجمع عدة جلسات وأثار جدلا كثيراً طويلا حاداً .

وفى زيارتى الأولى كانت هناك بومة عجوز قد بلغت من الكبر عتياً جالسة على غطاء الصندوق ، وكانت قد وصلت من مصر قريباً ، تخبر عن نقوشه فعرفت منها أن الصندوق يحتوى البساط الحريرى لعرش سليمان الحكيم ، وقد أحضره من غير شك إلى طليطلة اليهود الذين لاذوا بها بعد سقوط بيت المقدس . وبعد أن انتهت البومة من خطابها الأثرى بقى الأمير مستغرقاً فى أفكاره ثم قال : لقد سمعت من الحكيم ابن حبان عن المحتويات العجيبة لهذا الطلسم الذى اختفى بسقوط بيت المقدس ، والذى كان يظن أنه لن يعثر عليه إنسان بعد . ومما لا شك فيه أنه بقى سراً مغلقاً لمسيحى طليطلة ، وإذا قدّر لى أن أملك هذا البساط فسيكتب لى مستقبل آمن . وفى اليوم التالى خلع الأمير عنه ملابسه الثمينة وتزىّ بزى عربى وضيع من أعراب الصحراء وصبغ لونه بصبغ نحاسى . ولم يعد ممكناً لإنسان أن يتميز فيه هذا المحارب العظيم الذى أثار كثيراً من الدهشة والفزع فى النزال الذى وقع . وقصد طليطلة بعكازة فى يده ، وجراب إلى جانبه ، ومعه بعض من الغاب الصغير البرى . وحط رحله على باب القصر الملكى وأعلن عن نفسه أنه

أحد الراغبين فى الجائزة التى سيمنحها الملك لمن يعالج الأميرة ، وحاول الحراس أن يطردوه بعيداً بالضرب وقالوا له : كيف لجلف عربى مثلك أن يدعى أنه يستطيع شيئاً فى حال عجز أعظم علماء هذا البلد عنه . على أن الملك قد سمع بالجلبة وأمر بأن يمثل العربى بين يديه . وقال أحمد : أيها الملك القدير . إنك ترى أمامك أعرابياً من البادية قضى الشطر الأعظم من حياته فى عزلته فى الصحراء. ومعلوم حق العلم أن هذه الأماكن المنعزلة هى مأوى للجن والأرواح الشريرة التى تحدق بنا معاشر الرعاة المساكين فى جولاتنا المنفردة ، وتتقمص قطعاننا وأسرابنا . وأحياناً تقلب الجِمال الصبورة هائجة . وليس فى أيدينا ما يفسد هذا السحر إلا الموسيقى . كما أن لدينا ألحاناً عجيبة ورثناها جيلاً عن جيل نغنيها ونرمز بها لنطرد بعيداً تلك الأرواح الشريرة . وإنى من سلالة موهوبة وأملك الذروة العليا فى تلك القوة . فإذا كان هناك أى أثر شرير من هذا النوع تسلط برقيته على ابنتك فإنى أراهن برأس أبى أنى سوف أخلصها من تأثيره . وكان الملك ذا فهم ، ملماً بالأسرار العجيبة التى يحذقها العرب . فانبعث فيه الرجاء بلهجة الأمير التى تبعث على الثقة . وسرعان ما قاده إلى البرج السامق المصون بأبواب عدة وفى قمته كان مخدع الأميرة . وكانت الشبابيك تنفتح على شرفة مسورة تطل على منظر طليطلة وعلى القرى المحيطة . وكانت النوافذ مغلقة لأن الأميرة كانت ترقد إلى جانبها فريسة لحزن بالغ ، غير مصيخة لأى عزاء . وجلس الأمير على الشرفة وأخذ يقوم بألحان عربية حوشية على مزماره ، وكان قد تعلمها من أتباعه فى جنة العريف من غرناطة . وبقيت الأميرة فى غيبوبتها وهز الأطباء الذين كانوا حاضرين رءوسهم وابتسموا فى شك وازدراء . وأخيراً وضع الأمير المزمار جانباً وغنى بلحن بسيط فاتن تلك الأبيات العاطفية فى خطابه الذى أفصح فيه عن هواه ، فتبينت الأميرة اللحن وتسربت إلى قلبها هزة من الفرح ، ثم رفعت رأسها وأصغت ، وتدفقت دموعها من عينيها تجرى على خديها ، وأخذ صدرها يعلو ويهبط وقد هاجها الانفعال ، وكأنها كانت تود أن يحضر المغنى بين يديها ، ولكن خفر العذراء حبسها عن الكلام . وقرأ الملك رغباتها وبكلمة منه قيد أحمد إلى المخدع . وكان المحبان أريبين فلم يفعلا غير أن تبادلا

النظرات ،وكان فى هذه النظرات من المعانى ما يملأ الأسفار ، ولم يكتب للموسيقى أن تنتصر مثل هذا الانتصار الكامل . فعادت الحمرة إلى خدى الأميرة الغضّين ، والانتعاش إلى شفتيها ،وارتد إلى عينيها الذابلتين ماؤهما البراق . وحملق الأطباء الحاضرون بعضهم إلى بعض فى دهشة ،ونظر الملك إلى المغنى العربى فى إعجاب تخالطه الخشية ، وصاح به : أيها الشاب العجيب ، ستكون من الآن فصاعداً الطبيب الأول فى قصرى ،وسوف لا أعالج نفسى بشىء غير ألحانك . أما عن جائزتك فلك أثمن جوهرة فى كنزى . فأجاب أحمد : أيها الملك ،لا تعنينى الفضة أو الذهب ولا الأحجار الكريمة .ولكن أثراً واحداً هو الذى أريده من كنزك .وقد انتهى إليك من المسيحيين الذين حكموا يوماً ما طليطلة ،هو صندوق من خشب الصندل يحتوى على بساط حريرى ،فأعطنى هذا الصندوق وإنى به قانع . وتعجب الجميع من تواضع الأعرابى ،وزاد دهشهم حينما رأوا الصندوق من خشب الصندل يحمل إليه والبساط يخرج منه . لقد كان من حرير أخضر لطيف وعليه نقوش عبرية وكلدانية . ونظر أطباء القصر بعضهم إلى بعض وهزوا أكتافهم وابتسموا لسذاجة هذا الطبيب الحديث العهد بالفن الذى يقنع بمثل هذا الأجر .

وقال الأمير : كان هذا البساط يوماً ما غطاء لعرش سليمان الحكيم ،وما أولاه أن يكون فى موطئ قدم لحسناء . وما قال هذا حتى نشره على الشرفة أمام الأريكة التى أحضرت للأميرة منذ هنيهة ، ثم جلس تحت قدميها وقال : من ذا الذى يستطيع أن يعارض ماخطته يد القدر ، انظر لقد تحققت نبوءات المنجمين ، فلتعلم أيها الملك أنى وابنتك قد أحب كل منا الآخر من زمن طويل على غير لقاء ، انظر إلىّ فأنا الحاج إلى كعبة الحب . وما أن نبست شفتاه بهذه الكلمات حتى ارتفع البساط فى الهواء يحمل الأمير والأميرة . وتطلع الملك والأطباء إليه فاغرة أفواههم مشدوهة أبصارهم ،حتى أصبح وكأنه بقعة صغيرة فى حضن سحابة بيضاء ، ثم اختفى فى قبة السماء الزرقاء .

وأرسل الملك مهتاجاً فى طلب خازنه وقال له : ما هذا؟ لقد كنت تنطوى على الخيانة بملكك هذا الطلسم . فقال : واأسفاه ،فما كنا نعرف كنهه . كما لم نستطع

حل رموز الصندوق . وإذا كان هذا هو حقًّا بساط عرش سليمان الحكيم ففيه قوة سحرية يستطيع بها أن يحمل صاحبه من مكان إلى مكان فى الهواء . وجمع الملك جيشاً قويًّا ومضى إلى غرناطة فى أثر الهاربين . وكان سيره طويلاً وشاقًّا ، فعسكر فى المرج وأرسل رسوله يطلب إرجاع ابنته .

وجاءه الملك نفسه فى حاشيته كلها ليقابله ، فرأى فيه هذا الفتى العربى نفسه ، إذ كان أحمد قد تولى العرش بعد وفاة أبيه وأصبحت « الديجوندا » الجميلة ملكته . فما أيسر ما هدأ روع الملك حين وجد أن ابنته قد تركت باقية على عقيدتها ، لا لأنه كان فى خاصة نفسه تقيًّا ، ولكن العقيدة دائماً عند الأفراد مسألة تمس العزة والآداب الرسمية . وبدلا من أن تثور بينهما المعارك الدامية توالت الولائم والأفراح . وبعدها رجع الملك مسروراً كل السرور إلى طليطلة ، وعاش الزوجان الشابان يحكمان على الحمراء سعيدين أريبين .

ومن الملائم أن نضيف أن البومة والببغاء تبعتا الأمير إلى غرناطة على مراحل هينة ، تسافر الأولى ليلاً وتتلبث فيما للأسرة من ممتلكات مختلفة موروثة ، بينما تدور الثانية فى طيرانها مرحة بكل بلد أو مدينة فى طريقها . وقد كافأهما أحمد شاكراً لهما خدماتهما التى قدماها له فى حجه سعياً إلى كعبة الحب ، فأقام البومة رئيساً لوزرائه ، والببغاء كبير حجابه .

ولسنا فى حاجة إلى القول بأن ثمة مملكة سيست أمورها أحزم من هذه تدبيراً ، ولا بلاطا أديرت شئونه بأدق من هذا إحكاماً .

* * *

قصة
تركة العربى

أول ما يلقى الداخل إلى قلعة الحمراء ، وإلى الأمام من القصر الملكى ، ميدان طلق متسع يدعى ميدان الأجباب . سمى كذلك لأنه حفرت فيه خزانات للمياه

من عهد عرب أسبانيا خفية لا تقع عليها العيون .

وفى ركن من أركان هذا الميدان بئر عربية قد قطعت فى الصخر الصلد إلى عمق بعيد، ماؤها فى برودة الثلج وصفاء البلور . والآبار التى حفرها العرب لها دائماً شهرة. فالناس يعرفون حق المعرفة كم من جهد تكلفوه ليبلغوا إلى أنقى الينابيع وأعذب الآبار. وهذه البئر التى نتكلم الآن عنها لها شهرة قد طبقت غرناطة، حتى إن السقائين كانوا يرون مصعدين أو هابطين. فى طريق الحمراء المنحدر المشتجر من الصباح المبكر حتى ساعة متأخرة من الليل، يحمل بعضهم على عواتقهم قدوراً عظيمة للماء، وآخرون يسوقون أمامهم حميرهم محملة بآنية فخارية . وكانت النافورات والآبار تعد أبداً منذ أيام التوراة أماكن للسمر مع الأجواء الحارة . وأما عن البئر التى نتحدث عنها، فكان عندها شبه منتدى دائم يظل طيلة اليوم عامراً بالمرضى والعجائز ، وأقوام من القلعة غريبى الطباع لا عمل لهم، يجلسون هنا على أرائك حجرية فى ظل ظلة منشورة فوق البئر، كان يأوى إليها الآوون من حر الشمس ، متلهين بثرثرة المثرثرين حول القلعة ، ويسألون كل سقاء يقدم عليهم عن أخبار المدينة. وكانوا يعقبون على كل ما يسمعونه أو يرونه . وما من ساعة من ساعات النهار تمر إلا وترى فيها ربات المنازل المتسكعات أو الوصيفات الكسالى يتلبثن بجراتهن على رءوسهن أو فى أيديهن ليسمعن آخر ما عند هؤلاء المثرثرين من أنباء لا تنتهى. ومن بين هؤلاء السقائين الذين قصدوا إلى هذه البئر مرة رفيق صغير جَلْد قوى الظهر أحنف الساقين يدعى «بدروخيل» ، لكنهم كانوا يدعونه «برخيل» اختصاراً . وما دام سقاء فهو بالطبع غاليسى نسبة إلى « غاليسيا ». ويظهر أن الطبيعة قد خلقت أجناساً من الناس كما خلقت أجناساً من الحيوان لشتى أنواع العمل المجهد الحقير . ففى فرنسا تجد كل ماسحى الأحذية من « سافوى » وحمالى الفنادق سويسريين. وفى انجلترا. أيام كانت السيدات يوسعن نُقُباتهن ويُغبِّرن شعورهن، فكنت لا تجد رجلاً يستطيع أن يسير بالمحفة سيراً ليناً رتيباً إلا أيرلندياً من بلاد المستنقعات . وكذلك الحال فى أسبانيا فالسقاءون والحمالون كلهم من أهالى غاليسيا القصار الأقوياء. ولا تسمع لإنسان يقول : ادع لى حمالاً . ولكنهم

يقولون ادع لى غاليسياً . ولنرجع عن هذا الاسترسال إلى الحديث عن برخيل الغاليسى . فلم يكن عنده حين بدأ عمله إلا قدر من الفخار كبيرة كان يحملها على عاتقه . وعلى مر الأيام نبه شأنه فى الحياة واستطاع أن يشترى له عوناً من فصيلة من الحيوان ملائمة ، فاختار حماراً قوياً أشعث الشعر . وعلى جانبي خادمه الخاص الطويل الأذنين كانت تتدلى قدران أشبه بقوصرتين تغطيهما أوراق التين لتقيهما حر الشمس . ولم يكن هناك فى غرناطة سقاء أعظم منه جداً ولا أكثر منه مرحاً أيضاً . وكان صوته البهيج يرن فى الشوارع فيما هو يدلف وراء حماره مطلقاً صوته بالغناء بنداءات الصيف المعتادة ، التى كان يتردد صداها فى البلاد الاسبانية : من ذا يريد ماء ؟ ماء أكثر برودة من الثلج . من ذا يريد ماء من بئر الحمراء فى برودة الثلج وصفاء البلور ؟ وحين كان يقدم للحرفاء كوباً متلألئة من الماء يشفعها بكلمة سارة تبعث على الابتسام . وإذا ساقت له الصدفة سيدة جميلة أو عذراء صغيرة اختلس إليها نظرة ماكرة وأطرى جمالها الفاتن . وهكذا كان برخيل الغاليسى معروفاً فى كل غرناطة بأنه من ألطف الناس ، وأمرحهم وأسعدهم . ومع ذلك فليس أرفع الناس صوتاً بغناء وأكثرهم مراحاً وشدواً أجزلهم قلباً . فوراء هذه الروح المرحة كان الأمين برخيل يخفى همومه ومتاعبه . فقد كانت له أسرة كبيرة من أطفال شعث يعولهم ، فى جوع وصخب كأنهم عش من صغار العصافير يحدقون به كلما عاد إلى البيت مع المساء صائحين يطلبون طعاماً . وكانت له أيضاً شريكة تصلح لكل شىء إلا لعونه . وكانت قبل أن يبنى بها قروية جميلة مشهورة بمهارتها فى الرقص الاسبانى وضربها بالصنج ، وكانت لا تزال تحتفظ بميولها الأولى ، تنفق ما يحصل عليه الأمين برخيل بشق النفس فى الأغراض التافهة ، وتحبس الحمار لشئونها لتذهب به إلى القرية لحضور حفلات المرح فى الآحاد والأيام المقدسة ، وتلك الإجازات التى لا تحصى ، والتى كانت فى اسبانيا أكثر عدداً من أيام الأسبوع أو تكاد . وإلى جانب كل هذا فقد كانت إلى حد ما قليلة العناية بهندامها تميل إلى الكسل . وفوق كل هذا فقد كانت ثرثارة من الطبقة الأولى ، تهمل شئون البيت وأهله ، وكل شىء آخر ،

تتردد إلى بيوت جاراتها المثرثرين. وعلى أية حال فقد كان عليه أن يرعى الصغار الزغب ، يقوم بفروض الزوجية خاضعاً ذليلاً . وحمل برخيل كل التبعات الثقيلة للزوجة والأطفال بروح وديعة كما يحمل حماره جرات الماء . ولربما كان يهز رأسه متململاً بينه وبين نفسه ، ولكنه لم يكن يجرؤ قط على أن يسأل سؤالاً يمس عناية زوجه المستحشفة بشؤون بيتها .

وكان يحب أولاده حب البومة لفراخها . وكان يرى فيهم صورته بعينها تتكاثر وتخلد . فلقد كانوا أقوياء صلاب الظهور حنف السيقان قليلي التفكير . وكان أعظم سرور برخيل الأمين ، حينما يستطيع أن يهيء لنفسه إجازة صغيرة ويجمع قبضة من النقود لينفقها ، أن يأخذ هذا الحشد جميعه معه : نفرا فى ذراعه . ونفرا متشبثا بأذياله ، ونفرا يدب فى إثره ، ليمتعهم برياضة بين بساتين المرج ، على حين تكون زوجته مع أصدقاء عطلتها يرقصون فى حرجات نهر حدرة . وكانت ساعة متأخرة فى ليلة من ليالى الصيف ، وقد كف جل السقائين عن أعمالهم . وكان اليوم خانقاً على غير عادة ، كما كان الليل من تلك الليالى القمرية الممتعة الذى يغرى سكان تلك الأجواء الجنوبية ليعوضوا أنفسهم عن حر النهار وجموده بالبقاء فى الهواء الطلق والتمتع باعتداله وحلاوته ، حتى إلى ما بعد منتصف الليل .

وعلى هذا فقد كان للماء طلاباً لا يزالون خارج الدور . وفكر برخيل فى صغاره الجياع شأن الوالد البسيط المسئول المجد ، وقال فى نفسه : فلأقم برحلة أخرى إلى البئر لأكسب طعام الأحد لصغارى . وما أن قال هذا حتى دلف فى شجاعة إلى طريق الحمراء المنحدر مغنياً وهو مصعد . ومن حين إلى حين كان يجود بضربة رقيقة من هراوته على خاصرتى حماره ، إما على سبيل التوقيع مع الأغنية ، أو ليجدد نشاط حيوانه ، إذ الضربات القاسية تسد مسد العلف لجميع دواب الحمل فى أسبانيا . وعندما وصل إلى البئر لم يجد عندها أحداً اللهم إلا غريباً منفرداً فى زى مغربى ، جالساً على مقعد حجرى فى ضوء القمر . وتلبث برخيل أولاً ونظر إليه فى دهشة تشوبها خشية . ولكن العربى أومأ إليه فى وهن أن يقترب ، وقال : إنى ضعيف ومريض فأعنى على الرجوع إلى المدينة وسأضاعف

لك ما عساك تكسبه من جرات مائك . ورق قلب السقاء الصغير الأمين لرجاء هذا الغريب . وقال : حاشا لله أن أسأل أجراً أو مكافأة على عمل إنسانى أقوم به . وعلى هذا حمل العربى على حماره ومشى به على مهل إلى غرناطة . ولقد كان المسلم المسكين على حال من الضعف اضطرته هو إلى أن يمسكه على الدابة ليحفظه من السقوط إلى الأرض . ولما دخلا المدينة سأله السقاء إلى أين يمكن أن يقوده . وقال العربى فى ضعف : آسف فليس لى بيت ولا أهل . وإنى غريب فى هذا البلد ، فهل لك أن تتحملنى الليلة لأبيت عندك تحت سقفك ؟ وسأدفع لك ثانية بسخاء . وعلى هذا فقد رأى برخيل الأمين نفسه على غير انتظار يحمل ضيفاً كفوراً ، ولكن إنسانيته أبت عليه أن يرفض إيواء طارق ليل من بنى الإنسان فى مثل هذه الحال من البؤس . لذا قاد العربى إلى مسكنه . ولقد ولى الأطفال الأدبار فزعين عند ما رأوا هذا الغريب المعمم ، وأخفوا أنفسهم وراء أمهم . وكانوا قد خرجوا فاغرة أفواههم ، عند سماعهم وطء حوافر الحمار ، وتقدمت الزوجة فى شجاعة كالدجاجة وقد نفشت ريشها أمام فراخها حينما يقرب منها كلب ضال . وصاحت الزوجة : ما هذا الرفيق الكافر ؟ أهذا ما حملته إلى بيتك فى هذه الساعة المتأخرة لتلفت عيون رجال الكنيسة إلينا ! وأجاب الغاليسى : سكنى من روعك أيتها الزوجة ، فهذا غريب مسكين مريض لا أصدقاء له ولا بيت . فهل تريدين أن نقذف به ليهلك فى الشوارع ؟ وقد كانت الزوجة خليقة بأن تسترسل فى اعتراضها ، وذلك إلى أنها وإن كانت تعيش فى كوخ حقير إلا أنها كانت شرسة فى الدفاع عن حرمة بيتها . على أن السقاء الصغير فى هذه المرة كان عنيداً وأبى أن يخضع لنيرها . ثم عاون المسلم المسكين على أن يترجل ، وفرش له حصيراً وجلد شاة على الأرض ، وفى أشد أركان البيت برداً . وكان هذا هو النوع الوحيد من الفراش الذى استطاع أن يقدمه لفقره . وفى برهة قصيرة ، أخذ العربى برعدة شديدة عجزت معها كل مهارة السقاء البسيط فى إسعافه .

وبدا فى عين هذا العليل المسكين ما ينم عن اعتراف بالجميل . وخلال فترات نوباته ناداه إلى جنبه وكلمه بصوت خافت وقال له : إنى أخاف أن

تكون نهايتى قد دنت . فإذا مت فإنى أخلف لك هذا الصندوق ميراثاً جزاء برك بى . وما أن أتم حديثه حتى كشف عن برنسه وأراه صندوقاً من خشب الصندل محزوماً على وسطه . وأجاب الغاليسى القمىء المبخل : كتب الله لك أيها الصديق عمراً طويلا لتتمتع بكنزك مهما كان شأنه . فهز العربى رأسه ووضع يده على الصندوق وكأنه كان على أن يقول شيئاً أكثر ، ولكن رجفه عاودته على حال أشد وفاضت روحه فى لحظة . وعندها سهمت زوجة السقاء وقالت : هذه نتيجة ما طبعت عليه من طيبة وغباوة ، فأنت دائماً تسعى إلى المآزق لتسدى إلى الآخرين معروفاً . ماذا سيجره علينا وجود هذه الجثة فى بيتنا؟ سوف نساق إلى السجن كما يساق القتلة ، وإذا كتبت لنا الحياة ، فسوف يحل الخراب بنا على يد الموثقين والضباط . وكان المسكين برخيل على حال سواء من البلاء ، وقد ندم أو كاد على ما أسلف من عمل طيب . وأخيراً طرأت بباله فكرة فقال : إن النهار لم يطلع بعد ، وأستطيع أن أحمل هذه الجثة الهامدة إلى خارج المدينة وأدفنها فى الرمال على شاطئ الشنيل ، ولم ير أحد الأعرابى وهو يدخل بيتنا كما لن يعرف أحد شيئاً عن موته . وما أن قال حتى فعل . وساعدته الزوجة . ولفا جثمان المسلم التعس فى الحصير التى مات عليها ووضعاه فوق الحمار ، ومضى به برخيل إلى شاطئ النهر . ولكن سوء الحظ لم يتخل عنه . فقد كان يسكن تجاه السقاء حلاق يدعى « بدريو بدروجو » من أكثر أهل الحى فضولا وثرثرة وتجسساً على الناس وإيقاعاً بهم . وكان وجهه وجه ابن عرس ، وساقاه ساقا عنكبوت ، وغداً مخادعاً دخَلة . وكان حلاق إشبيلية المشهور لا يفوته فى إحاطته بشئون الآخرين .

ولم يكن خيرا من الغربال إذا استودع سراً . وكان يقال إنه ينام بإحدى عينيه ويترك إحدى أذنيه غير مغطاة ليتسنى له فى نومه أن يرى ويسمع كل ما يدور حوله . ومما لا شك فيه أنه كان أشبه بسجل للفضائح المفتراة يرويها للفضوليين فى غرناطة . ولذا فقد كان حرفاؤه يربون على سائر حرفاء معشره . وقد أحس هذا الحلاق ، الذى يدس أنفه فى شئون الناس ، برخيل وهو يصل

ليلا فى ساعة غير معتادة ، كما سمع صياح زوجته وأولاده . وفى الحال أطل برأسه من شباك صغير كان يستخدمه فى التطلع إلى الخارج ، فرأى جاره وهو يعين رجلا فى زى مغربى ليدخل به إلى بيته . وكان هذا شيئاً غريب الحدوث مما جعل « بدريو بدروجو » لم يغمض له جفن تلك الليلة .

وكان يقف فى كل خمس دقائق إلى كوته يرقب تلك الأنوار التى تتألق خلال باب جاره ، وقبل مطلع الصبح رأى برخيل يخرج قدماً بحماره محملا بشىء غير مألوف . وبقى هذا الحلاق السآل فى قلق . فارتدى ملابسه وانسل قدماً فى هدوء ، وتبع السقاء على بعد حتى رآه يحفر حفرة فى شاطىء الشنيل الرملى ويدفن فيها شيئاً يبدو كأنه جثة ميت . وأسرع الحلاق إلى بيته وساوره القلق على حانوته ، فأخذ يلقى كل شيئاً جانباً على الأرض حتى مطلع الشمس وعندها أخذ طسته تحت ذراعه وخرج قدماً إلى بيت القاضى حريفه اليومى . وكان القاضى قد نهض لساعته ، وأجلسه « بدريو بدروجو » على كرسى ولف مشوشاً حول عنقه ووضع طست الماء الساخن تحت ذقنه وبدأ يلين لحيته بأصابعه . ثم قال بدروجو ، ذلك الذى كان حلاقاً ومخبراً فى وقت واحد : ما أغرب ما حدث ! ما أغرب ما حدث ! سرقة وقتل ودفن ، كل ذلك فى ليلة واحدة . وصاح القاضى : إيه ، كيف ؟ ما هذا الذى تقول ؟ فأجاب الحلاق وهو يحك أنف الرئيس وفاه بقطعة من الصابون ، إذ الحلاق الأسبانى يتأذى من استخدام الفرجون : أقول إن برخيل الغاليسى سرق مغربياً مسلماً وقتله ثم دفنه فى هذه الليلة المباركة ، ألا لعنة الله عليها من ليلة ! وسأله القاضى : وكيف عرفت كل هذا ؟ وأجاب « بدريو » وقد أخذ بأنفه ومر بموساه على خده : صبراً أيها السيد ، فستسمع كل شىء عن ذلك . ثم أعاد عليه كل ما رأى ، يؤدى كلا العملين فى وقت واحد ، يحلق لحيته ويغسل ذقنه ويمسحها لتجف بمشوشه القذر فيما كان يقص سرقة المسلم وقتله ودفنه. ومن المصادفات أن هذا الحاكم كان غطريساً كما كان أعظم من فى غرناطة لؤماً وقسوة ودناءة . على أنه مما يذكر له أنه اشترى العدالة بثمن غال لأنه باعها بما

يساوى قيمتها ذهباً . وظن الأمر لن يكون غير قتل وسرقة ، وأن هناك لا شك أسلاباً ذات قيمة . ولكن كيف يمكن ليد القانون أن تستولى عليها ، لأن مجرد إيقاع المجرم فى الشرك لن يكون إلا إطعاماً للمشنقة ، ولكن فى الحصول على الأسلاب إغناء للقاضى ، وهذا وفقاً لاعتقاده هو نهاية العدل . وعند ما فكر فى هذا استدعى بين يديه أوثق ضباطه ، وكان خادماً هزيلا مرتدياً ما هو مألوف لمثله فى لباس أسبانى قديم ، وقبعة عريضة سوداء من جلد القندس قد ثنيت أطرافها ، وعليه قباء لطيف . وإتب صغير أسود يتدلى من فوق كتفيه . وملابس داخلية سوداء حائلة تكشف عن بنيته اللطيفة اللدنة .

وقد حمل فى يده عصاً هيفاء بيضاء كانت شعار وظيفته المخوفة . وكان هذا السفاح ، الذى يقوم على القانون ، من الجيل الأسبانى القديم ، هو الذى كلفه بأن يتعقب خطا السقاء المنكود . ولقد كان سريعاً وحازماً حتى إنه كان فى أعقاب المسكين برخيل قبل أن يعود إلى مسكنه ، وأحضره هو وحماره بين يدى القاسط . وانثنى نحوه القاضى أبشع ما يكون تجهماً وجأر فى صوت اصطكت له ركبتا الغاليسى القمىء : استمع إلى أيها المجرم ، استمع إلى أيها المجرم ، لا حاجة لكتمانك جرمك ، فقد وقفت على كل شىء ، فالمشنقة هى الجزاء الحق لما اقترفت من جرم ، ولكنى رحيم أستجيب بسرعة لداعى الحق والعدل . فالرجل الذى قتل فى بيتك كان مغربيًّا كافراً عدوًّا لدينك . ومما لا شك فيه أنك فى سبيل غيرتك الدينية ذبحته ولهذا سأتسامح . فردّ إلى أسلابه التى سرقتها منه وسنطوى الأمر . واستنجد السقاء المسكين بجميع القديسين لتشهد ببراءته ، ويا للأسف فلم يظهر له واحد منهم . ولو فعلوا لكذبهم القاضى جميعاً . وأخذ السقاء يسرد جميع قصة المغربى الميت فى سذاجة الصادق الذى لا يعرف الالتواء . وعبثاً كان ذلك كله . وسأله القاضى : ألا تزال مصرًّا على قولك إن هذا المسلم لم يكن يملك ذهباً ولا جواهر كانت مثار طمعك ؟ فأجاب السقاء : يا صاحب السيادة ، حيث إنى لا أمل لى فى الإفلات فإنى أقول لك إنه لم يكن معه شىء غير صندوق من خشب

الصندل وصى به إلى جزاء خدماتى له . وصاح القاضى ،وقد ومضت عيناه عند التفكير فى الجواهر الثمينة : صندوق من خشب الصندل ! صندوق من خشب الصندل ! وأين هذا الصندوق؟ وأين خبأته ؟ وأجاب السقاء :حنانيك ، إنه فى إحدى قوصرتى الحمار ، وإنه رهن ما تشير به سيادتكم . وما إن أتم كلماته حتى خرج الضابط الحريص ثم عاد فى الحال بصندوق عجيب من خشب الصندل . وفتحه القاضى فى لهفة بيد مرتعشة، ومال الكل إلى الأمام ليتطلعوا تلك الكنوز التى توقعوا أن يحتويها . ولكن ما كانت أشد خيبتهم حين رأوا أنه لا يضم شيئاً غير طومار من جلد عليه كلمات عربية وبقية من شمعة . ولما لم يكن ثم طائل وراء إدانة هذا السجين ، فإن العدالة تقضى بإنصافه حتى فى أسبانيا. ولما صحا القاضى من غشية اليأس ووجد أنه ليس ثمة غنيمة فى الصندوق استمع فى غير إصغاء إلى شرح السقاء الذى أيدته شهادة زوجه ،وعند ما اقتنع ببراءته أطلق سراحه وأذن له أن يحمل ميراثه عن المغربى : هذا الصندوق من خشب الصندل وما فيه مكافأة له على ما أداه من عمل إنسانى ،ولكنه احتفظ بالحمار نظير الأتعاب ومصاريف القضية ورأى الناس الغاليسى الصغير المنكود تضطره ضرورات الحياة فيعود إلى سابق عهده يحمل الماء بنفسه ، فيدلف صعداً إلى بئر الحمراء بجرة كبيرة على عاتقه. وفيما هو يكدح صاعداً فوق التل ظهر يوم من أيام الصيف القائظة خرج عن طبعه الطيب المألوف ، وكان يصيح : ما أشبهك بالكلب أيها القاضى حين تسلب رجلا فقيراً أسباب معاشه ، أحسن صديق هو له فى الدنيا . وعند ما تذكر رفيقه العزيز فى العمل فاضت نفسه بكل ما فيها من حنان ، وصاح بعد أن وضع ما يحمل على حجر وجفف العرق عن جبينه : آه أيها الحمار ، ياحبيب قلبى . آه أيها الحمار ، يا حبيب قلبى .

أنا كفيل بأنك لا تزال تفكر فى سيدك القديم ،وأنا واثق بأنك افتقدت جرات الماء ، أيها الحيوان المسكين .

ومما زاد فى كربه أن زوجته تلقته عند عودته إلى المنزل تبرطم متذمرة . وقد

كان واضحاً أن لها الحجة عليه . فقد حذرته ألا يشتط فى كرمه هذا الشطط الذى جر عليه هذه البلايا ، وانتهزت كل فرصة ، شأن كل امرأة بصيرة ، لتفخر عليه بذكائها الممتاز. فكانت كلما أعوز أولادها الطعام ، أو كانوا فى حاجة إلى حلة جديدة تستطيع أن تقول لهم ساخرة : عليكم أباكم ، فهو وريث ملك الحمراء الصبى . سلوه أن يعينكم من صندوق العربى .

وهل من إنسان مسكين عوقب شر عقاب على فعل الخير كما عوقب هذا . وقد مس الحزن المنكود برخيل فى جسمه وروحه . ولكنه استمر يحمل وادعاً تقريع زوجته. وأخيراً فيما هى تعنفه ذات مساء كعادتها بعد عمل يوم قائظ ، لم يبق فى قوس صبره منزع ، ولكنه لم يجرؤ أن يرد عليها إهانتها ، وتشبثت عيناه بالصندوق الصندلى ، وكان موضوعاً على رف قد كشف عنه غطاؤه كشفاً ، كأنه يهزأ ساخراً مما ألم ببرخيل من ضيق . فرفعه من مكانه ورطم به الأرض مضيقاً وصاح : ما أشأم اليوم الذى وقعت عيناى فيه عليك ! أو حين أويت فيه سيدك تحت سقف بيتى ! وعند ما ارتطم الصندوق بالأرض ، انفسخ عنه غطاؤه وتدحرج الطومار الجلدى بعيدا . وجلس برخيل يرقب الطومار وقتاً فى صمت عابس . وأخيراً استجمع أفكاره ، ثم أخذ يحدث نفسه : من يعرف : لعل هذه الكتابة قد تكون لها قيمة ، إذ المغربى فيما يظهر قد حاطها بمثل هذه العناية الكبيرة ، فالتقطها لذلك ثم وضعها فى صدره . وفى اليوم التالى فيما كان هو ينادى على مائه فى الشوارع وقف أمام حانوت فى حى السقاطين لرجل مغربى من أهل طنجة كان يبيع المصوغات والطيب وسأله أن يشرح له ما فى الطومار . وقرأ المغربى ما فيه بعناية وعبث بلحيته مبتسما ثم قال : هذا المخطوط صورة من رقية للكشف عن كنز مخبوء تحميه قوة سحرية ، ويقال : إن له هذا التأثير الذى تلين به أشد الزلاجات والعوائق قوة وحتى الأحجار الصلدة نفسها. وصاح الغاليسى الصغير : وى ! وما نفع كل هذا لى . فلست بساحر ولا أعرف شيئاً عن الكنوز المطمورة. وما قال هذا حتى رفع الجرة إلى عاتقه وترك الطومار فى يدى المغربى ودلف

قدماً فى جولاته اليومية . على أنه فى ذلك المساء حينما كان يستريح إلى جانب بئر الحمراء وقد أغبش النهار وجد جماعة من الثرثارين مجتمعين فى ذلك المكان . وكان حديثهم على غير عادتهم فى مثل هذه الساعات الظليلة يدور حول القصص القديمة والأخبار الخارقة للعادة . ولما كانوا كلهم فى عوز الجرذان، فقد عاشوا بهيامهم الخاص بالموضوعات العامة عن الكنوز المسحورة التى خلفها العرب فى جهات مختلفة من الحمراء . وفوق كل هذا فقد كانوا يميلون إلى الاعتقاد بأن هناك كنوزاً عظيمة مدفونة فى أغوار الأرض تحت برج الطبقات السبع . وكان لهذه القصص تأثير غير عادى على عقل برخيل الأمين ، وأخذت هذه القصص ترسخ فى نفسه شيئاً فشيئاً وهو آئب إلى بيته وحيداً ينحدر فى السكك المظللة المظلمة، وقال فى نفسه :

إذا صح بعد هذا كله أن هناك كنزاً مطموراً تحت البرج ، فإن هذا الطومار الذى تركته مع المغربى سوف يمكننى من استخراجه . وفى هذه الغمرة من الأفكار المفاجئة لم يتبين طريقه فى الظلام الحالك فسقطت الجرة . وفى تلك الليلة أخذ يتقلب من جنب إلى جنب غير مستقر ، ولم يذق النوم إلا غراراً ، فقد بلبلت الأفكار لبه . وفى الصباح المبكر لاذ بحانوت العربى وأخبره بكل ما دار فى رأسه ثم قال له : أنت تعرف قراءة العربية، فدعنا نذهب معاً إلى البرج ولنحاول أن نجرب أثر الرقية ، فإذا أخفقنا فلن نكون على حال أسوأ من ذى قبل، ولكنا إذا نجحنا فسنتقاسم الكنز الذى قد نكشف عنه . وأجاب المسلم : أمسك عليك حديثك ، فهذه الكتابة لا تكفى وحدها ، ولكنها يجب أن تقرأ فى منتصف الليل فى ضوء شمعة ذات تكوين وإعداد خاصين . وليست عناصرها فى متناول يدى ، وبدون هذه الشمعة فلا غناء فى هذا الطومار .

وصاح الغاليسى الصغير : لست فى حاجة إلى مزيد فإن هذه الشمعة فى يدى وسأحضرها لك فى برهة .

وما أن قال هذا حتى أسرع إلى بيته، وسرعان ما عاد ببقية من شمعة صفراء

كان قد وجدها فى الصندوق الصندلى . وتحسسها العربى وشمها وقال : ما أندر هنا هذه الطيوب الممتزجة بهذا الشمع الأصفر وأغلاها ، فهذا نوع من الشمع قد وصف فى الطومار . وفيما تأخذ هذه فى الاحتراق تظل أقوى الأسوار وأشد الكهوف خفاء مفتحة . وعلى أية حال فيا لشقوة من يتلكأ فى الداخل حتى تنطفىء ، فسينقلب مسحوراً مع الكنز ويبقى هنالك . وعندئذ اتفقا فيما بينهما على أن يحاولا الرقية . وفى هذا المساء نفسه فى ساعة متأخرة حين هدأ كل شىء إلا الخفاش والبوم ، صعدا إلى تل الحمراء الكثير الأشجار ، واقتربا من برجها الرهيب وقد غطته الأشجار . واستحال مهيباً بتلك الكثرة الكثيرة من القصص المتواترة التى تقال عنه . وفى ضوء فانوس تلمسا طريقهما خلال الشجيرات وفوق الأحجار المتخلفة حتى انتهيا إلى باب قبو أسفل البرج . فهبطا فى مجموع من الدرجات قطعت فى الصخر ، ترعد فرائصهما رعباً ، وانتهيا إلى مخدع خال رطب مظلم . ومنه هبطا فى مجموع آخر من الدرجات تصل إلى قبو أبعد غوراً . وعلى هذا النحو أخذا يهبطان فى عدة مجاميع من الدرجات تقود إلى أقبية كثيرة ، الواحد أسفل الآخر . وكانت أرض الرابع منها صلدة . غير أنه ، وفقا للروايات ، كان ثم ثلاثة أقبية أخرى أسفل منه . ولكنه كان من المحال ، كما يقال ، الهبوط إلى أكثر من ذلك . وكانت تلك الأبنية الباقية مغلقة بتعويذة قوية . وكان الهواء فى تلك الأقبية رطباً قارساً ، له مشم ترابى ، ويكاد النور لا يرسل شعاعه بعيدا ، وتلبثا هنا برهة يترقبان مقطوعى الأنفاس ، إلى أن وصل إلى مسمعها فى خفوت صوت ساعة مرقبة البرج تدق الثانية عشرة . وعندها أشعلا الشمعة التى تضوعت برائحة المر والكندر والميعة اليابسة . وبدأ العربى يقرأ فى صوت عجل . ولكنه لم يكد يتم حتى سمعت جلبة كأنها الرعد ينبعث أسفل منهما . واهتزت الأرض وانشق البلاط عن مجموع من الدرجات هبطا فيها وهما يرعدان خشية . وفى نور الفانوس وجدا نفسيهما فى قبو آخر مغطى الجدران بكتابات عربية . وإلى الوسط منه صندوق عظيم حفظ بأحزمة سبعة من الصلب ، وإلى كل طرف

منه جلس عربى مسحور فى شكته كالتمثال لا حراك به، تصرفه تلك الرقية بتأثيرها. وإلى الأمام من الصندوق قدور عدة قد ملئت ذهباً وفضة وأحجار كريمة. وضربوا فى كبرى القدور أيديهم حتى المرافق، وقد جذب كل منهما يده مقبوضة بعد كل غمسة، مملوءة بقطع عريضة من الذهب العربى الأصفر، أو أساور وحلى من ذلك المعدن النفيس، على حين قد تعلق عرضاً بإصبع كل منهم عقد من اللؤلؤ الشرقى. وأخذا يدسان فى جيوبهما الأسلاب وهما يرعدان فى أنفاس مطردة، يرميان بنظرات كثيرة خائفة هذين العربيين المسحورين اللذين جلسا متجهمين ساكنين يرمقانهما بعيون لا تطرف. وأخيراً تولاهما ذعر مفاجىء لضوضاء خالاها، فاندفعا إلى السلم يتعثر أحدهما بالآخر فى الغرفة العليا فانقلبا وانطفأت الشمعة وعاد الرصف مغلقا فى صوت كالرعد.

ولم يهدآ بعد أن امتلآ رعباً حتى تلمسا طريقهما إلى خارج البرج، فرأيا النجوم وهى تشع بنورها بين الأشجار. فجلسا على الأعشاب وأخذا يقسمان الغنائم بينهما. وقد آليا على أنفسهما أن يقنعا الآن بطفاوة القدور، على أن يرجعا فى بعض الليالى المقبلة ويستنزفا ما فيها حتى القاع. وليطمئن كل منهما إلى الآخر كل الاطمئنان، فقد قسما بينهما أيضاً الطلسمات، فاحتفظ أحدهما بالطومار كما احتفظ الآخر بالشمعة. وما فعلا هذا حتى رحلا إلى غرناطة بقلوب استخفها الطرب وجيوب قد حشيت حشواً.

وفيما هما ماضيان فى طريقهما أسفل التل همس العربى الأريب فى أذن السقاء البسيط الصغير بكلمة ناصحة، وقال له: صديقى برخيل، علينا أن نحتفظ بهذا العمل سرًّا دفيناً حتى نستحوذ على ما فى الكنز ونتأى بعيداً عن طريق المخاوف، ويا ضيعتنا إذا همس به هامس فى أذن القاضى.

وأجاب الغاليسى: حقًّا، بل ليس ثم شىء يبلغ مبلغ ذلك من الحق. وقال العربى: أيها الصديق برخيل. إنك رجل حصيف، وما أشك فى أنك تكتم السر ولكن لك زوجة. فأجاب السقاء الصغير فى حزم: سوف لا تعلم عن

ذلك شيئا . فأجاب العربى : حسبى فإنى أعتمد على حصافتك ووعدك . ولم يكن ثم وعد أوكد من هذا توكيداً ولا أصدق منه صدقاً . ولكن يا للأسف ، من هذا الذى يستطيع أن يحفظ عن امرأته سرّا . وإنه لمن المحقق ألا يقوى عليه رجل مثل برخيل السقاء ، الذى هو من أكثر الأزواج حبًّا وأسلسهم قياداً . وعند عودته إلى بيته ألفى امرأته لدى ركن كئيبة . فصاحت به حين دخل : حسناً حقًّا ، وأخيراً أتيت بعد أن تسكعت حتى هذه الساعة من الليل . وإنى أعجب كيف لم تحضر إلى البيت عربيًّا آخر يشاركك سكنك . ثم انفجرت باكية وأخذت تفرك يديها وتضرب صدرها وتصيح : ما أتعسنى من امرأة ! ماذا قدر لى ؟ فلقد نهب المحامون والشرطة ما فى بيتنا وجردوه منه ، وهذا زوجى العابث قد مضى يتسكع النهار والليل مع المغاربة الكفار . ولكنه لم يحضر بعد إلى أسرته خبزاً.

آه يا أطفالى ! يا أطفالى ! ماذا سيحيق بنا ؟ سوف يسأل كلنا الناس إحساناً فى الطرقات . وتأثر برخيل الأمين لحزن زوجه تأثراً كبيراً حتى إنه هو أيضاً لم يستطع أن يحبس نشيجه . وامتلأ قلبه كما امتلأ جيبه ولم يستطع لهما كبحاً ، فدفع يده فى ثانيهما وأخرج ثلاث قطع أو أربعة من الذهب العريض ودسهما فى صدرها . وحملقت المرأة المسكينة دهشة ولم تستطع أن تفهم سر هذه الأغداق الذهبية . وقبل أن تنجلى عنها دهشتها أخرج الغاليسى الصغير سلسلة ذهبية ودلاها أمامها . وهو يقفز من الفرح وانفرجت شفتاه حتى شارفتا أذنيه .

وصاحت الزوجة : فلتحفظنا العذراء المقدسة ! ماذا فعلت يا برخيل ؟ إنى لا أشك فى أنك لم تقترف قتلا أو سرقة .

ولم تكد الفكرة تطرأ بذهنها حتى أصبحت شيئاً مؤكداً عندها . فقد تخيلت غير بعيد منها سجناً ومشنقة . وغاليسيًّا صغير أحنف الرجلين مدلى منها ، وتغلبت عليها المخاوف واستحوذت عليها أوهامها ، فوقعت فى هوس شديد .

ولم يجد الرجل المسكين ما يفعله ليهدىء من روع زوجته ويبدد الأوهام من مخيلتها غير أن يقص عليها القصة كلها ، قصة جده السعيد ، على أنه لم يقدم

على هذا إلا بعد أن أخذ عليها أغلظ الأيمان بأن تحفظ هذا السر فى أعماق نفسها ولا تكشف عنه لأى إنسان . وكان فرحها يفوق وصف الواصف . فقد لفت عنق زوجها بذراعيها حتى أوشكت أن تخنقه وهى تدلله. فصاح بها الرجل الصغير فى بهجة بريئة : والآن أيتها الزوجة، ماذا أنت قائلة عن إرث العربى . فعليك منذ الآن ألا تؤنبينى على مساعدتى لرفيق مضيق من بنى الإنسان . وأوى الغاليسى الأمين إلى فراشه الذى اتخذه من جلد الأغنام ونام نوماً عميقاً كأنه ينام على فراش من ريش . ولم تفعل زوجته فعله ، ولكنها أفرغت كل ما فى جيوبه على الحصير وجلست ليلتها كلها تحصى القطع الذهبية من النقد العربى . وتلبس العقد والأقراط ، وتتخيل ما ستكون عليه هيئتها عند ما يتاح لها أن تتمتع بثروتها . وفى اليوم التالى أخذ الغاليسى الأمين قطعة ذهبية عريضة وقصد بها إلى جوهرى فى حى السقاطين يعرضها للبيع ؛ مدعياً أنه وجدها بين خرائب الحمراء. ورأى الجوهرى أنها تحمل كتابة عربية ، وأنها من أنقى الذهب . على أنه لم يدفع إليه إلا ثلث قيمتها . ولكن السقاء كان به جد قانع . ومن ثم اشترى برخيل ملابس جديدة لأولاده الصغار ،وجميع أنواع اللعب. هذا إلى زاد وفير لمأدبة شهية ثم عاد إلى مسكنه. وجعل أولاده جميعاً يرقصون من حوله. على حين قد أخذ هو يقفز بينهم أسعد الآباء بذلك .

وبرت زوجة السقاء بوعدها فى الكتمان فى دقة تثير الدهشة ، وبقيت تغدو وتروح يوماً أونصف يوم بمحيا يخفى وراءه سرًّا ، وقلبها يكاد ينفجر من كثرة ما امتلأ . إلا أنها مع ذلك احتفظت بهدوئها ، على الرغم من أنها كانت محاطة بصاحباتها الثرثارات. ولكنها بدت تتأنف من ثوبها الخلق وأوصت على نُقبة جديدة زركشت كلها بمحرمات مذهبة ومدليات ، وملفقة جديدة موائمة . وأخذت تشير إلى عزم زوجها عن تركه السقاية ، إذ أنها أصبحت لا تلائم صحته. وقد فكرت حقًّا فى أن يعودوا كلهم إلى القرية فى الصيف ، حتى يستطيع الصغار أن ينتفعوا بهواء الجبل إذ لا مقام لهم فى المدينة فى هذا الفصل الخانق . وتطلعت الجارات بعضهن

إلى بعض وخلن أن المرأة المسكينة قد أصابها مس . وكانت أحوالها وتلطفها وتصنعها الاناقة ، كل هذه أصبحت موضوعاً للسخرية العامة والفكاهة بين صاحباتها عند ما توليهن ظهرها . على أنها كانت إذا ما كبحت جماح نفسها فى الخارج عوضت ذلك فى البيت ، فوضعت حول عنقها خيطا ينتظم اللآلىء الشرقية ، والأساور فى ذراعيها ، وريشة من الماس فوق رأسها . وأخذت تتبختر غادية رائحة فى أثيابها الرثة فى أرجاء الحجرة . وتقف من حين إلى حين أمام قطعة من مرآة متكسرة معجبة بنفسها . ثم إنها ذات مرة لم تستطع صبراً على ذلك الباعث الذى يحرك فيها هذا العجب الساذج فوقفت إلى الشباك تستمتع بتأثير حليها على المارين بها ، وكأن الأقدار كانت لها بالمرصاد ، فقد كان «بدليو بدروجو» الحلاق الفضولى يجلس فى تلك اللحظة جامدا أمام حانوته فى الجانب المقابل من الشارع حينما أبصرت عينه الدائمة الرقبة لألأة الماس . وفى الحال كان واقفاً وراء كوته يتطلع إلى زوجة السقاء المتحشفة وقد تبدت فى بهاء عروس شرقية . وما إن نظر إلى حليها نظرة فاحصة مدققة حتى خف إلى القاضى بكل ما يملك من سرعة . وفى برهة قليلة كان الشرطى الشرير المتعطش إلى تحسس الأثر على علم بالأمر ، وقبل أن ينتهى اليوم كان المنكود برخيل يجر إلى حضرة القاضى . وصاح القاضى صيحة هائج : وكيف كان هذا أيها الوغد؟ لقد أخبرتنى أن الكافر الذى مات فى بيتك لم يخلف شيئاً وراءه غير صندوق فارغ ، وقد سمعت الآن أن زوجتك تلوح فى ثيابها الرثة بما تحلت به من لآلىء وماس . ما أتعسك ! هل أنت مستعد لأن تعيد أسلاب تلك الضحية الشقية أو تعلق إلى المشنقة التى قد ملت انتظارك حتى الآن . وجثا السقاء الفزع على ركبتيه وأخذ يسرد القصة كلها عن تلك الحال العجيبة التى حصل من ورائها على ثروته . وأنصت القاضى ورئيس الشرطة والحلاق الفضولى بآذان متعطشة إلى تلك القصة العربية عن الكنز المسحور . ووجه رئيس الشرطة ليأتى بالعربى الذى عاونه فى تلك الرقية . ودخل المسلم وقد ذهب الرعب بنصف قلبه وطار صوابه حين وجد نفسه بين أيدى القائمين على القانون .

وعند ما رأى السقاء يعلو محياه الخجل والغم فهم كل شيء . ثم قال وهو يمر به : ما أتعسك من حيوان ! ألم أحذرك من إفشاء السر لامرأتك . وطابقت قصة العربى تمام المطابقة قصة رصيفه . ولكن القاضى تصنع التريث فى التصديق وهدد بالسجن والتقصى الدقيق . وقال المسلم ، وكان قد استعاد فى الحال دهاءه المعروف ورباطة جأشه فى صوت هادىء : أيها القاضى السيد الجليل ، لا تدع ما واتتنا به الفرصة يفلت من بين أيدينا . فليس هناك إنسان يعرف شيئاً عن هذا الأمر غيرنا . فلنحفظ السر ، وهناك فى الكهف من الثروة ما يكفى لإسعادنا كلنا . فعدنا بتقسيم الكنز قسمة عادلة نخرج لك كل ما فيه . وإذا أبيت فسيظل الكهف مغلقاً إلى الأبد .

وانتحى القاضى ورئيس الشرطة ناحية يتشاوران . وكان ثانيهما ثعلباً قديماً ماكراً فى مهنته فقال : عدهم ما شاءت لك العدة حتى تضع يدك على الكنز ، وعندها إذاً سيكون لك كل شيء ، وإذا تجرأ هو أو شريكه فى الذنب على أن يتذمر فهددهم بالوبيلة والعصا ، كما يهدد الكفار والسحرة ، وأعجب القاضى بالنصيحة وفرك جبينه ثم التفت إلى العربى وقال له : إن هذه قصة عجيبة . وقد تكون حقيقية ، ولكن علىّ أن أتثبت منها ، وعليك فى هذه الليلة أن تعاود الرقية أمام عينى ، وإذا كان هناك كنز حقًّا فستتقاسمه بالحسنى ، فلا تبد ولا تعد . وإذا كان هذا خداعاً فلا تتوقعا رحمة على يدى ، وستبقيا سجينين .

ووافق العربى والسقاء على هذه الشروط فى فرح ، مقتنعين بأن النتيجة ستبين صدق هذا القول .

وحوالى منتصف الليل خرج القاضى خفية يتبعه رئيس الشرطة والحلاق الفضولى ، مزودين التزويد كله بالسلاح . وكانوا يقودون العربى والسقاء كما يقاد المساجين . وأخذوا معهم حماراً قويًّا لم يكن غير حمار السقاء ، ليحملوا عليه الكنز المنتظر . ووصلوا البرج دون أن تقع عليهم عين إنسان . فشدوا الحمار إلى شجرة تين ، ثم هبطوا إلى القبو الرابع من البرج وأحضر الطومار وأوقدت الشمعة وتلا العربى الرقية . فارتجفت الأرض كما ارتجفت من قبل ، وانشق البلاط فى

صوت كالرعد عن ذلك المجموع الضيق من الدرجات. فأخذت القاضى ورئيس الشرطة والحلاق الدهشة، ولم يستطيعوا أن يستجمعوا شجاعتهم ليهبطوا، ودخل العربى والسقاء القبو الأسفل فوجدا العربيين جالسين مجلسيهما من قبل فى صمت وسكون، فحركا قدرين كبيرتين ملئتا نقوداً ذهبية وأحجاراً كريمة، وحملهما السقاء واحدة بعد واحدة على كتفه. ومع أنه كان رجلا صغيراً قوى الظهر متعوداً حمل الأحمال إلا أنه ناء بثقلهما. ولما دلاهما على جانبى الحمار كانتا حمولته التى لا يستطيع غيرها. وقال العربى: حسبنا هذا الآن فهنا الشىء الكثير من الثروات مما نستطيع حمله دون أن يعلم بنا أحد، وهو كاف لإشباع رغبات القلوب إثراء.

وسأل القاضى: وهل خلفتما هناك مزيداً من ثروة؟ وقال العربى: إن أثمن الأشياء جميعها صندوق ضخم قد ربط بأحزمة من الصلب وملىء باللآلىء والأحجار الكريمة.

وصاح القاضى المتشبث: فلنحصل على هذا الصندوق بكل الوسائل.

وقال العربى فى عناد: لن أنزل فى طلب مزيد، فحسب الرجل العاقل ما يكفيه. وما زاد فهو فضلة.

وقال السقاء: أما أنا فلن أحمل أحمالا أخرى حتى لا أحطم ظهر حمارى المسكين.

وحين وجد القاضى أن الأمر والتهديد والاستعطاف ذهبت كلها أدراج الرياح التفت إلى تابعيه. وقال: ساعدانى لنحضر الصندوق، وسنقسم ما فيه بيننا. وما إن قال هذا حتى هبط فى الدركات يتبعه على مضض رئيس الشرطة والحلاق وهما يرعدان. وما أن رآهما العربى قد ضمتهم الأرض فى جوفها ضماً حتى أطفأ الشمعة الصفراء. فانطبق البلاط فى فرقعته المعهودة. وبقى الثلاثة الأجلاء مدفونين فى جوفه. وعندئذ أسرع يصعد تلك المجموعات المختلفة من الدرجات، لا يتوقف، حتى خرج إلى الهواء الطلق. وتبعه السقاء يعدو على قدر ما تسمح به رجلاه القصيرتان. وصاح. برخيل عند ما استطاع أن يسترد أنفاسه: ماذا فعلت؟ فقد حبس القاضى وزميلاه الاثنان فى القبو. وقال العربى فى إيمان: إنها إرادة الله.

وسأله الغاليسى: وهل لن تطلق سراحهم. وأجاب العربى وهو يداعب

لحيته : إن الله لا يرضى ، فإنه قد خط فى لوح القدر أنهم سيبقون حتى يأتى فى المستقبل مغامر فيفسد هذه الرقية . فلتكن مشيئة الله . وما إن قال هذا حتى طوح ببقية الشمعة بعيداً بين غابات الوادى الكثيفة الموحشة . وقضى الأمر ومضى العربى والسقاء بالحمار المحمل بالثراء نحو المدينة . ولم يستطع الأمين برخيل أن يكف عن أن يحضن تابعه الكادح الطويل الأذنين ويقبله، وقد خلص إليه على هذا النحو من براثن رجال القضاء . وفى الحق إنا لا ندرى أى الأمرين كان أكثر سروراً فى هذه اللحظة لهذا الرجل الصغير الساذج : أحصوله على الكنز ، أو رجوع حماره إليه؟ واقتسم الرفيقان السعيدين أسلابهما بالحسنى والإنصاف ، غير أن العربى الذى كان يميل بعض الميل إلى المصوغات رأى أن يجعل الجزء الأكبر من نصيبه من اللآلىء والأحجار الكريمة وتحف أخرى . ولكنه كان دائماً يعطى السقاء لقاءها حلياً جليلة من الذهب الثقيل ـ خمسة أمثال حجمها ، مما جعل السقاء راضى القلب .

وقد احتاطا للأمر فلم يتلبثا لتدهمهما الأحداث ولكنهما رحلا ليتمتعا بثروتهما لا يعكر صفوهما معكر فى بلاد أخرى . فآب العربى إلى إفريقية إلى مسقط رأسه تطوان ، وأسرع الغاليسى بزوجه وأولاده وحماره شاخصاً إلى البرتغال . وهناك بمشورة زوجه ورعايتها أصبح شخصاً على شىء من الخطر . لأنها جعلت هذا الرجل الصغير المحترم ذا الجزع الفارع والأرجل القصيرة يبدو فى أصْدة وجورب طويل وريشة فى قبعته وسيف إلى جانبه . وقد اطرح جانباً لقبه المألوف « برخيل» وانتحل لقباً أبعد صيتاً هو السيد «بدروخيل» . وشبت ذريته مفاخرة سعيدة ولكنها قميئة حنف السيقان . على حين قد تجملت زوجته بالمزركش والمشبك والمدلى من رأسها إلى قدميها ، وقد تلألأت الخواتم من كل أصبع حتى أصبحت مثالا شاذا فى زيها وزينتها . أما عن القاضى وتابعيه فقد بقوا محبوسين تحت البرج العظيم ذى الأطباق السبعة ولا يزالون هناك مسحورين حتى يومنا هذا .

وإذا ما افتقرت أسبانيا إلى حلاقين قما عيث أو رؤساء شرطة سلابين أو قضاة فاسقين عندها يحق لها أن تفكر فى هؤلاء . وأما إذا كان لهم أن ينتظروا إلى يوم يكون فيه الخلاص ، فقد يخشى عليهم من رقيتهم أن تبقى حتى يوم الدين.

قصة

وردة الحمراء

أو

الوصيف والبازى

بعد نزول العرب عن غرناطة بوقت قصير أصبحت تلك المدينة البهجة مأوى مألوفاً محبباً لملوك الأسبان. إلى أن نفرتهم عنها تلك الرجفات الزلزالية المتتابعة التى دمرت بيوتاً مختلفة وجعلت تلك الأبراج الإسلامية القديمة تميد على قواعدها. ومرت سنون وسنون لم تحظ فيها غرناطة إلا فى النادر بتشريف ملك من الملوك، وظلت قصور النبلاء صامتة مغلقة وبقيت الحمراء كالحسناء المهملة تعيش فى وحشة مفجعة بين حدائقها المهجورة. وحتى برج الطفلات، الذى كان يوما ما مقاماً لأميرات ثلاث عربيات حسناوات، أصبح يشارك فى هذه الوحشة السائدة، تنسج العناكب خيوطها فى عرض الأقبية المذهبة. وتسكن الخفافيش والبوم فى مخادعه تلك التى نعمت بمشاهدة: سارة، وسارية. وسرية. وقد يعزى بعض السبب فى إهمال البرج إلى أوهام الجيران. فقد أشيع أن روح الكاعب سريا التى ماتت فى البرج كانت ترى فى الكثير من الأحيان فى ضوء القمر جالسة إلى جانب النافورة فى الردهة، أو باكية عند الشرفات، وأن العابرين على طول الوادى كانوا يسمعون نغمات عودها الفضى عند منتصف الليل. وأخيراً قُدر لغرناطة مرة أخرى أن تُزهى بحضرة ملكية. فالناس جميعاً يعلمون أن فيليب الخامس كان أول بربونى قبض على صولجان الملك فى أسبانيا. وأن العالم كله يعرف أنه بنى فى زيجته الثانية باليصابات أو إيزابلا، فكلا الاسمين سواء، أميرة بارما الجميلة. ويعرف الناس جميعاً أن بهذه المصاهرة بين أمير فرنسى وأميرة إيطالية جلسا الاثنين على عرش أسبانيا، وقد أصلحت الحمراء وأعدت أسرع ما يمكن لاستقبال الزوجين الجليلين. وقد غير وصول بلاطهما من جميع مظاهر هذا القصر الذى هُجر بأسره. وأصبحت رنات الطبول وجلجلة

الأبواق ووقع حوافر الخيل فى جنبات السكك المظللة والساحة الخارجية. والأسلحة المتألقة والأعلام المنشورة حول الحصون الخارجية والشرفات ، أصبحت كل هذه تعيد إلى الذاكرة القلعة فى مباهجها القديمة المصطبغة بصبغة حربية .

إلا أن القلعة الآن قد اصطبغت بصبغة أرق وألطف ، فلا تحس إلا خفخفة الثياب ، وخفة وقع الأقدام ، وهمهمة رجال الحاشية المبجلين فى الردهات . وتلبث الغلمان ووصيفات الشرف فى الحدائق . وأصوات الموسيقى تنسل من النوافذ الزجاجية المفتوحة . ومن بين هؤلاء الذين كانوا فى خدمة الملكين غلام محبب إلى الملكة يدعى رويس الألا ركونى . وإذا قلنا إنه كان غلاماً محبباً إلى الملكة ، فهذا يسوقنا على الفور إلى الحديث عن محامده . ذلك أنه لم يكن يختار إنسانا لحاشية الملكة الجليلة إلا كل لطيف جميل مهذب . وكان قد جاوز الثامنة عشرة بقليل . ضامر الجسم لدنه فى بهاء انتينوس[1] وحسنه فى شبابه . وكان كله رعاية واحتراما للملكة ، إلا أنه كان ينطوى على شباب ما كر : قد دللته سيدات الحاشية فأفسدنه . وكانت خبرته بمعاملة النساء تفوق سنه بكثير .

وذات صباح كان هذا الغلام المتسكع يجول فى حرجات جنة العريف التى تطل على أراضى الحمراء . وكان قد حمل معه للتسلية صقراً جميلا للصيد من صقور الملكة . وفى طريق تجواله رأى طيراً يخرج من الغابة فأطلق الصقر وخلاه ليطير .

وحلق الصقر فى الجو عالياً ثم انقض على فريسته . ولكنه أضلها . فحلق بعيداً غير ملق بالا لهتاف الغلام به .

وجرى الغلام فى إثر الطائر الشارد وعيناه عالقتان به وهو يطير على غير هدى حتى رآه يحط على شرفات برج بعيد منعزل على السور الخارجى للحمراء ، يقوم على حافة اللهب الذى يفصل القلعة الملكية عن أراضى جنة العريف . وكان فى الحق برج الأميرات . وهبط الغلام فى اللهب حتى أدرك البرج . ومنه

(١) انتينوس : شاب محبوب . اتخذ مثلا لجمع بين جمال المحيا وحصافة العقل .

لم يجد له مدخلاً من الوحدة ، وقد كان شاهقاً فى ارتفاعه يجعل أية محاولة فى تسلقه غير مجدية . وأخذ يبحث عن باب من أبواب القلعة فدار دورة واسعة بهذا الجانب من البرج الذى يواجه الأسوار من الداخل . وكانت هناك حديقة صغيرة أمام البرج مسورة بعرائش من القصب قد أشرف عليها الآس . ففتح الغلام من بينها منفذاً ومر بين حياض الأزهار وأدغال الورود حتى انتهى إلى باب مغلق مرتج . وكانت به خصاصة استرق منها النظر إلى الداخل .

فرأى ردهة عربية صغيرة بجدران ذات نقوش عميمة ، وأعمدة مرمرية وضاءة ، ونافورة من المرمر تحيط بها الأزهار ، وقد تدلى فى وسط الردهة قفص مموه بالذهب ، وقف أسفل منه طير مغرد ، وجثمت على كرسى قطة رقطاء بين وشائع من الحرير وأدوات أخرى من مستعمل النساء ، وقيثارة حليت بأشرطة معتمدة على النافورة .

فأخذ رويس الألاركونى بهذه الآثار ذات الطابع الأنثوى الرقيق فى هذه العزلة ، وقد كان يخاله برجاً مهجوراً . وقد ذكرته هذه الأشياء بقصص الردهات المسحورة المألوفة فى الحمراء ، فظن هذه القطة الرقطاء واحدة من الأميرات المسحورات . وطرق الباب فى رفق . فأطل يسترق النظر إليه من نافذة صغيرة إلى أعلى وجه جميل . ولكنه ما فعل حتى ارتد . وانتظر يتوقع أن الباب سيفتح له ولكن عبثاً ، فلم يسمع وقع أقدام من الداخل ، بل كل شيء كان فى سكون . ترى هل خدعته حواسه ، أو أن هذا الخيال الجميل هو جنية البرج .

فطرق الباب ثانية أكثر إسماعاً . وبعد برهة صغيرة أطل هذا الوجه المشرق مرة أخرى يسترق النظر إليه . فكان وجه عذراء يانعة فى الخامسة عشرة . وسرعان ما رفع الغلام قبعته الصغيرة المريشة والتمس فى أدب عبارة الإذن بالصعود إلى البرج فى إثر صقره . فأجابت العذراء الصغيرة خجلة : إنى لا أجرؤ أن أفتح الباب أيها السيد ، فقد منعتنى عمتى ذلك . فقال : إنى أضرع إليك أيتها العذراء الجميلة ، فإنه الصقر المحبب إلى الملكة . ولا أجرؤ أن أعود إلى القصر دونه . فقالت : إذاً فأنت

فارس من فرسان الحاشية ؟ فقال : نعم أيتها العذراء الجميلة ، ولكنى سأفقد حظوة الملكة ومكانتى إذا فقدت هذا الصقر .

فقالت : وحق مريم المقدسة ، لقد أوصتنى عمتى أن أغلق الباب بالرتاج خشية منكم يافرسان الحاشية خاصة . فقال : حذراًمن الفرسان الأشرار من غير شك ولكنى لست واحداً من هؤلاء وما أنا إلا غلام غير ذى بال . وسوف يقضى عليه ويساء إليه إذا أبيت عليه هذا الرجاء الصغير . وحز فى قلب العذراء الصغيرة كرب الغلام. وإنه لشىء يبعث فى النفس الحسرات إذا لم يجب إلى هذا المطلب التافه ، ومن المؤكد أنه هو أيضاً ليس واحدا من هؤلاء الخطرين الذين وصفتهم لها عمتها على أنهم من أكلة لحوم البشر ، الذين يتعسسون دائماً لافتراس الغرات العذارى . بل هو لطيف متواضع . وقد لبث يمعن فى التوسل وقبعته فى يده ، فكان منظراً فاتناً ساحراً . ورأى الغلام الماكر أن الحصن بدأ يهتز فضاعف من توسلاته فى مثل هذه العبارات المثيرة التى لا تقوى على مغالبتها طبيعة حسناء من بنات الإنسان . ومن ثم هبط حارس البرج الصغير الخجل وفتح الباب ويداه ترتجفان . وإذا كان الغلام قد فتن بمجرد لمحة من لمحات مطلعها فى النافذة ، فما أفتنه بمثالها كاملا فى طوله وقد بان له . فأصفتها الأندلسية ورداؤها البشكوانى قد أبرزا جسمها الملفوف الدقيق التناسق ، الذى كان قد امتلأ أنوثة . وكان شعرها اللامع يتفرق على جبهتها فى تأنق دقيق . وقد زين بورد غض جنى ، حسبما هو شائع فى البلد . ولقد كانت بشرتها حقاً ملفوحة بحرارة شمس الجنوب التى كسبت خديها الزاهرين المتوردين حمرة . وزادت فى ماء عينيها رقرقة وصفاء. ورأى هذا كله رويس الألاركونى فى نظرة خاطفة ، إذ أنها لم تمهله إلا ريثما همهم شاكراً ثم صعد فى خفة السلم اللولبى للبحث عن الصقر . وسرعان ما عاد بالطائر الشارد فوق جمع يده . وكانت العذراء عندها تجلس بجانب النافورة فى الردهة تغزل الحرير . ولكنها فى ربكتها سقطت منها الوشيعة على البلاط . فقفز الشاب والتقطها ثم ركع فى رشاقة على ركبة واحدة وناولها إياها. ولكنها حين مدت يدها

لأخذها طبع عليها قبلة فيها من الحرارة والولاء ما لم يطبع به أبداً يد الملكة الجميلة .

وصاحت العذراء : ماهذا أيها السيد، حنانيك يا مريم . وقد غمرها الخجل مشوباً بالارتباك ، إذ لم يحيها أحد من قبل بمثل هذه التحية أبداً . واعتذر الخادم المؤدب بألف اعتذار مؤكداً لها أن هذه هى السبيل فى القصر للتعبير عن أعمق شعائر الولاء والاحترام . وسكن عنها غضبها فى يسر ، إن صح أن ثم غضبا ، ولكنها بقيت مهتاجة مرتبكة وأخذت تزداد خجلا فخجلا . ورنت بعينها إلى عملها . وقد انتكس الحرير الذى حاولت أن تغزله . ولحظ الغلام الماكر الحيرة فى حصن هذه العذراء ، وود لو أنه استفاد منها ، ولكن الكلمات العذبة التى كان ينطق بها لم تعد تجرى بها شفتاه . وكان غير لبق ولا مؤثر فيما حاول من كياسة . وما كانت أشد دهشته حين وجد هذا الخادم الماهر نفسه ، وهو الذى اشتهر بمثل هذه اللباقة وتلك السلاطة بين أكثر نساء الحاشية معرفة وحنكة ، متهيباً مرتبكاً أمام عذراء صغيرة فى الخامسة عشرة . وفى الحق لقد كانت لتلك العذراء الساذجة فى تواضعها وبراءتها حراس أقوى أثراً من تلك الرتاجات والقضبان التى فرضتها عليها عمتها العذراء .

ولكن أين هو قلب الأنثى الذى لا يستجيب لأول همسة من همسات الحب ؟ وقد أدركت العذراء الصغيرة فى وضوح بغريزتها وبكل ما حباها الله من براءة لا تكلف فيها ولا تصنع جميع ما لم يستطع الغلام أن يفصح عنه بلسانه المعقود . وخفق قلبها عند ما رأت للمرة الأولى محبا جاثماً عند قدميها . ويا له من محب . ولكن حياء الغلام وإن كان غير متكلف لم يدم طويلا وعادت إليه ذلاقته المألوفة وثقته بنفسه عند ماسمع صوتاً يجلجل على بعد . وصاحت العذراء فزعة : لقد عادت عمتى من القداس أرجوك أيها السيد أن ترحل. وقال : لن أرحل حتى تهبينى هذه الوردة التى فى شعرك تذكاراً .

وأسرعت فنزعت الوردة من خصلها الغدافية وصاحت مهتاجة العاطفة خجلة : خذها ، لكن أرجوك أن تذهب . وأخذ الخادم الوردة ولكنه فى الوقت

نفسه غمر بقبلاته الجميلة تلك اليد التى ناولته إياها، ثم رشق الوردة فى قبعته الصغيرة، وأخذ الصقر فى جمع يده، ووثب خلال الحديقة يحمل معه بعيداً قلب هذه الدجاجة الأرجوانية اللطيفة. وعند ما وصلت العمة الحذرة إلى البرج لحظت انفعال بنت أخيها وما ساد المكان من اضطراب. ولقد كانت كلمة واحدة كافية بالإبانة: إن صقر صيد كان يطارد فريسته فى الردهة. فليرحمنا الله حين نفكر فى صقر يحلق فى البرج. وهل سمع أحد أبداً بصقر فى مثل هذه الوقاحة. وكأنى بالطير الذى حبسته فى القفص لم ينج من شره. وكانت «فريد وجندا» اليقظة من أعظم النساء العوازب القدامى حذراً. وكانت تتوجس الهلع والريبة ممن كانت تدعوهم الجنس الآخر. وأخذ هذا يزيد شيئاً فشيئاً خلال تلك الحياة الطويلة حياة العزوبة. وما عرف عن هذه المرأة الطيبة أنها كانت فريسة لنزواتها أبداً، وقد وهبتها الطبيعة من وجهها وقاية تدفع عنها كل اعتداء على حرمتها. على أن هؤلاء النساء اللاتى لم يرزقن من المحاسن إلا أتفهها. مما يجعلهن لا يخشين على أنفسهن، أكثر استعداداً لرعاية خير الجارات فتنة وغواية. وكانت بنت أخيها يتيمة. توفى أبوها فى الحرب ثم نشأت فى دير. وقد تركت هذا الملجأ المقدس حديثاً إلى رعاية عمتها المباشرة. فى ظل عنايتها الظليلة نبتت فى غمرة كالوردة المتفتحة تونع فى ظل العوسج.

وهذا الوصف ليس بالشىء الجديد فقد كان لها حقا من نضارتها وتدفق جمالها ما لفت إليها الأنظار عامة حتى فى عزلتها، وقد لقبها القرويون المجاورون بلقب وردة الحمراء على مألوف أهل الأندلس فى تعلقهم بكل ما هو شعرى. ومضت العمة اليقظة تعنى حق العناية بابنة أخيها الصغيرة الفاتنة أيام وجود رجال البلاط فى غرناطة. وكانت تخدع نفسها بأن يقظتها قد حققت الغرض. وفى الحق لقد كانت السيدة الطيبة بين الحين والحين تزعجها رنات القيثارة والأناشيد تلو الأناشيد المترددة بين الحرجات المقمرة أسفل البرج. ولكنها كانت تحصن ابنتها بأن تصم أذنيها حتى لا تستمع إلى مثل

هؤلاء المغنين الكسالى، مؤكدة لها أنها إحدى تخييلات الجنس الآخر يغوون بها فى الكثير من الأحيان الغريرات من الحسان إلى متلفتهن .

يا للأسف ، ما أحسنها من فرصة للحسناء الغريرة الجادة حتى تأمن هذه المطارحات الغرامية فى الليالى المقمرة من أسفل النافذة .

وأخيراً اختصر الملك فيليب إقامته فى غرناطة وفجأة رحل عنها بجميع حاشيته ولحظت الحذرة «فريد وجندا» الموكب الملكى وهو خارج من باب العدل وقد هبط فى اللهب العظيم الذى ينتهى إلى المدينة .

وعندما غاب آخر علم عن نظرها رجعت متهللة إلى البرج . فلقد تخلصت من جميع مشاغلها . ومما أثار دهشتها أنها رأت فرساً عربيًّا سريعاً انتهى إلى قرب الباب الصغير للحديقة وأخذ يفحص الأرض برجليه . وقد فزعت حين رأت خلال أجمات الورود شابًّا فى ثوب موشى بهيج عند أقدام ابنة أخيها . وعند ما سمع وقع أقدامها ودعها وداعاً رقيقاً . ووثب فى خفة من فوق حواجز القصب والآس ، ثم قفز ممتطياً فرسه ، وسرعان ما غاب عن الأبصار . وقد فقدت الغرة «خاسنتا» فى غمرة الحزن كل تفكير فيما يسىء إلى عمتها . وألقت نفسها بين ذراعيها وانطلقت تزفر وتدمع وصاحت : يا ويلتى لقد ذهب ! لقد ذهب ! ولن أراه أبداً بعد اليوم !

ذهب . ومن ذا الذى ذهب ؟ ومن هو هذا الشاب الذى رأيته جاثماً عند قدميك ؟ غلام الملكة ياعمة أتى ليودعنى . وصاحت الحذرة « فريدو جندا » فى صوت ضعيف : غلام الملكة ! ومتى يا طفلتى تعرفت إلى غلام الملكة ؟ فى الصباح الذى أتى فيه صقر الصيد إلى البرج ، فلقد كان صقر الملكة ولقد أتى فى إثره . ما أغباك أيتها الفتاة ، فلتعلمى أنه ليس ثم صقور أكثر خطراً من هؤلاء الغلمان الصغار العابثين . وإنما هذه الطيور الصغيرة من أمثالك هى الفريسة التى عليها ينقضون .

وكانت العمة أولا حنقة عند ما علمت ، على الرغم من حذرها ذلك الذى كانت تباهى به ، أن صلة رفيقة بدأت تجمع بين المحبين الشابين تحت سمعها

وبصرها . ولكنها حين وجدت أن ابنة أخيها ذات القلب الساذج ، وإن كانت قد تعرضت لكل مكايد الجنس الآخر دون أن تحميها تلك الأقفال والرتاجات ، قد خرجت من تلك المحنة القاسية طاهرة الذيل ، أخذت تعزى نفسها بأن نجاة ابنة أخيها من هذه المحنة مرجعه إلى تلك المُثل التى أخذتها بها من الحصانة والعفة ، والتى غمستها فيها حتى الأذقان. وفيما كانت العمة تسكن روعها بهذا البلسم المسكن من كبريائها كانت بنت الأخ تتذكر عهود الوفاء المتكررة التى قطعها الغلام على نفسه . ولكن كيف تحب رجلا غير مستقر هائماً على وجهه . مثله كمثل الغدير الشارد الذى يتلبث هنيهة مع كل زهرة على الشاطىء . ثم يمضى فى طريقه ويتركها جميعها تذرف الدمع لفراقه . ومرت الأيام والأسابيع والشهور . ولم تعد تسمع شيئاً عن ذلك الغلام .

ونضج الرمان ، وأثمرت الكروم ثمرتها ، وجرت أمطار الخريف جارفة من الجبال ، وتجللت جبال نفادا بغطاء من الثلج ، وصرصرت نفحات الشتاء فى أرجاء ردهات الحمراء ولكنه لما يأت . وانقضى الشتاء وانبعث الربيع الأنيس ثانية بألحانه وأزهاره ونسيمه العطر ، وذابت الثلوج على الجبال فلم يبق فيها إلا تلك البقية الباقية على قمة جبال نفادا السامقة تبرق خلال هواء الصيف اللافح. ولكن شيئاً لم يعد يُسمع عن هذا الغلام النسّاء . وفى الوقت عينه كانت المسكينة «خاسنتا» الصغيرة تزداد شحوباً وبلبلة . وطرحت جانباً ما كانت تقطع به وقتها وتسرى به عن نفسها . فها هوذا حريرها قد تُرك أنكاثا . وتلك قيثارتها غير مُوترة ، ولم تعد تعن بأزهارها ، ولا تلتفت إلى غناء طائرها ، وعيناها اللتان كانتا من قبل تشعان ، أصبحتا معتمتين بما بكتا فى الخلوات . وإذا قُدر لعزلة أن تحتضن هوى عذراء هجرها حبيبها فتذكيه فلن تكون إلا مكاناً أشبه بالحمراء ، حيث كل شىء وكأنه قد أعد ليهيج أرق الأحلام وأحفلها بالهوى والخيال . إنها هى جنة المحبين . ألا ما أقساها من وحدة فى مثل هذه الجنة . وليست وحدة فقط ، ولكنها هجر . يا للحسرة ! ما أغباك أيتها الطفلة ! قد كان هذا قول

الحازمة الطاهرة «فريدوجندا» حين وجدت ابنة أخيها فى حال من حالات اليأس . ألم أحذرك من مكايد هؤلاء الرجال وخداعهم ؟ وماذا تنتظرين بعد، وأنت يتيمة من أسرة أخنى عليها الدهر ، من رجل سليل بيت طموح ؟ فلتوقنى بأنه إذا كان هذا الشاب صادق الوعد، فإن أباه وهو من أعظم نبلاء البلاط اعتزازاً سوف يمنعه من الزواج بفتاة فى مثل رقة حالك وفقرك . فلتهجرى عزلتك منذ الآن ولتنزعى تلك الأفكار التافهة من فكرك . ولم تفعل كلمات الطاهرة «فريد وجندا» غير أن زادت من كآبة ابنة أخيها . ومضت ترددها فى خلوتها . وفى ساعة متأخرة من ليلة من ليالى الصيف بعد أن هجعت عمتها لتستريح ، بقيت هى وحدها فى ردهة البرج جالسة بقرب النافورة المرمرية ، وهنا كانت الأولى حين ركع الغلام الغادر وقبل يدها . وهنا طالما أعطى العهود على الوفاء لها إلى الأبد. وفاض قلب العذراء الصغيرة المسكينة بالأحزان والذكريات الرقيقة ، وبدأت دموعها تنهل وأخذت تسقط غير متتابعة قطرة قطرة فى النافورة . وأخذ الماء البلورى شيئاً فشيئاً يهيج ويزبد المرة بعد المرة ، ثم يجيش . وانبثق الماء عن صورة أنثى . عليها فاخر الثياب المغربية . تبدو للنظر رويدا . وفزعت «خاسنتا» كل الفزع ، وتركت الردهة ولم تجرؤ أن تعود إليها . وفى صباح اليوم التالى قصت ما رأت على عمتها . ولكن المرأة الطيبة عدت هذا من أوهام عقلها المكدود ، وظنت أن النوم غلبها بجانب النافورة فحلمت . وقالت لها : ألم تكونى تفكرين فى قصة الأميرات العربيات الثلاث اللائى سكن هذا البرج مرة ؟ ثم وصلت حديثها : لقد اختلط هذا بأحلامك .

أية قصة يا عمتى ؟ إنى لأعرف شيئاً عنها .

إنك لا شك سمعت عن الأميرات : سارة، وسارية ، وسرية اللاتى كن قصرهن أبوهن الملك فى هذا البرج ثم اتفقن على أن يهربن مع فرسان ثلاثة مسيحيين وهربت الأوليان وخارت عزيمة الثالثة . ويقال إنها ماتت فى هذا البرج .

وقالت خاسنتا : لقد تذكرت الآن ، وقد سمعتها وإنى بكيت حظ اللطيفة سرية الرفيقة . ووصلت العمة حديثها : إنك تحسنين صنعاً حين تبكين حظها . إذ أن محب سرية كان جدك الأعلى . وطالما ندب محبوبته المغربية . ولكن الزمن ذهب بأحزانه ثم تزوج سيدة أسبانية كنت أنت من أعقابها. وقالت «خاسنتا» فى نفسها بعد أن أنعمت النظر عند سماعها هذه الكلمات : إن ما رأيت لم يكن وهماً من أوهام الفكر . فإنى مؤمنة به. وإذا كان هذا حقا فإنها روح اللطيفة سرية التى سمعت عنها أنها تطوف فى أرجاء البرج والتى خفتها . وسأتطلع الليلة إلى جانب النافورة لعلها تعاود الزيارة . ونحو منتصف الليل حينما هدأ كل شىء أخذت مقعدها ثانية فى الردهة . وفيما كان ناقوس مرقبة الحمراء البعيد يؤذن بأن الليل قد انتصف . هاجت النافورة ثانية ثم أزبدت المرة بعد المرة ثم انبثق الماء عن صورة أنثى مغربية بدت للنظر ثانية . لقد كانت صغيرة وجميلة عليها فاخر الثياب والحلى . وتمسك فى يدها عوداً من فضة . وأرعدت «خاسنتا» وأغمى عليها. ثم سكن روعها حين استمعت لصوت هذه الخيال الناعم الشجى ، ورأت محياها فى ملامحه الحلوة الحزينة الشاحبة وقالت لها : يابنة الموت . فيم أنت تألمين ؟ ولم عكرت بدموعك صفو نافورتى ؟ وشوشت بتنهداتك وأناتك هزيع الليل الهادئ . فقالت : إنى أبكى غدر الإنسان واندب وحدتى وما منيت به من هجر . فقالت : هدئى من روعك ؟ فقد يكون لأحزانك نهاية . ثم لتنظرى إلى أميرة عربية ، وهى مثلك لم توفق فى حبها . فقد ملك على قلبى فارس مسيحى وهو جدك . وكان معتزماً أن يحملنى معه إلى موطنه وإلى أحضان الكنيسة . وكنت مؤمنة بقلبى ولكن لم تكن شجاعتى كفاء إيمانى فتريثت حتى فاتنى الوقت . ولهذا تسلط علىّ جنى خبيث وسأبقى مسحورة فى هذا البرج إلى أن يحسن بى صنعاً أحد المسيحيين الخلص فيحطم عنى تلك التعويذة السحرية . فهل لك فى أن تتولى هذا العمل ؟

وأجابت العذراء مرتجفة : نعم سأفعل .

فقالت : هيا إلىّ ولا تخافى شيئاً ثم رشينى بالماء ثم عمدينى وفق ماتعتقدين. وبهذا فستنحل عنى الرقيةوستهدأ روحى المضطربة . وتقدمت العذراء . ثم غمست يدها فى النافورة وجمعت الماء فى راحتها ونثرته فى وجه الطيف الشاحب ، وابتسمت الثانية فى رقة بالغة . وسقط عودها الفضى على أقدام «خاسنتا» ثم شبكت زراعيها البيضاوين على صدرها وغابت عن الأنظار ، ثم لم تظهر إلا فى شآبيب من قطرات الندى تتساقط فى النافورة . وخرجت «خاسنتا» من الردهة وقد ملئت خشية ودهشة . وما ذاقت النوم فى هذه الليلة إلا غراراً . وحين نهضت عند مطلع الشمس من غفوة مضطربة بدأ كل شيء لها وكأنه حلم مشوش ، ولكنها عند ما نزلت إلى الردهة تجلىّ لها اليقين . فقد رأت إلى جانب النافورة العود الفضى يتألق فى ضوء شمس الصباح . فخفت إلى عمتها لتقص عليهاما حدث لها ، ودعتها لترى العود شاهداً على صحة القصة .

ولقد زال كل ما فى نفس السيدة الطيبة من شك ، إن صح أنه كان ثم شيء منه . عندما مست «خاسنتا» العود فانبعثت منه نغمات ذاب لها حتى قلب العفة «فريد وجندا» البارد ، الذى كان كأنه الشتاء الدائم ، إلى فيض بهيج . وليس ثم شيء يقوى على أن يحدث هذا التأثير إلا هذا اللحن العلوى . وكانت قوة سحر العود العجيب تزيد يوماً بعد يوم وضوحاً وكانت السابلة الذين يمرون بالبرج يتلبثون فى نشوة مبهورين وكأنهم مسحورون ، والطيور نفسها كانت تتجمع على الأشجار المجاورة صامتة عن شدوها مصيخة إصاخة المفتون . وسرعان ماشاعت الشائعات فى الأرجاء البعيدة ، وتزاحم سكان غرناطة إلى الحمراء ليظفروا بالقليل من نغمات تلك الموسيقى العلوية التى كانت تتردد فى جنبات برج الطفلات . وأخيراً خرجت هذه العازفة الصغيرة المحبوبة من محبسها . فقد تنافس أغنياء البلد والقادرون أيهم يرحب بها ويكرمها ، أو بالأحرى أيهم يملك عودها بسحره ليستهوى علية القوم إلى ردهات بيته . وكانت أنىّ ذهبت فى حراسة عمتها التى كانت لا تغفل عينها عنها قط ، تخشى عليها من جماهير المعجبين

بها أشد الإعجاب ، الذين يتعطشون شوقاً إلى سماع ألحانها . وذاعت شهرتها العجيبة من بلد إلى بلد ، من ملقا إلى إشبيليه إلى قرطبة ، وأصبح أهل هذه البلاد جميعاً ولعين بها ، ولم يعد للناس حديث فى الأندلس إلا عن عازفة الحمراء الجميلة . وكيف لا يكون ذلك بين قوم كالأندلسيين مشغوفين بالموسيقى ظرفاء ، والعود يسحر النفوس والعازف ملهم بالحب . وعلى حين كان الأندلسيون كلهم على هذه الحال قد جن جنونهم بالموسيقى كان القصر الملكى فى أسبانيا على حال أخرى . فلقد كان « فيليب » الخامس ، كما هو معروف ، شقيًّا بوسواسه أسيراً لجميع أنواع الأوهام . وكان أحياناً لا يغادر فراشه أسابيع متصلة . يئن عن غير ألم إلا بما صوره له الوهم . وفى أوقات أخرى كان يصر أن ينزل عن عرشه بسبب تلك المضايقات الكثيرة ، التى كانت تثيرها زوجته الملكة . مزهوة كل الزهو بجلال القصور وأبهة التاج . وكان إليها تصريف صولجان سيدها الغر بخبرة وحنكة . ولم يكن ثمّ شىء له أثره البالغ فى تبديد الأوهام الملكية مثل الموسيقى . ولذا فقد عنيت الملكة بأن يكون عندها خير العازفين والمغنين . واحتفظت بالمغنى الإيطالى المشهور « فارينللى » فى الحاشية طبيباً يداوى الملك . على أنه فى تلك اللحظة التى نتناولها بالحديث تسلط على عقل هذا البربونى الجليل الفطن وسواس فاق كل نظائره من قبل . وبعد نوبة طويلة قضاها الملك فى مرض لا حقيقة له استنفدت جميع ألحان «فارنيللى» وأعجزت ما بذلته فرقة القصر من عازفى الكمان بأكملها ، خطر للملك أن يسلم الروح وعد نفسه ميتاً حقًّا . ولم يكن هذا يضير أحدا ، بل كان مريحاً لكل من الملكة والحاشية أن يروه قد قنع بأن يبقى ساكناً سكون الأموات ، ولكن الشىء الذى ضايقهم هو إصراره على أن تقام له حفلات جنازية ، وأخذت حيرتهم البالغة تخرج بهم عن أطوارهم حين بدأ يصب عليهم اللعنات لإهمالهم دفنه وقلة احترامهم لأمره . ولكن ما العمل . فإن فى مخالفه أمر الملك الصريحة شىء جسيم فى أعين رجال الحاشية الخائنين المتزمتين فى تنفيذ أوامر القصر . ثم إن إطاعته ودفنه حيًّا سيكون قتلا للملك

لا شك فيه . وفى وسط تلك الورطة المزعجة جاءت الشائعة إلى القصر بأخبار تلك العازفة التى استهوت العقول فى كل الأندلس .

ووجهت الملكة الرسل على جناح السرعة لتدعوها إلى القديس « الدفونسو » حيث كان القصر الملكى فى ذلك الوقت . وبعد أيام قلائل وفيما كانت الملكة بين وصيفات الشرف تتريض فى تلك الحدائق العظيمة ، التى أريد بها أن تزرى بمباهج فرسايل بما فيها من سككها المظللة وعرائشها ونافوراتها ، قيدت العازفة البعيدة الصيت إلى حضرتها . وحملقت الامبراطورة اليصابات دهشة إلى هذا المحيا البرىء الممتلئ شباباً لتلك المخلوقة الصغيرة التى جن العالم بها . ولقد كانت فى لباس أندلسى بهيج ، وعودها الفضى فى يدها . وقفت فى تواضع مطرقة العينين ، ولكن فى جمال ساذج نضر لا يزال يدل على أنها وردة الحمراء . وكانت تصحبها كعادتها الدائمة الحذر «فريدوجندا» التى قصت قصة أصلها ونسبها كله على الملكة المتسائلة ، وإذا كانت اليصابات قد سرّها مطلع « خاسنتا » فقد كان سرورها أعظم حين علمت أنها من ذرية جديرة بالتقدير وإن كانت فقيرة ، وأن أباها قد مات مستبسلا فى سبيل التاج .

وقالت لها : إذا كانت قدرتك تكافئ شهرة أجدادك واستطعت أن تطردى تلك الروح الشريرة التى تتسلط على الملك فسأتولاك برعايتى وتقديرى وسيكون الثراء حليفك . ولم تصبر لتعمل ذكاءها بل أخذت سبيلها فى الحال إلى جناح الملك المهموم . ومضت «خاسنتا» مطرقة بين صفين من الحرس وحشد من رجال الحاشية . ووصلوا بها أخيراً إلى مخدع عظيم يجلله السواد . وكانت النوافذ مغلقة لتحجب ضوء النهار . وكانت هناك شموع صفراء فى مماسكها ينبعث منها نور كئيب يكشف فى غير وضوح عن أشباح صامتة فى سلاب . ونفر من رجال الحاشية ينسلون فى خطاً خرساء ووجوه قد غشاها الهم ، وفى وسط فراش الموت رقد الملك ، الراغب فى أن يدفن ، متمدداً ضمت يداه على صدره ، ولم يبد إلا عرنين أنفه . ودخلت الملكة المخدع فى صمت ، وأشارت إلى كرسى للأقدام فى ركن

مظلم وأومأت إليها أن تجلس عليه وتبدأ . ومست عودها أولابيدى مضطربة، ولكنها ما إن استردت اطمئنانها ونشاطها وهى تبدأ عزفها حتى بعثتها مزيجاً من أصوات عالية ناعمة، كان من الصعب على الحاضرين أن يصدقوا أنها من صنع البشر . أما عن الملك، الذى كان يظن أن نفسه فى عالم الأرواح، فقد حسبها من ألحان الملائكة أو موسيقى الأملاك .

وشيئاً فشيئاً أخذت الألحان تتلون. وانبعثت من قلبها أغنية خيالية منظومة تصحب العود وتروى أمجاد الحمراء القديمة ومآثر العرب، واندمجت بروحها كلها فى الغناء . فلقد كانت ذكريات الحمراء تتصل بحديث حبها . ودوى مخدع الموت بالألحان المنعشة للنفوس. ونفذت إلى قلب الملك الحزين، فرفع رأسه وتطلع فيما حوله، ثم جلس معتمداً على وسادته وبدأت عيناه تمضان وأخيراً وثب إلى الأرض وأرسل فى طلب سيفه وترسه. وكان نصر الموسيقى، أو بالأحرى العود السحرى، كاملاشاملا، وطرد عفريت الهم بعيداً، وكأن ميتاً قد بعث إلى الحياة وفتحت النوافذ وتدفقت أشعة شمس أسبانيا الرائعة البهية إلى مخدع الأموات الكئيب، وتلمست الأبصار الساحرة المحبوبة، ولكن العود كان قد زايل يديها وانطوت عليها الأرض لتظهر ثانية فى أحضان رويس .

وتمت زيجة العروسين السعيدين بعد ذلك فى حفل عظيم البهاء. ولكن صبراً فإن القارئ يتساءل وكيف تفسير هذا الإهمال الطويل؟ ولكن ذلك كله كان مرجعه إلى معارضة أبيه العجوز المتكبر الواقعى. هذا إلى أن الشبان الذين يحب بعضهم بعضاً حقاً سرعان ما تتفاهم قلوبهم ويدفنون آلام الماضى حين يلتقيان . ولكن كيف وافق أبوه المتكبر الواقعى على هذا الأمر؟ إنه ليكفى فى القضاء على وساوسه كلمة أو اثنتان إحداهما من الملكة خاصة، ولا سيما أنها غمرت محبوبة القصر اليانعة بالهبات والجوائز، هذا إلى أن عود «خاسنتا» كما تعلم يملك قوة سحرية ويستطيع أن يهيمن على أشد الرؤوس عناداً وأقسى القلوب صلابة . ولكن ماذا كان مصير العود السحرى؟ إن هذا لأعجب ما فى الأمر كله كما أنه يدل فى وضوح على صدق

القصة كلها . فقد بقى هذا العودمدة فى الأسرة،ولكنه سرق وحمله بعيداً فيما يظن المغنى العظيم «فاربنللى» لا يدفعه إلى ذلك إلا الغيرة. وعند موته انتقل إلى أيادى أخرى فى إيطاليا جهلوا سحره العجيب فأذابوا فضته . ونقلت أوتاره إلى ربابة قديمة . ولا تزال الأوتار تحتفظ بشيء من صفاتها . وإنى لأسرها فى أذن القارئ كلمة على أن يكتمها : إن هذه الربابة هى اليوم تسحر العالم كله . وليست إلا ربابة «بجانينى» .

الجندى المحنك

كان من بين معارفى العجيبين الذين عرفتهم فيما حول القلعة قائد شجاع عجوز مهدّم من المتقاعدين . وكان يعيش فى برج من تلك البروج العربية كما يعيش الصقر . وكان تاريخه،الذى كان مغرماً بقصه ، نسيجاً من تلك المغامرات والنكبات وصروف الدهر التى كثيراً ما تجعل حياة كل عين من أعيان أسبانيا تقريباً . وكأنها حياة « جيل بلاس » فى غرابة أطوارها واختلاف أحوالها . وقد كان فى أمريكا عند ما كان فى الثانية عشرة من عمره . ويعد لقاءه للقائد وشنجتن من أعظم الحوادث المتميزة السعيدة فى حياته . وقد شارك منذ ذلك الزمن فى جميع حروب بلاده . ويستطيع أن يحدثك عن خبرة عن معظم سجون شبه الجزيرة ومُطبقاتها . وقد فقد إحدى ساقيه وتعطلت كلتا يديه . وهكذا بدا مقطع الأوصال مضرس الجسم فأصبح كالأثر يمشى على الأرض،يشهد بما لقيت أسبانيا من ويلات ، يحمل عن كل حرب أو معركة ُندبة ، وكأنها حز وز السنين على شجرة « روبنسن كروزو» لكل عام منها حز .

على أن أسوأ ما لقيه هذا الفارس الباسل العجوز يتجلى فى قيادته على مالقة أثناء فترة من الثورة والاضطراب، نصّبه الأهالى فيها عليهم قائداً ليدفع عنهم الغزو الفرنسى . وقد جر عليه هذا شيئاً من الفروض الحقة التى على الحكومة

أن تنهض بها، والتى أخشى أنها سوف تستنفد جهده حتى يوم مماته : من كتابة ملتمسات وتقريرات رسمية وطبعها، هذا إلى بلبلة باله، ورُزئه فى ماله، وفى إثقال أصدقائه، فما زاره واحد منهم إلا واستمع إلى كتاب له مضن يستوعب نصف الساعة، وحمل معه فى جيبه الرسائل الست . على أن الحال كانت تجرى على هذا النحو فى جميع أنحاء أسبانيا . فأنىّ سرت تلتقى بشخص وجيه قد انتحى ناحية يفكر، وقد انطوى على هم ممض وظلم يعانيه . وإلى جانب هذا فإن الأسبانى الذى تكون له قضية أو حق قبل الحكومة، كان يمكن أن يعد نفسه ذا وظيفة بقية حياته. وقد زرت هذا الجندى المحنك فى مقامه من الجزء الأعلى من برج النبيذ . ولقد كانت غرفته صغيرة ولكنها أنيقة تطل على منظر جميل من المرج . وكانت مرتبة فى دقة عسكرية . قد عُلق إلى الجدار ثلاث بندقيات وطوق للغدارات وسيف وعصا جنباً إلى جنب، كلها تلمع وتتألق . ومن فوقها قبعتان بحافتين مرفوعتين . إحداهما للاستعراض وثانية للحياة العادية . وبالغرفة رف صغير للكتب يحوى ستة منها هى كل مكتبته . منها مجلد نال منه البلى والعفن قليلا، فيه مأثور من الحكم الفلسفية . كانت قراءته محببة إليه، وكان يقلب صفحاته ويمعن النظر فيه يوماً بعد يوم مطبقاً كل مثل على حاله الخاصة، طالما أن فيها أثارة من مرارة ناجعة وأنها تعالج جور الحياة، على أنه قد كان ألوفاً رحيم القلب . وإذا استطعت أن تصرفه عن أرزاء الحياة كان رفيقاً أنيساً . وإنى أميل إلى هؤلاء المسنين الذين عركتهم الأقدار، وأطرب وأستمتع بحكايات غزواتهم العنيفة . وفى طريقى لزيارة هذا المذكور علمت حقائق عجيبة عن قائد عسكرى عجوز كان قائداً للحصن، كان فيما يظهر يشبهه من بعض الوجوه، كما شاركه حظه فى الحروب . وازددت علماً بهذه الأمور الخاصة، وذلك مما كنت أستقيه من سكان المكان المسنين، ولا سيما والد « ماتيو اكيمنس » وهأنذا أسوق للقارئ من بين قصصه المتواترة واحدة قيمة عن بطل محبوب .

* * *

الحاكم والموثق

فى الأزمان الغابرة ، كان على الحمراء فارس عجوز باسل . وكان قد فقد إحدى ذراعيه فى الحرب ، فشاعت بين الناس تسميته بالحاكم «مانكو» أو ذو اليد الواحدة . وفى الحق لقد كان يعتز بنفسه جندياً قديماً حمل شاربين لواهما إلى عل حتى العينين وانتعل حذاءين من أحذية الحرب واتخذ سيفاً طليطلياً فى طول السفود ، يغمده فى غمده . وقد وضع منديلا فى جيبه . وكان فوق هذا مغرقاً فى الكبر ، مدققاً فى الرسميات ، متزمتاً غير مفرط فى استغلال امتيازاته وحقوقه . وفى مدة سلطانه كانت ما تتمتع به الحمراء ، على أنها مقام ملكى من أملاكه ، مرعية أشد رعاية وأدقها . فلم يُسمح لأحد بالدخول إلى القلعة بأسلحة نارية ، ولا حتى بسيف أو هراوة ، ما لم يكن من رتبة معينة . كما كان على كل فارس أن يترجل على الباب ويقود فرسه بلجامه . وكان تل الحمراء وهو ينهض فى الوسط تماماً من مدينة غرناطة يبدو فى مكانه وكأنه نتوء غريب فى العاصمة . فهو يسبب على الدوام شيئاً من المشاق حتى للقائد العام الذى يهيمن على الإقليم ، إذ هو كأنه دولة داخل دولة ومركز صغير مستقل فى قلب إقليمه نفسه .

ومما زاد الطين بلة فى الحال التى نحن بصددها هو ما اتصف به هذا الحاكم العجوز من غيرة حمقاء . فكان يهيج لأقل شىء يمس حقوقه أو سلطته الشرعية ، كما كان يهيجه مسلك هؤلاء المشردين العيارين من الناس الذين أخذوا على مر الأيام يحطون فى رحاب الحصن وكأنهم فى ملجأ أو معبد . ومن ثم احترفوا الاحتيال على حساب سكان المدينة الأمناء . وكان هناك نزاع مستمر وحزازات بين القائد العام والحاكم ، وكان أشدهما ضغناً ثانيهما . إذا أنه دائماً ما يكون أقل الجارين قدرة أعظمهما مراساً عن حقه . وكان قصر القائد العام الفخم يقوم فى الميدان الجديد عند سفح تل الحمراء مباشرة حيث الجلبة الدائمة

وحشود الحراس والخدم والموظفين المدنيين . وكانت القلعة شرفة بارزة تطل على القصر والميدان العام قبالتها. وفى هذه الشرفة كان الحاكم العجوز فى بعض الأحيان يخطر جيئة ورواحاً متقلداً سيفه إلى جانبه وعينه الحذرة لا تفتأ على منافسه كأنه الصقر يتطلع إلى طريدته من عشه على شجرة ذابلة . وهو كلما نزل إلى المدينة فى موكب كبير ، قد امتطى فرسه والحراس من حوله ، أو فى عربة فاخرة من طراز أسبانى قديم زَرِىّ بخشب محفور وجلد مموه بالذهب تجرها بغال ثمانية . إلى جانبها رجال يعدون على الأقدام وفرسان على ظهور الجياد رغلمان . وهو فى هذه المناسبات يخال نفسه وكأنه نائب عن الملك يحمل النظارة على هيبته وإكباره . إلا أن دهاة غرناطة ، ولا سيما هؤلاء الذين يتسكعون حول قصر القائد العام ، كانوا حريين بأن يستخفوا بهذا الموكب الصغير . ولما كان عليه رعاياه من طباع العيارين فقد كانوا يحيونه ملقبينه بملك الشحاذين . وكان من أعظم أسباب النزاع التى لا تهدأ بين هذين المتنافسين الباسلين ، هو هذا الحق الذى اصطنعه الحاكم لتعفى من الرسوم جميع الأشياء الخاصة به وبعسكره حين مرورها بالمدينة . ومكنت هذه الامتيازات الممنوحة شيئاً فشيئاً له من أن ينتعش التهريب انتعاشاً واسعاً . واتخذت عصبة من المهربين مكمنها من زربيات القلعة والكهوف التى لا تحصى فى جوارها ، وقاموا بأعمال مربحة بفضل تستر جنود حرسه عليهم .

وتنبه القائد العام ، فجمع إليه مستشاره ووكيل أعماله القانونى . وكان أريباً فضولياً موثقاً ، فوجدها فرصة يشفى فيها غليله بمعاكسة سيد الحمراء ويوقعه فى تيه من الدقائق القانونية . فنصح القائد العام أن يتمسك بحقه فى تفتيش كل ركب يمر خلال أبواب هذه المدينة ، وكتب له كتاباً طويلا فى الدفاع عن هذا الحق. وكان الحاكم «مانكو» جندياً عجوزاً نفاذاً لا يعرف المواربة ، يكره أى موثق أكثر مما يكره الشيطان ولا سيما هذا الذى هو أردأ الموثقين جميعاً فقال وهو يفتل شاربيه متنمراً : ما هذا؟ وهل خلّى القائد العام هذا الرجل صاحب القلم ليمرن على بلبلة بالى ؟ سوف أدعه يرى أن جندياً قديماً لن يعيا بعالم . فأمسك بقلمه

ودبج خطاباً صغيراً بيد مرتبكة أصر فيه على حقه فى المرور دون أن يتنزل بالدخول فى مناقشة . وصرح بانتقامه من أى ضابط لدار المكوس يضع أياديه الدنسة على أى ركب يحميه علم الحمراء . وبينما كانت هذه المسألة مُثارة بين هذين الحاكمين الحقيقيين حدث أن بغلة كانت محملة بإمدادات للقلعة وصلت ذات يوم عند باب الشنيل لتجتازه مخترقة ضاحية من ضواحى المدينة فى طريقها إلى الحمراء . وكان يرأس الركب شرطى شرس عجوز قضى فى خدمة الحاكم مدة طويلة . وكان رجلا يعمل وفق هواه، عبوساً قاطعاً كحد السيف . وعند ما اقتربوا من باب المدينة وضع الشرطى علم الحمراء فى حزام سرج البغلة ووقف على البغلة منتصب القامة تماماً وتقدم قدماً إلى الأمام ، ولكنه كان يرسل النظر شزراً شأن الكلب الشرس فى أرض العدو، مستعداً لأية قصفة أو دمدمة . وصاح الحارس على الباب : من يسير هناك ؟

فقال الشرطى دون أن يدير رأسه : جندى من جنود الحمراء .

فقال : وماذا معك ؟

فقال : مؤونة للعسكر .

فقال : تقدم .

وسار الشرطى فى طريقه قُدُماً يتبعه الركب . ولكنه لم يتقدم كثيراً حتى خرجت هاجمة عليه من مكتب صغير لمحصل المكوس قوة من ضباط دار المكوس. وصاح القائد: أيها المكارى. هناك قف وافتح حقائبك . ودار الشرطى ولبس شكة الحرب . وقال : احترم علم الحمراء . فإن هذه الأشياء للحاكم . فقال : تعساً للحاكم وتعساً لعلمه ! أيها المكارى أقول لك: قف . وقال الشرطى وقد رفع زناد بندقيته : إن وقوف الركب يعرضك للخطر . تقدم أيها المكارى. ونخس المكارى بغلته نخسة قوية. وتقدم ضباط بيت المكوس وأمسكوا برسَن البغلة . وعندئذ سدّد الجندى بندقيته وأرداه قتيلا .

وسرعان ما ثارت ثائرة السابلة فى الشارع . ثم قبض على الشرطى وقيد

مكبلا بالحديد إلى سجن المدينة ، بعد أن ذاق شتى العذاب من الركل بالرجل والصفع باليد والضرب بالعصى ، الشيء الذى يسرع إليه غوغاء أسبانيا عادة يسبقون به مدفوعين بشعورهم قبل أن ينال المجرم جزاءه على يد العدالة . على حين قد سُمح لرفاقه أن يتابعوا سيرهم فى ركبهم إلى الحمراء ، بعد أن فتشوا تفتيشاً دقيقاً . وفاض الغضب بالحاكم عندما سمع بهذه الإهانة التى لحقت العلم وأسر جنديه . ولبث حيناً يزمجر فى الردهات العربية ويرسل الأنفاس وهو يسير فى الشرفات ، وأطل من عل وهو يضطرم ويتوعد قصر القائد العام . وما أن نفس عن حنقه بتلك الثورة حتى أرسل رسالة يطلب فيها تسليم الجندى ، لأنه هو وحده الذى يملك حق محاكمة من يعملون تحت إمرته على ذنوبهم .

وأجابه القائد العام فى إسهاب مستعيناً بقلم موثقه ، الذى كان قرير العين بذلك ، مدللا على أنه بما أن الجرم قد وقع إلى جوار أسوار مدينته وعلى موظف من موظفيه المدنيين فمن البين أن هذا من خاص سلطانه الشرعى .

وأجاب الحاكم مكرراً الرجاء . ورد القائد العام فى إسهاب رزين وبراعة قانونية . وبينما أخذ الحاكم يزداد هياجاً وعناداً كان القائد العام يزداد هدوءاً وإسهاباً فى إجاباته ، حتى عج هذا الجندى العجوز الجرىء عجيج المحنك على إيقاعه فى ذلك الشرك شرك المجادلات القانونية . وفيما كان الموثق الحاذق يشبع رغبته على حساب هذا الحاكم أخذ يدبر محاكمة الجندى الذى زُج به فى مطبق ضيق من السجن ، ليس بها إلا شباك صغير بقضبان حديدية ، منه يطل الناس عليه وهو مكبل بالحديد أو يتقبل مواساة الأصدقاء . وعلى الطريقة الأسبانية تكدست شهادات الشهود التى اجتهد فى جمعها حتى أصبحت كالتل . واستطاع الموثق الذى لا يعرف الملل أن يضيق عليه الخناق تضيقاً تامًّا ، فأدين بتهمة القتل وحكم عليه بالإعدام شنقاً .

وكان عبثاً ما أرسله الحاكم من الحمراء من معارضة وتهديد . واقترب يوم القصاص . ووضع الشرطى فى كنيسة السجن ، كما هى العادة دائماً مع الجانين ،

فيوضعون هناك فى اليوم السابق للتنفيذ عساهم حين يفكرون فى دنو آجالهم يندمون على ما اقترفوا من آثام . وعزم الحاكم العجوز على أن يتولى الأمور بنفسه حين رأى الأشياء تقترب من نهايتها . ولهذا أمر بأن تعد عربته الرسمية، وجرت به فى سكةالحمراء المظللة ولها هزيم ، يحيط به حراسه إلىالمدينة ، وما أن وصل إلى منزل الموثق حتى دعاه إليه على الباب .

ووقدت عين الحاكم العجوز وقدة قطعة من فحم ، عند ما رأى رجل القانون الكيس يتقدم إليه باش الوجه ، وصاح به : ما هذا الذى سمعته من أنك على وشك أن تحكم بالموت على واحد من جنودى ؟

وقال الموثق وهو يهنف ويفرك يديه : كل شىء يجرى وفق القانون ، وعلى أدق صورة من صور العدل . وأستطيع أن أطلع سعادتك على أوراق الشهود المكتوبة فى هذه القضية .

وقال الحاكم : جىء بها إلى هنا . واندفع الموثق إلى مكتبه مغتبطاً بأن قد أتيحت له فرصة أخرى لإظهار مواهبه على حساب هذا العنيد الذى قد ضرسته الحروب .

ثم عاد إليه بقمطر مملوء بالأوراق وأخذ يقرأ إقراراً طويلا فى طلاقة لسان المحترفين . وعندها اجتمعت الجموع تصغى وقد مدت الأعناق وفغرت الأفواه .

وقال الحاكم : أرجوك أيها الرجل أن تصعد إلى عربتى ولنخلص من هذا الحشد المزعج . فإنه من الخير لى أن أسمعك . ودخل الموثق العربة . وفى غمضة عين أغلق الباب ، وفرقع الحوذى بسوطه ، فاندفعت البغال والعربة والحرس فى سرعة مجلبة مخلفين هذا الحشد فاغرى الأفواه فى دهشة . ولم يتوقف الحاكم حتى أودع فريسته فى مطبق من أمنع المطبقات فى الحمراء .

ومن ثم أرسل علماً من أعلام الهدنة بطريقة حربية ، عارضاً اتفاقاً لتبادل الأسيرين أو السجينين : الشرطى مقابل الموثق . وجرح هذا من كبرياء القائد العام فعاد يرفض فى قحة . وفى الحال أعد مشنقة طويلة متينة لتنصب فى وسط

الميدان الجديد لإعدام الشرطى .

وقال الحاكم مانكو : يا للعجب ! أهذا كل ما فى جعبته ؟ وأمر بأن تقام فى الحال مشنقة على حافة البرج الناتئ الذى يطل على الميدان . وقال فى رسالة له إلى القائد العام : الآن تستطيع أن تشنق الشرطى حينما تشاء . ولكن فى الوقت نفسه الذى سيتدلى فيه فى الميدان تطلع لترى موثقك يهبط من السماء . وكان القائد العام صلب العود لا يلين . فأخذت الفرق تُعرض فى الميدان والطبول تدق ، والجرس يصلصل. واجتمعت جماهير كثيفة من النظارة لترى مشهد القصاص ، وأخذ الحاكم من ناحية أخرى يعرض حرسه على البرج ، وبدأ برج الأجراس يدق للموثق نغمة الموت الحزينة .

واندفعت زوج الموثق بين الجمع . وفى أعقابها ذرية له صغار كلها ، ورمت نفسها على أقدام القائد العام وتضرعت إليه ألا يضحى بحياة زوجها ولا بهناءتها هى وصغارها لالشىء غير إرضاء كبريائه . وقالت له : فأنت تعلم حق العلم الحاكم العجوز . ومما لا شك فيه أنه سينفذ تهديده إذا شنقت الشرطى . ورق القائد العام لدموعها ونحيبها وصراخها لصغارها الزغب .

فأرسل الجندى إلى الحمراء فى لباس المشنقة محروساً وكأنه راهب بقلنسوته . ولكنه كان مرفوع الرأس رابط الجأش. وطلبوا بدله الموثق وفقاً لشروط الصلح . وأخرج هذا الرجل ، الذى كان من قبل حجة فى القانون جعجاعا ، من المطبق ميتاً أكثر منه حيًّا . وقد طارت عنه شعاعاً ذلاقته كلها وغروره ، ويقال إن شَعره كاد أن يحيله الرعب أشهب ، بادى الهم . مفزعاً كأنه لا يزال يشعر بالحبل حول رقبته . وألصق الحاكم العجوز ذراعه الوحيد بعجيزته ، وبعد هنيهة تفرس فيه بابتسامة باردة وقال : عليك من الآن أن تخفف أيها الصديق من غيرتك فى الإسراع بالآخرين إلى المشنقة ، كما عليك ألا تكون شديد الاطمئنان على نفسك حتى ولو كان القانون معك . وفوق كل هذا فخذ حذرك مرة أخرى وأنت تطبق ما تعلم على شرطى عجوز .

الحاكم مانكو الجندى

وعندما أسبغ الحاكم مانكو على الحمراء ذلك المظهر الحربى أصبح مضيقاً بتلك التهم المتصلة التى كانت تُصب على القلعة ، إذ أصبحت مأوى للمتشردين وقطاع الطرق . وفجأة صمم هذا العاهل العجوز على الإصلاح وقرر أن يعمل فى عزم ، فطهر مباءات العيارين وطردهم إلى خارج القلعة ، كما طرد الغجر من كهوفهم التى نقبت فى التلال المحيطة ، وأرسل جنوداً لتخفر السكك المظللة والممرات ، وأمرهم بأن يقبضوا على كل شخص تحوم حوله شبهة . وفى صبيحة يوم من أيام الصيف المشرقة فيما كانت فرقة من العسس : من هذا الشرطى العجوز الشرس ، الذى برز اسمه فى قضية الموثق ، ومُبوِّق وجنديان عاديان ، تجلس تحت سور جنة العريف إلى جانب الطريق الذى ينحدر من جبل الشمس ، سمعت وقع حوافر فرس ورجل يغنى فى صوت خشن ، ولكنه ذو ألحان موسيقية ، أغنية حربية قشتالية قديمة .

وفى الحال رأوا رفيقاً جلداً قد لفحته الشمس قد لبس حلة رثة من حلل مشاة الجنود ، وهو يقود فرساً عربيًّا قويًّا عليه تجافيف عربية قديمة ، ودهش الشرطى لمنظر هذا الجندى الغريب وهو يهبط من هذا الجبل الموحش وفرسه فى يده فوثب إليه ، فناداه متحدياً : من ذا الذى يسير هناك ؟ فقال : صديق . فقال : ومن تكون؟ ومن أنت ؟

فقال : جندى مسكين من جنود الحروب حقًّا محطم الرأس خاوى الوفاض ، وكان هذا جزاءه منها .

وعند ذلك كان يسيراً عليهم أن يشاهدوه أقرب ما يكون إليهم . وكان يشد جبهته برقعة سوداء زادت مع لحيته الشيباء من هيئة محياه جرأة أى جرأة ، على حين ألقى على الجميع ، بعين فيها حول قليل ، نظرة عارضة تدل على طبع

طيب. وبعد أن أجاب الجندى على أسئلة العسس بدا له أن يعتبر نفسه أهلا لأن يقف من الآخرين موقفهم منه فقال : هل يصح لى أن أسأل : ما هذه المدينة التى أراها على سفح التل ؟

وصاح البواق : أية مدينة ؟ تعال : ما أقبح ما تقول ! رفيق يطوف بجبل الشمس ويسأل عن اسم المدينة العظيمة مدينة غرناطة. غرناطة يا للعذراء ! أهذا ممكن ؟

وأجاب البواق : أو لم يدر بخلدك قط أن ما ترى هناك هو أبراج الحمراء ؟ وأجاب الغريب : أيها البواق ، لا تهزأ بى ، فإذا كانت هذه هى الحمراء حقاً ، فإن عندى أموراً غريبة أريد أن أطلع عليها الحاكم . وقال الشرطى : ستكون لديك الفرصة لذلك . وما علينا إلا أن نحملك إليه . وعندها أمسك البواق بسرج الفرس ، وأمسك كل من الجنديين العاديين بذراع الجندى . ومشى الشرطى أمامهم وقال لهم : هيا إلى الأمام . فمشوا إلى الحمراء .

ولفت انتباه جميع الكسالى بجوار القلعة منظر هذا الجندى الرث الثياب وهو يسير على أقدامه ومعه فرس عربى لطيف ، وقد أسرهما الشرطى. كما أنه لفت كذلك أنظار تلك الجماعات الثرثارة التى تجتمع عادة حول الآبار والنافورات فى الفجر المبكر . وفيما كان الشرطى يمر بغنيمته توقف دولاب الصهريج عن دورانه ، ووقفت الخادمة المتحشفة فاغرة الفم بجرتها فى يدها . وشيئاً فشيئاً تجمع صف من مختلف الناس خلف الحرس وبدءوا يومئون بالرءوس إيماءات العارف ويغمزون بالعيون يحدسون ويخمنون ، وقال بعضهم : إنه فار. وقال آخر : إنه من قطاع الطرق . وقال ثالث : إنه لص . حتى تأكد لهم أنه رئيس عصابة لصوص متهورة أسر بفضل بسالة الشرطى وعسسه .

وقال هؤلاء الطاعنون فى السن بعضهم لبعض : حسناً . حسناً . رئيساً أو غير رئيس . فليفلت من قبضة الحاكم العجوز مانكو إذا استطاع . وليس إلا بيد واحدة .

وكان الحاكم «مانكو» فى ردهة الحمراء الداخلية يتناول فنجالا من الشيكولاتة فى الصباح ، فى رفقة الأب الذى اعترف له . وكان راهبا سمينا من الفرنسسكيين ، من رهبان الدير المجاور . وكانت تقوم بخدمتهما ابنة مدير بيته ، وهى عذراء مالقية سوداء العينين رصينة .

وكان الناس يلمزون بأن هذه العذراء ، رغم ما تتظاهر به من حشمة ، ماكرة بشوش لعوب قد وجدت نقطة الضعف فى قلب الحاكم العجوز الحديدى فهيمنت عليه هيمنة تامة . ولكن فلندع هذا ، فليس لنا أن ندقق النظر تدقيقاً فى الشئون المنزلية لحكام العالم ذوى الجبروت . وعندما وصل النبأ بأن غريباً مشتبهاً فى أمره قبض عليه وهو يطوّف حول القلعة ، وهو الآن فى الغرفة الخارجية فى حراسة الشرطى ينتظر إذن سعادته . امتلأ صدر الحاكم كبراً وعظمة وناول فنجال الشيكولاتة لعذرائه الخفرة ، ثم طلب سيفه بجرابه وشده إلى جانبه وفتل شاربيه وجلس فى كرسى كبير عالى الظهر مصطنعاً الصرامة والعنف ، وأمر بإحضار السجين بين يديه . وجىء بالجندى وهو لا يزال محوطاً بآسريه وفى حراسة الشرطى . على أنه كان محتفظاً بمظهر الواثق بنفسه الثابت العزم . ورد على نظرة الحاكم الحادة الفاحصة بنظرة حولاء هينة لم يرتح لها قط هذا العاهل العجوز المتأنق . ثم قال الحاكم ، بعد أن صوب فيه النظر برهة فى صمت : إيه أيها المجرم ، وما عندك لتقوله دفاعاً عن نفسك ؟ ومن أنت ؟

جندى ، قد عاد تواً من الحروب . لم يخرج منها بشىء غير الجروح والكدمات .

جندى يا للغرابة ! يبدو من حلتك أنك من المشاة ! وأرى معك جواداً عربيًّا لطيفاً . أظن أنك جئت به أيضاً من الحروب كما جئت بالجراح والكدمات !

فقال : إذا تفضلت جنابك فعندى بعض الأخبار الغريبة عن هذا الجواد . وفى الحق إن لدى عجيبة من أعجب العجائب أحب أن أقصها عليك ، وهى أيضاً شىء يمس أمن هذه القلعة ، بل وأمن غرناطة كلها . ولكنه أمر لا يصح أن يلقى إلا فى أذنيك

أنت وحدك أو فى حضرة من هم محل ثقتك فقط . وفكر الحاكم برهة ثم أمر الشرطى ورجاله أن ينسحبوا على أن يقفوا خارج الباب على أهبة أن يُدعوا . ثم قال : أما هذا الراهب المقدس فهو راهب اعترافى . ثم أومأ برأسه إلى الوصيفة ، التى تلبثت وقد بدت على محياها دهشة عظيمة : وأما هذه العذراء فهى جد كتومة وحصيفة وإنى أثق بها فى كل شىء . وألقى الجندى على الوصيفة الخفرة نظرة ، لا هى شزراء ولا حولاء ، وقال : إنى حقًّا راغب فى بقاء هذه العذراء . وعند ما خرج سائر الموجودين بدأ الجندى يقص حكايته . وكان غلاماً طلق اللسان ذلقه ذا قدرة على القول فوق مايظن به ، فقال : حياك الله يا صاحب السعادة ، فأنا ، كما أشرت من قبل ، جندى قد شقيت بعض المشقة فى خدمتى ولكن نوبتى فى الخدمة العسكرية قد انتهت ، ومنذ مدة غير طويلة أطلق سراحى من الجيش فى بلد الوليد ، وخرجت أسعى على رجلى إلى موطنى فى الأندلس . وفى مساء أمس بينما كنت أخترق سهل قشتالة القديم العظيم المجدب كانت الشمس تميل نحو الغروب . وصاح الحاكم : صه ! ماذا تقول ؟ فقشتالة القديمة تبعد عن هنا بمائتين من الأميال أو ثلاثة . وأجاب الجندى فى هدوء : وليكن هذا ، ألم أخبر سعادتك بأن عندى أخباراً عجيبة سأقصها عليك ، ولكنها فى غرابتها لن تتجاوز الحقيقة ، كما سترى سعادتك إذا تفضلت فأصغيت إلى صابراً . وقال الحاكم وهو يفتل شاربه : استمر أيها المجرم . ووصل الجندى حديثه : وفيما كانت الشمس تغيب رميت ببصرى هنا وهناك أبحث عن مأوى أبيت فيه . ولكنى لم أر على مدى البصر أثراً لساكن ، ورأيت أنه لا بد لى من أن أتخذ من هذا السهل العارى مضجعى جاعلا من جعبتى وسادتى . وتعلم سعادتك ، وأنت جندى قديم ، أن إقامة ليلة كهذه ليست ذات مشقة عظيمة لمن تمرس بالحروب . وأومأ الحاكم برأسه موافقاً ، بينما كان يخرج المنديل من جرابه ليطرد بعيداً ذبابة كانت تطن حول أنفه . واستمر الجندى : حسناً ، فلأختصر قصتى الطويلة ، فقد دلفت قدماً أميالا عدة حتى وصلت إلى قنطرة فوق لهب عميق يجرى خلاله

مسيب من ماء أوشك أن يجف مع حرارة الصيف. وكان عند طرف من القنطرة برج عربى ، وكانت قمته العليا كلها متهدمة ، ولكن القبو الذى كان فى أساسه كان كاملا تماماً . وفكرت أن هنا مكاناً صالحاً لأعرج إليه ، ولذا فقد انحدرت إلى المجرى ، وشربت هنيئاً ، إذ كان الماء نقيًّا عذباً وكان العطش قد أيبس لسانى . ثم فتحت مزودى وأخرجت بصلة وقليلا من الخبز ، وكان هذا كل زادى. وجلست على صخرة على حافة المجرى وبدأت أتناول عشائى ، عازماً بعد ذلك على أن آوى ليلتى فى قبو البرج . ولعله كان المعسكر الرئيس لغاز راجع من القتال لتوه يا صاحب السعادة كما ترى وأنت المحارب القديم .

وقال الحاكم ، وهو يعيد منديل جيبه فى جراب سيفه : لقد بلوت أسوأ من ذلك فى أيامى غير برم به .

وتابع الجندى حديثه : فيما كنت أقضم خبزى ساكناً سمعت شيئاً يتحرك بالقرب من القبو فأصغيت فإذا هو وقع حوافر جواد . وشيئاً فشيئاً اقترب رجل من الباب أسفل البرج عن كثب من حافة الماء يقود جواداً قويًّا بلجامه . ولم أستطع أن أتبين من هو أو أتعرف عليه فى ضوء النجوم . ورابنى منظره وهو يتسكع بين خرائب البرج فى هذا المكان الموحش المنعزل . ولعله كان مجرد عابر سبيل مثلى ، أو قاطعاً من قطاع الطرق أو لصاً ، أو شيئا من هذا . وما على من ذلك ، والحمد والشكر على فقرى ، فلم يكن معى شىء لأفقده . ولذا فقد جلست هادئاً أقضم خبزى .

وقاد جواده إلى الماء أدنى ما يكون إلى مجلسى . ولذا فقد كان عندى فرصة طيبة لأستكشف أمره . وكم كانت دهشتى حين رأيته فى لباس عربى ودرع من الفولاذ وخوذة لامعة تميزتها من انعكاس النجوم عليها .

وكان جواده أيضاً عليه عدته العربية بركابات جليلة . وقد قاده كما قلت إلى جانب المجرى التى غمس فيها الحيوان رأسه حتى عينيه وأخذ يشرب حتى ظننت أن سينفجر . وقلت : أيها الرفيق ، إن جوادك يشرب مريئاً . وإنها

من العلامات الطيبة حين يغط الجواد خطمه فى شجاعة فى الماء .

وقال الغريب فى لهجة عربية : قد يشرب مريئاً ، فإنها لسنة كاملة منذ أن تناول آخر جرعة .

وقلت : يا للقديس ! هذه الدواب بل وهذه الجمال هى التى أراها فى إفريقية . ولكن إلىّ ، فإنه ليظهر لى أنك شبه جندى ، هل لك أن تجلس وتشارك جندياً مثلك فى زاده ؟ فقال : فى الحق إنى أشعر بحاجتى إلى رفيق فى هذا المكان المنعزل حتى ولو كان كافراً . هذا إلى جانب ما تعلمه سعادتك حق العلم من أن الجندى لا يهتم قط اهتماماً كثيراً بعقيدة رفيقه ، وأن الجنود فى جميع الممالك لرفاق فى السلم . وأومأ الحاكم برأسه ثانية علامة الموافقة : إيه . ثم قال : وعند ما كنت أتكلم دعوته ليقاسمنى عشائى كما هو ، إذ لم يكن فى استطاعتى أن أفعل دون هذا فيما يجرى به العرف من كرم الضيافة .

وقال هو : ليس لدى وقت لأنفقه فى سبيل لحم أو شراب ، فعلىّ أن أقوم برحلة طويلة قبل الصباح . فقلت له : وما وجهتك ؟

فقال : الأندلس .

وقلت : إنه هو هو طريقى ، وإذا كنت لم تشأ أن تتلبث وتأكل معى فلعلك تاركى أركب معك . وإنى أرى أن جوادك قوى البنية ، وإنى أراه كفيلا بأنه سيحمل اثنين .

وقال الجندى : حسناً . ولم يكن من اللائق ، ولا من شيم الجندية أن يرفض ، ولا سيما أنى عرضت عليه أن يقاسمنى عشائى . وعلى هذا فقد ركب وركبت خلفه .

وقال : تعلق بى جيداً فجوادى فى سرعة الريح .

قلت : هذا لا يزعجنى أبداً . وهكذا انطلقنا بعيداً .

وحالا انطلق الجواد من المشى إلى الركض ، ومن الركض إلى العدو ، وبعدها أخذ يرمح فى طيش وتهور ، وبدت الصخور والأشجار والمنازل وكل شىء كأنه

عجلة مضطربة خلفنا ؟

وقلت : ما هذه المدينة .

فقال : اشقوبية . وقبل أن يتم كلمته اختفت عن الأبصار أبراج اشقوبية وجزنا بجبال وادى الرملة ، ثم هبطنا إلى الأسكوريال ، ثم حاذينا أسوار مدريد ، ثم جزنا عبر سهول لامنشا .

وفى طريقنا هذا كنا نعلو فوق التلال ونهبط إلى الوهاد ، ونمر بالأبراج والمدن وهى تغط فى نوم عميق . ونعبر الجبال والسهول والأنهار وهى تمض فى ضوء النجوم .

ولأختصر حكايتى الطويلة حتى لا أتعب سعادتك . فقد وقف الفارس فجأة على جانب جبل وقال : إلى هنا انتهت رحلتك . فنظرت فيما حولى ولكنى لم أر أثراً لساكن ولم يكن هناك شىء غير مدخل كهف . وفيما أنا أنظر رأيت كثرة من الناس فى أكسية عربية ركباناً ومشاة ، كأنهم قد وصلوا على أجنحة الريح من الجهات الأربع ، يسرعون إلى مدخل الكهف وكأنهم النحل فى خليته . وقبل أن أتمكن من أن أسأل سؤالا غمز الفارس خاصرتى فرسه بمهمازيه العربيين الطويلين واندفع إلى الزحمة . فمررنا على طول طريق صبب ملتو ينحدر إلى صميم أحناء الجبل . وفيما نحن عجلون بدأ النور يشرق قليلا قليلا كإشراق الصباح أول ما يشرق .

واكننى لم أستطع أن أتميز علة ذلك . وأخذ النور يشتد شيئاً فشيئاً . وعندما استطعت أن أتميز كل شىء حولى ، رأيت . ونحن نمر على طول الطريق . كهوفاً عظيمة مفتوحة عن اليمين وعن الشمال وكأنها ردهات المسالح . وكان فى بعضها دروع وخوذات ودرقات ورماح وسيوف معلقة إلى الجدران ، كما كان فى بعضها الآخر أكوام أشبه شىء بالذخائر الحربية وعتاد المعسكرات ، موضوعة على الأرض . وإنه لشىء يسعد قلبك يا صاحب السعادة وأنت جندى قديم أن ترى مثل هذه العتاد الحربى العظيم . وكان فى كهوف أخرى صفوف طويلة من

الفرسان غارقون فى شكتهم إلى الأذقان، ورماحهم مشروعة وأعلامهم منشورة، وكلهم على أهبة الحرب، ولكنهم قد جلسوا جميعاً على سروجهم لا حراك بهم وكأنهم تماثيل كثيرة . وفى ردهات أخرى محاربون قد ناموا على الأرض إلى جوار خيلهم. ومشاة فى جماعات على أهبة أن يصطفوا . وكانوا كلهم فى هيئة عربية قديمة لباساً وسلاحاً . وبعد يا صاحب السعادة فإنى أجمل قصتى بالقول : فقد دخلنا أخيراً كهفاً عظيما. وأستطيع أن أقول: قصراً على هيئة مغارة تبدو جدرانها كأنها قد موهت بالذهب والفضة وتلألأت بالماس والياقوت الأزرق، وجميع أنواع الأحجار الكريمة . وفى النهاية العليا جلس ملك عربى على عرش ذهبى. وعلى جانبيه نبلاؤه وحرس من الإفريقيين السود بسيوف مسلولة . وكان الحشد الذى يتقاطر إلى الداخل فى اتصال. ويبلغ الآلاف والآلاف. يمر واحداً بعد واحد أمام العرش مقدمين فروض الولاء وهم يمرون . وكان بعض هؤلاء الجموع فى كسى فاخرة لاشية فيها ولا عيب تتلألأ بالجواهر . كما كان آخرون فى سلاحهم المصقول المحلى . بينما كان فريق آخر فى أكسية بالية متنخلة وسلاح كله متهشم متثلم قد علاه الصدأ . وكنت حتى ذلك الوقت قد حبست لسانى . إذ تعلم سعادتك . أنه ليس للجندى أن يسأل عن أشياء وهو يؤدى واجبه . ولكنى لم أستطع الصبر وقتاً طويلا، وقلت: أرجوك أيها الرفيق أن تحدثنى عما وراء هذا كله. وقال الفارس : هذا شىء عظيم وسر مخيف . فلتعلم أيها المسيحى أن هذا الذى تراه أمامك هو بلاط أبى عبد الله آخر ملوك غرناطة وجيشه .

وصحت : ما هذا الذى أخبرتنى به ؟ فلقد طرد أبو عبد الله وحاشيته من الأرض منذ مئات السنين وقد مات كلهم بإفريقية .

وأجاب العربى : إن هذا هو المكتوب فى أخباركم المكذوبة. ولكن فلتعلم أن أبا عبد الله والمحاربين الذين شاركوا فى الحرب الأخيرة من أجل غرناطة أغلقت عليهم جميعاً الجبال بقوة سحرية . أما عن الملك والجيش الذين خرجوا من غرناطة أيام ذلك التسليم فكانوا مجرد جمع خيالى من الأرواح والأطياف أجيز لها

أن تتقمص تلك الصور لتخدع ملوك النصارى. ولتدعنى أخبرك بما هو أكثر من ذلك أيها الصديق : إن أسبانيا كلها قطر خاضع لقوة سحرية، فليس هناك من كهف فى جبل، أو مرقبة منفردة فى السهول، أو قلعة خربة على التلول، إلا وفيها محاربون مسحورون نائمون أعماراً بعد أعمار فى رحاب أقبائها حتى تمحى الذنوب التى من أجلها شاء الله لهذه المملكة أن تخرج من أيدى المؤمنين إلى حين .

وهم يتحللون فى سحرهم مرة فى كل عام فى عشية عيد يوحنا المقدس، من مغرب الشمس إلى مشرقها ويجيزون إلى هنا ليجددوا ولاءهم لملكهم. وليست تلك الجموع التى رأيتها يعج عجيجها فى الكهوف إلا محاربون مسلحون جاءوا من مساكنهم من جميع أنحاء أسبانيا .

أما عنى فقد رأيت برج القنطرة المخرب فى قشتالة القديمة حيث أشتو وأصيف منذ مئات السنين وحيث يجب علىّ أن أعود مع مطلع الشمس .

وأما عن تلك الجيوش من الفرسان والمشاة التى رأيتها قد اصطفت فى لباس الحرب فى الكهوف المجاورة فإنهم محاربو غرناطة المسحورون . وإنه لمكتوب فى كتاب القدر أنه عندما تتحطم التعويذة فإن أبا عبد الله سينزل من الجبل على رأس جيشه ليسترد عرشه فى الحمراء وسلطانه فى غرناطة ويجمع معاً المحاربين المسحورين من جميع أنحاء أسبانيا ليغزو ثانية شبه الجزيرة ويردها إلى حكم المسلمين .

وقلت : ومتى سيحدث هذا ؟

قال : العلم عند الله وحده ، وإنا لنرجو أن يكون يوم الخلاص قريباً . وهناك يحكم الحمراء فى الوقت الحاضر حاكم حذر من الجنود القدامى المخلصين معروف حق المعرفة باسم الحاكم مانكو ، وإنى أخال أن أبا عبد الله وجنوده سيرضون البقاء فى أسلحتهم ما دام يتولى القيادة على المركز الأمامى نفسه مثل هذا المحارب ويقف مستعداً لصد أى هجوم من الجبل . وعند هذا نهض الحاكم منتصباً بعض الشىء وسوى سيفه وفتل شاربيه إلى أعلى ثم قال : ولا أطيل عليك حتى لا أتعب سعادتك. فعندما أخبرنى الفارس بهذا ترجل عن فرسه وقال : ابق

هنا وكن فى حراسة فرسى ريثما أذهب وأركع أمام أبى عبد الله . وما أن قال هذا هذا حتى أوسع الخطو مع ذلك الحشد الذى كان يتدافع قدماً إلى العرش .

وفكرت حينما خلوت بنفسى فيما سيحدث، وهل أنتظر حتى يعود هذا الكافر ويحملنى بعيداً على جواده السحرى إلى حيث يعلم الله . أو أنتهز أنا الفرصة وأتخلى عن صحبته المفزعة . ولكن سرعان ما يستقر الجندى على رأى كما تعلمون سعادتكم حق العلم . أما عن الجواد فهو ملك لعدو لا شك فى عدوانه للدين والدولة ، وهو وفق قوانين الحرب جزاء حلال . فعلوت الجواد معتمداً على ثفر السرج . وحركت اللجام . وغمزت جانبى الجواد بالركاب العربى وخليته يعمل جهده ليخرج من هذا الممر الذى دخل منه .

وفيما نحن نمر بالردهات، حيث جلس رسان المسلمين فى جيوش لا حراك بها، خيل لى أنى سمعت صليل السلاح ودمدمة أصوات عميقة ، فغمزت الجواد غمزة أخرى بالركاب وضاعفت سرعتى . وهنا سمعت خلفى صوتاً يشبه القصف المندفع ووقع حوافر آلاف الجياد، ولاحقنى جمع لا حصر له . وحملنى فرسى وأنا أستحثه وأدفعه قدماً من مدخل الكهف، بينما كانت الآلاف من تلك الأشباح تزحف من كل رجا من الأرجاء .

وفى تلك البلبلة والاضطراب وقعت إلى الأرض مغشياً علىّ ، وعند ما تنبهت وجدتنى راقداً على حافة تل وإلى جانبى وقف الفرس العربى . لأنى حين سقطت تعلق ذراعى باللجام فمنعه فيما أظن أن يتحرك راجعاً إلى قشتالة القديمة . ولعل سعادتك مدرك فى يسر كم كانت دهشتى حين نظرت حولى فرأيت وشائع من شجر الصبر والتين الهندى وأثاراً أخرى من آثار الأقاليم الجنوبية، وأن أرى مدينة عظيمة أسفل منى بأبراجها وقصورها وكاتدرائيتها العظيمة .

فهبطت من التل فى حذر أقود فرسى ، إذ كنت خائفاً أن أمتطيه ثانية فيمكر بى مكرة يلقينى بها عن ظهره . وعندما هبطت التقيت بعسسكم الذين وقفونى على السر ، وأن هذه التى أرى غرناطة، وأننى أنا حقاً أمام أسوار الحمراء

قلعة الحاكم المهيب مانكو ، مثير الرعب فى قلوب المسلمين المسحورين .

وعند ما سمعت هذا عزمت فى الحال أن أبحث عن سعادتك لأقفك على كل ما رأيت . ولأحذرك الأخطار المحدقة ، وأدع لك ما قد تراه مع الزمن لحراسة قلعتك والمملكة نفسها من هذا الجيش الذى يكمن فى صميم البلاد . وقال الحاكم : أرجوك أيها الصديق ، أنت أيها المحارب المضرس ، ويامن لك خبرة كثيرة ، أن تشير علىّ بما أتبعه لأمنع هذا الخطر .

وقال الغلام فى تواضع : إنه ليس اوضيع فى مثل حالى أن يحاول إرشاد قائد له مثل فطنة سعادتك . ولكن يبدو لى أن على سعادتكم أن تسد كل هذه الكهوف التى فى الجبال ومداخلها سداً منيعاً محكماً حتى يصبح أبو عبد الله وجيشه وقد أغلق عليهم مسكنهم فى جوف الأرض . وأضاف الجندى منحنياً للراهب فى احترام مصلباً على نفسه فى خشوع : وإذا تفضل الأب المقدس أيضاً أن يبارك هذه المتاريس ويضع عليها قليلا من الصلبان وتماثيل القديسين وصورهم فإنى أظن أنها ستقاوم كل قوى الكفار السحرية . وقال الراهب : إنها من غير شك ستكون ذات فائدة عظيمة . وهنا ألصق الحاكم ذراعه بعجيزته ويده على غمد سيفه ، وتفرس الجندى بعينيه . وأخذ يهز رأسه فى رفق من جانب إلى جانب ، وقال : إذاً أيها الصديق فأنت تفترض حقاً أنى أخدع بهذه القصة الخرافية عن الجبال المسحورة والعرب المسحورين ! لعنة الله عليك أيها المجرم . لا أحب أن أسمع كلمة أخرى منك . قد تكون جندياً قديماً ولكنك فى حضرة جندى أقدم منك تناوبته الأحداث . وليس من السهل أن تتفوق عليه . أيها الحرس هناك . ضعوا هذا الرفيق فى الحديد . وهمت الوصيفة المتحشمة أن تقول كلمة تدافع بها عن السجين ، ولكن الحاكم أومأ إليها . فسكتت . وبينما هم يجرون الجندى . شعر أحد الجنود بشىء ضخم فى جيبه . فأخرجه فوجده كيساً من الجلد طويلا يبدو كأنه ملىء ملئا ، فأمسكه من ناحية وأفرغ ما فيه على المنضدة أمام الحاكم . ولم تزخر حقيبة لص أبداً بما زخرت به هذه . فقد هبط منها خواتم وجواهر وعقود من اللآلىء .

وصلبان متألقة من الماس وكثرة من النقود الذهبية القديمة ، وقد سقط بعضها يرن على الأرض وتدحرج إلى أطراف الغرفة بعيدا . وتلبثت وظيفة العدالة حيناً ، فقدأخذ القوم يناوش بعضهم بعضاً ومن جراء القطع المتلألئة. وكان الحاكم وحده ، المطبوع على الكبرياء الأسبانى الحق ، هو الذى احتفظ بجليل وقاره . ولكن عينيه خانتاه فبدوتا فى شىء من القلق إلى أن ردت آخر قطعة من النقود والجواهر إلى الكيس . ولم يكن الراهب كذلك هادئاً ، فقد كان وجهه متوهجاً كأنه تنور ولمعت عيناه وبرقت عند رؤية المسبحات والصلبان . وصاح : إنك دنس مجرم ! من أية كنيسة أو معبد سلبت هذه المخلفات المقدسة؟ فقال : لا هذه ولا تلك أيها الأب المقدس ، وإذا صح أن هذه غنائم الكنائس فلابد أن تكون قد سلبت على مرات منذ زمن قديم على يد ذلك الفارس الكافر الذى ذكرته . ولقد كنت على أن أخبر سعادته لولا أن قاطعنى . فإنى حين استوليت على جواد هذا الفارس استوليت على كيس من الجلد كان معلقاً فى قربوس السرج ، وقد ظننت أنه يحتوى على أسلابه أيام غزواته القديمة حينما استولى العرب على البلاد . فقال : حسناً جداً . والآن فلنر رأيك أين تجعل مقرك فى غرفة من غرف البرج القرمزى . الذى وإن لم يكن تحت تأثير سحرى فستكون فيه آمناً أمنك فى أى كهف من الكهوف العربية المسحورة . فقال السجين فى رباطة جأش : تستطيع سعادتكم أن تفعل ما تراه جميلا وإنى سوف أشكر لك أى تأهيل ألقاه فى القلعة . وإن الجندى الذى عانى الحروب كما تعلم سعادتك حقاً . لا يُعنى أين يقيم . فإذا ما هيأت لى مطبقاً مريحاً وطعاماً منظماً فسأعود نفسى الأنس به .

وكل ما أرجوه أنك وأنت تعنى بى هذه العناية عليك أن تلقى بالا لتملقك وأن تفكر فى ملاحظتى التى سقتها عن سد مداخل الجبال . وانتهى الموقف وقيد السجين إلى مطبق حصين فى البرج القرمزى . كما قيد الفرس العربى إلى اصطبل سعادته . وأودع كيس الفارس فى صندوق سعادته المكين . وأما عن هذا الكيس ففى الحق إن الراهب ساوره بعض الشك ، وأخذ يسأل لم لا توضع هذه الآثار

المقدسة في حراسة الكنيسة حيث قد اتضح أنها أسلاب كنيسة . ولكن حزم المحافظ في الأمر وسيادته المطلقة على الحمراء جعلا الراهب يكف عن المناقشة بلباقة، وإن كان قد صمم على أن يحمل أنباء الحقيقة إلى رؤساء الكنيسة في غرناطة. ولتفسير هذه الإجراءات الصارمة من جانب الحاكم مانكو فمن الملائم أن نلاحظ أنه في هذا الوقت كانت جبال البشرات المجاورة لغرناطة يهدد الأمن فيها تهديداً مروعاً عصابة من اللصوص، يرأسها لص جسور يدعى «مانويل بوراسكو » وكان من عادته أن يجوس خلال الديار ، كما كان يدخل إلى المدينة متنكراً في هيئات مختلفة ، ليتسقط أنباء القوافل الراحلة بالتجارة ، أو المسافرين ذوي الأكياس المليئة، فيراقبهم ويكمن لهم في الممرات البعيدة المنعزلة من الطريق .

وقد نبهت هذه الاعتداءات المتكررة الجريئة الحكومة فأصدرت أوامرها إلى قواد المراكز المختلفة ليتيقظوا وليضربوا على أيدي كل المتسكعين المشتبه فيهم . وكان الحاكم مانكو بنوع خاص غيوراً بسبب ما وصمت به قلعته من مختلف الشائبات، ولذا فقد أكد أنه قبض على بعض أفراد هذه العصابة المخيفة المستهترة . وفي الوقت نفسه شاعت القصة وأصبحت حديث الناس، لا في القلعة فقط بل في غرناطة كلها . وقيل إن اللص المشهور « مانويل بوراسكو » مبعث الرعب في البشرات، قد وقع في قبضة الحاكم العجوز مانكو، وأنه أودعه مطبقا في البرج القرمزي، وخف كل من سُلب شيئاً ليتعرف على هذا النهاب . والبرج القرمزي، كما هو معروف حق المعرفة، يقع ناحية من الحمراء على تل صنو، يفصله عن الحصن الرئيس لهب تمر أسفل منه السكة المظللة الرئيسة، وليس له أسوار خارجية ولكن له حارساً يقف أمام البرج . وكان شباك الحجرة التي حبس فيها الجندي محكماً بالحديد إحكاماً، ويطل على ميدان صغير . وهنا اجتمعت الحشود العظيمة من غرناطة، جاءت لتنظر إليه وكأنهم ينظرون إلى ضبع مضحكة مهنفة في قفص الوحوش .

على أنه لم يستطع أي إنسان أن يتعرفه على أنه « مانويل بوراسكو » لأن هذا

اللص المخيف كان مشهوراً بسحنته الشرسة، ولم يكن له مطلقاً هذا الطبع الطيب لهذا السجين الأحول . ولم يأت الزائرون من المدينة فقط بل من جميع نواحى المملكة ولكن لم يعرفه أى إنسان . فبدأ الشك يتطرق إلى أذهان عامة الناس حيث لم تكن القصة فيها جانب من الحقيقة . وأما أبو عبد الله وجيشه المحبوس فى الجبل فهى قصة قديمة سمعها كثير من السكان الأقدمين عن آبائهم، وذهبت إلى جبال الشمس — أو بالأحرى جبال هيلانة المقدسة — جموع عديدة للبحث عن الكهف الذى ذكره الجندى ونظروا ولاوصوا فى حفرة عميقة مظلمة تغوص فى الجبل إلى غور لا يعلم أحد مداه، ولا تزال هناك حتى اليوم المدخل الخرافى إلى مقام أبى عبد الله تحت الأرض . وشيئاً فشيئاً ذاعت شهرة هذا الجندى بين عامة الشعب، فنهاب الجبال فى أسبانيا لا تعاب عليه سيرته مطلقاً، شأن أى لص فى بلد آخر، بل هى على العكس من ذلك نوع من الفروسية الشخصية عند الطبقات الدنيا منهم . ثم إنهم أيضاً قد دأبوا على مناوأة حكامهم والتندر بهم . وبدأ الكثيرون يهمسون بالإجراءات الباطشة للحاكم العجوز مانكو، وينظرون إلى السجين نظرتهم إلى الشهيد . وفوق هذا فقد كان الجندى رفيقاً مرحاً ماجناً . حتى إنه كان يفاكه أى إنسان يقترب من نافذته، ويلطف الحديث مع أية امرأة . وحصل أيضاً على قيثارة قديمة، فكان يجلس إلى نافذته ويغنى المواويل ومقطوعات الحب يسر بها النساء فى الأحياء المجاورة، اللائى كن يجتمعن فى الميدان مع الأمسيات ويرقصن رقصات أسبانية على نغمات موسيقاه . وبعد أن سوى من لحيته الخشنة ووجهه الملفوح أصبح مقبولا فى أعين الحسناوات . وقد صرحت وصيفة الحاكم المتحشمة أن هذا الأحول فيه سحر لا يقاوم .

وأبدت هذه العذراء الرحيمة القلب لأول وهلة عاطفة عميقة لمصيره، وقد حاولت عبثاً أن تهدئ الحاكم ، فبدأت تعمل من جانبها على أن تخفف عليه من قسوة معاملته إياه . فكانت فى كل يوم تحضر للسجين شيئاً من الفتات الذى يتساقط من مائدة الحاكم ، أو مما تختلسه من مؤونته ؛ ومن حين إلى حين

كانت تحمل معها زجاجة من النبيذ المالقى المختار تغريه بها . وبينما كانت هذه الخيانة التافهة تجرى فى قلب قلعة الحاكم نفسها كانت هناك حرب صريحة تدبر له بين أعدائه فى الخارج ، فإن مسألة حقيبة الذهب والجواهر التى وجدت مع شخص ظُن أنه لص تناقلها الناس فى غرناطة وبالغوا فيها . وسرعان ما وجه إليه الحاكم العتيد منافسه القائد العام سؤالا عن السلطة الشرعية فى الإقليم . فهو يصر على أن السجين قد قبض عليه خارج تخوم الحمراء وفى منطقة نفوذه . وعلى هذا فقد طالب بتسليمه وبالأسلاب التى كانت معه . ولذلك نقل الراهب المعلومات الضرورية إلى كبير قضاة التفتيش عن الصلبان والمسبحات والآثار والنفائس الأخرى التى كانت فى الحقيبة ، فطالب بالمجرم لأنه أجرم بانتهاكه حرمة المعابد . وأصر على أن ما سلبه من حق الكنيسة ، وأن بدنه أصبح للكنيسة تقول فيه كلمتها . واستحكم الخصام وهاج الحاكم وأقسم أنه لن يسلم أسيره حتى يشنقه إلى جانب الحمراء ، على أنه جاسوس قبض عليه فى حدود القلعة . وهدد القائد العام بأنه سيرسل جماعة من الجنود ليحملوا السجين من البرج القرمزى إلى المدينة . وكان كبير قضاة التفتيش يميل هو الآخر إلى إرسال نفر من خدام المجمع المقدس . وفى ساعة متأخرة من الليل نمى إلى الحاكم خبر هذه المكايد فقال : فليأتوا ، فسيجدوننى سباقاً إليهم . فعلى من يريد أن يأخذ جندياً عجوزاً على غرة أن ينهض إليه مبكراً متأهباً .

ولهذا أصدر أوامره بأن ينقل السجين مع بزوغ الفجر إلى السجن الذى بداخل أسوار الحمراء . ثم قال لوصيفته المتحشمة : وأنت يا طفلتى ، اسمعى ، انقرى على بابى وأيقظينى قبل أن تصيح الديكة حتى أستطيع أن أعالج الأمر بنفسى . وبزغ النهار وصاح الديك ولكن لم يطرق إنسان على باب الحاكم . وارتفعت الشمس فوق قمم الجبال وتألقت على زجاج نوافذه ، وقبل أن يوقظ الحاكم من أحلام الصباح وخف إليه الشرطى المحنك الذى وقف أمامه وقد غشى الفزع وجهه الكالح . وصاح وهو يلهث : لقد ولى ، لقد ذهب . فقال : من ذا الذى ولى؟ من ذا الذى ذهب ؟

فقال الشرطى : اللص ، الشيطان . فقد علمت كل شيء . فمطبقه خال ، ولكن الباب مغلق ولا يعرف أحد كيف هرب منه . فقال : ومن هو آخر من رآه ؟ فقال : وصيفتك ، فقد أحضرت إليه العشاء ، فلتدعها إلى هنا حالاً . وجد هنا إشكال آخر ، فقد كان مخدع العذراء المتحشمة هو الآخر فارغاً ، ولم يستخدم فراشها لنوم . ومما لا شك فيه أنها ذهبت مع المجرم ، فقد رئيت منذ أيام مضت تتحدث إليه كثيراً . وقد أصابت هذه الأشياء من الحاكم العجوز موضعاً ضعيفاً ، ولكنه لم يكن لديه وقت ليهتم بها . فقد طالعه سوء الحظ بجديد ، فعند ما ذهب إلى غرفته وجد صندوقه المكين مفتوحاً وكيس الفارس الجلدى مختلساً واختلست معه حقيبتان مليئتان بنقود ذهبية أسبانية قديمة . ولكن كيف نجا الهاربون وأى طريق سلكوا ؟ وقد صرح فلاح عجوز يسكن كوخاً على جانب الطريق المؤدى إلى الجبل أنه سمع وقع حوافر جواد قوى قبل بزوغ النهار يمر بين الجبال . فأطل من شباكه وتسنى له فى جهد أن يتميز فارساً وقد جلست خلفه امرأة . وصاح الحاكم مانكو : ابحثو فى الاصطبلات . وفتشت الاصطبلات فوجدت فيها جميع الخيل فى مرابطها غير الفرس العربى ، ووجدت فى مكانه عصاً كبيرة قد ربطت فى المزود وعليها رقعة تحمل هذه الكلمات : هدية من جندى عجوز إلى الحاكم مانكو .

* * *

قصة
التمثالين الأريبين

فى يوم من الأيام كان يعيش فى جنـــاح خرب من أجنحة الحمراء رفيق صغير مرح يدعى « اوب سانس » وكان بستانياً له رشاقة أهل الجنوب ومرحهم ، يغنى طيلة يومه ، وكان حياة القلعة وروحها . وعند ما ينتهى من عمله كان يجلس على مقعد من تلك المقاعد الحجرية فى الساحة ويلعب على قيثارته ويغنى مقطوعات طويلة حول « السيد » و « برناردو » صاحب « كاربيو »

وفرناندو صاحب « بلجار » وأبطال آخرين من الأسبان . يسرى بذلك عن جنود القلعة المسنين ، وربما عزف لحناً أشد مرحاً وأخذ البنات من حوله يرقصن رقصات اسبانية مختلفة مع الصنج . وكان للوب سانخس ، كما لكثير غيره من الرجال القميئين ، زوجة فارعة وسيمة تكاد تضعه فى جيبها ، ولكنه حرم نصيب الرجل العادى المسكين ، فبدلاً من أن يرزق عشيرة من الأولاد كان له ولد واحد. ولم تكن غير طفلة فى الثانية عشرة من عمرها ، لها عينان سوداوان قليلاً . وكانت تدعى « سانشيكا » وكانت مثله مرحاً وبهجة قلب ، وكانت تلعب من حوله وهو يعمل فى الحديقة ، وترقص على نغمات قيثارته حين يأوى إلى الظل . وتجرى نافرة كأنها خشف صغير فى الحرجات والضروب وردهات الحمراء الخربات .
وحلت أمسية يوحنا المبارك حيث خرج ثرثارو الحمراء ، الذين يمرحون بها فى الإجازات ، من الرجال والنساء والأطفال صعدا ليلة إلى جبل الشمس الذى يعلو فوق جنة العريف ليقضوا ليالى الصيف الساهرة فوق قمته المنبسطة ، وكانت ليلة قمراء زاهية بدت فيها الجبال كلها شهباء فضية وهجعت المدينة أسفل منها بقبابها ومسلاتها فى الظلال ، وبدا المرج كأنه الأرض المسحورة بمجاربه المعمورة بالجِنة ، يمض بين حرجاته المغبشة . وفى أعلى مكان من الجبل قد أشعلوا النار ، التى جروا على إشعالها وفقاً لعادة قديمة فى البلاد انحدرت إليهم عن العرب . وهنا وهناك فى جنبات المرج وعلى طول ثنيات الجبال يحيى سكان البلاد المجاورة مثل هذه السهرات ويوقدون مثل هذه النار التى تتأجج باهتة فى نور القمر . وقضوا الليل فى حبور راقصين على نغمات قيثارة « لوب سانخز » الذى لم يكن يسر قط سروره بإجازة مرحة من هذا النوع . وفيما كانوا آخذين فى الرقص كانت الصغيرة « سانشيتا » تلعب مع بعض رفيقاتها بين خرائب حصن عربى قديم فوق قمة الجبل . وبينما هن يجمعن الحصا فى حفرة وجدت يداً صغيرة من الكهرمان عجيبة النحت أصابعها مطبقة وقد انثنت الإبهام فوقها ثنياً محكماً . فجرت إلى أمها بما أصابت وقد ملأها السرور بلقيتها . وسرعان ما أصبح الأمر موضوعاً لتأمل العقلاء ، ونظر إليه

بعضهم فى ريبة مبعثها الخرافات ، وقالت إحداهن : اقذفيه بعيداً . إنها يد عربى يتصل بها الأذى وفى طياتها السحر . وقالت الأخرى : لن يمكنك أن تستبدلى بها أبداً شيئاً من محال الجواهر فى حى السقاطين .

وفيما هن وقد احتدم النقاش بينهن اقترب منهن جندى أسمر . كان يخدم فى إفريقية وكان فى اون العرب شبهة ، وخبر اليد بعين بصيرة ثم قال : لقد رأيت أشياء من هذا النوع بين بربر المغرب وإنها ذات أثر عظيم عليك أن تحتفظى فى دفع الحسد وجميع أنواع التعاويذ والرقى . ولك أن تسر أيها الصديق لوب فهذه تنبىء بالحظ السعيد لابنتك . وعند ما سمعت ذلك امرأة « لوب سانخز » ربطت اليد الصغيرة الكهرمانية فى شريط وعلقته حول رقبة ابنتها .

وكان منظر هذا الطلسم مثار كل التخيلات الخرافية السعيدة عن العرب . فهجروا الرقص وجلسوا جماعات على الأرض يقصون القصص القديمة الخرافية التى لقنوها عن أسلافهم . وكان بعض هذه القصص يدور حول عجائب ذلك الجبل نفسه ، الذى كانوا عليه يجلسون والذى كان إقليماً مشهوراً بمردته. وقصت عجوز دردبيس قصة طويلة عن القصور التى تنطوى عليها الأرض فى أحناء ذاك الجبل ، حيث أبو عبد الله وحاشيته قد بقوا فيما يقال مسحورين . وقالت . مشيرة إلى بعض جدران متهدمة وأكمات من التراب على مسافة بعيدة من الجبل : بين تلك الخرائب حفرة عميقة مظلمة تنزل إلى الصميم من جوف الجبل ولا يمكننى أن أنظر فيها ولو أعطيت كل نقود غرناطة . وذات مرة كان رجل مسكين من الحمراء يرعى عنزاته فوق هذا الجبل فهبط فى تلك الحفرة متشبثاً بالجدران وراء جدى سقط فيها . ولكنه خرج منها مهتاجاً شاخص البصر ، وأخذ يقص أشياء مما قد رأى ، حتى ظن كل واحد أنه قد أصيب بخبل ، وأخذ يهذى يوماً أو يومين بالعرب العفاريت الذين طاردوه فى الكهف ، وكان من الصعب إقناعه ليعود بعنزاته إلى الجبل مرة ثانية . وقد اقتنع أخيراً. ولكن يا له من رجل مسكين ، فإنه لم يعد من الجبل ثانية . ووجد الجيران عنزاته ترعى حول الخرائب العربية ، وقبعته وعباءته موضوعتان قرب

فم الحفرة . ولكنه لم يعد يسمع له حس . وكانت الصغيرة « سانشيكا » تصغي إلى القصة مبهورة . فلقد كانت ذات طبيعة عجيبة ، وأحست فى الحال بلهفة عظيمة إلى النظر فى هذه الحفرة الخطرة . وانسلت بعيدا من بين رفيقاتها وأخذت تبحث بين الخرائب البعيدة ، وبعد أن طوفت بعض الوقت بينها انتهت إلى حفرة أو حوض قريب من حافة الجبل - حيث ينحدر فى صبب إلى وادى حدرة . وفى وسط هذا الحوض ينفتح فم الحفرة - وخاطرت سانشيكا حتى وصلت إلى حافتها ونظرت فيها . فكان كل شيء أسود كالقطران ويدل على عمق لاقرار له . وجرى دمها بارداً ثم تراجعت . ثم نظرت ثانية . ثم همت أن تجرى بعيداً ، ثم ألقت نظرة أخرى . فلقد كانت أشد الأشياء تفزيعاً أحبها إلى نفسها . وأخيراً دحرجت حجراً كبيراً ودفعته إلى الحافة . وبعد فترة من الزمن سقط فى هدوء ، ثم اصطدم ببعض الصخور الناتئة فى دهدهة عنيفة - ثم أخذ يرتطم من جنب إلى جنب فى دمدمة وتدهور وفى صوت يشبه الرعد حتى ارتطم أخيراً بالماء - عميقاً - عميقاً ، ثم عاد كل شيء ساكناً كما كان . على أن السكون لم يستمر طويلاً . فقد بدا وكأن شيئاً أخذ يستيقظ داخل تلك الهاوية الموحشة ، فأخذ ينبعث من الحفرة رويداً رويداً صوت مدمدم وكأنه دوى خلية النحل وطنينها - وارتفع شيئاً فشيئاً - حتى اضطربت الأصوات وكأنها تصدر عن جمع بعيد - تصحبها قعقعة خافتة - ودقات الصنج وضرب الطبول - وكأنه جيش يسير إلى معركة فى أحناء الجبل نفسها . وتراجعت الطفلة فى رهبة خاشعة وأسرعت راجعة إلى حيث خلفت والديها ورفاقهم ، فوجدتهم كلهم قد رحلوا - والنار المقدسة قد خمدت . وتلك الضفائر الأخيرة من دخانها تماوج مصعدة فى ضوء القمر - وكذلك تلك النيران البعيدة التى كانت مشتعلة على طول الجبال وفى المرج خمدت كلها - وبدا كل شيء وكأنه قد أخلد إلى الراحة . ونادت سانشيكا أبويها وبعضاً من رفيقاتها بأسمائهم - ولكنها لم تتلق جواباً ، وجرت هابطة على جانب الجبل محاذية حدائق جنة العريف حتى وصلت إلى طريق الأشجار الذى يؤدى إلى الحمراء . وعند ما جلست على مقعد خشبى منعزل

لتسترد أنفاسها كان جرس مرقبة الحمراء يؤذن بانتصاف الليل. وكان السكون العميق مخيماً كأن الطبيعة كلها فى سبات، اللهم إلا جَرْس صوت منخفض يبعثه مجرى من الماء غير منظور يجرى تحت ظلال الشجيرات. و دهدهها نسيم الجو العليل فأحست النوم. لولا أن وقعت عينها على شىء يبرق من بعيد. وكم كانت دهشتها حين رأت موكباً طويلاً من المحاربين العرب ينصبون من جانب الجبل وعلى طول الطرق المورقة، بعضهم فى سلاحه بحربته ودرعه. وآخرون بسيوفهم وفؤوس الحرب، ودرقاتهم تلمع تحت أشعة القمر. وكانت الجياد تخطر معجبة وتعض على شكائمها. ولم يسمع لوقع حوافرها صوت كما لو كانت قد انتعلت باللباد. وقد علت وجوه الفرسان جميعاً صفرة كصفرة الموت. وركبت بينهم سيدة حسناء متوجة الرأس قد ضفرت خصائل شعرها الذهبية بأسلاك لؤلئية. وكانت أكسية فرسها الأبيض من الحمل القرمزى موشاة بالذهب وعيناه مطرقتان إلى الأرض لا تتحولان. وفى إثرهم صف من الحاشية قد لبسوا فاخر اللباس من أردية وعمائم مختلفة الألوان. وفى وسطهم ركب الملك أبو عبد الله الصبى على جواد صافى اللون، وعليه عباءة ملكية موشاة بالجواهر وتاج يتلألأ بماسة. وقد عرفته الصغيرة «سانشيكا» بلحيته الصفراء وشبهه بصورته التى كثيراً ما رأتها فى ردهة الصور بجنة العريف. فتطلعت معجبة مندهشة لهذا المهرجان الملكى وهو يمر متألقاً بين الأشجار. ومع أنها كانت تعلم أن هؤلاء الحكام وهذه الحاشية وتلكم المحاربين، فى هذا الصفرة البالغة وذلك الصمت العميق، لم يكونوا خلائق مألوفة ولكنهم أشياء خيالية مسحورة. فقد نظرت إليهم مع ذلك بقلب لم يرع. وقد استمدت مثل هذه الشجاعة من ذلك الطلسم العجيب. طلسم اليد الذى يتدلى حول رقبتها. وعند ما مر الموكب نهضت وتبعته وبقيت فى إثره حتى باب العدل، وقد كان مفتوحاً على مصراعيه. وكان الحرس المسنون المتقاعدون، الذين عليهم النوبة، مضطجعين على المقاعد الحجرية للحصن الخارجى، مستغرقين فى نوم عميق وكأنهم مسحورون. وانساب الموكب الخيالى فى غير ضوضاء بأعلامه

المرفرفة شأن الجيوش المظفرة . ورأت «سانشيكا» أن تتبعه ، وقد تولاها الدهش عند ما رأت فتحة فى الأرض قرب الحصن الخارجى تهبط إلى أسفل أساس البرج ، فدخلت إلى مسافة قليلة ، وشجعت على أن تتقدم حينما وجدت درجات نحتت فى الصخر على غير استواء وممراً مقبوا يرسل فيه النور هنا وهناك مصباح مضىء ينبعث عنه مع النور عطر منعش . ومضت مجازفة حتى انتهت أخيراً إلى ردهة عظيمة قد نحتت فى جوف الجبل وأثثت بأبهى الأثاث على طراز عربى وأنيرت بمصابيح فضية وبلورية . وقد جلس هنا على الأريكة رجل عجوز فى لباس عربى بلحية طويلة بيضاء يخفق برأسه نعاساً ، وعكازته فى يده تبدو وكأنها تنفلت من قبضته شيئاً فشيئاً . على حين قد جلست إلى مسافة قريبة منه امرأة جميلة فى لباس عربى قديم عليها إكليل كله من الماس المتلألىء وقد ضفر شعرها باللآلىء ، وكانت تضرب فى رفق على عود فضى . وهنا تذكرت الصغيرة « سانشيكا » قصة سمعتها من عجائز الحمراء عن أميرة قوطية حبسها فى جوف الجبل ساحر عربى عجوز . وقد جعلته بقوة الموسيقى أسير نوم سحرى . وجمدت السيدة فى مكانها دهشة عند ما رأت إنسانة فى تلك الردهة المسحورة وقالت : لعلها حواء يوحنا المبارك . وأجابت سانشيكا : نعم هى .

إذاً فهى الليلة الأولى التى تعطلت فيها الرقية . إلىّ أيتها الطفلة لا تخافى فإنى مسيحية مثلك . ولكنى قصرت هنا مسحورة . مسى قيدى بذلك الطلسم المعلق حول عنقك ، وسأكون حرة من هذه الليلة . وما أن قالت هذا حتى فتحت جلبابها وكشفت عن منطقة عريضة من الذهب حول وسطها وسلسلة من الذهب تربطها بالأرض . ولم تتردد الطفلة فى وضع اليد الكهرمانية الصغيرة على المنطقة الذهبية . وفى الحال سقطت السلسلة على الأرض واستيقظ الرجل العجوز على هذا الصوت وبدأ يفرك عينيه . ولكن السيدة جرت بأصابعها على أوتار العود فعاد إلى نعاسه ثانية وبدأ يهز رأسه . كما بدأت عكازته تنفلت من يده . وقالت السيدة : والآن فالمسى عكازته بيدك الكهرمانية السحرية . وفعلت الطفلة ذلك . فسقطت من قبضته ،

ووقع فى نوم عميق على الأريكة .

ووضعت السيدة العود الفضى فى رفق على الأريكة . وركنته إلى رأس هذا الساحر النائم . ثم مست الأوتار حتى ارتج صداها فى أذنيه . ثم وصلت الحديث : يا روح الموسيقى القوية . امضى هكذا لتملكى حواسه فى رقتك حتى مطلع الشمس. والآن ، اتبعينى يا طفلتى ، وسترين الحمراء على حالها أيام عزها لأنك تملكين طلسما سحرياً يكشف عنها جميع الرقى .

وتبعت « سانشيكا » السيدة فى صمت . ومرتا خلال باب الكهف من الحصن الخارجى لباب العدل ، ومن ثم إلى ميدان الأجباب . وكانت هذه كلها مليئة بالجنود العربية فرساناً ومشاة ، رتبوا فرقاً بأعلام منشورة . كما كان هناك حراس ملكيون على الباب ، وصفوف من الإفريقيين السود بسيوف مسلولة. ولم ينبس أحدهم ببنت شفة . ومرت «سانشيكا» غير هيابة خلف مرشدتها . وقد زادت دهشتها عند ما دخلت القصر الملكى الذى فيه درجت ، وأشعة القمر المنتشرة تنير كل ردهاته وغرفاته وحدائقه نوراً يكاد يحكى بهاء النهار . ولقد كشف لها هذا عن منظر يخالف كل المخالفة ما تعودت أن تراه عليه. فلم تعد جدران أجنحته ملوثة أو متداعية بفعل السنين . وأخذ يتدلى الحرير الدمشقى الفاخر مكان أنسجة العنكبوت ، وعادت النقوش العربية المزخرفة والمموهة بالذهب إلى سيرتها الأولى لامعة غضة . وبعد أن كانت الردهات عارية غير مؤثثة انتشرت فيها الطنافس والأرائك من أندر النسج ، وقد زينت باللآلىء ورصعت بالفصوص الثمينة . وعادت كل النافورات فى القاعات والحدائق إلى حركتها . وأصبحت المطابخ ثانية فى أهبة كاملة ، فالطباخون فى شغل بإعداد الأطباق الو همية وشى الدجاج والحجل الخيالى وغليه . والخدم عجلون هنا وهناك بالأطباق الفضية عليها أكوام الطعام وهم ينسقون وليمة شهية . وازدحم فى قاعة الأسود الحراس ورجال الحاشية والفقهاء كما كانوا فى سالف العهد أيام العرب . وفى النهاية العليا من ردهة القضاء جلس أبو عبد الله على عرشه تحيط به حاشيته وهو يهز يداً فى الليل بالصولجان . وعلى

الرغم من هذا الحشد كله وما يبدون فيه من جلبة فلا تسمع صوتاً ولا وقع قدم ولا شيئاً يقطع من سكون الليل وقد انتصف، غير رش النافورات .

وتبعت « سانشيكا » الصغيرة مرشدتها وقد عقدت الدهشة لسانها فى أرجاء القصر حتى انتهيا إلى باب ينفتح إلى الممرات المقبوة تحت برج قمارش العظيم . وعلى كل من جانبى الباب أقيم تمثالان مصنوعان من المرمر لحوريتين ، رأساهما إلى ناحية ونظرتاهما مثبتتان على البقعة نفسها القريبة من القبو . وتلبثت السيدة المسحورة ولفتت الطفلة إليها وقالت : هنا سر عظيم سأكشف لك عنه جزاء إيمانك وشجاعتك . فهذان التمثالان الأريبان يرقبان كنزاً حقاً خبأه فى سالف الأيام ملك عربى . فأخبرى أباك أن يبحث عن البقعة التى إليها وجهتا نظرتيهما وسوف يجد أن هذا سيجعله أغنى أغنياء غرناطة . على أن يديك البريئتين الموهوبتين لاستخدام الطلسم هما وحدهما اللتان تستطيعان أن تكشفا عن الكنز . أشيرى على أبيك بأن يستخدمه بحكمة . وأن يخصص جزءاً منه لأداء قداس يومى لخلاصى من هذه الرقية الدنسة .

وما أن لفظت السيدة هذه الكلمات حتى قادت الطفلة قدماً إلى حديقة الزيزفون الصغيرة التى هى إلى جانب قبو التمثالين . وأخذت أضواء القمر ترقص فوق مياه النافورة المنعزلة فى وسط الحديقة وتنثر نوراً رقيقاً على أشجار البرتقال والليمون . ونزعت السيدة الجميلة عوداً من الآس ولفته حول رأس الطفلة وقالت : ليكن هذه تذكاراً لما كشفت لك عنه وشاهداً على صدقه . لقد دنت الساعة التى يجب أن أعود معها إلى ردهتى المسحورة . لا تتبعينى وإلا سيحيق بك الشر . إلى الملتقى . اذكرى ما قلته لك وأقيمى القداسات لخلاصى . وما أن قالت السيدة هذا حتى دخلت إلى ممر مظلم يقود إلى أسفل برج قمارش . ولم تر بعد . والآن بدأ صياح الديكة يسمع خافتاً من الأكواخ أسفل الحمراء فى وادى حدرة . وأخذ خيط باهت من النور يظهر فوق الجبال الشرقية . وهبت ريح هينة وشاع فى الغرف والدهاليز صوت كأنه خفخفة أوراق الأشجار الجافة ، وأخذت الأبواب

باباً بعد باب تنغلق فى صرير . وعادت« سانشيكا » إلى تلك المناظر التى رأتها بأخرة تزخر فى تلك الكثرة الخيالية . ولكن هذه الأطياف لأبى عبد الله وحاشيته كانت قد ذهبت . وأرسل القمر ضوءه إلى الردهات الخاوية والدهاليز التى تجردت من أبهتها العابرة ، قد جللها غبار الزمن . وقوضتها يد الأيام . وتدلت منها خيوط العنكبوت ، وانطلق الخفاش فى أرجائها حيث لا بصيص إلا من نور . وعلا نقيق الضفادع من بركة الأسماك. وهنا اختارت«سانشيكا» طريقها إلى سلم بعيد يقود صعداً إلى مخدع متضع تشغله أسرتها . وكان الباب كما هى العادة مفتوحاً . إذ كان«لوب سانخز »من الفقر والعوز بمكان لا يحتاج معه إلى قفل أو رتاج . وزحفت فى هدوء إلى فراشها ووضعت ضفيرة الآس تحت وسادتها وسرعان ما نامت. وفى الصباح قصت على أبيها كل ما وقع لها . وعدّ لوب سانخز كل هذا مجرد حلم. وضحك من الطفلة لاقتناعها به . ثم ذهب قدماً إلى عمله المعتاد فى الحديقة . ولكنه لم يلبث هناك طويلاً حتى أتت إليه ابنته سريعاً وهى تكاد تلهث ثم صاحت : أبى . أبى ، انظر ضفيرة الآس التى ربطتها حول رأسى السيدة العربية. فحملق« لوب سانخز » دهشاً . إذ كان قد استحال غصن الآس إلى ذهب خالص . وكل ورقة من ورقاته أصبحت زمردة متلألئة . ولم يكن له عهد بالأحجار الكريمة ، لذا لم يعرف القيمة الحقيقية لهذه الضفيرة. ولكنه وجد ما يكفى لإقناعه بأن الموضوع أكثر حقيقة من أن يكون مادة من تلك المواد التى تصاغ منها الأحلام عادة ، وأن حلم الطفلة لم يكن يخلو من هدف. وكان همه الأول أن يلزم ابنته بأن تكتم السر الكتمان كله . وإن كان إليها آمناً ، لأن عقلها كان أكبر من سنها . فأوى حينئذ إلى القبو حيث تمثالا الحوريتين المرمريان . فلاحظ أن رأسيهما قد تحولا عن الباب . وأن نظرة كل منهما مثبتة على نفس البقعة من داخل البناء . ولم يملك « لوب سانخز » إلا أن يعجب من تلك الحيلة الأريبة لحفظ سر . فخط خطاً يمتد من أعين التمثالين إلى البقعة التى يلحظانها . ووضع علامة خاصة على الجدار ثم رجع أدراجه. على أن لوب سانخز قد لبث طول يومه

مشغولاً بألف هم . ولم يستطع أن يحول بين نفسه وبين أن تحلق بعيداً حيث منظر التمثالين . وكان قلقا مخافة أن يكشف السر الذهبي . وكانت كل خطوة قريباً من هذا المكان تجعله يرتجف. وكان بوده لو دفع كل ما يستطيع ليجعل التمثالين يتحولان برأسيهما ، ناسياً أنهما يصوبان النظر إلى تلك الجهة غير متحولين عنها منذ مئات السنين دون أن يفطن إلى أمرهما إنسان. وربما قال لنفسه : ألا حلت عليهما اللعنة فإنهما يخدعان الجميع .وهل سمع إنسان ما عن مثل هذه الطريقة فى حماية سر من الأسرار . وكان عند ما يسمع إنساناً ما يقترب منه يتسلل بعيداً معتقداً أن حومانه نفسه قرب المكان قد يثير الشكوك . وعندها يتلبث حذراً ويسترق النظر من بعد ليستوثق من أن كل شيء فى أمان . ولكن منظر التمثالين كان يثير غضبته مرة ثانية ، فيهجس : نعم فإنهما ينظران وينظران إلى الموضع نفسه الذى كان يجب ألا ينظرا إليه . ألا لهما الخزى ، ما أشبههما بأفراد جنسهما . حقاً فإنهما وإن لم يكن لهما لسانان يفصحان بهما . فمن المؤكد أن لهما عينين يقومان مقام ذلك .
وأخيراً بدأ هذا اليوم الطويل الممل ينقضى ليخفف من همه ، ولم يعد يسمع وقع أقدام فى قاعات الحمراء التى يتردد فيها الصدى . وجاز آخر غريب أسكفة الباب ، وأغلق الباب العظيم بالقفل والرتاج . وبدأت الخفافيش والضفادع والبوم الناعقة تسترد شيئاً فشيئاً صرخاتها المسائية فى القصر المهجور . على أن «اوب سانخز» قد انتظر حتى تقدم الليل تقدماً بعيداً قبل أن يخاطر بابنته الصغيرة إلى ردهة الحوريتين . وقد وجدهما تنظران إلى المكان الخفى حيث الكنز المطمور نظرة كعهدهما فيها العلم وفيها الغموض . وقال لوب سانخز . وهو يمر بينهما : فلتسمحا لى أيتها السيدتان اللطيفتان . فإنى سوف أخلصكما من هذه المهمة التى شغلت باليكما شغلاً ثقيلاً لمدة قرنين أو ثلاثة خلت. وعلى هذا مضى ليعمل عند هذا المكان من الجدار الذى تميزه ، وفى برهة قليلة فتح مخبأ خفياً فيه جرتان عظيمتان من الخزف. وقد حاولا أن يجرهما خارجاً ولكنهما كانتا ثابتتين ، حتى لمستهما يد ابنته الصغيرة البريئة . فبمساعدتها أنزلهما من كوتهما فوجدهما مملوءتين بالقطع الذهبية العربية

المختلطة بالجواهر والأحجار الكريمة. فكان فرحه بذلك عظيماً. وقبل أن يبزغ النهار استعد لنقلهما إلى مخدعه وترك التمثالين الحارسين وعيونهما لاتزال مثبتة على الجدار الفارغ. وهكذا أصبح لوب سانخز رجلاً غنيًّا فجأة. ولكن الثروة كما هو معروف تتبعها دنيا من الهموم كان هو حتى الساعة غريباً عنها، فما السبيل إلى حمل هذه الثروة؟ بل أنى له أن يستمتع بها دون أن يثير شكوكاً؟ والآن ولأول مرة أيضاً فى حياته بدأت مخاوفة من اللصوص تساور نفسه، وأخذ ينظر فى خوف إلى بيته غير المأمون، وذهب يمكن للأبواب والشبابيك. ومع ذلك فإنه بعد أن أخذ كل حيطته لم يستطع أن ينام نوماً عميقاً، وقد ولى عنه فرحه المعتاد ولم يعد يمزح أو يغنى لجيرانه. وصفوة القول فقد أصبح أتعس حيوان فى الحمراء. ولاحظ رفاقه القدماء هذا التغير فرثوا لحاله بقلوبهم، وبدوا يتخلون عنه ظانين أنه قد نزلت به متربة أو ملمة قد يسألهم فيها العون. ولم يجل بخاطرهم أن مصيبته الوحيدة كانت الثراء.

وشاركت زوجة لوب سانخز الزوج فى همه ولكنها كانت تسكن إلى الأشياء الروحية.

وكان ينبغى علينا قبل ذلك أن نذكر أن لوب، لأنه كان رجلاً تافهاً صغيراً لا خطر له. فقد اعتادت زوجته فى جميع الأمور الهامة أن تسأل النصح والإرشاد أباها فى الاعتراف «فراى سيمون». وكان رجلا قويًّا عريض المنكبين أزرق اللحية كبير الرأس راهباً فى ديرسان فرنسيسكو المجاور، وكان فى الحق المسكن الروحى للنصف من النساء الطيبات فى الحى المجاور. وكان فوق ذلك له مكان ملحوظ بين مختلف الأخوات الراهبات اللائى كن يقدرنه لخدماته الروحية وهداياه المتكررة، من تلك اللطائف والحلوى المصنوعة فى الأديرة، كالمربيات الشهية والكعك الحلو وزجاجات من المنعشات المتبلة التى كانت عجيبة فى تجديد النشاط بعد الصيام والأعياد. وكان فراى سيمون موفقاً فى أداء عمله. وكان جلده الدّهن يلمع فى أشعة الشمس وهو يصعد جاهداً فى تل الحمراء فى اليوم القائظ. ومع أنه كان لين العريكة إلا أن هذا الحبل المعقد الذى يلفه جول

وسطه كان يدل على ما يأخذ به نفسه من تقشف ورياضة . وكانت الكثرة من الناس ترفع قبعاتها احتراماً له . بل كانت الكلاب تنبحه من حظائرها وهو يمر بها حين تشم رائحة القداسة التى تشيع من بين أردانه . وهكذا كان فراى سيمون الأب الروحى لزوجة لوب سانخز الوسيمة ، لأن أبا الاعتراف كان محل الثقة المنزلية للمرأة الأسبانية الوضيعة الحال . فسرعان ما عرف سرا قصة الكنز المخبوء . وجحظ الراهب بعينيه وفغر فاه وصلب على نفسه مئات المرات لهذه الأخبار. وبعد أن تلبث لحظة قال : يابنة روحى . تعرفين أن زوجك ارتكب خطيئتين ، خطيئة ضد الدولة وأخرى ضد الكنيسة . فإن هذا الكنز الذى استولى عليه بهذه الطريقة لنفسه من حق التاج لأنه وجد فى أرض الدولة . ولأنها ثروة كافر قد انتزعت من بين أنياب الشيطان . فهى من حق الكنيسة. ومهما يكن من شىء فإن الأمر ممكن تداركه بعد . فأحضرى إلى ضفيرة الآس .

ولما رآها الأب الطيب برقت عياه أكثر من ذى قبل إعجاباً بحجم الزمردات وجمالها . وقال : بما أن هذه ثمرة الكشف الأولى فيجب أن تخصص لعمل من أعمال التقى . وسأعلقها نذرا بين يدى صورة سان فرنسسكو فى معبدنا . وسأصلى له فى حرارة فى هذه الليلة نفسها ليهب لزوجك الاطمئنان على ما ملكتم. وسرت السيدة بمسالمة السماء لها بمثل هذا البذل الهين . وبعد أن وضع الراهب الضفيرة تحت عباءته رحل إلى الدير فى خطوات القديسين . وعند ما عاد لوب سانخز إلى البيت أخبرته زوجته بما كان . فثارت ثائرته . لأنه كان يعوزه مثل تدين زوجته . وبقى مجر بينه وبين نفسه وقتاً لزيارات الراهب المحببة إليها وقال لامرأته : ماذا فعلت ؟ لقد جعلت كل شىء هدفاً للمخاطر بثرثرتك . وصاحت المرأة الطيبة : ماذا؟ أتريد أن تحول بينى وبين أن أكشف عن ذات نفسى لأب اعترافى؟

لا . أيتها الزوجة . اعترفى كما تشائين عن كل ما تستطيعين من خطاياك الخاصة ، ولكن عن هذه النقود التى حفرنا عنها ، فإنها خطيئتى أنا وحدى . وإن ضميرى مرتاح بحملها . على أنه لم تعد فائدة من الشكوى ، فقد أذيع السر وكأنه الماء إذا أريق

على الرمال فما إلى جمعه من سبيل. وكانت فرصتهم الوحيدة فى أن يكون الراهب حكيماً.
وفى اليوم التالى، فيما كان لوب سانخز خارج الدار، طرق فراى سيمون على الباب طرقاً خافتاً، ثم دخل وقد بدت على محياه الوداعة والرزانة وقال: يا ابنتى، لقد صليت فى حرارة للقديس فرنسسكو ولقد استجاب إلى دعائى. فى سكون الليل تراءى لى القديس فى الحلم عابس الوجه وقال: لماذا تدعونى أخلى هؤلاء الوثنيين وكنزهم وأنت ترى ما عليه معبدى من فقر؟ فاذهب إلى منزل لوب سانخز واطلب منه باسمى جزءاً من الذهب العربى لتهيء شمعدانين للمذبح الرئيس ودع له الباقى يملكه مطمئناً. وعند ما سمعت المرأة الطيبة هذه الرؤيا صلبت على نفسها فى خشية وذهبت إلى المكان الخفى، حيث أخفى لوب كنزه. وملأت كيساً عظيماً من الجلد بالقطع العربية الذهبية ثم أعطتها للراهب. ووهبها الراهب الورع كفاء ذلك بركة مجازية، إذا صح أنها من السماء لأغنت نسلها حتى آخر ذرية. ثم أفرغ الكيس فى كم ثوبه وضم يديه إلى صدره ورحل بأسارير الشاكر الخاشع. وعند ما سمع لوب سانخز بهذه الهدية الثانية للكنيسة كان على وشك أن يفقد حواسه تماماً وصاح: ما أبأسنى من رجل! وماذا سيحل بى؟ سوف أجرد من مالى قطعة قطعة. سوف أفلس وأصبح سائلاً. ولم تستطع زوجته تهدئته إلا بشق النفس. وذكرته بالثروات الباقية التى لا تحصى. ثم ما أبر القديس فرنسسكو بالناس إذا هو رضى بمثل هذا النصيب الصغير جداً. ولسوء الحظ فإن الأخ سيمون كان يعول نفراً من أقاربه الفقراء، هذا غير مجموعات من الأطفال اليتامى الأقوياء الضخام الرءوس لا تقل كل منها عن ستة، ولقطاء معوذين يكفلهم برعايته، ولهذا كرر زيارته يوماً بعد يوم بملتمسات من أجل القديس «دومنيك» والقديس «أندرو» والقديس «جيمس». وساور اليأس لوب المسكين ووجد أنه إذا لم يذهب بعيداً عن طريق هذا الراهب المقدس فسوف يدفع ماله راضياً لجميع القديسين. وعلى هذا صمم أن يحزم ما تبقى من ثروته ويخرج سراً فى الليل إلى ناحية أخرى من أنحاء المملكة. وبعد أن اختمرت الفكرة فى نفسه

اشترى بغلة قوية لهذا الغرض وربطها فى قبو مظلم أسفل برج الطبقات السبع ، وهو المكان نفسه الذى يخرج منه فيما يقال الحصان الجنى المقطوع الرأس فى نصف الليل ليهيم فى شوارع غرناطة تتبعه جماعة من كلاب الصيد الشريرة. وكان اوب سانخز قليل الإيمان بتلك القصة ولكنه اغتنم ما تسببه من رعب وأيقن أنه ما من أحد سيجرؤ على التجسس حول الاصطبل الذى تحت الأرض حيث الفرس الجنى .

وأرسل أسرته بعيداً أثناء النهار . وأمرهم أن ينتظروه عند قرية بعيدة فى المرج. وعند ما دخل الليل حمل كنزه إلى القبو تحت البرج . وما أن حمل بغلته حتى انطلق بها وهبط فى حذر إلى السكة المعرشة المظلمة. وكان اوب الأمين قد أعد لكل شيء عدته فى منتهى التكتم . ولم يبح به لإنسان اللهم إلا لزوجته التى هى موضع سره. إلا أن ذلك قد انتقل إلى الأب سيمون ، وكأنما ألهمه بوحى عجيب . ورأى الراهب الغيور كنوز الكافرين غير الشرعية وهى توشك أن تخرج من قبضته . فصمم على أن يأخذ منها حفنة أخرى يعود بها على كنيسة القديس فرنسسكو ، ولذلك فعند ما دقت الأجراس للصلاة وأخلدت كل الحمراء إلى السكون انسل من ديره وهبط إلى باب العدل . ثم أخفى نفسه بين حرجات الورد والغار التى على حافتى السكة العظيمة ، وهنا بقى يعد أرباع الساعات وهى تدق من جرس المرقبة . ويصغى إلى نعيق البوم الكئيب ونباح الكلاب من بعيد ، حيث كهوف الغجر ، وأخيراً سمع وقع حوافر ، ومن بين خلال الأشجار الكثيفة المظللة لمح شبحاً يهبط إلى السكة المظللة . وافتر ثغره عن ابتسامة مكبوتة عندها هز الراهب القوي كتفيه ودار فى رأسه ما هم أن يفجأ به «لوب» من فعل ينم عن معرفته بسره ، وطوى أطراف ردائه ثم توثب كالقط يرقب فأراً ، وانتظر حتى كانت فريسته بإزائه ، ثم خرج قدماً من مخبئه فى ظلال الأوراق ووضع إحدى يديه على كتف البغلة والأخرى على ثفرها وقفز أحسن ما يقفز راكب خيل مدرب ، ثم انحط فوق الدابة منبسط الأطراف منفرجة ساقاها. وقال الراهب القوى : إيه ، سنرى الآن أينا أقدر على معالجة الأمر . وما كاد

يتم كلماته حتى بدأت الدابة ترفس وتصهل وتثب ، ثم أخذت تعدو فى سرعة بالغة أسفل التل ، وحاول الراهب ليكبح جماحها ولكن عبثاً . فأخذت تقفز من صخرة إلى صخرة ، ومن شجيرة إلى شجيرة ، فتمزق كساء الراهب إلى أشرطة أخذت تضطرب فى الهواء ، وتلقى رأسه الأصلع ضربات عنيفة من فروع الأشجار ، وكثيراً من الخدوش من الأشواك. ومما زاد فى رعبه وهمه أنه وجد فى إثره مجموعة من سباع كلاب الصيد تنبحه نباحاً عالياً ، وتبين له بعد فوات الوقت أنه قد ركب حقاً الفرس الجنى . وذهبوا بعيداً. والمثل القديم يقول : « اجذب الشيطان تجذب الراهب » . وعبر الميدان الجديد وعلى طول حى السقاطين وحول حى الرملة انطلقوا يعدون عدواً جنونياً ومن خلفه نباح شيطانى على حال لم تعهد من قبل لصياد وكلابه . وعبثاً استنجد الراهب بجميع القديسين كما استنجد بالعذراء المقدسة . وكان وهو يردد اسما من هذه الأسماء كأنه يستحث به هذا الفرس الجنى فيجعله يقفز إلى ما فوق البيوت . وفى البقية الباقية من الليل كان المنكود الأب سيمون يحمل هنا وهناك حيث لا إرادة له حتى أوجعته كل عظمة فى جسمه وعانى ألماً أكثر من أن يوصف . وأخيراً صاح الديك مؤذناً بعودة النهار وعندها دار الجواد الجنى وقفز راجعاً إلى برجه وطاف ثانية بوادى الرملة ثم حى السقاطين ثم بالميدان الجديد ثم فى سكة النافورات المظللة ، والكلاب السبعة تهل وتنبح وتقفز وتنهش فى أعقاب الراهب المنزعج. وقد طلع عليهم أول شعاع للنهار عندما وصلوا البرج. وهنا ضرب الفرس الجنى بأعقابه وأرسل بالراهب فى الهواء رأساً على عقب ، ثم غاص فى القبو المظلم تتبعه المجموعة الخبيثة . وتبع ذلك الصخب الأخير المصم صمت عميق . وهل ثمة راهب جازت عليه مثل هذه الحيلة الشيطانية ؟ فى الصباح المبكر كان أحد المزارعين ذاهباً إلى عمله فوجد الأب سيمون المنكود راقداً تحت شجرة تين عند سفح البرج ، ولكنه كان من رضوض الجسم والعنت على حال لم يستطع معها أن يتكلم أو يتحرك. فحمل بعناية تامة ورفق إلى صومعته . وشاعت القصة على أن لصوصاً كمنوا له فى الطريق

وأساءوا إليه.ومر يوم أو اثنان قبل أن يقدر على تحريك أطرافه.وفى الوقت نفسه فقد كان يعزى نفسه بما كان يدور فى خلده من أنه وإن كانت البغلة قد نجت بكنوزها فمن قبل قد نال قليلا من أسلاب الكافرين . وكان أول شيء اتجه إليه عندما أصبح قادراً على تحريك أعضائه أن يبحث أسفل فراشه حيث كان قد خبأ ضفيرة الآس وأكياس الذهب الجلدية التى انتزعها من المتدينة زوجة سانخز.وكم كان ألمه حينما وجد الضفيرة ولكنها كانت فى الحقيقة ضفيرة ذاوية من غصن آس. والأكياس الجلدية مملوءة بالرمل والحصى . ومع ما أصاب الأب فراى سيمون من حزن بالغ فقد كان له من حكمته ما أمسكت لسانه إذ أنه لو أذاع السر فقد يجر عليه ذلك سخرية الناس وعقاب رؤسائه. ولم تمض بعد ذلك سنون كثيرة حتى كشف وهو على فراش الموت لأب الاعتراف عن ركوبه فى الليل على ذلك الفرس الجنى .

ولم يسمع شيئاً عن لوب سانخز لمدة طويلة بعد اختفائه من الحمراء.وكانوا يذكرونه على أنه أبداً رفيق مرح . مع ما كانوا يخافونه منه مما لوحظ عليه من هم وكآبة قبل أن يرحل بقليل تلك الرحلة العجيبة ، وأن الفقر والتلف قد ساقاه إلى الخروج عن الجادة. وبعد بضع سنين كان رفيق من رفاقه القدماء من الجنود المتقاعدين قد صدمته عربة بجيادها الست كادت تقضى عليه.وكانت العربة لموكب عرس وفيها زوجة سانخز.وكانت قد كبرت فأصبحت كالبرميل استدارة. قد تزينت بالريش والجواهر وعقود اللآلىء والماس والخواتم فى كل إصبع من أصابعها. وهى فى لباس فخم لم ير مثله منذ عهد الملكة سبأ . أما سانشيكا الصغيرة فقد كبرت وأصبحت الآن امرأة.وكنت تحسبها فى ظرفها وجمالها «دوقة» إن لم تكن أميرة بالمعنى الصحيح . وكان العريس يجلس إلى جانبها.وهو وإن كان رجلا صغيراً ضامراً رفيع الساقين إلا أن هذا وحده كان يثبت أنه حقاً من سلالة الدم الأزرق.وهو أسبانى أصيل شريف تكاد تزيد قامته قليلا عن ثلاثة أزرع . وكانت الزيجة من تدبير الأم . ولم يغير الثراء قلب لوب الأمين فقد احتفظ

بصديقه القديم لعدة أيام، واحتفل به كما يحتفل الملك، وكان يأخذه إلى حفلات التمثيل ومصارعة الثيران. وأخيراً ودعه فرحاً مزوداً بحقيبة كبيرة من النقود له وأخرى ليوزعها بين رفاقه القدماء فى الحمراء. وكان لوب يدعى دائماً أن أخاً له غنياً قد توفى فى أمريكا وورثه منجماً من النحاس. ولكن الفضوليين الدهاة فى الحمراء يصرون على أن هذا الثراء آل إليه كله من اكتشافه السر الذى كان يصونه تمثالا الحوريتين المرمريتين فى الحمراء. ومن المشاهد أن هذين التمثالين الأريبين لا يزالان إلى هذا اليوم نفسه وعيونهما عالقة بالمكان نفسه على الجدار أكثر ما تكون دلالة، مما جعل الكثيرين يظنون أنه لا يزال ثمة كنز مخفى باق. وهذا مما هو جد جدير بلفت نظر الرحالة الباحث. وإن كان آخرون، ولا سيما الزائرات، ينظرن إليهما فى غبطة عظيمة على أنهما دلائل خالدة على حفظ النساء للسر.

* * *

محمد أبو الأحمر
مؤسس الحمراء

أما وقد عالجت فى كثير من التفصيل القصصى العجيبة عن الحمراء فأرانى كأنى ملزم بأن أزود القارئ ببعض الحقائق ذات الصلة بتاريخها الحق. أو بالأحرى تاريخ هؤلاء الأمراء الأمجاد، ثم من أرسى أساسها وأكمل بناءها. هؤلاء الذين يدين العالم لهم بهذا الأثر الشرقى الذى بلغ الغاية من الجمال والفن. ولكنى وأنا أجمع هذه الحقائق فقد خليت دنيا الخيال والخرافات حيث كل الأشياء عرضة لأن تصبغ بصبغة الخيال، ورجعت أبحث بين المجلدات التى جللها غبار الزمن فى مكتبة «الجزويت» القديمة فى الجامعة. هذه التى كانت حيناً تعتز بأنها مستودع البحث والعلم أصبحت اليوم مجرد ظل لسالف ما كانت عليه. فقد جُردت من مخطوطاتها وأندر كتبها على يد الفرنسيين حين كانت لهم السيادة على غرناطة.

غير أنها لا تزال تحتفظ بين مجلداتها الكثيرة الخطيرة فى علم الجدل للأدباء الجزويت، بمقالات عديدة عجيبة فى الأدب الأسبانى، ذلك إلى عدد من الوثائق الجلدية القديمة المغبرة، التى كنت أحمل لها تقديراً خاصاً. وفى هذه المكتبة القديمة قضيت ساعات كثيرة سارة فى البحث الأدبى الهادىء المستقر، إذ كانت مفاتيح الأبواب وقماطر الكتب تودع معى إكراماً لى وكنت أترك وحدى لأنقب فى وقت فراغى. وهو تسامح قل أن تجد مثله فى تلك المعابد العلمية، التى كثيراً ما عنّت الطلاب الظامئين إلى مناهل المعرفة، وقد ختم عليها فلا يستطيعون إليها سبيلا. وخلال تلك الزيارات جمعت هذه الخصائص عن تلك الشخصيات التاريخية التى هى موضوع البحث. وكان عرب غرناطة ينظرون إلى الحمراء على أنها أعجوبة من أعاجيب الفن، ولهم فى ذلك خبر متواتر، وهو أن الملك الذى أسسها كان على علم بالسحر، أو على الأقل كان خبيراً بالكيمياء، وبهذا حصل على تلك المبالغ الضخمة من الذهب التى أنفقت فى بنائها. وإن نظرة سريعة إلى حكمه كفيلة بأن تكشف عن السر الحقيقى لهذه الثروة. واسم حاكمها، كما هو منقوش على جدران بعض الغرف، هو أبو عبد الله. ولكن المعروف الشائع فى التاريخ العربى أنه محمد بن الأحمر. وقد ولد فى أرجونة سنة ٥٩١ من الهجرة (سنة ١١٩٥ ميلادية) من أسرة شريفة من بنى نصر ولم يأل جهداً فى إعداده للمركز العالى الذى يؤهله له ثراء الأسرة ومقامها. وكان عرب آسبانيا لهم السبق العظيم فى المدنية، وكانت كل مدينة من المدن الكبرى مركزاً للعلم والفنون، لهذا كان من السهل أن يدعى لهذا الشاب ذى المنزلة والجد أعظم المؤدبين ثقافة. ولما بلغ ابن الأحمر مبلغ الرجال عُين قائداً لأرجونة وجيان واكتسب شهرة عظيمة لرأفته وعدله. وبعد ذلك ببضع سنوات، لما مات ابن هود، تنازعت الأحزاب السلطة العربية فى أسبانيا، ونادى كثير من الجهات بمحمد ابن الأحمر، ولما كان ذا روح وثابة وطباع عالية فقد انتهز الفرصة وقام بجولة خلال البلاد. وكان أنى حلّ يقابل بالهتاف. وفى سنة ١٢٣٨

دخل غرناطة بين هتاف الكثيرين من المتحمسين ونودى به ملكاً بكل مظاهر الترحيب، وسرعان ما أصبح إمام المسلمين فى أسبانيا، وأول من ولى العرش من نسل بنى نصر الأمجاد. وكان عهده عهد يمن لرعاياه. فألقى مقاليد الأمر فى مدنه المختلفة لمن امتازوا بالشجاعة والفطنة ومن كان الشعب أكثر عنهم رضى.

ورتب حرساً يقظاً، وسن القوانين الصارمة للقيام على العدالة. وكان للشاكين والمكروبين دائماً من مجلسه نصيب، وكان يتولى بنفسه عونهم وإنصافهم. وقد أنشأ المستشفيات للعميان وملاجىء للشيوخ والضعفاء والعاجزين عن العمل كافة، وكان يزورهم مراراً دون أن يحدد لذلك أياماً فى أبهة وعظمة حتى يدع الفرصة لكل شىء يجرى فى مجراه السليم وحتى لا يختفى عنه عيب. وكان يزورهم فجأة ومن غير توقع ويقف بنفسه بطريقة عملية وعن كثب على معاملة المرضى وأخلاق هؤلاء المعينين ليتولوا أمر العناية بهم. وأنشأ المدارس والكليات التى كان يزورها على النحو عينه مفتشاً بنفسه عن تربية النشء. وأنشأ محالاً للقصابين وأفراناً عامة حتى يتسنى للناس أن يحصلوا على مؤونتهم فى حال جيدة وبأسعار عادلة ثابتة. وأنشأ كثيراً من مجارى المياه فى المدينة كما أنشأ الحمامات والنافورات، وأنشأ القناطر المعلقة والقنوات لرى المرج وإخصابه، وبهذه الوسائل عم الرخاء والخير هذه المدينة الجميلة، وازدحمت التجارة على أبوابها، وملئت مخازنها بأفخر البضائع من كل إقليم وبلد. وبينما كان محمد بن الأحمر يحكم ممتلكاته الجميلة بهذه الحكمة وهذا النجاح هدد فجأة بأفزاع الحرب، فقد انتهز المسيحيون فى ذلك الوقت انتقاص سلطان المسلمين وسارعوا إلى استرجاع ممتلكاتهم القديمة. فأخضع جيمس الفاتح جميع بلنسية، واتجه فرديناند المقدس بجيوشه المظفرة إلى الأندلس، وقد غزا هذا الأخير مدينة جيان وأقسم ألا يفك عنها الحصار حتى تسلم له. وكان محمد بن الأحمر واثقاً بعدم كفاية وسائله لحرب ملك قشتالة القوى، وعلى هذا قر قراره فجأة على أن يذهب بنفسه إلى معسكر المسيحيين، وظهر فجأة فى حضرة الملك فرديناند وقال: إن الماثل أمامكم هو محمد ملك

غرناطة، وإنى أثق بنواياكم الطيبة وأضع نفسى تحت حمايتكم، فخذ جميع ما أملك واعتبرنى تابعاً لك . وما أن قال هذا حتى ركع وقبل يد الملك دليلا على خضوعه . وقد أخذ الملك فرديناند بذلك اللون من الثقة المطمئنة وصمم على ألا يكون دونه فى الكرم. فنهض لمنافسه المغلوب على أمره فى الأرض واحتضنه كما يحتضن الصديق صديقه. كما لم يقبل الثروة التى عرضها عليه، ولكنه قبله تابعاً تاركاً إياه حاكماً على ممتلكاته. على شرط أن يدفع له جزية سنوية. وأن يحضر مجلس الأعيان كأى نبيل من نبلاء الامبراطورية. وعلى أن يعينه فى الحرب بعدد معلوم من الفرسان . ولم يمر وقت طويل بعد هذا حتى دعى محمد ليعاون الملك فرديناند حربيًّا فى حصاره المشهور لإشبيلية. وخرج الملك العربى قدماً فى خمسمائة فارس مختارين من غرناطة ، ليس فى العالم من هو خير منهم ركوباً للخيل أو استخداماً للرمح . على أنها قد كانت معونة ثقيلة على النفس مهينة. فقد كان عليهم أن يسلوا السيوف على إخوانهم فى العقيدة . وقد آب محمد مهموماً لتفوق قواته فى تلك الغزوة المعروفة. ولكنه رجع أكثر شرفاً حقًّا بتلك الإنسانية التى حمل فرديناند على أن يأخذ بها فى أدب الحرب .

وفى سنة ١٢٤٨ عند ما خضعت مدينة إشبيلية الشهيرة إلى الحاكم القشتالى رجع محمد حزيناً إلى أملاكه وقد ملىء همًّا. فقد رأى تلك العلل المتجمعة التى تهدد قضية المسلمين. وفاه بهذا المثل الذى كثيراً ما كان يستعمله فى لحظات قلقه وعنائه : «ما أضيق الحياة بنا وأشقاها إذا لم تكن آمالنا عراضاً وكباراً». وعند ما وصل الفاتح الحزين مدينته المحبوبة غرناطة تجمع الناس أمامه ليروه بفارغ الصبر لأنهم كانوا يحبونه لإحسانه. وأقاموا له أقواس النصر تكريماً لمآثره الحربية. وحيثما مر كان يقابل بعاصفة من الهتافات مثل الغالب . فهز محمد رأسه عند سماعه هذا النداء وصاح : « لا غالب إلا الله ». ومن هذا الوقت فصاعداً تبنى دعاءه على أنه شعار له ونقشه على رباط مائل عبر درعه واستمر شعاراً لنسله . وقد اشترى محمد السلم باستسلامه لنير المسيحيين . ولكنه كان يعلم أنه ما دامت

المبادئ على هذا النحو من التخالف . وأن أسباب العداوة عميقة كل العمق وقديمة فلن يكون هناك أمان أو استقرار . ولذا بدأ يعمل بالمثل القديم « سلح نفسك فى السلم واكس نفسك فى الصيف » . وأفاد من فترة الهدنة الحالية بتحصين ممتلكاته وإكمال نقص المسالح . أخذ يشجع تلك الصناعات النافعة التى تفيد ثروة وقوة حقيقية لأية امبراطورية . وأعطى الجوائز والميزات لأحسن الصناع وأحسن نتاج الخيل وغيرها من الحيوان المستأنس . وشجع الزواج وزاد فى ثروة الأرض الزراعية ضعفين بحمايتها . واصطنع الوديان الجميلة فى مملكته تزهر إزهار الحدائق ، واحتضن أيضاً إنماء الحرير وصناعته . حتى أصبحت أنوال غرناطة تكاد تفوق أنوال سورية لطافة وجمالا فى إنتاجها . وفوق هذا فقد كشف عن مناجم الذهب والفضة ومعادن أخرى وجدها فى الجبال الإقليمية من ممتلكاته ، وجعلها تعمل فى دأب . وكان أول ملك من ملوك غرناطة سكت نقود الذهب والفضة باسمه ، وقد عنى العناية العظمى بأن تصنع العملة بدقة ومهارة . وحوالى هذا الوقت ، أى نحو منتصف القرن الثالث عشر ، وبعد رجوعه مباشرة من حصار إشبيلية . بدأ فى بناء قصر الحمراء العظيم مشرفاً على البناء بنفسه . وكان كثيراً ما ينزل بين الصناع والعملة ويوجه أعمالهم . ومع فخامة أعماله وعظمة مشروعاته فقد كان شخصاً بسيطاً معتدلا فى ملاذه ، ولم يكن لباسه مجرداً من الفخامة فحسب بل كان على حال من البساطة لا تستطيع أن تميزه به عن رعاياه . ولم يباه حريمه إلا بالقلائل من الحسان . ومع أنه لم يكن يزرهن إلا قليلا فإنهن كن ينعمن بأبهة عظيمة . وكانت زوجاته من بنات الأشراف البارزين ، وكان يعاملهن معاملة الأصدقاء والرفاق المقربين . وقد دبر فى أن يجعلهن يعشن صديقات بعضهن لبعض . وكان يقضى الكثير من وقته فى الحدائق ، ولاسيما حدائق الحمراء التى كانت تزخر بأندر النباتات وأجمل الأزهار وأذكاها ، وهنا كان يمتع نفسه بقراءة التواريخ أو فى أن يقيم من يقرأها ويقصها عليه ، وكان فى بعض الأوقات فى فترات الفراغ يقوم بتنشئة أولاده الثلاثة الذين

جلب إليهم أحسن الأساتذة علماً وأفضلهم . ولما كان قد جعل نفسه تابعاً لفرديناند، يؤدى له الجزية بحريته وإرادته، ففد بقى دائماً محترماً لكلمته، يعطيه البراهين المتكررة على إخلاصه ووده . ولما مات هذا الملك المشهور فى إشبيليه سنة ١٢٥٤ أرسل محمد بن الأحمر سفراءه ليشاطروا خلفه ألفونسو العاشر العزاء وكان معهم جمع كريم من مائة فارس عربى ذوى رتب ممتازة ، كان عليهم أن يحضروا حول نعش الملك أثناء الاحتفالات الجنائزية يحمل كل منهم شمعة مضاءة . وكان هذا الملك المسلم يكرر هذا الدليل العظيم على احترامه خلال بقية حياته عند الاحتفال بالذكرى السنوية لموت الملك فرديناند المقدس. وذلك عندما يذهب الفرسان المئة من العرب من غرناطة إلى اشبيلية ويأخذون مكانهم بشموعهم المضاءة فى وسط الكاتدرائية الفخمة حول نصب الفقيد العظيم . واحتفظ محمد ابن الأحمر بقوة مداركه ونشاطه إلى سن متقدمة، ولما بلغ التاسعة والسبعين من عمره نزل إلى الميدان على ظهر جواده تصحبه نخبة من فرسانه ليصد غزوة عن بلاده. وفيما كان الجيش خارجاً من غرناطة انكسر رمح أحد رءساء حراسه، وكان فى المقدمة فى عقد الباب . وارتاع مستشارو الملك لهذه الحادثة التى عدت فألا سيئاً وتوسلوا إليه أن يعود. وقد ذهبت توسلاتهم عبثاً ولكن الملك لم ينثن. ويقول مؤرخو العرب: إن الفأل السيئ قد تم عند الهاجرة ، فقد أصيب محمد فجأة بالمرض وكاد يقع من فوق جواده. فوضع فى محفة وحمل راجعاً نحو غرناطة . ولكن المرض ازداد إلى درجة اضطروا معها أن يضربوا له خيمة فى المرج . وعم الذعر أطباءه إذ لم يعرفوا أى علاج يصفونه له، وقدمات بعد ساعات قليلة ، بعد أن قاء الدم وأصابته رعشة قوية ، وكان الأمير المسيحى السيد فيليب أخو الفونسو العاشر إلى جانبه وهو يلفظ النفس الأخير . وحنطت جثته ووضعت فى صندوق من الفضة ودفنت فى الحمراء فى ضريح من المرمر الثمين بين دموع رعاياه الحارة الذين بكوا فيه أباً . وهكذا كانت حياة الأمير المثقف الغيور على وطنه الذى أنشأ الحمراء، والذى بقى اسمه متألقاً بين أعظم آثارها دقة ولطفاً ،

والذى تعد ذكراه ملهمة بأسمى الخواطر لهؤلاء الذين يجوسون بين هذه المشاهد الحافلة بعظمته ومجده . ومع أن أعماله كانت واسعة ونفقاته كانت باهظة إلا أن خزائنه كانت دائماً مملوءة . وهذا التناقض الظاهر هو الذى أوجد تلك القصة ، قصة تمرسه بالأمور السحرية ، وأنه كان يملك سر تغيير المعادن الخسيسة إلى ذهب . وهؤلاء الذين درسوا سياسته الداخلية كما بسطناها هنا سيفهمون فى يسر السحر الطبيعى والكيمياء البسيطة التى جعلت كنوزه الواسعة تفيض وتزخر .

* * *

يوسف أبو الحجاج
منجم الحمراء

إلى الأسفل من جناح حاكم الحمراء يقوم المسجد الملكى حيث كان ملوك العرب يؤدون صلاتهم الخاصة ، وهو وإن كان قد حول إلى معبد قوطى ، فلا يزال يحمل آثاراً إسلامية الأصل ، فالأعمدة العربية بتيجانها المذهبة وأروقة نساء الحريم المشبكة ، لا تزال تُرى . وشعارات ملوك العرب لا تزال على الجدران مختلطة بتلك التى للملوك القشتاليين . وفى هذا المكان المقدس مات الأمير الجليل ذو العقل الراجح يوسف أبو الحجاج الذى أتم الحمراء ، والذى يستحق أن يقرن اسمه فى الشهرة باسم مؤسسها الهمام ، لفضائله ومحامده . وكم كان سرورى ، وأنا أخرج فى الظلام حيث بقيت فيه مدة طويلة جداً ، حين وجدت اسما آخر من أسماء هؤلاء الأمراء من تلك السلالة الراحلة التى كاد يقضى عليها النسيان ، وكان عهد حكمهم فى الأندلس عهد مجد وأبهة وإتقان ، على حين كانت أوربة كلها بالقياس إليه فى همجية .

وارتقى يوسف أبو الحجاج عرش غرناطة عام ١٣٣٣ وكان خاص سمته وصفاته العقلية مما جمع القلوب على حبه وبعث التفاؤل بعهد خير وفلاح . وكان

ذا هيئة نبيلة وقوة جسمانية عظيمة ذلك إلى جمال الرجولة . وكان بهى المحيا باهر الحسن. وكما يقول إخباريو العرب : انه زاد من هيبة طلعته وجلالها بإعفائه لحيته تنمو إلى طول موقور ثم صبغها بالسواد . وكانت له ذاكرة خارقة تعى الكثير من المعارف والعلوم . وكان باقعة نابهاً ، يعد أشعر الشعراء فى زمانه . كما كان رقيق الطبع ودوداً لطيفاً . وكان فيه من الشجاعة ما هو معهود فى كل ذوى النفوس الكريمة . ولكن عبقريته كانت للسلم لا للحرب . إلا أنه اضطر أن يخوض غمار الحرب فى عهده مراراً كان فيها عادة منكوداً . فلقد كان فى المعارك ذا طبيعة رحيمة . يأبى كل اشتطاط فى القسوة . ويوصى بالرفق بالنساء والأطفال وحمايتهن ، وكذلك الشيوخ والمرضى وجميع الرهبان وجميع المتعبدين والنساك . ومن بين المشروعات الأخرى المشئومة مشاركته ملك مراكش فى حرب ملوك قشتالة والبرتغال فى غارة عظيمة . فدحر فى معركة سالادو المشهورة . وكانت خيبة مرزئة كادت تبتلى فيها القوة الإسلامية فى أسبانيا بضربة قاضية . وحصل يوسف على هدنة طويلة بعد اندحاره وقف خلالها حياته لتعليم شعبه وإصلاح أخلاقهم وأحوالهم . وقد أنشأ لهذا الغرض المدارس فى جميع القرى على طرق من التربية بسيطة وموحدة . وألزم كل دسكرة لها أكثر من اثنى عشر بيتاً ببناء مسجد . ومنع ألواناً من البذاءة وسوء الأدب كانت شائعة فى حفلات الأقاليم والأعياد وملاهى الناس العامة . ونظر بعين الاهتمام إلى الشرطة فى المدينة فأنشأ حراساً لليل وأشرف على مراقبة شئون البلد العامة . كما اتجهت عنايته أيضاً إلى إنجاز الأعمال المعمارية العظيمة التى بدأها سلفه وأنشأ أخرى حسب ما رأى . وهكذا تمت الآن الحمراء التى أنشأها الطيب أبو الأحمر . وقد أنشأ يوسف باب العدل اللطيف كما عمل المدخل الجميل إلى الحصن الذى أتمه سنة ١٣٤٨ كما جمل أيضاً كثيراً من القاعات والردهات فى القصر . تدل على ذلك النقوش التى على الجدران والتى يتكرر فيها ظهور اسمه . كما بنى أيضاً القصر الجليل أو قلعة ملقا ، وهو الآن — لسوء الحظ — ليس إلا كتلة من الأنقاض المحطمة ، وإن كان من المرجح

أن يكون بمظهره الداخلى شبيهاً فى أناقته وجلاله بالحمراء .

وعهد كل ملك مطبوع بسمة نبوغه . والناس على دين ملوكهم ، فقدأخذ أشراف غرناطة يحاكون يوسف فى طرافة الذوق ولطفه . وسرعان ما ملئت غرناطة بالقصور الفخمة ذات الردهات المرصوفة بالفسيفساء . والجدران والسقوف مصنوعة من الخشب المفرغ ومموهة بالذهب فى دقة ومطلية بألوان لازوردية وبنفسجية وغيرهما من الألوان الزاهية ، ومطعمة تطعيما دقيقاً بالكثرة من أخشاب أخرى نفيسة لا تزال نماذج منها باقية فى كامل لمعانها على ممر القرون العديدة . وكثير من المنازل فيها النافورات التى تقذف بشآبيب المياه فتنعش الهواء وتنديه . وفيها أيضاً أبراج عالية من خشب أو حجارة منحوتة ومزينة على حال عجيبة ومغطاة بألواح من المعدن تتلألأ تحت الشمس .

وهذا هو الفن المعمارى الأنيق المنتقى الذى شاع بين هذا الجيل الظريف إلى درجة يمكننا أن نطلق عليه هذا التشبيه الجميل للكاتب العربى : لقد كانت غرناطة أيام يوسف كإناء من فضة ملىء زمرداً وياقوتاً . ونظرة واحدة كفيلة بأن تقفنا على عظمة هذا الأمير الكريم . فإن تلك الهدنة الطويلة التى تبعت معركة سالادو وكانت على وشك الانتهاء ذهبت كل محاولة من يوسف لتجديدها هباء . فإن عدوه اللدود ألونسو الحادى عشر القشتالى نزل إلى الميدان بقوة عظيمة وضرب الحصار على جبل طارق . فحمل يوسف السلاح كارهاً وهيأ جيوشه لنجدة البلد . وبينما هو جد منشغل جاءت البشائر بأن عدوه المخيف مات فجأة بالطاعون . فلم يثبطه ما كان بل اهتم به اهتماماً جليلا وأخذ يذكر الفقيد بما له من عظائم ، وصاح : واأسفاه لقد فقدت الدنيا أميراً من أجل أمرائها وحاكماً عرف كيف يكرم أصحاب المذهب أعداء كانوا أم أصدقاء . وإن الإخباريين الأسبان أنفسهم لشهداء على ما كان يتصف به من عظمة . فهم يقولون فى أخبارهم : إن الفرسان العرب شاركوه شعوره ولبسوا الحداد لموت ألونسو . لم يعد عنهم فرسان جبل طارق الذين كانوا على وشك أن يحدقوا بهم ، فإنهم عند ما علموا أن خصمهم الملك

قد مات فى معسكره عزموا الأمر فيما بينهم على ألا يقوموا بحركة عدائية على المسيحيين. وفى اليوم الذى فيه انتقل المعسكر ورحل الجيش يحمل جثمان ألونسو توافد العرب فى جموع كثيرة من جبل طارق ووقفوا فى صمت يعلوهم الأسى يرقبون الموكب الحزين. وقد أبدى جميع قادة العرب على الحدود ما يجب للفقيد من احترام وسمحوا للموكب الجنائزى أن يمر فى أمان، وقد حملوا هم جثة الملك المسيحى من قرطبة إلى إشبيلية.

ولم يعش يوسف طويلا بعد عدوه، الذى كان كريماً كل الكرم فى حزنه عليه. وفى عام ١٣٥٤ فيما كان يصلى فى مسجد الحمراء الملكى هجم عليه معتوه فجأة من خلفه وطعنه بخنجر فى جنبه، وحضر الحراس ورجال الحاشية على صرخات الملك لنجدته فوجدوه يتقلب فى دمه وهو يرعد. فحمل إلى الجناح الملكى ولكنه لفظ أنفاسه سريعاً. وقطع القاتل إرباً إرباً وحرّقت أطرافه عياناً تهدئة لغضبة العامة، ودفن جثمان الملك فى ضريح فخم من المرمر الأبيض. وكتب على قبره عبارة طويلة بحروف من ذهب على قاعة لازوردية تعدد فضائله: هنا يرقد ملك وشهيد من سلالة أمجاد، لطيف عالم فهم، معروف بجمال الذات والصفات. عم مملكة غرناطة حلمه وورعه وإحسانه. وكان أميراً عظيما وقائداً جليلا وسيفاً للمسلمين قاطعاً وحاملا للواء السلام بين أعظم الملوك قدرة.

ولا يزال المسجد الذى ترددت فيه يوماً صيحات الملك يوسف وهو يجود بنفسه. ولكن الأثر الذي سجلت عليه مآثره قد انطوى منذ زمن طويل. على أن اسمه بقى منقوشاً بين آثار الحمراء، وسيبقى خالداً مقروناً بتلك المجموعة المعمارية المعروفة التى كان تجميلها مثار إعجابه وسروره.

* * *

تذييل

صفة حواضر الامبراطورية الإسلامية فى أسبانيا

بقلم

المبجل هارتول هورن Rev. Hartwelle Horne

مختارة من كتابه « تاريخ الامبراطورية الإسلامية فى أسبانيا » الذى كتبه ليكون تذييلا على كتاب «مرفى» الآثار العربية فى أسبانيا. وهو كتاب مصور رائع .

* * *

لقد بين لنا السيد «ارفنج» فى رواياته كم كان سريعاً فتح العرب لشبه الجزيرة الأسبانية ، وكذلك قيام دولتهم بها ونموها وانهيارها . وقد خضعت المملكة كلها تقريباً وكذا البرتغال للجيوش العربية المنتصرة . وكانت حاضرتا الحكم اللتان لا تزالان تتجلى فيهما الآثار الرائعة للفن العربى هما قرطبة وغرناطة . وكانت أولى المدينتين حاضرة الخلافة أيام عبد الرحمن الأول كما كانت الثانية عاصمة مملكة غرناطة التى أسسها محمد بن الأحمر سنة ٦٣٤ من الهجرة (١٢٣٦ م). وعند تدهور قرطبة أخذ ولاة الحواضر يدعون لأنفسهم السلطان وينتحلون ألقاب الملوك . ومن ثم فقد أصبح لطليطلة وسرقسطة وأشبيلية وبلنسية ومرسية وبطليوس وقليل من المدن التى دون هذه شأناً — أصبح لهذه كلها ملوكها الخاصون ، وقد أخذت هذه الدويلات الضعيفة — لما كان بينها من حسد متبادل وحروب مستمرة ومذابح وقلاقل داخلية — تخضع شيئاً فشيئاً لجيوش أراجون وقشتالة وليون . على حين تقوت مملكة غرناطة الصغيرة بالمسلمين الفارين من المدن التى غزاها الأسبان وبقيت قروناً ثلاثة متصلة فى نمو مطرد سكاناً وثروة وتمديناً ، إسلامية القانون والعقيدة ، حتى انتهى مصيرها أخيراً على يد فرديناند واليصابات سنة ١٤٩٢ .

وكانت تلك المشروعات العربية الصناعية والتجارية، التي انتعشت في ظل السياسة الرشيدة لهؤلاء الملوك العظام، مما أفاد البلاد إثراء وتجميلا، ولا تزال آثار العرب الفنية في أسبانيا، إلى تلك الشواهد المجتمعة التي ساقها مؤرخوهم، تترك في النفوس طابعاً عظيما لمجدها الغابر .

صفة غرناطة والحمراء

إن مملكة غرناطة التي كانت جزءاً من ولاية بويتكا (Boetica) الرومانية في العهد القديم لأسبانيا قد أنشأها محمد الأول الملقب بابن الأحمر . وفي عهد خلفائه نالت شهرة عظيمة . وهي تنتظم تلك النواحي من أسبانيا التي في الركن الجنوبي الشرقي من شبه الجزيرة. وما زادت رقعتها حتى في أعظم عصورها ازدهاراً عن سبعين فرسخاً من الشرق إلى الغرب، وخمسة وعشرين عرضاً ما بين الشمال إلى الجنوب . وقد وصف هذه المملكة مؤرخها ابن الخطيب والمشهور بالخطيب، بأنها كانت تضم ثلاثاً وثلاثين ناحية أو ضاحية. عددها ووصفها في إيجاز مع ذكر إماراتها[١] . وليس من اليسير بحال التحقق من أسماء تلك الأماكن العربية، لذا كان لزاماً علينا أن نقصر الحديث هنا على مدينتي غرناطة واشبيلية . وتاريخ غرناطة القديم السابق على أيام العرب تكتنفه ظلمات دامسة . ويؤكد علماء آثارها القديمة أن هذه المدينة كانت مستعمرة فينيقية وعرفها الرومان باسم الليبيريا [٢] (Illibéria) . وإن أقدم ما لدينا من الشواهد الموثوق بها

(١) انظر الحديث عن ابن الخطيب في فهرست الاسكوريال لغزيري (ج ٢ ص ٢٤٦–٢٦٠).

(٢) ويقرر الرازي، وهذا فيما نقله عنه بدراثا Pedraza أن هذه المدينة أنشأها العبرانيون وإنها كانت تسمى مدينة اليهود واستناداً إلى ما يقوله العالم الاسباني بالآثار القديمة فإن أكثر بروجها وأسوارها قد ما كانت من صنع الفينيقيين، غير أنه مما تجدر ملاحظته ان بدراثا لم يكن دقيقاً الدقة كلها مع مصادره التي أخذ عنها . وما أكثر ما بذل علماء العاديات من جهد علمي أنفقوه هباء في تخمينات عن الاشتقاق المحتمل لاسم هذه المدينة . وأشيع هذه الآراء وأكثرها قبولا عند الناس – وقد يكون له من التوثيق نصيب غيره – الرأي القائل بأنها هكذا سميت لذلك =

عن وجودها لا يرجع أصلها إلى أبعد من عهد عرب أسبانيا الذين أسسوها فيما يظهر فى القرن الثالث الهجرى أو العاشر المسيحى . وكانت فى هذا الوقت جزءاً من خلافة قرطبة . وفى سنة ٦٣٤ من الهجرة (١٢٣٦) أصبحت قصة مملكة غرناطة التى كانت قد أسست وشيكاً . وإن تلك الآثار العربية المعمارية الجليلة لتذكار خالد على حسن ذوق الملوك المسلمين وعظمتهم .

ويقول ابن الخطيب : وغرناطة التى يسميها الأجانب [١] غرناتة أو مدينة الغرباء ، كما يسميها العرب دمشق أسبانيا . كانت قبلُ تتبع مدينة ألبيرة الشهيرة حيث كانت تبعد عنها أربعة أميال . وهى بلا شك تشبه دمشق فى اعتدال مناخها وما تمتاز به تربتها . وتبعد عن قرطبة . التى كانت أول مستقر ومقام للخلفاء العرب ، نحواً من تسعين ميلا إلى الجنوب الشرقى . ثم إن غرناطة قد وصفت أيضاً بأنها كانت قصبة لمعظم البلاد البحرية وكعبة للمملكة جميعها ، والمركز التجارى الجليل ، وأرحب ملاذ لكل بحار ، ومباءة وملتقى للغرباء من جميع أقطار الأرض ، والحديقة الدائمة الثمر الذى سرعان ما يعقب بعضه بعضاً . والمقام المحبوب للرجال والخزانة العامة . وأشهر المدن بساحاتها وحصونها . والبحر الفسيح من الحبوب وأعظم النباتات البقلية الجيدة ، والمنجم الغنى بحريره وسكره . وليست هذه العناوين الجليلة أسماء على غير مسمى ، كما أنها ليست إغراق كاتب من أهلها مالت به نزعاته الوطنية . فسرعان ما سيكشف لك عن ذلك وصف موقعها والحديث عن مبانيها الجليلة التى تجملها . فعلى مسافة من المدينة ينهض جبل هو جبل ، نفادا مشهور ببياض ثلوجه وطيب مياهه . ولن ننسى إلى جانب هذا نقاء الهواء ووفرة من أعظم الحدائق بهاء ، معها كثرة كثيرة من مختلف النبات ومختار من أعطر الأزهار .

الشبه بين موقعها والرمانة الناضجة فإن التلين اللذين تقوم عليهما المدينة يحكيان الجلد المتشقق . وتلك الربوتات التى يزخر بها الوادى الذى يتوسطها تحكى البزور . وجريا مع هذه الفكرة فإن ذراعى غرناطة أشبه برمانة متوجة نصف مفتوحة عن حباتها الملونة فى أرض فضية ، وهما موصولان بكل باب أو عمد منقوشة فى الشوارع والأسوار العامة .

(١) يعنى بالأجانب العبرانيين أو الفينيقيين .

ومن بين تلك الهبات النادرة الفائقة حقول القمح والمراعى والمروج التى قد ترى مع كل فصل من فصول السنة . وهى صقع غنى بالذهب والفضة والرصاص والحديد والتوتياء والأحجار البلورية والزمردية . ومن بين تلك النباتات التى على الجبال ،وكذلك التى فى الغيضات ،يعثر على كبريت العمود والعشبة المرة والسنبل الهندى ، كما يعثر هنا أيضاً على القرمز الذى يحصل منه على صبغ قرمزى للحرير.(١) ويحصلون من هذه المادة على مقادير تسد حاجتهم ويستغلونها فى سد الحاجات المنزلية والأعراض التجارية . وهذه الأنسجة الحريرية التى تصنع منها تفوق بحق فوقاً بعيداً تلك التى تصنع فى الشام فى جمالها ونعومتها ولطف نسجها . والريف المحيط أحسن ما تقع عليه العين بهجة ، وهو ينافس بحق حقول دمشق الجميلة وهو مثلها سهل هين للركوب أو المشى بالليل أو النهار ، وينتشر بطبيعته فى سهل(٢) يروى بالجداول والأنهار ، وأنى اتجهت تبدو لك القرى والحدائق التى تزدان بالمبانى

---

(١) هذه الحشرة عند علماء الطبيعة Coccuo Illicio كبثة . وقد ظن القدماء أنها الفرصاد .

(٢) هذا السهل يسمى اليوم مرج غرناطة . وهو وإن لم يعد يزرع بالقدر الأول ولا بتلك الهمة التى كان يبذلها عرب أسبانيا ، فلا زال من أبهج البقاع التى تقع عليها عين الرحالة . فالمراعى وحقول القمح والآثار والغابات والحرجات التى تتناثر فيها الكروم وتحيط بها الجبال التى تغطى قممها الثلوج الدائمة وتغشى منحدراتها أشجار الكروم والزيتون والبرتقال والليمون والتوت ، التى تراها هنا فى كثرة زاخرة وقصور مجتمعة ، مشهداً فريداً للنظارة . وهناك أمكنة قليلة ذات تأثير أقوى بما تجمع فيها من أشياء تشغل انتباه عالم العاديات والتاريخ الطبيعى والفنان من آثار للقرطاجنيين والعرب فهناك الجبال مفعمة بالمعادن والمرمر والمناظر العظيمة المثيرة للمشاعر والمحركة للوجدان التى ربما حركت ريشه Poussin أو Clande وهذا الوادى المثير أو تلك الجنة كما تسمى فى كثير من الأحيان التى تواجهك من المدينة من أجمل مناظر الطبيعة ، ويقدر محيطها بنحو من مئة ميل ،وهذه المساحة الفسيحة تغشيها الخضرة الدائمة رمز الخلود . وعلى هذا فإن رءوس الجبال المجاورة مغطاه دوما بالثلوج . وأما قسوة الفصول فلا تحس فى هذا الوادى . والربيع والخريف يحلان محل الشتاء ،وقيظ الصيف تلطفه تلك الجبال القريبة ،وهذه المياه البلورية التى تسقى الأشجار والنباتات التى تنعكس صورتها على صفحتها . وأما منابع الخصب الأولى فهى هذه المجارى العديدة التى تنحدر من تلك المرتفعات المحيطة وتجرى سريعة إلى الوادى . ولكنها لا تلبث أن تنهنه من حدة جريانها عند ما تتقدم وتغير مجراها ،وكذلك وفى تلك المنحنيات الكثيرة التثنى فإنها تنحدر متمهلة على طول ذلك السهل المخضر وكأنها لا تريد أن تترك مثل هذه الحرجات المحببة .

الجميلة والأشجار والنباتات، بينما تلك التلال والجبال المحيطة تحدق بالسهل على شكل نصف دائرة تقريباً تمتد أربعين ميلا، وعند نهاية هذا السهل تقع مدينة غرناطة الجليلة التى لضواحيها، المشرفة على تلال خمسة ترتفع فى بعض نواحيها على مرتقيات بهيجة وتمتد فى نواح أخرى فى السهل تغشيها المبانى التى تزخر بكثرة من السكان، أشبه شيء بذلك المكان الذى يسمى كورة النحل. وإن اللغة لتعجز حقاً عن أن تصف ما يحسه الإنسان من سعادة وفتنة بطيب الهواء واعتدال المناخ، وتلك القناطر فوق الأنهار وجلال تلك المعابد وأسواقها التى تجد فيها كل ما تشتهى. ويقسم المدينة قسمين نهر حدرة الذى ينبع من الشرق ثم يتصل بنهر شنيل وهو يروى السهل كله، وهو كالنيل بعد أن يتزود بعدد عديد من النهيرات والجداول يصبح مجرى عظيما ويفيض إلى إشبيلية. وفى غرناطة تجد لكل بيت حديقة قد غرس فيها البرتقال والليمون والأترج وشجر الغار والآس وغيرها من أشجار ونباتات أرجة، تعطر بشذاها الهواء وتكسب السكان صحة. والبيوت جميعها مزودة بماء جار. وفى كل الشوارع نافورات كثيرة مما جاد به الملوك المتتابعون، يجد فيها الجمهور غناءه ويتخذ منها المتوضئون مكانهم. وبالإجمال فإن كل ما يمكن أن يوفر الراحة والنعيم فإنك واجده فى وفرة وفيرة فى حى البيازين، وهو أعلى ناحية من المدينة، وكان سكانه يبلغون أيام العرب عشرة آلاف نسمة، تبدو البيوت بنوع خاص لطيفة ومزينة تزييناً جميلا من الصنعة الدمشقية[١]. وما يفيض من محاصيل القمح الوفيرة التى تجود بها تلك التربة الشديدة الخصب يخزن فى صوامع لا تحصى نحتت فى جوانب الجبال. وهذه الكهوف اليوم أصبحت مساكن للغجر الذين يكثرون فى هذا الجزء من شبه الجزيرة. وكان لغرناطة فى القديم عشرون باباً لم يسلم منها شيء بقى على حاله الأولى إلا القليل، كما أن أطلال الكثرة الباقية لا تزال فى أماكنها. وإلى الجانب الآخر لا يزال هناك منظر بهيج

---

(١) هذه الصناعة الدمشقية المذكورة كانت نوعاً خاصا من الحلى الجصية اخترعت ابتداء فى دمشق ومن ثم أخذت هذا الاسم.

ممتع ، فهناك تقوم مدينة أخرى هى مدينة الحمراء[1]. وفيها القصر الملكى . وهنا ترى الأبراج السامقة والقلاع القوية التحصين والقصور الفاخرة ومبانى أخرى عظيمة تشغل خاطر الناظر إليها إعجاباً. وهناك المياه الغزيرة الممتدة التى يسمع خريرها من بعد تفيض من ينابيع مختلفة وتروى كلا من الحقول والمراعى . يحيط بالأسوار الخارجية لمدينة غرناطة أنفس الحدائق وأرحبها حيث تتكاثف الأشجار فتبدو وكأنها الأسوار ، ولكنها لا تقوى على أن تحجب منظر أبراج الحمراء الجميلة التى تتألق كالنجوم بين أوراق الأشجار . وعلى الإجمال فليس من بقعة تخلو من بساتين وكروم وحدائق . وما أوفر نتاج تلك الفاكهة والخضراوات التى كانت تنمو فى ذلك السهل الواسع الممتد والتى كانت هى الثروة الوحيدة للأمراء الأول التى يحصلون عليها كل عام . وكان صافى دخل كل حديقة يقدر بخمسمائة ريال ذهباً ، كان يدفع منها للملك ثلاثون مناً وحول هذه الحدائق تجد بعيداً منها حقولا ذات نباتات مختلفة تعطيها خضرة دائمة ، وتنتج محصولا أو محصولين فى كل فصل من فصول السنة. وعلى هذا فالأرض تغل على التتابع . والخراج السنوى يقدر بنحو من خمسة وعشرين ألف ريال من الذهب ، أى ما يعادل نحوا من خمسة عشر ألف ليرة من الذهب . وهو قدر كان فى ذلك الوقت عظيما ، على حين كان القمح يباع كل كيلة منه بنحو قرشين . وهنا قد يرى المشاهد أيضاً الأراضى الملكية بدت عجيبة البهجة بأشجارها الملطفة ونباتاتها المختلفة ، والأبراج السامقة ترتفع فى منظر فاتن ، والسهل الواسع الممتد والمياه الدائمة الفيضان التى تمد الحمامات وتدير الطواحين . وما تُغل من دخل يخصص لتحصين المدينة. وتشغل المزارع

---

(١) وتكتب عادة خطأ « الهمبرا » وقد ذكرت أسباب مختلفة لتلقيبها بهذا اللقب ، فيقول بعض مؤلفى العرب إنها سميت هكذا من لون المواد التى بنيت منها . ويظن آخرون أنها محرفة عن « الحمار » اسم لتلك القبيلة العربية التى انحدر منها مؤسسها محمد الغالب بالله . على أن ابن الخطيب يرى أن اسمها مشتق من تلك الحالة التى كان العمال يشتغلون فيها بالليل فى ضوء الشموع . ولكن المحدثين من الأسبان يرون أن هذا المبنى الفاخر يشير إلى جبل الشمس ، لأنه وهو يسمى الجبل العالى يتعرض لشروق الشمس .

الملكية مسافة تقرب من اثنين وعشرين ميلا يقوم بزراعتها وتجميلها عدد عديد من الزراع الأقوياء البنية تعاونهم مجموعة من الحيوان المختارة ، وفى الكثير منها قلاع وطواحين ومساجد . وإلى جانب ما تفيده تلك المزارع من جمال شيء هو أكثر قيمة فى الاقتصاد الريفى ، ألا وهو خصب التربة العميم .

وكثير من المدن المتميزة بسكانها وغلاتها تقع متناثرة حول الأراضى الملكية ، قد كان بعضها للرعى ، كما جعل بعضها الآخر للفلاحة . وهذه يتبعها قرى ودساكر وأماكن أخرى مزدحمة بالسكان تبلغ كلها ثلثمائة . ويبلغ عدد دور العلم وأماكن العبادة خمسين . وفى خارج أسوار المدينة أكثر من مائة وثلاثين طاحونة كلها عاملة . وكان أجمل ما فى غرناطة فى عهد الامبراطورية العربية الأسبانية ، كما لا يزال إلى اليوم ، هو بلا مراء القصر الملكى (١) أو حصن الحمراء وقصرها الذى أنشأه محمد ابو الأحمر بن نصر ، ويلقب بالغالب بالله ، ثانى ملوك غرناطة الذى وفى نفقات إنشائها من ضريبة فرضها على الرعايا المغلوبين . وكان يشرف على البناء بنفسه . وعند ما تم جعله مقاماً ملكياً . وقد حصن أيضاً هذا الملك السعيد الجد الجبل الذى تقوم عليه . وخلال مدة حكمه كلها وقف جزء وفيراً من ثرواته على تحسينها والبلوغ بها مبلغ الكمال (٢) . وأغرم خلفاء أبى عبد الله كل الغرام بزخرفة الحمراء أو إضافة أشياء إليها ، ولاسيما ابنه محمد الثانى وحفيده محمد ، الثالث . وقد أنشأ هذا الملك مسجداً على فن معمارى جميل أنفق عليه نفقات واسعة ، وجمله تجميلا بالفسيفساء ، وجعل سقفه تعتمد على أعمدة

---

(١) محرفة عن الكلمة العربية « القصر » بمعنى القصر . واحتفظ بها العرب منذ أيام يوليوس قيصر الذى خص قبيلة من قبائلهم دون غيرها بحق تربية الحرير والتجارة فيه ، ومن ثم أطلقوا على البناء العام الذى كان يباع فيه اسم قيصر أو بيت قيصر . وبعد ذلك حين دخلت جيوش المسلمين المظفرة إلى أسبانيا أدخلوا معهم تربية الحرير مع ذلك اللقب الذى كانوا يطلقونه على البناء الذى يباع فيه ، إلا أنه مع مر الأيام أصبحت أشياء أخرى إلى جانب الحرير تعرض للبيع فيه .

(٢) من أجمل مناظر الحمراء وأجنحتها المختلفة الفاخرة وحلياتها اللوحة العاشرة وما بعدها انظر كتاب مرفى : « الآثار العربية القديمة فى أسبانيا » فقد صورت فيه بدقة وأبدع نقشها .

كبيرة بديعة الصنع تيجانها وقواعدها من الفضة . ويصف المؤرخون العرب هذا البناء بأنه عمل نادر وعجيب، جدير بكل تقدير لهذا الأمير المنقطع النظير . ولكن الأمير الذى أتم هذا القصر هو يوسف بن إسماعيل بن فرج، ويلقب بأبى الحجاج شاعر مجيد وعالم جليل كما كان محبا للفنون الجميلة وقد، حكم من سنة ٧٣٢ هـ . إلى سنة ٧٥٥ هـ . (١٣٣١ — ١٣٥٤م) وكان آخر ما عمله فى الحمراء البرج المربع، وهو الآن المدخل الأكبر الحالى للقلعة. وتدل النقوش التى عليه على أنه أنشئ سنة ٧٤٩ (١٣٤٨) .

* * *

خطة الحمراء

ما أشبه الحمرا ءبقلعة « وندسور » فهى تقع فوق الحافة الشمالية لتل صبب يطل على منظر ممتد فوق ريف جميل، ويسمو بطلعته الجليلة فوق مدينة غرناطة . وقد تقوضت جوانبه التى تواجه القلعة تقويضاً ، أو أتخمت بمبانى حديثة حتى لم يعد ظاهراً إلا قلة قليلة من آثار الجدران الخارجية. ولكن البقايا الداخلية من القصر على حال لا بأس بها تعطى صورة واضحة عن عظمة رائعة لملوكها السابقين. وكم يبدو كل شىء من هذا البناء غريباً ، ثم ما أبين الفرق بينه وبين كل ما ألفنا أن نراه، وإنا لنتبين فى فنه المعمارى ، حتى وهو فى حاله الحاضرة المهجورة، حال المالكين ومكانهم من القوة وما اتصف به الخلق العربى من جد وصرامة. ولكن عظمة الملك المعمم قد توارت وأصبح عرش بنى مضر تملأ جنباته الخفافيش والبوم . وتفصيل ذلك شىء يسير ملموس فمثلا القاعات التى هى فى دورنا تكون عادة كئيبة غير جذابة تراها هنا قد خطت على أن تكون سلسلة متصلة من الأجنحة، كلها من أولها إلى آخرها فى مستوى واحد. ومن المحقق أنها كانت فى حالها الأولى ساحرة فاتنة، فالردهات والقاعات والسقائف والعمد والعقود والفسيفساء

والنباتات والأزهار البلسمية المختلفة الألوان ، كل ذلك تراه خلال سديم رشاش النافورا . ومع أن العرب لم يكونوا على علم بالمنظور إلا أن مشاهدهم المعمارية كانت بحق ساحرة تفتن الأفكار ، وأحكم إعدادها حتى ليبدو البناء الصغير أكبر مما هو عليه . راستعاضوا عن تلك الأعمال الفنية القديمة الغالية بأن جملوا قاعاتهم وحريمهم بمظاهر الطبيعة البسيطة شاكرين الله على أن وهب لهم تلك الصور الأصيلة التى أغنتهم عن النقول . والماء موفور فى كل ناحية من نواحى القصر زمام أمره فى أيديهم يصعدون به أو يهبطون ، وحيناً يجلونه للعيون وحيناً يخفونه حسبما يريدون . وأحياناً يفجرونه فى الهواء يبدد وخيم الأبخرة السابحة فى الفضاء ويحيل جفاف الطقس رخاء ، وأحياناً أخرى ينشرونه فى وسط قاعة صفحة مستطيلة تبدو عليها مناظر الأبنية والنافورات والأشكال ثم السماء بزرقتها الصافية . وقد جملت الحافة بأعلام من المرمر الأبيض تضم أحواضاً طويلة من الأزهار نسقت على الجانبين ، وينساب فيها جدول جار لا ينقطع حتى ينتهى إلى طرف من أطرافها ثم يخرج من طرف آخر تاركاً السطح المستوى إستواء البلاط ناعماً وكأنه تلك الأرض الزجاجية من ردهة الاستقبال ، التى تلقى فيها سليمان ملكة سبأ . وفى كل جناح يجرى تياران من الهواء فى غير إنقطاع ، فهناك كوات قريبة السقف يخرج منها الهواء الساخن الفاسد الذى يطرده الهواء النقى أسفل منه إلى أعلى . وبتلك الأنابيب المبثوثة فى الجدران ، التى هى أشبه بالأقبية تحت الأرض ، ينتشر الدفء لا فى هذه الحمامات المصطفة وحدها بل فى كل الأجنحة العليا المجاورة ، التى تعوزها الحرارة . والأبواب فى العادة كبيرة بنيت إلى الداخل قليلا ، اللهم إلا فى جانب البناء تجاه الوهدة حيث المنظر جد عظيم ، فقد وضعت النوافذ لتجعل نظر الناظر لا يعدو ما فى داخل القصر وإلى هذا الغرض يشير نقش من النقوش فى أحد الأجنحة وهذا فحواه : « تمكن نوافذى للضوء أن يمر ولكنها لا تمكن من رؤية المناظر الخارجية حتى لا تشغلك محاسن الطبيعة عن محاسن صنعى » . وإن الزخارف العربية ، والطلاء والفسيفساء ، التى تم صنعها فى حرص ودقة ، تدلنا على

عنايتهم واهتمامهم حتى بالأجنحة الصغيرة، فبدلا من أن يغطوا الجدران بالورق أو بالخشب فقد غشوها بالزخرفة العربية التى صبت فى قوالب على هيئة فريدة، ثم ضم بعضها إلى بعض على حال لا يظهر معها أثر الانفصال[١] . وهذه الزينات المنعطفة ملونة فى تدرج سليم بالذهبي الناصل ثم القرنفلى ثم الأزرق الصافى ثم الأرجوانى القاتم . وأول الألوان أقربها وآخرها أبعدها عن العين. ولكن السطح فى عامته أبيض. والكثرة من أعمال النحت التى تبدو غير سواء فى بروزها تثير البلبلة. لذا فقد تنزهوا عن ذلك الخطأ فى هذا المكان حيث الحليات قد صنعت حفراً. كما أن عددها الذى لا يحصى يثير فى النفس شعوراً بلا نهائية منها تكلف وصنعة. أما فى الخارج حيث يضطرون إلى الأشياء البارزة فيلاحظ أن خط التسلسل يكون متسقاً فى كل مجموعة ذات نسق بين وكذلك القباب والمقنطرات صنعت من حليات مصبوبة ، تكاد تكون فى خفة الخشب وفى صلابة المرمر. وتستطيع أن ترى نماذج منها فى الصناعات العربية الأولى التى لا تزال بعد مر قرون عشرة لم تصب بسوء. ويظهر أنهم كانوا على علم حق بخصائص كربونات السيلنت Selenite . والجزء الأدنى من الجدران ، على ارتفاع يقرب من أربعة أقدام ، مغطى بالفسيفساء الخزفية ذات الأشكال والألوان المختلفة . ويتبين لنا من قليل من القطع التى بقيت فيه أن أرض بعض الأجنحة وأعمدتها كانت هى الأخرى مغطاة بفسيفساء من هذا الطراز . وكان العرب يشغفون شغفاً عظيما بتلك الحليات التى كانت لوناً من ألوان الترف غير المعروف لمعاصر يهم من القوط ، الذين كانوا يغطون جدرانهم بالحصر وأرضهم بالحلفاء . ومنذ أن غزا فردناند واليصابات غرناطة سنة ١٤٩٢ تعاورت على الحمراء تغيرات كثيرة ، فعند ما فتن الامبراطور شارل الخامس بجمال موقعها ونقاء هوائها أمر ببناء قصر جليل على أنقاض مبانى القصر العربى. ويظهر أنه أراد أن يجعل منه

---

(١) انظر حدود هذه الزخارف العربية والفسيفساء فى كتاب مرفى « الآثار العربية فى أسبانيا » اللوحات ٤٤ — ٦٥ ، ٧٨ .

مقامه الدائم، ولكن لتلك الحروب المتكررة التى شغل بها، هذا إلى غيباته المتوالية عن أسبانيا، لم ينشئ غير مجموعة من الأجنحة الجميلة المزينة تزيناً بديعاً على طراز أسبانى. وسرعان ما تداعت هذه كما تداعى سائر الحمراء لإهمالها. أما اليوم فالجدران مشوهة والطلاء قد تغير والحليات الخشبية قد تفتتت. وترى الآن حبالا من نسيج العنكبوت قد تدلت من الأسقف. ولكن ما أقامه العرب على العكس من ذلك، فالجدران لا تزال باقية دون أن يمسها تغيير. اللهم الا ما أصابها به يد الإنسان من عطب. وألوان الطلاء التى لا زيت فيها إذا ما نفضت عنها الغبار تبدو محتفظة بإشراقها. ودعامات السقف والأعمدة الخشبية فيه ليس فيها أى أثر من آثار العطب. والعنكبوت والذباب والحشرات الأخرى جميعها تنأى بجانب عن هذه الغرف فى كل فصول السنة. وإن الصنعة التى مكنتهم من أن يجعلوا الخشب والطلاء يبقيان على الزمن، وأتاحت لهم صنع الخزف والفسيفساء والزخرفة العربية والحليات الأخرى قد بدأت وانتهت فى غرب أوربة بمجيء عرب أسبانيا وذهابهم. ومن أعجب شيء فى هذا البناء وأطرفه هو الحمامات التى تكاد تكون سليمة، ويمكن أن تعطينا فكرة ملائمة عن أسلافهم فى إنشاء تلك الغرف المترفة[1] وإنارتها وتدفئتها، وقد لاحظ بدراثا الأثرى الغرناطى أنه ليس من حاكم مسيحياً كان أو كافراً، ملك أبداً جناحاً أعظم أبهة من ذلك الجناح الذى يسمى ردهة السفراء. وما أحراه أن يؤكد صادقاً أنها ردهة جليلة. ثم هى « ذات عقود غالية تمكن للمردة ألا يخلعوا عنهم عمائمهم ». ومع أن ردهة الأختين، ليست كبيرة جداً فإن فى إنشائها عبقرية أرفع وأسمى. فالقباب بصفة خاصة هى أعجب آيات العمارة العربية طراً، وهى لا تزال على حال رائعة. ومع أن البناء يبدو بسيطاً فى إنشائه إلا أن حساب المقاومة فيه قد أحكم إحكاماً كبيرا يوفى بالغرض، حتى إنك لا تجد جزءاً من الأجزاء فى حال ما قد تزحزح عن مكانه

---

(١) انظر كتاب مرفى « الآثار العربية فى أسبانيا » اللوحات ٢٠ — ٢٧ .

أو غاص تحت ثقل ما يحمل . ويقول منصف من الذين شاهدوا البناء حديثاً :
إن الطابع الذى يسود البناء كله فريد لا يشبهه بحال بناء ما عرفناه، وإن ما أثاره فىّ من إعجاب وارتياح كفيل بأن يبعث فى نفسى ألطف الذكريات فيما بقى لى من حياتى. ولا شك فى أن هذه السعادة ستزداد زيادة عظيمة عند قراءة الشعر المعروض فى الأفاريز والعارضات والأشرطة، سواء أكان بالخط الكوفى أو الشرقى الغنى بألوانه ، ثم فهمه بخيال العربى المفتون . وإن النظر فى مختلف ما بقى من الآثار وما سجل عن أمجاد ملوك العرب يمكننا من أن نتبين كيف أن هذا القصر بقاعاته وردهاته وحماماته ونافوراته وحرجاته وحدائقه قد بلغ الغاية فى عز سلطان هؤلاء الملوك. وكان لباس آ له من فاخر الكتان والحرير والمطرزات التى تتألق بالذهب وفصوص الأحجار الكريمة، كما كان مؤثثاً بغالى الأثاث من خشب الأترج والصندل والند ، حلى بالعاج وعروق اللؤلؤ . وشيب بمصقول الذهب السمنجونى والأزرق . ثم أوانى من أعجب الصنع وأنفسه ، خزفية وبلورية وفسيفسائية وأخرى من الجزع . ذلك إلى أن معلقات ثمينة من بسط ذات تزاويق وتكآت وحشيات قد فاحت كلها بأغلى الكندر اليمنى . ولكن هكذا تدول عظمة الإنسان، فلم يبق اليوم من كل هذه الأبهة الأسيوية ، ومن جلال غرناطة السابق، إلا أبنية خربة وحقول جربة، وهيكل لمدينة لا يسعى فيها إلا الرهبان والنساك والمحامون يجنون التعاسة التى خلقوها . والحمراء فى أيامها الحاضرة مهجورة هجرانا اللهم إلا أيام رحلة الغرباء إليها. وهى فى حاجة إلى الترميم. وتلك التصدعات المتتالية ، والتلف الذى ينشأ عن الأمطار ، وتلك المياه الراكدة فى جنباتها ، كل هذا يسرع فى تقويضها وعلى هذا فإن بقاءها معطلة متروكة مهملة كأنها الصديق الغريب فى غير أرضه ، دون أن تبادر الحكومة إلى العون السريع ، قد لا يلبث بها إلا سنين قلائل، ثم إذ هذه القباب والعقود الجميلة من هذا القصر الوحيد الباقى أثرا للخلافة فى الغرب قد سويت بالأرض . ومن الآثار المعمارية الأخرى الباقية من الحمراء وأعظمها شهرة بابا المدخل الرئيسان . وبناء

الصهريج العظيم المتصل بالقصر مكين متين . وتلك الطريقة البارعة فى ترشيح المياه بعد أن تحمل إليه فى الشتاء ، ثم حفظه نقياً وفى درجة ثابتة من الحرارة طول العام ، جديرة بأن تتبع ولا سيما فى الأجواء الحارة . ولا يزال الكثير من الحبوب التى تحت الأرض باقية حيث هى فى شرقى الحصن وفى أعلى ناحية فيه . وقد أصبحت هذه الكثرة من المخازن تزيد على حاجة السكان ولم تعد ضرورية لهم . وهى تبدو من الرحابة بمكان تتسع فيه لحبوب غرناطة أقصى ما تكون عمراناً بالقطان . ولا يزال هناك فى غرناطة بناء يقال له بيت الفحم . ويظهر أنه كان سوقاً لبيع الفحم ، كما يدل الاسم. وإلى الجوار من هذا بنا آن قديمان هما جنة العريف وبيت القديس دومنجو ، وهاتان الكرمتان العربيتان والنموذجان الجليلان لطريقتهم فى البناء، وهما يقعان خارجاً على جانب الجبل المشرف على السهل .

ويتألف بيت القديس دومنجو أكثر ما يتألف من رواق لطيف ذى أعمدة مزدوجة وردهة عالية فريدة فى صنعها ، كما لا يزال به بعض بقايا من الغروس القديمة ، ونافوراته وممراته وتعريشاته، ولكنه جميعه قد أهمل الإهمال كله على يد مالكيه المقيمين من الرهبان الدومينكانيين الذين يحمل اسمهم . وكرمة جنة العريف[1] الملكية ذات موقع بهيج على الجانب من جبل صبب يواجه الحمراء ويدوران معاً فى سياج تقوم فى داخله مدينة غرناطة [2] . وهى من حيث الموقع لا تتخلف عن الحمراء فى شىء ولكنها تفضلها فضلا بجمال مجاريها التى تروى أراضيها ، وثم بخضرتها وهذا وذاك يأتلفان فيجعلان معاً مكاناً كله فتنة وسحر . ويقوم البناء الرئيس على مرتقى الجبل، ومن خلفه تطالعك الحدائق بأشجارها العظيمة تفيض عليها بالخصب نهيراتها الكثيرة . ولا تزال ثم أشجار السرو القديمة التى كانت تظلل بأوراقها تلك البقعة حينما كانت مسرحاً للحبور والنعيم . كما

(١ و ٢) انظر تخطيطا فى مرفى (الآثار العربية فى أسبانيا للوحات ٩٠ — ٩٦)

لا تزال هذه الأشجار تسمى سروات الملكة، نقلا عن قصة متواترة، وهى أن السلطانة زوج أبى عبد الله آخر ملوك غرناطة قد شوهدت خلفها فى مداعبة عابثة مع فرد ينتمى إلى أسرة بنى سراج النبيلة[١]. وقد رتبت الحدائق على شكل مدرج تسقيها مجار تنحدر إليها من قمة الجبل. وهى بعد أن تتحول إلى مساقط مائية كثيرة تتوزع بين الأشجار والشجيرات المزهرة.

وفوق جنة العريف نفسها وإلى القرب من قمة الرابية شىء شبيه بالمقعد الحجرى قد قطع من صخرة، يقال إن ملوك العرب اتخذوه مكاناً للرقبة حينما كان الأسبانيون يحاصرون غرناطة. والنقوش الداخلية فى تلك الكرمة ليست دون نظيراتها فى الحمراء جلالا ولطفا. وهكذا كانت غرناطة أيام كامل عمرها قاعدة الملك المكين ومحط الفنون والآداب والعلوم. وعلى الرغم من احتلال فردناند واليصابات لها من أمد بعيد يرجع إلى سنة ١٤٩٢ فهى لا تزال حتى اليوم مثار الذكريات العميقة للعرب الذين يتوسلون إلى الله فى كل يوم جمعة أن يعيد عليهم غرناطة التى يعدونها بحق جنة الأرض. ويقال إن سكان المملكة قد بلغ فى عهد العرب ثلاثة من الملايين. وقد انحط عددهم اليوم إلى ما يقرب من من ٦٦١٠٠٠. ويتناقص سكان المدينة بمعدل مطرد، ففى سنة ١٤٩٢ كانوا ٢٥٠,٠٠٠ ثم نقصوا فى سنة ١٦١٤ إلى ٨٠,٠٠٠ نتيجة لاضطهاد العرب وطردهم. وهم الآن على حسب إحصاء تم حديثاً يقدرون بخمسين ألفاً فقط[٢]. على أن غرناطة ليست مشهورة بتلك الآثار المعمارية العربية الكثيرة فحسب، فلها أيضاً شهرة عالية متميزة بأنها مركز الآداب والفنون الجميلة، وأن مكتبتها التى

---

(١) يقال إن هذه التهمة هى وما قيل من ائتمارها بأبى عبد الله قد انتحلها أحد بنى زكريا، تلك الأسرة النبيلة التى كانت خصما لبنى سراج، بفكرة القضاء عليهم. فقد ذبح منهم هذا الملك الغيور ستة وثلاثين. وحكم على الملكة بأن تحرق حية إذا لم تحضر فى ثلاثين يوماً فرساناً أربعة ليدافعوا عن تهمتها أمام متهميها الأربعة، ولأن القصة مهمة جدا فقد أتينا بها كاملة فى الصفحة التالية.

(٢) انظر تخطيط هذه فى كتاب مرفى (الآثار العربية فى اسبانيا) اللوحات ٩٠ — ٩٦

أنشئت بها والتى زادها بر الملوك المتعاقبين بها نمواً ، لها شهرة خاصة ، وأن كثيراً من المخطوطات التى كانت بها أصبحت اليوم بمكتبة الأسكوريال. وقد أشار غزيرى فى فهرسه الذى أتمه فى سنة (٦١ هـ — ١٢١٤ م) إلى ما كان يعد فيها من أندر المخطوطات أيام العرب[١] .

ولم تكن جامعة أوكليه أقل من ذلك شهرة وقد انشئت فيما يظن قرب نهاية القرن الحادى عشر (السادس الهجرى) وحوالى هذا العهد ترعرع فى غرناطة أعظم الأطباء والمؤلفين شأناً .

وقد سجل غزيرى الأسماء والمؤلفات لمائة وعشرين من الأدباء والمتكلمين والفقهاء والمؤرخين والفلاسفة وغيرهم من الأساتذة الذين رفعوا بمواهبهم الأدبية من قدر جامعة غرناطة وشهرتها .

* * *

قصة السلطانة

(المشار إليها سابقاً)

فى أيام الملك أبى عبد الله آخر ملوك غرناطة كانت أعظم الأسر سلطاناً فى هذه المدينة بنو أسد وبنو سراج وبنو زكريا وبنو عامر ، وكانوا يشغلون الكثرة من الوظائف العظيمة فى البلاط ، وقلما كان يسمع عن عمل هام فى الحرب إلا وكان فارسه الذى تم على يديه واحداً من هذه البيوت الأربعة . وكان

(١) وكان محمد بن أحمد بن فرج بن بشكوال أبو عبد الله أميناً لهذه المكتبة المشهورة فى أوائل القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر المسيحى) وكان من أهل طرسوس فى كليكيا . وقد درس فى المدرسة فى مملكة غرناطة وكان مبرزاً فى الفلسفة والطب والفقه على السواء . وكان أولا وراقا من وراقى غرناطة ثم مطرزاً ثم صيدليا. وعند ما اتهم بسرقة مخطوطة سياسية تخص الملك نفى إلى بونه.

بنوسراج يبزون الباقين جميعاً، ولم يدانوهم مروءة ولاجلالا ولا فروسية، ولم يكن بين بنى سراج من هو أكثر ثقافة ولاشهرة من الابن حامد، الذى كان لسامى حكمته وعظيم شجاعته على رأس خلصاء الملك.وزاد نفوذه ازدياداً ألهب عليه صدور بنى زكريا وبنى عامر بأمر الحقد، فصمموا على أن يزحزحوه عن هذا المركز السامى.وبعد أن قلبوا الأمور على وجوهها للقضاء عليه لم يروا من بينها ما هو أكثر نفاذاً من اقتراح عرضه خبيث باقعة من أسرة بنى زكريا . فقد انتهز فرصة انفراده بالملك، الذى كان صريحاً لا يعرف الشك، فوجه نظر الملك، متظاهراً بأنه مهموم أشد الهم، إلى أن العقلاء جميعهم يأخذون عليه ما يبديه من لين شديد بوضعه ثقته العمياء فى أمثال الخونة من بنى سراج واستكانته إليهم . وقد استطار الخبر بأنهم يدبرون فتنة عامة يستطيعون بها أن ينتزعوا أبا عبد الله عن عرشه ويقضوا على حياته، ولم يقف بهم الأمر عند هذا الحد فإنه قد رأى هو وثلاثة من أجلاء الناس الملكة فى مغازلة عابثة مع الابن حامد بن سراج خلف أشجار السرو السامقة فى جنات العريف، وأن حامداً عاد من عندها متوجاً فى قحة برعلة من الأزهار .وقد هاجت هذه السعايات كل هائجة الغيرة فى صدر الملك وفى هذه الجلسة السرية الدموية دُبر القضاء على ذرية بنى سراج .

ودعى أعلام الرجال من أسرة بنى سراج الأمينة واحداً بعد واحد، بحجة أو بأخرى، ليلحقوا بالملك فى قاعة الأسود . وما أن دخل كل واحد من هؤلاء الضحايا التعساء إلى داخل الأسوار حتى قبض عليه بنو زكريا وقادو إلى حوض من المرمر كبير فى ردهة من الردهات المجاورة ، وهناك قطع رأسه . فقضوا على ستة وثلاثين من أنبل هذه السلالة من قبل أن تكتشف المكيدة. ولسبب ما تبع غلام لنبيل من النبلاء سيده إلى الداخل، ثم خرج ثانية دون أن يراه أحد وأذاع سر تلك المذبحة.وما أن علم الناس بهذه الخيانة، حتى امتشق أهل غرناطة جميعاً سلاحهم وتلى ذلك معارك عنيفة . وأوشكت الدولة أن تصل إلى شفا الخراب بسبب هذا الاعتداء المروع الذى وقع بين أعظم زعمائها بسالة، ثم هدأ ذلك

الشعب بفضل حكمة أخ غير شرعى للملك يدعى موسى . وعقد مجلس عظيم كشف فيه أبو عبد عن السبب الذى من أجله أوقع القصاص ببنى سراج ، يعنى ائتمارهم به وخيانة الملكة . وقد أعلن فى جلاء قضاءه عليها ، وهو أن تحرق حية ، هذا إذا لم تستطع خلال ثلاثين يوماً أن تقدم أربعة فرسان يدافعون عنها إزاء الأربعة الذين اتهموها . وكان أقارب الملكة على وشك أن يسلوا سيوفهم فى قاعة الاستقبال ويخلصوها من الخطر الذى يهددها ، ولكن موسى بفصاحته جعلهم يكظمون غيظهم ذاكراً لهم أنهم قد ينقذون بثورتهم حياة الملكة ولكنهم لن يبرئوا سمعتها أبداً عند الناس الذين سوف يتهمونهم من غير شك بالخروج عن جادة الحق والعدل ، لأنهم أبوا أن يذعنوا للمحاكمة العادلة . وسرعان ما حبست الملكة فى برج قمارش ، وود كثير من محاربى غرناطة أن يكون لهم شرف الدفاع عنها بحياتهم ، ولكن لم يسعد واحد منهم باختيارها . فقد كانت تحسن الظن كله بالمسيحيين ، لما رأته من بسالتهم التى أبدوها فى نزال عظيم أقيم أخيراً فى غرناطة . ثم إن مكيدة بنى زكريا جعلتها تنطوى على فكرة كلها قنوط بما عند العرب من شرف . وصممت على أن تكل أمر الدفاع عنها إلى مروءة الفرسان الاسبان . وأملا فى إثارة نفوسهم النبيلة إلى عونها أرسلت رسولا تثق به بكتاب منها إلى دون جوان الشاكونى حاكم قرطاجنة تتوسل إليه أن يتولى أمرها ، وأن يسلك مسلك الفارس الكريم فيحضر ومعه ثلاثة من الفرسان الشجعان ليقفوا إلى جانبها فى اليوم الموعود . وأجابها «الشاكونى» أنه يقدر هذا التشريف قدراً يجعله حريصاً على أن يحضر فى موعد المحاكمة . وجاء اليوم المقدور وساد أعظم الهم كل غرناطة حين وجدوا أن أميرتهم المحبوبة قد تهاونت التهاون كله فلم تدع واحداً للدفاع عنها . وعبثاً حاول موسى الأزرق ، والمرادى ، قاضيا النزال أن يحملاها على الاعتماد على سيفيهما أو سيوف هؤلاء المحاربين الآخرين الراغبين فى إحقاق حقها . وكانت الملكة تثق بعهد الأسبان ، فأصرت على رفضها . وعلى هذا فقد نزلا بها القاضيان من الحمراء إلى مشنقة فى الميدان العظيم مجللة بالسواد ، حيث

جلسا إلى جانبها . وما إن بدا هذا الجمال يحيق به الكرب حتى ضج المكان بجموعه فى صرخات عالية باكين . وكان من العسير الحيلولة بين النظارة وبين الفتك بأعدائها أو ردهم عن تخليصها بقوة سواعدهم . ولم يكد القضاة يجلسون حتى نفخ فى أبواق عشرين إيذاناً بقدوم أربعة جاءوا غارقين فى السلاح من الرأس إلى القدم ، ممتطين ألطف الجياد الأندلسية ، وقد لبسوا من فوق السلاح صدريات غير معقودة أزرتها ، عليهم الريش وزنارات عفراء اللون . وقد طبعوا على دروعهم سيفين علقت بهما الدماء ، كما نقشوا عليها هذه الكلمات «نسلها لإحقاق الحق» وصحبهم جميع أقربائهم وتابعوهم إلى مكانهم بين الصفوف . وتشوفت الجموع تمد أبصارها إلى الباب حيث سيدخل منه أولئك الذين سيدافعون عن شرف الملكة المسلوب ، ولكن عبثاً . ومضى الوقت من الثامنة صباحاً إلى الثانية بعد الظهر ولم يدخل أحد ، وبدأت شجاعة الملكة تخونها . وحينما مثل أربعة من شجعان العرب يلتمسون التشرف بامتشاق السيوف لإحقاق براءتها ، وعدتهم بأنها سوف تضع حياتها فى أيديهم إذا لم يحضر خلال ساعتين هؤلاء الذين تنتظرهم . وفى تلك اللحظة سمعت جلبة عالية ودخل إلى الميدان أربعة فرسان من الأتراك يختالون وخاطب أحدهم القضاة ملتمساً الإذن بالكلام مع الملكة . فأذنوا له ، فحياها راكعاً وأخبرها فى صوت جهورى أنه هو ورفاقه الأتراك جاءوا إلى أسبانيا على نية أن يقاوموا أبطال جيش فردناند ، ولكنهم عند ما سمعوا بهذه المحاكمة الخطيرة رجعوا عما انتووا وجاءوا الآن إلى غرناطة جاعلين أول محاولة حربية لهم فى أسبانيا لخدمتها ، راجين أنها سوف ترتضيهم مدافعين عن قضيتها . وفيما هو يتكلم ترك الكتاب التى كانت كتبته إلى دون جوان يسقط فى حجرها . وعند ما رأته علمت أن هذا الذى تظاهر بأنه تركى ليس إلا سيد قرطاجنة ، وقد أحضر معه دوق أرجوس والدوق ألونسو صاحب أجيلار ، والدوق فرديناند صاحب قرطبة ، على أنهم رفاق فى ذلك النزال الخطير ، وقبلت الملكة ما عرضوا ، وأعلن القضاة فى جلال رغبتها ، وأمروا الحارس أن يؤذن ببدء النزال . واحتدم النزال وظلت المعركة تدور

سجالا بين المتحاربين أمداً طويلا . وأخيراً تغلب دون جوان على المهتدى العامرى وذبح دوق أرجوس القانط زكريا وسقط محمد العامرى بضربة سيف من دوق أجيلار وأصبح آخرهم أس الفتنة محمد بن زكريا عاجزاً بما أثخن به من جراح ، وأعياه ما سال من دماء ، فوقع تحت أقدام الملك فردناند . فجثا بركبته على صدر هذا الجاحد وسل خنجره على رقبته وطلب إليه أن يعترف بالحقيقة وإلا فالموت الزؤام . فقال محمد : لست فى حاجة إلى أن تزيدنى جراحاً فوق جراحى لأن آخر ضربة أصابتنى كفيلة بأن تخلص العالم من جبار مثلى . والآن فلتعلم أنى لكى أنتقم من بنى سراج اختلقت تلك الأكذوبة التى كانت سبباً فى هلاكهم واضطهاد الملكة ، التى أبرئها هنا من كل وصمة أو ملامة . وإنى وأنا ألفظ النفس الأخير أسألها المغفرة . ونزل القضاة ليسمعوا اعترافات ابن زكريا فى نزعه ، ثم أذاعوها بعد ذلك على الناس الذين أظهروا غبطتهم هاتفين بملء أصواتهم . وانتهى اليوم فى فرح وطرب . وعادت الملكة مخفورة فى عزة إلى القصر ، حيث وقع أبو عبد الله النادم على أقدامها وعيناه تفيضان بالدمع جاهداً فى أن يكفر عن خطيئته . ولكن عبثاً ، لأن الملكة بقيت جامدة لا تلين ، واعتزلت إلى بيت أقرب قريب لها ، وأبت أن تعيش معه بعد ذلك . وترك الفرسان الأربعة غرناطة دون أن يكشفوا عن أمرهم لأى شخص آخر . وما ان ترك هذا العدد العديد من أصدقاء بنى سراج وأنصارهم المدينة وانفصل إلى قشتالة أو إفريقية ، حتى أصبح أبو عبد الله فقيراً إلى ضباط أقوياء ، وأصبح تحت رحمة أعدائه الذين استطاعوا خلال أشهر قليلة أن ينتزعوه عن ملكه .

* * *

صفة قرطبة

إن قرطبة اليوم هى ثانى مدن الأندلس . وهى أشبه بمروج على شكل نصف دائرة تقوم على الجانب الأيمن من الوادى الكبير . وهى تقع فى سهل ممتد مخصب فى السفح من حافة جبال مورينا . وتبعد عن مدريد إلى الجنوب الغربى بنحو من ٢١٠ من الأميال . وعن ملقا إلى الشمال الغربى بنحو من ١١٢ ميلا ، وعن إشبيلية إلى الشمال الشرقى بنحو من ٨٤ ميلا . وهى بين خطى عرض ٣٧ ، ٤٠ شمالا . وهى ذات مركز قديم معروف . وإن كان اسم مؤسسها لما يتحقق منه بعد . ويقول بعض المؤلفين إن تأسيسها يُعزى إلى الفينقيين ، وإن « سيلوس ايتاليكس » لما أخذ يعدد المستعمرات المختلفة التى تبعت جيوشها هانيبال حتى إيطاليا ذكر منها صراحة قرطبة . ومن هذه العبارة يظهر لنا أن المدينة كانت من ذلك الوقت مكاناً ذا شأن كبير . وإن كان استرابون يؤكد أن الذى أنشأها هو ماركليوس أثناء الحروب الأهلية التى نشبت بين بومبى وقيصر . وعلى هذا فهى قد شيدت بعد الوقت الذى ذكره سيلوس أيتاليكس بمدة طويلة وكانت قرطبة تسمى أولا « قرطوبة » ثم سميت بعد كولونيا باتريسى أو باتريسا فحسب ، كما يظهر من النقوش التى على كثير من المدليات التى كشف عنها فى هذه المدينة وما جاورها . وقد انتقلت من حكم الرومان إلى حكم القوط ثم العرب . وفيما كان العرب يقبضون على صوبلجان الملك فى أسبانيا أصبحت قرطبة ، بوصفها بلاط خلفاء العرب ، موئل الفنون والعلوم والآداب . ونستطيع أن نكون فكرة ما عن مجد قرطبة ، أيام كانت تلك المدينة قصبة لأسبانيا المسلمة ، من تلك الأخبار الآتية التى وصلت إلينا عن مؤرخى العرب . فيحكى الشقندى فى بعض مؤلفاته أنه جاز فى قرطبة وما ينضم إليها من الزاهرة والزهيرة فسار عشرة أميال على طول أبنية ممتدة متصلة فى ضوء أنوار المصابيح . ويقال فوق

هذا إن المبانى تمتد طولا إلى ثمانية فراسخ وعرضاً إلى فرسخين ، أى ٢٤ ميلا طولا وستة عرضاً . وهذه المساحة كلها تزخر بالمنازل والقصور والمساجد والحدائق على شاطئ الوادى الكبير . وكان محيط أسوار المدينة دون ضواحيها ٣٣١٠٠ ذراع ويبلغ عدد أحيائها واحدا وعشرين حيًّا فى كل منها مساجد وأسواق وحمامات تفى بحاجات سكانها ، حتى لا يجد أهل حى ما يبرر دخولهم إلى حى آخر . وخلال الفتنة التى شبت سنة ٤٠٠ (١٠٠٩ م) والتى بدأت معها قرطبة فى الاضمحلال حفر حول الضواحى خندق ، وأحيط بسور بنى فى الوقت عينه ، وكان هناك خارج قرطبة ثلاثة آلاف من المدن والقرى تابعة لها ، ويقيم فى كل منها رئيس دينى واسع المعرفة ، كان يولى ليفقه الناس فى أحكام دينهم وفرائضه. وكان هؤلاء الموظفون هم القائمون بشئون . الناس وفى أيام الجمع كان يحضر القريبون منهم من المدينة صلاة الجمعة مع الخليفة فى المسجد الجامع ، وكان كل واحد منهم بعد أن يقدم له فروض الولاء يرفع إليه شئون بلده الخاص . وفى أيام ابن أبى عامر بلغ دخل قرطبة فيما يقال ثلاثة ملايين دينار فى المتوسط . ولم يكن هناك مدينة فى الغرب كله تعدلها فى عدد سكانها أو امتداد مبانيها أو اتساع أسواقها أو نظافة شوارعها ومنشآتها الدينية ، أو فى عدد حماماتها وفنادقها . وقد كانت أقرب ما تكون شبها ببغداد فى عظمتها. ويضرب المثل بأهل قرطبة فى القيام على الملوك والتشنيع على الولاة. ولقد سئل بعض ولاتها رأيه فيهم فقال : مثلهم مثل البعير إن خففت عنه الحمل صاح وإن أثقلت عليه صاح ما تدرى أين رضاهم فتقصده ولا أين سخطهم فتجتنبه . ذلك إلى أنهم مشهورون بظرف اللباس والمواظبة على الصلاة . وتعظيم الجامع الأعظم وكسر أوانى الخمر حينما تقع عين أحد من أهلها عليها ، والتستر بأنواع المنكرات . والتفاخر بأصالة البيت وبالجندية وبالعلم . وهى أكثر بلاد الأندلس كتباً. وأهلها أشد الناس اعتناء بخزائن الكتب حتى إن الرئيس منهم الذى تكون عنده معرفة يحتفل فى أن تكون فى بيته خزانة كتب وينتخب فيها الكثير ، لا لشىء إلا لأن يقال : فلان عنده خزانة كتب ،

والكتاب الفلانى ليس عند أحد غيره عليه والكتاب الذى هو بخط فلان قد حصل وظفر به . وعن هذا الغرام بجمع الكتب يقول الحضرمى : أقمت مرة بقرطبة ولازمت سوق كتبها مدة أترقب فيه وقوع كتاب كان لى بطلبه اعتناء إلى أن وقع ، وهو بخط فصيح وتفسير مليح ففرحت به أشد الفرح فجعلت أزيد فى ثمنه فيرجع إلىّ المنادى بالزيادة على ، إلى أن بلغ فوق حده . فقلت : أيا هذا ، أرنى من يزيد فى هذا الكتاب حتى بلغه إلى ما لا يساوى . فأرانى شخصاً عليه لباس رياسة ، فدنوت منه وقلت له : أعز الله سيدنا الفقيه ، إن كان لك غرض فى هذا الكتاب تركته لك ، فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حده . فقال لى : لست بفقيه ولا أدرى ما فيه . ولكنى أقمت خزانة كتب واحتفلت فيها لأتجمل بها بين أعيان البلد ، وبقى فيها موضع يسع هذا الكتاب ، فلما رأيته حسن الخط جيد التجليد استحسنته ولم أبال بما أزيد فيه ، والحمد لله على ما أنعم به من الرزق فهو كثير . فأحرجنى وحملنى على أن قلت له : نعم لا يكون الرزق كثيراً إلا عند مثلك ، يعطى الجوز من لا له أسنان ، وأنا الذى أعلم ما فى هذا الكتاب وأطلب الانتفاع به يكون الرزق عندى قليلا وتحول قلة ما بيدى بينى وبينه . وقد ذكر ابن سعيد أن مناظرة جرت بين يدى منصور بنى عبد المؤمن وبين ابن رشد وابن زهر . فقال ابن رشد لمناظره ابن زهر : ما أدرى ما تقول ، غير أنه إذا مات عالم باشبيلية فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها ، وإذا مات مطرب بقرطبة فأريد بيع تركته حملت إلى اشبيلية . وقد وصف ابن بشكوال قصر قرطبة فقال : هو قصر أولى تداولته ملوك الأمم من لدن عهد موسى النبى . وفيه من المبانى الأولية والآثار العجيبة لليونانيين ثم للروم والقوط والأمم السالفة ما يعجز الوصف . ثم ابتدع الخلفاء من بنى مروان فى قصرها البدائع الحسان وأثروا فيه الآثار العجيبة والرياض الأنيقة . وأجروا فيه المياه العذبة المجلوبة من جبال قرطبة على المسافات البعيدة ، وأجروها فى قنوات الرصاص تؤديها منها إلى المصانع صور مختلفة الأشكال من الذهب الأبريز والفضة الخالصة والنحاس المموه إلى البحيرات

الهائلة والبرك البديعة والصهاريج القريبة ، فى أحواض الرخام الرومية المنقوشة العجيبة. وفى هذا القصر أيضاً القصاب العالية السمو التى لم ير الراءون مثلها فى مشارق الأرض ومغاربها . وإلى جانب هذا القصر المذكور قصور عدة مشهورة وحدائق معروفة بأسمائها المختلفة . ومن أبواب المدينة السبعة الباب الذى عليه السطح المشرف الذى لا نظير له فى الدنيا ، وعلى هذا الباب باب حديد وفيه حلق لا طون فى صورة إنسان قد فتح فمه. وهو حلق مدينة أربونة. وكان الأمير محمد قد افتتحها فجلب حلقها إلى هذا الباب. ومن بين متنزهات قرطبة البهيجة أو كرماتها هذا القصر المشهور الذى ابتناه عبد الرحمن الأول فى أول أيامه فى الشمال الغربى من المدينة وسماه منية الرصافة . وكان هذا القصر مقاماً محبباً إلى مؤسسه الذى سماه باسم رصافة جده هشام بأرض الشام . وقد وصل خلفه توسيعه وتجميله وإيثاره . وكان القصر حسناً والجنان ليست واسعة فحسب بل كانت تزخر بغرائب الغروس من كل ناحية وقد أثمرت شهى الفواكه وبعد قليل أمدت حدائق الأندلس أيضاً بالغرس ، وذلك لفضلها على أنواعها . وأما الرمان السفرى[١] المعروف بعذوبة الطعم ورقة العجم وغزارة الماء وجمال الشكل، فليس له ما يعدله . وقد فاض وانتشر فأصله فى أسبانيا من هذه الحدائق . أما كيف دخلت هذه الفاكهة إلى المملكة وسبب تسميتها فإليك ما قيل فى ذلك : فقد أرسل عبد الرحمن رسولا إلى الشام لاصطحاب أختيه. وقد جلب الرجل طرائف منها من رمان الرصافة . فعرضه عبد الرحمن على خواص رجاله مباهياً به . وكان فيمن حضره منهم سفر بن عبيد ، فراقه حسنه فاحتفظ بعجمه ومنه كانت الشجرة ، ومن ثم صار الرمان ينسب إليه وأصبح يعرف فى أسبانيا بالسفرى. وفى خارج قرطبة قصر السيد أبى يحى وهو على أقواس فوق النهر الأعظم (الوادى الكبير). وسئل مؤسسه : كيف تأنقت فى بنيان هذا القصر مع انحرافك عن أهل قرطبة ؟ فقال :

---

(١) لا يزال هذا الرمان يزرع فى أنحاء أسبانيا وخاصة فى أراجوس. ويقول الذين ذاقوه إنه جدير كل الجدارة بما وصف به .

علمت أنهم لا يذكرون والياً بعد عزله ولا له عندهم قدر، لما بقى فى رءوسهم عن الخلافة المروانية فأحببت أن يبقى لى فى بلادهم أثر أذكر به على رغبة منهم . وإلى جانب هذا فهناك قصور ومتنزهات مشهورة مثل قصر دمشق، وهو الذى شيده بنو أمية على طراز فاخر . ومنية الزبير منسوبة إلى الزبير حاكم من حكام قرطبة، ومنية المشاقى، والقصر الفارسى بخارج قرطبة، وفحص السرادق والسد . وأما نهر الوادى الكبير فإنه يصغر شيئاً عند اشبيلية . ومنبعه من جهة شقورة ، يمر النصف منه إلى مرسية شرقاً والنصف الآخر الى قرطبة واشبيليه مغرباً . وقد صنعت عليه قنطرة من حجارة هى من أعظم آثار الأندلس وأعجبها، بناها السمح ابن مالك من الأمراء الأول، كما هو معروف فى الأكثر. أو هى كما قال بعضهم من بناء عبد الرحمن بن عبيد الله بأمر الخليفة عمر بن عبد العزيز، وشيدها بنو أمية [1] فى أسبانيا بعد ذلك وحسنوها . على أن الأخبار تذكر أنه كان فى هذا المكان قنطرة من بناء الأعاجم قبل دخول العرب بنحو مائتى سنة أثرت فيها الأزمان حتى سقطت حناياها ومحيت أعاليها وبقيت قواعدها وأسافلها، وعليها بنى السمح قنطرته سنة ١٠١ من الهجرة . وعدد حناياها سبع عشرة[2] عرض كل منها خمسون شبراً، وبين كل واحدة والأخرى خمسون شبراً وطول القنطرة ثمانمائة باع، وعرضها عشرون باعاً، وارتفاعها ستون ذراعاً . وعليها تسعة عشر برجاً. ومن أعجب ما شادته يد الإنسان قصر الزهراء الذى بناه الخليفة الناصر بإغراء جاريته الزهراء، وقد سماها باسمها، وسبب هذا فيما يقال: أن سُرية للخليفة ماتت وتركت مالا كثيراً، فأمر أن يفك بذلك المال أسرى المسلمين وطلب فى بلاد الإفرنج أسيراً فلم يوجد، فشكر الله تعالى على ذلك. فقالت له جاريته الزهراء، وكان يحبها حبًّا شديداً: أشتهى لو بنيت لى به مدينة تسميها باسمى وتكون خاصة لى ،

---

(١) انظر اللوحة التاسعة من كتاب مرفى « الآثار العربية فى أسبانيا » .

(٢) وقيل فى موضع آخر : ثمان عشرة .

فإجابة لملتمسها بنى الناصر، الذى فاق أسلافه محمداً وعبد الرحمن الأوسط والحكم هياماً بالأبنية [١]، هذه المدينة تحت جبل العروس شمالى قرطبة الحالية بينها وبينها ثلاثة أميال أو نحو ذلك. على أن ابن خلكان يقول إن المسافة بينهما أربعة أميال وثلث ميل. وهى من أهول ما بناه الإنس وأجله خطراً وأعظمه شأناً ابتدئ فى بنائها أول يوم من المحرم سنة ٣٢٥ هجرية (سنة ١٩٣٦ م). وليتمها الناصر فقد جمع لها أعظم المهندسين مهارة والبنائين من بغداد والآستانة ونواحى أخرى، شأنه فيما يأخذ فيه من بناء. وكانت جباية الأندلس يومئذ خمسة آلاف دينار وأربعمائة ألف وثمانين ألف دينار. ومن السوق والمستخلصة سبعمائة ألف دينار وخمسة وستون ألف دينار. هذا إلى ضريبة الخمس التى كانت مفروضة على المسيحيين واليهود والتى كانت تعادل سائر الضرائب. ومن هذه الجباية العظيمة كان الناصر يخص الجند بثلث ويدخر ثلثاً، والثلث الباقى للأبنية العامة. وكانت الزهراء أهمها. وكان يخدم فى عمارة الزهراء كل يوم عشرة آلاف رجل، ومن البغال ١٤٠٠ أو كما يقول بعضهم أكثر من هذا العدد وأربعمائة من الجمال للخليفة. ومن دواب الأكرية الراتبة للخدمة ألف بغل، [٢] لكل بغل منها ثلاثة مثاقيل فى الشهر. وكان يرد إلى الزهراء من الجير والجص فى كل ثالث من الأيام ألف ومائة حمل. وكان من الرجال من له درهم ونصف ومن له الدرهمان والثلاثة وكان مبلغ ما ينفق فيها كل يوم من الصخر المنحوت ستة آلاف صخرة سوى الصخر المنصرف فى التبليط غير المعدل والآجر. وكان يثيب

---

(١) وهكذا كان هوى الناصر بالبناء حتى إنه أنشأ آثارا تدل على عظمته فى جميع أنحاء أسبانيا. وفيما كان هو مهتمًا ببناء الزهراء فى غير وناة تغيب عن مهامه بالجامع الأعظم ثلاث جمع متتابعة فلامه من أجلها القاضى المنذر علانية على هذا الإهمال وكان القاضى يتولى الأمور الدينية فى بيت العبادة هذا.

(٢) على أنه قد ذكر فى مكان آخر أن عدد دواب الحمل المستخدمة فى بناء الزهراء ١٥٠٠ وعلى هذا فقد تكون الجمال الأربعمائة من هذا العدد والباقى وهو ١١٠٠ من البغال المأجورة. فكان جميع دواب الحمل ١٤٠٠ أو ١٥٠٠ كلها تعمل فى خدمته.

على كل رخامة كبيرة أو صغيرة عشرة دنانير ، سوى ما كان يلزم على قطعها ونقلها ومؤونة حملها. وجلب إليها الرخام الأبيض من المرية ، والمجزع من مدريد ، والوردى والأخضر من كنيسة صفاقس من افريقية وقرطاجنة ، والحوض المنقوش المذهب من الشام ، وقيل من القسطنطينية . وفيه نقوش وتماثيل على صور الإنسان ، وهو مما لا يقوم . ولما جلبه أحمد الفليسوف مع ربيع الأسقف ، أمر الناصر بنصبه فى وسط المجلس الشرقى المعروف بالمؤنس ونصب عليه اثنى عشر تمثالا ، أولها على صورة أسد بجانبه غزال ، وإلى جانبه الآخر تمساح ، وفيما يقابله ثعبان وعقاب ، وفى المجنبتين حمامة وشاهين وطاووس ودجاجة وديك وحدأة ونسر . وكل ذلك من الذهب الصافى المرصع بالدر النفيس ، مما عمل بدار الصناعة الملكية بقرطبة ، ويخرج الماء من أفواهها وفى هذا القصر أيضاً بنى المجلس المسمى بقصر الخلافة ، وكان سقفه من الذهب والرخام الغليظ الصافى المختلفة أجناسه . وكانت حيطان هذا المجلس مثل ذلك . وفى وسطه اليتيمة التى أتحف الناصر بها ليون ملك القسطنطينية . وفى وسط هذا المجلس صهريج عظيم مملوء بالزئبق . وكان فى كل جانب من هذا المجلس ثمانية أبواب قد انعقدت على حنايا من العاج والآبنوس المرصع بالذهب وأصناف الجواهر . قامت على ساريات من الرخام الملون والبلور الصافى . وكانت الشمس تدخل من تلك الأبواب فيضرب شعاعها فى سقف المجلس وجدرانه فيصير من ذلك نور يأخذ بالأبصار . وكان الناصر إذا أراد أن يفزع أحداً من أهل مجلسه أومأ إلى أحد صقالبته فيحرك ذلك الزئبق فيظهر فى المجلس كلمعان البرق نور يأخذ بمجامع القلوب حتى يخيل لكل من بالمجلس أن المحل قد طار بهم ما دام الزئبق يتحرك . وهذا المجلس لم يتقدم لأحد بناؤه ، وقد تهيأ له لكثرة الزئبق عندهم فى أسبانيا ، فاتجه القصد إلى استخدامه فى هذا الغرض المذكور[1] . ويذكر ابن حيان أن هذا القصر كان يحتوى

(١) وهناك إشارة أيضاً إلى مخدع أو بناء مقبرة ويحتمل أن تكون حجرة ذات قبة كانت عجيبة البناء مقرمدة بالذهب والفضة . وكانت القبة الصغرى أيضاً المقابلة للناحية التى تسمى

٤٣١٢ من السوارى المختلفة الأحجام، منها ١٠١٣ قيل إنها جمعت من افريقية، و ١٩ من ممالك فرنسا وأهدى امبراطور الآستانه إلى الناصر ١٤٠ وسائر السوارى جلب من أنحاء أسبانيا المختلفة، مثل طرقونه وجهات أخرى، وإن مصاريع أبوابها صغارها وكبارها كانت تنيف على ١٥٠٠٠ وكلها ملبسة بالحديد والنحاس المموه. وقد تم بناء المسجد فى قصر الزهراء فى مدة ثمانية وأربعين يوماً وجاء فى غاية الإتقان. كان يعمل فى هذا البناء كل يوم ألف من حذاق العمال منهم ثلاثمائة بناء ومئتا نجار وخمسمائة من الأجراء وسائر الحرف. وله خمسة أبهاء عجيبة الصنعة، وعرض البهو الأوسط من أبهائه من الشرق إلى الغرب ١٣ ذراعاً. وعرض كل بهو من الأربعة المكتنفة له اثنا عشر[1] ذراعاً. وطول القبلة إلى الجوف حاشا المقصورة ثلاثون ذراعاً. وطول صحنه المكشوف من القبلة إلى الجوف ثلاث وأربعون ذراعاً. وعرضه من الشرق إلى الغرب إحدى وأربعون ذراعاً وفى وسطه فوارة يجرى فيها الماء. وجميعه مفروش بالرخام الخمرى. فطول هذا المسجد أجمع من القبلة إلى الجوف سوى المحراب، الذى كان تكسيره عشرة أذرع فى مثلها، سبع وتسعون ذراعاً. وعرضه من الشرق إلى الغرب تسع وخمسون ذراعاً. وعند إكمال هذا يوم الخميس ٢٣ شعبان سنة ٣٢٩ (٩٤٨ م) أمر الناصر باتخاذ منبر فى نهاية الحسن والإبداع وعملت حوله مقصورة عجيبة الصنع. وكان هناك فى الزهراء حمامان شعبيان أحدهما للحاشية والآخر للعامة. وهكذا كانت عناية

الصرح الممرد. وكان يقال إنها كانت مغطاة بقراميد من ذهب وفضة. ولكن عند تغيب القاضى المنذر الذى تجرأ أن يذكر للملك استنكاره لمظاهر كبريائه، غيرت الأغطية بأخرى ترابية كتلك المستعملة فى سائر البناء.

(١) ويظهر أن ثمة خلافاً قدره ذراعان فى مقاس عرض المسجد، فإن الأبهاء موضوعة على أن يكون أحدها ١٣ ذراعاً والآخر أربعة وعرض كل منها ١٢ ذراعاً ولكن العرض كله مقدر بنحو ٥٩ ذراعا فقط ولكن الاصطلاحات المعمارية العربية عادة فى الترجمة، لأن بناء المعابد الإسلامية وتقسيمها يختلف كثيراً عما عندنا. فنحن لهذا محتاجون إلى هذه الأجزاء المختلفة. وقد يمكن تبين معانى هذه الاصطلاحات بالرجوع إلى تخطيط جامع قرطبة الأعظم ووصفه الذى ورد فى كتاب مرقى (الفن المعمارى العربى فى أسبانيا).

الناصر بهذا العمل العظيم ، حتى إنه لم يعهد لأحد بالإشراف عليه غير ابنه وخليفة الحكم. وعلى الرغم من عدد العمال الذين استخدموا ، فقد استمر العمل خمسة وعشرين عاماً بقيت من حياة الناصر بعد بدئه العمل ، ثم خمسة عشر عاماً وأشهراً ، وهى مدة حكم ابنه. وقد ذكر بعض أهل الخدمة فى الزهراء أنه قدر النفقة فيها فى كل عام بثلثمائة ألف دينار مدة الخمسة والعشرين عاما التى بقيت من دولة الناصر من حين ابتدأها ، فحصر جميع ما انفق فيها فكان مبلغه خمسة عشر بيت مال . ولما انتهى هذا القصر المتناهى فى الجلالة والفخامة أطبق الناس على أنه لم يبن مثله فى الإسلام البتة ، وما دخل إليه قط أحد من سائر البلاد النائية والنحل المختلفة من ملك وارد ، ورسول وافد ، وتاجر وجهبذ وفى هذه الطبقات من الناس تكون المعرفة والفطنة ، إلا وكلهم قطع أنه لم ير له شبهاً بل لم يسمع به ، بل لم يتوهم كون مثله . حتى إنه كان أعجب ما يؤمله القاطع إلى الأندلس فى تلك العصور النظر إليه والتحدث عنه. والأخبار عن هذا تتسع جداً والأدلة عليه تكثر . ولو لم يكن فيه إلا السطح الممرد المشرف على الروضة المباهى بمجلس الذهب والقبة ، وعجيب ما تضمنه من إتقان الصنعة وفخامة الهمة وحسن المستشرف وبراعة الملبس والحلة ، ما بين مرمر مسنون وذهب مصون ، وعمد كأنها أفرغت فى القوالب ، ونقوش كالرياض ، وبرك عظيمة محكمة الصنعة ، وحياض وتماثيل عجيبة الأشخاص لا تهتدى الأوهام إلى استقصاء التعبير عنها [1] . وقال بعض من أرخ للأندلس إن عدد الفتيان بالزهراء كان ثلاثة عشر ألفا وسبعمائة وخمسين . ودخالتهم من اللحم كل يوم — حاشى أنواع الطير والحوت — ثلاثة عشر ألف رطل. وعدة النساء الصغار والكبار وخدم الخدمة ستة آلاف وثلثمائة وأربع عشرة امرأة . وإلى جانب هؤلاء ٣٧٥٠ من الصقالبة. وبعض المؤرخين يقول ٣٧٨٧ وكان

---

(١) وإلى جانب البناء الذى كان مخصصاً للحاشية فقد كان فى الزهراء أمكنة واسعة وأخرى مسورة للحيوان البرية . وأماكن محبوكة للطيور ومصانع للأسلحة وأدوات الحرب . كما كان هنالك أخرى لمواد الملابس وأشياء غيرها .

لهؤلاء من اللحم ثلاثة عشر ألف رطل فى اليوم، تقسم من عشرة أرطال للشخص إلى ما دون ذلك، سوى الدجاج والحجل وصنوف الطير وضروب الحيتان. على أنه يقال إن الصقالبة بلغوا ستة آلاف وستة وثمانين. والمرتب من الخبز لحيتان بحيرة الزهراء ١٢٠٠ خبزة كل يوم . وينقع لها من الحمص الأسود ستة أقفزة كل يوم . وقد نقش الناصر على باب القصر صورة جاريته التى تسمت الزهراء باسمها ، فلما قعدت الزهراء فى مجلسها نظرت إلى بياض المدينة وصنعها فى حجر ذلك الجبل الأسود فقالت : يا سيدى، ألا ترى إلى حسن هذه الجارية الحسناء فى حجر ذلك الزنجى . فأمر بإزالة ذلك الجبل . فقال بعض جلسائه : إنه ليس فى مقدرة الإنسان عمل مثل هذا. فأمر بقطع شجره وغرسه تيناً ولوزاً . ولم يكن منظر أحسن منها ولا سيما فى زمان الأزهار وتفتح الأشجار. وطول قصر الزهراء من الشرق إلى الغرب ٢٧٠٠ ذراع وعرضها ١٥٠٠ ذراع . على أن من أعجب ما كان هذا القصر، فإنه لم يدم طويلا على حاله . فإنه فى النزاع الذى كان بين عبد الرحمن بن منصور بن أبى عامر وبين محمد الملقب بالمهدى أعظم أولاد الناصر ، فتحت قرطبة وهدمت الزهراء. وذلك سنة ٣٩٩ (١٠٠٩) وكان جيش المهدى المنتصر من الطبقات الدنيا من العامة من فحامين وجزارين وزبالين فهاجموا الأشراف وخلعوا الخليفة هشاما وأساءوا إلى قصر الزهراء إساءة عظيمة . وعند ما اغتصب الملك من هشام بن الحكم حاجبه منصور بن أبى عامر حبسه فى الزهراء ثم ابتنى لنفسه قصر الزاهرة على شاطىء النهر مجاوراً لقصر الخليفة . وكان البدء فى بنائها سنة ٣٦٨ (٩٧٩) وتم الجزء الأكبر منها فى عامين . وانتقل المنصور إليها بأمواله وأمتعته وسلاحه وأسرته وخدمه وحرسه ووصفائه ودخلها سنة ٣٧٠ ه واتخذ فيها الدواوين وعمل الأهراء وأطلق بساحتها الأرحاء ثم أقطع ما حولها لوزرائه وكتابه وقواده وحجابه فابتنوا بها كبار الدور وجليلات القصور، وتنافس الناس بالنزول بأكنافها والحلول بأطرافها للدنو من صاحب الدولة، وتناهى الغلو فى البناء حوله حتى اتصلت أرباضها بأرباض قرطبة . وجرد

الحلية من كل شيء إلا من الاسم الخلافى. وكتب المنصور إلى الأقطار بالأندلس والعدوة بأن تحمل إلى مدينته تلك أموال الجبايات، ويقصدها أصحاب الولايات وينتابها طلاب الحوائج، وحذر أن يعوج عنها إلى دار الخلافة عائج. وعطل قصر الخليفة جميعه وصيره بمعزل من سامعه ومطيعه. ولم يعد منه إلا الاسم السلطانى فى السكة والدعوة، محجوب الشخص عن الأحباب، لا يراه خاص ولا عام. على حين رتب المنصور فى الزاهرة خلاص وزرائه ورءوس أمرائه وجموع القواد. وكانت الأمور توجه إليه. ونصب ببابها كرسى شرطته، وأجلس عليه والياً على رسم كرسى الخليفة، وانحشد الناس إليه من جميع الأقطار. على أنه ما أشبه حال هذا القصر بالزهراء، فقد هاجمه جيش المهدى عام ٣٩٩ ﻫ ويقال إنهم أتوا عليه حتى سووه بالأرض، إذ أنه كان مقاماً للمغتصبين الذين أثيرت الحرب عليهم. وهذا المهدى الذى كان المنصور غير مكترث بأمره لم يقض على أسرة المنصور ويبيد سلالته، بل قوض هذا البناء نفسه الذى أسسه. وفى أوائل سنة ٣٢٩ ﻫ (٩٤١ م) كمل الناصر بنيان القناة الغريبة الصنعة التى جرى فيها الماء العذب من جبل قرطبة إلى قصر الناعورة فى الأنهر المهندسة وعلى الحنايا المعقودة. يجرى ماؤها بتدبير عجيب وصنعة محكمة إلى بركة عظيمة عليها أسد عظيم الصورة بديع الصنعة شديد الروعة، لم يشاهد أبهى منه فيما صور الملوك فى غابر الدهر، مطلى بذهب إبريز وعيناه جوهرتان لهما وميض شديد، يجوز هذا الماء إلى عجز هذا الأسد فيمجه فى تلك البركة من فيه فتسقى من مجاجه جنان هذا القصر على سعتها، ويستفيض على ساحاته وجنباته، ويمد النهر الأعظم بما فضل منه، وأنشئت هذه القناة التى انطلق فيها الماء غرة جمادى الآخرة فى مدة وجيزة لا تزيد على أربعة عشر شهراً. وإذا ما قدرنا طولها وطبيعة الأقاليم الصعبة التى حفرت فيها وعظمة الأبنية وارتفاع الحنايا التى تجرى عليها المياه وبركتها بتمثالها الذى يفيض منه الماء، فإنا نعد هذا من بين أعظم العجائب

التى قام بها الملوك فى كل عصر . وكان الذى ابتدأ بناء مسجد قرطبة العظيم [١] عبد الرحمن بن معاوية المعروف بالداخل، الذى أسس ملكه فى أسبانيا وأخذ نفسه بتوسيع قرطبة عاصمة ملكه وتزيينها. وقد يقال إن ابنه هشاما أتم ما أخذ فيه أبوه وتركه دون أن يتمه، ثم توالى الخلفاء على الزيادة فيه حتى إن البناء كله يكاد يعزى إلى شدة تقوى ثمانية من ملوك بنى أمية . وإن الموضع الذى أقيم عليه كان مكانا لكنيسة نصرانية اشتراه عبد الرحمن بمائة ألف دينار، ويقال إنه أنفق على بنائه ٨٠٠٠٠ دينار . وكان ما أنفقه خلفه وابنه هشام من الأخماس لإتمام هذا العمل ١٦١٠٠٠ دينار، كلها من الضرائب التى كان يدفعها الكفار.

وإلى جانب هذه الزيادات المستمرة التى قام بها الخلفاء المتتابعون فى هذا المسجد فإن المنصور بن أبى عامر الذى ورث أسرتهم زاد زيادة عظيمة فى البناء، وقد استخدم فى عمله هذا أسرى النصارى الذين أخذهم من قشتالة وغيرها، فكانوا يعملون مصفدين فى الحديد. ولما عزم المنصور على زيادة المسجد جلس بنفسه لأرباب الدور التى نقل أصحابها عنها بنفسه، فكان بعد أن يتفق مع المالكين على أقصى الثمن يضاعف لهم ما يطلبون ويشترى لكل منهم بعد ذلك دارا عوضا عن داره ، حتى أتى بامرأة لها دار بصحن الجامع فيها نخلة لها فلم تقبل عوضاً عنها إلا داراً. بنخلة فأمر أن تبتاع لها دار بنخلة ولو ذهب فيها بيت المال [٢] . فاشتريت لها دار بنخلة وبولغ فى الثمن . وقال صاحب كتاب مجموع المفترق : وكان سقف البلاط من المسجد الجامع من القبلة إلى الجوف قبل الزيادة مئتين وخمسا وعشرين ذراعا، والعرض من الشرق إلى الغرب قبل الزيادة مائة ذراع وخمسة أذرع . فكمل الطول الى ٣٣٠ ذراعاً. ولكن المنصور زاد بأمر الخليفة هشام فى عرضه

---

(١) الترجمة الحرفية: بيت المال، ولكن يظهر من استعمال هذه العبارة من قبل أن المراد منها مبلغ ٥٠٠٠٠٠ دينار .

(٢) قد جمع الأستاذ مرفى فى كتابه «الآثار المعمارية العربية فى أسبانيا» عن هذا المسجد ونقوشه مشاهد طريفة مختلفة فانظر اللوحات (١ — ٨) .

من جهة المشرق ٨٠ ذراعاً وكان عدد بلاطه ١١ بلاطة عرض أوسطها ستة عشر ذراعاً، وعرض كل واحد من اللذين يليانه شرقاً واللذين يليانه غرباً أربعة عشر ذراعاً، وعرض كل واحد من الستة الباقية إحدى عشر ذراعاً وزاد المنصور فيه ثمانية، عرض كل واحد منها عشرة أذرع . وكان العمل فى زيادة المنصور سنتين ونصفاً.وخدم المنصور فيه بنفسه . وطول الصحن من المشرق إلى المغرب مائة ذراع وثمان وعشرون ذراعا.وعرضه من القبلة إلى الجوف مائة ذراع وخمسة أذرع وعرض كل واحد من السقائف المستديرة بصحنه عشرة أذرع .فتكسيره[1] ثلاثة وثلاثون ألف ذراع ومائة وخمسون ذراعاً . وقال ابن سعيد، نقلا عن ابن بشكوال : إن طول جامع قرطبة الأعظم من القبلة إلى الجوف ثلاثمائة وثلاثون ذراعاً . الصحن المكشوف منه ثمانون ذراعاً، وغير ذلك مقرق.وعرض المسجد من الغرب إلى الشرق مئتان وخمسون ذراعاً.وعدد أبهائه عند اكتمالها بالشمالية التى زادها المنصور تسعة عشر بهواً . وعدد أبوابه الكبار والصغار واحد وعشرون باباً [2]، فى الجانب الغربى تسعة أبواب منها واحد كبير للنساء يشرع إلى مقاصيرهن وفى الجهة الشرقية تسعة أبواب منها، لدخول الرجال ثمانية أبواب.وفى الجهة الشمالية ثلاثة أبواب، منها لدخول الرجال بابان كبيران وباب لدخول النساء إلى مقاصيرهن. وليس لهذا الجامع فى القبلة سوى باب واحد بداخل المقصورة المتخذة فى قبلته بالساباط المفضى إلى قصر الخلافة، منه كان السلطان يخرج من القصر إلى الجامع لشهود الجمعة.وجميع هذه الأبواب ملبسة بالنحاس الأندلسى الأصفر بأغرب صنعة.على أن مؤلفاً آخر يذكر أن الأبواب كانت تسعة[3] فقط، ثلاثة منها تنفتح على الصحن، واحد إلى الشرق وواحد إلى الغرب وواحد إلى الجوف

---

(١) هذا ليس من المسجد بعد الزيادة التى زادها المنصور بل كان هذا قريباً مما كان عليه من قبل .

(٢) هذه هى الأبواب العامة كما هو واضح، ولا يدخل فيها فيما يظهر أبواب الخليفة. ويقال إن كل واحد منها كان يحمل حلقة من صنع فاخر متقن .

(٣) ربما كان هذا هو العدد الحقيقى قبل زيادة المنصور .

وأربعة إلى الأبهاء، اثنان إلى الشرق واثنان إلى الجهة الغربية واثنان يفضيان إلى مقاصير النساء . وجميع ما فيه من الأعمدة[1]، حسب ما يقول أحد المؤلفين، ألف عمود ومئتا عمود وثلاثة وتسعون عموداً رخاماً كلها . ويقول مؤلف آخر إنها ألف عمود وأربع مائة عمود وسبعة عشر عموداً. بينما يقرر ابن بشكوال أنها ألف عمود وأربعمائه عمود وتسعة أعمدة . وهنا يذكر أن منها بداخل المقصورة مائة وتسع عشره سارية. وهذه المقصورة البديعة الصنع تمتد على خمس بلاطات من الزيادة الحكمية. وأطلقت حفا فاها على الستة الباقية ثلاثة من كل جهة، فصار طولها من الغرب إلى الشرق خمساً وسبعين ذراعاً. وعرضها من جدار الحشى إلى سور المسجد بالقبلة اثنان وعشرون ذراعاً، وارتفاعها فى السماء إلى حد شرفاتها ثمان أذرع، وارتفاع كل شرفة ثلاثة أشبار. ولهذه المقصورة ثلاثة أبواب بديعة الصنعة عجيبة النقش شارعة إلى الجامع شرقى وغربى وشمالى. وطول المحراب من القبلة إلى الجوف ثمانية أذرع ونصف. وعرضه من الشرق إلى الغرب سبعة أذرع ونصف، وارتفاع قبوه فى السماء ثلاث عشرة ذراعا ونصف. والمنبر إلى جنبه لا يعدله غيره فى الصناعة والمادة، مؤلف من أكارم الخشب ما بين آبنوس وصندل ونبع وبقم وشوحط وما أشبه ذلك. وقد استغرق العمل فى هذا المسجد الذى أنشأه الخليفة الحاكم سبع سنين، واستخدم فيه ثمانية من الصناع كان يدفع لكل منهم يومياً نصف مثقال. ومبلغ النفقة فما يقال خمسة وثلاثون ألف دينار وسبعمائة دينار وخمسة دنانير وثلاثة دراهم وثلث درهم . وعدد درجه التى يعلو بها تسع. وكان باب المقصورة من الذهب، كما هى الحال فى جدران المحراب. كما كانت النواحى المجاورة محلاة بالمعدن النفيس نفسه. ولكن بلاط المقصورة كان من الفضة النقية، وبهذا الجامع أيضاً فى بيت منبره مصحف مكتوب فيما يظن

---

(١) على أنه فى بعض الأحوال نجد أربعة أعمدة مجتمعة تحت تاج واحد والرخام من أعلى ومن أسفل محلى بالذهب واللازورد. وهناك أيضاً أعمدة ثلاثة حمراء على واحد منها مكتوب اسم محمد، وعلى الآخر صورة لعصى موسى وأهل الكهف، وعلى الثالث صورة غراب نوح .

عادة بخط الخليفة عثمان فإنه فيما يقال: كتب إلى كل مدينة من المدن الأربعة مكة والبصرة والكوفة ودمشق، صورة منه وأن هذه لا شك واحدة من تلك، إذا كانت حقًّا مكتوبة على نحو ما وصفها، على أنه من الراجح أن عثمان لم يكتب أية نسخة من القرآن، ومهما يكن من شيء فمعروف أن هذه النسخة محفوظة فى صندوق من ذهب مرصع باللآلىء والياقوت ومغطاة بكيس منسوج من الذهب. وهذا كله موضوع على كرسى من خشب الند بمسامير من الذهب. وبما أنه له شأن عظيم عند المسلمين كما هو معروف، فإن السلطان أبا الحسن كان أخده معه فى يوم الجمعة ١١ من شوال سنة ٥٥٢ وحمله إلى إفريقية، ومن إفريقية حمل ثانية إلى شبه الجزيرة الأندلسية على يد البرتغاليين الذين حصلوا عليه عند ما غزوا افريقية. وكانوا يجهلون قيمته فلم يعنوا به. فانتهز الفرصة بعض الناس واشتولى عليه وحمله إلى الافريقيين. وارتفاع الصومعة اليوم، وهى من بناء المنصور، اثنان وسبعون ذراعا إلى أعلى القبة المفتحة التى يستدير بها المؤذن عند ما يؤذن. وفى رأس هذه القبة ثلاث تفاحات مشهورة، اثنتان منها من الذهب الخالص والوسطى منهما من فضة، وهذه الصومعة مغطاة بالنحاس. وهذه الحلية التى على قمتها عليها ستة أشرطة ناصعة من الذهب فى حال من الصنع الدقيق. ودور كل تفاحة ثلاثة أشبار ونصف. والتفاحة الصغيرة الذهبية التى فى رأس هذه القبة إحدى عجائب الأرض . وهذه الصومعة ليست فى علو صومعة اشبيليه أو مراكش، إذ ارتفاع صومعة مراكش ١١٠ اذراع وللصومعة الآن مطلعان يفصل بينهما البناء . ولكن الصومعة القديمة التى أمر الناصر بهدمها سنة ٣٤٠ هـ (٩٥٢ م) كان لها مطلع واحد للنزول والصعود . وتربيع أساسها ١٨ ذراعاً فى مثلها . وارتفاعها إلى مكان المؤذن ٥٤ ذراعاً . وقد استغرق بناء هذا الجزء من البناء ثلاثة عشر شهراً . وكان من أخبار تلك الزيادة العظيمة التى زادها المنصور أنه لما زاد الناس بقرطبة وانجلب إليها قبائل البربر من العدوة وافريقية وتناهى حالها فى الجلالة ضاقت الأرباض وغيرها، وضاق المسجد الجامع عن حمل الناس، فشرع

المنصور فى الزيادة بشرقيه حيث تمكن الزيادة لاتصال الجانب الغربى بقصر الخلافة. ولم يقصر مع هذا عن سائر الزيادات جودة ما عدا زيادة الحكم . وقصد فى هذه الزيادة المبالغة فى الإتقان والوثاقة دون الزخرفة . وصنع المنصور أيضاً فى صحنه الجب العظيم قدره، وهو كما يقول مؤرخو العرب الذى رتب إحراق الشمع بالجامع زيادة على الزيت فتطابق بذلك النوران . وعدد ثريات الجامع كبيرة وصغيرة إلى جانب ما فيها على الأبواب مئتان وثمانون . وعدد الكئوس التى تحتوى على زيت المصابيح ٧٤٢٥ وقيل ١٠٨٠٥ وزنة ما يحتاج إليه من الكتان للفتائل ثلاثة أرباع القنطار لكل شهر. وجميع ما يحتاج إليه من الزيت ١٢٥ قنطاراً يصرف منه فى رمضان خاصة نصفه . ومما كان يختص بشهر رمضان ثلاثة قناطير من الشمع وثلاثة أرباع القنطار من الكتان المقطن لإقامة الشمع المذكور فوق القدر المعروف . والكبيرة من الشمع التى تؤخذ بجانب الإمام يكون وزنها من ٥٠ إلى ستين رطلا، يحرق بعضها بطول الشهر ويعم الحرق لجميعها ليلة الختمة. وجميعها من لا طون مختلفة الصنعة، سوى ثلاثة منها من فضة. ومنها أربع ثريات كبار معلقة فى البلاط الأوسط أكبرها الضخمة المعلقة فى القبة الكبرى التى فيها المصاحف وتوقد هذه الثريات الضخام فى العشر الأخير من شهر رمضان تسقى كل ثريا منها سبعة أرباع القنطار فى الليلة . ولكن حسبما يقول ابن بشكوال وقوله أولى بالاتباع عن الرأى المذكور قبل ، فإن المقدار المستنفد من الزيت فى السنة هو ٢٢٥ قنطاراً، منها ثلاثة أرباع هذا المقدار تستنفد فى رمضان، على أن مؤلفا آخر يذكر أن مقدار الزيت المستنفد فى السنة ١٠٣٠ ربعاً من القنطار ، وأن المستنفد منها فى شهر رمضان ٥٠٠ ربع . وقد ذكر أيضاً أن الثريات الثلاث الفضية تحتاج إلى ٧٢ رطلا من الزيت فى كل ليلة، وقيل فى المنبر إنه موكب من ستة وثلاثين ألف وصل. قوم كل واحد منها بسبعة دراهم فضة، وسمرت بمسامير الذهب والفضة ، وفى بعضها نفيس الأحجار. واتصل العمل فيها تسعة شهور. ودور الثريا العظيمة خمسون شبراً وتحتوى على ألف كأس وأربعة وثمانين ، كلها موشاة بالذهب

وعلى فرجة المحراب سبعة أقواس قائمة على عمد، طول كل قوس فوق القامة. قد تحير الروم والمسلمون فى حسن وضعها . وفى عضادتى المحراب أربعة أعمدة اثنان أخضران لازاورديان. وذكر ابن بشكوال أن الحكم هدم الميضأة القديمة التى كانت بفناء الجامع الذى يستقى لها الماء من بئر السانية وبنى موضعها أربعة ميضآت استقطعها من الحجر الصلد من سفح جبل قرطبة، وتهيأ حمل الواحدة منها فوق عجلة كبيرة اتخذت لهذا الغرض، قرن لجرها سبعون دابة وسهلت قدامها الطرق والمسالك . وكانت هذه الميضآت من المرمر، فى كل جانب من جانبى المسجد الشرقى والغربى، منها اثنان : كبرى للرجال وصغرى للنساء. وأجرى الى جميعها الماء فى قناة اجتلبها فى سفح جبل قرطبة وأجرى فضل هذا الماء العذب إلى سقايات اتخذهن على أبواب هذا المسجد بجهاته الثلاث الشرقية والغربية والشمالية لمنفعة الناس . وكان عدد من يخدم الجامع المذكور قرطبة فى دولة المنصور وينصرف فيه من أئمة ومقرئين وأمناء ومؤذنين وسدنة وموقدين وغيرهم من المتصرفين مائة وتسعة وخمسين شخصاً . وقال ابن بشكوال وقوله أولى بالاتباع : كان عدد القومة بالمسجد الجامع بقرطبة فى زمن الخلفاء وفى زمن المنصور ثلثمائة . ويوقد من البخور ليلة الختمة أربع أواق من العنبر الأشهب وثمان أواق من العود الرطب . ويقول بعض المؤرخين : كان للجامع كل ليلة جمعة رطل عود وربع رطل عنبر يتبخر به . وقد امتثل مسلمو الأندلس ما فعله أبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد عن رأى عمر بالشام من مشاطرة الروم فى كنائسهم، فشاطر المسلمون أعاجم قرطبة كنيستهم العظمى المسماة «فنسنت» المقدسة وابتنوا فى ذلك الشطر مسجداً جامعاً وبقى الشطر الثانى بأيدى النصارى وهدمت عليهم سائر الكنائس بحضرة قرطبة. واقتنع المسلمون بما فى أيديهم إلى أن كثروا وتزايدت عمارة قرطبة ونزلها أمراء العرب فضاق عنهم ذلك المسجد وصاروا يعلقون منه سقيفة يستكنون بها حتى كان الناس ينالون فى الوصول إلى داخل المسجد الأعظم مشقة لتلاحق تلك السقائف وقصر أبوابها فلم يمكن أكثرهم القيام على اعتدال لتقارب سقفها

من الأرض . ولم يزل المسجد على هذه الصفة إلى أن دخل الأمير عبد الرحمن ابن معاوية الأندلس واستولى على إمارتها وسكن دار سلطانها قرطبة ، فنظر فى أمر الجامع وذهب إلى توسعته وفكر فى أن يشترى ما بقى فى أيدى النصارى من كنيستهم لصق الجامع ، فأبوا بيع ما بأيديهم وسألوا بعد الجد بهم أن يباح لهم بناء كنيستهم التى هدمت عليهم بخارج المدينة ، على أن يتخلوا للمسلين عن هذا الشطر الذى طولبوا به . فتم الأمر على ذلك . فابتنى عبد الرحمن المسجد الجامع الموجود اليوم بقرطبة . ثم زاد هشام بن عبد الرحمن وكمل ما أسس أبوه . ثم زاد ابنه عبد الرحمن الأوسط ابن هشام فى الجامع ، وأتم ابنه محمد ما هلك أبوه عنه قبل أن يتمه . ثم رم المنذر المسجد . ثم جدد الناصر بعض نواحيه ونقض الصومعة الأولى وبنى صومعة عظيمة . ولكن الحكم بن الناصر زاد الزيادة العظمى لما كثر أهل قرطبة . ثم جاء منصور الحاجب فضم إليه ثامن زيادة ، وأنشأ الأبهاء فى الجهة الشرقية كما وصفنا من قبل . وابتنى الحكم فى غربى الجامع دارا لتفريق الصدقات ، وابتنى للفقراء البيوت قبالة باب المسجد الكبير الغربى . وإلى جانب هذه المبانى الخاصة فى قرطبة كانت أخرى عامة . فقد قيل إنه فى أيام عبد الرحمن الداخل ، أول حاكم من بنى أمية فى أسبانيا ، كان عدد المساجد فى المدينة فبلغ ٤٩٠ مسجداً ثم زاد بعد ذلك زيادة عظيمة . ويؤكد بعضهم أن عدد المآذن التى كان يسمع فيها الناس المؤذنين كان ٤٣٠٠ . مئذنة وكانت عدد الدور فى القصر الكبير ٤٠٠ دار أو أكثر . وفى عهد لمتونة والموحدين كانت عدة دور الرعايا والسواد بها ، الواجب على أهلها المبيت فى السور ، مائة ألف دار وثلاثة عشر ألف دار حاشى دور الوزراء وأكابر الناس والمساجد . وكانت ديار أهل الدولة إذ ذاك ستة آلاف دار ، وثلثمائة دار ، وعدد أرباضها ثمانية وعشرون وقيل أحد وعشرون وبلغت المساجد بها ثلاثة آلاف وسبعة وثلاثين مسجداً . وعدد الحمامات المبرزة للناس سبعمائة حمام . وقيل ثلثمائة .

---

(١) بلغت تكاليف هذه الزيادة ٢٦١٥٣٧ دينارا ودرهمين ونصف درهم .

على أن ابن حيان يذكر أن عدد المساجد عند تناهيها فى مدة المنصور ، كان ألفا وستمائة مسجد والحمامات تسعمائة [١] . وفى بعض التواريخ القديمة كان بقرطبة فى الزمن السالف ثلاثة آلاف وثمانمائة وسبعة وسبعون مسجداً وتسعمائة حمام وأحدعشرحماماًومائة ألف دار وثلاثة عشر ألف دار للرعية ، وربما كان نصف العدد أو أكثر لأرباب الدولة وخاصتها . على أن بعض العلماء يؤكد أن دور قرطبة التى بها وأرباضها أيام المنصور كانت ٢١٢٠٠٠ أو مائتى ألف دار وثلاثة عشر ألف دار وسبعة وسبعين داراً ، وهذه دور الرعية. وأما دور الأكابر والوزراء والكتاب والأجناد وخاصة الملك فستون ألف دار وثلثمائة دار ، سوى أماكن الكراء والحمامات والحانات وكان عدد الحوانيت ثمانين ألف حانوت وأربعمائة وخمسة وخمسين حانوتاً . ولما كانت الفتنة على رأس المائة الرابعة غيرت رسوم ذلك العمران ومحت آثار تلك القرى والبلدان [٢] . وهكذا كانت قرطبة فى عهد عظمتها الغابرة ولا تزال منها بقايا عديدة من آثارها القيمة ، ولا سيما المسجد والقنطرة اللذان هما من دلائل مجد الخلفاء العرب وورعهم . ولكن أمجاد هذه المدينة لم تكن قاصرة على أبنيتها العظيمة العامة [٣] . ذلك أن قرطبة منذ الأزمان البعيدة قد اشتهرت بأنها مقرًّا للعلوم ، كما كانت مركزاً للفنون الجميلة . وقد كان لقرطبة أيام الرومان جامعة مشهورة كان يدرس فيها علوم البلاغة والفلسفة بنوع خاص كما كان فيها أيضاً أساتذة يونانيون ، وكان سينكا الأكبر ولويس

---

(١) بقى من بين هذه الحمامات حمام واحد على عصف الأيام أو تخريب الأسبان .

(٢) من هذه البيانات السابقة المأخوذة عن مؤلفين مختلفين يلاحظ القارىء من غير شك متناقضات هامة فى تفاصيل مختلفة . على أن هذه الخلافات يجب أن تعزى إما إلى التغيرات التى تطرأ على الأحوال فى العصور المختلفة التى كتب فيها المؤلفون ما كتبوا ، مثل عدد المساجد والبيوت أو اختلاف المساحة التى عينرها . مثال ذلك فإنه فى تعداد أعمدة الجامع الأعظم فى قرطبة ظهر أن الأعمدة الصغيرة فات ذكرها بعض الكتاب . على حين ذكر أخرون الأعمدة من غير تفرقة على أى حجم كانت .

(٣) لقد استحال القصر العربى القديم — قصر الحكام — إلى اصطبلات حيث مئات الخيول الإسبانية تحفظ فيه عادة ، والتى لها أنساب محفوظة بالدقة .

انيوس سنيكا مؤدبا نيرون من أهالى هذه المدينة، كما كان من الشعراء«لو كان» وسكسليوس الذى لم يبق من كتاباته إلا مرثية واحدة . وكان يدرس فيها أيضاً الخطباء اتيليوس لوكانوس والد الشاعر غاليليو ويورثيوس لادرو الذى لم يبق من تواليفه هناك إلاخطبة واحدة ، هذا إلى أشخاص آخرين بارزين.وهى لم تفقدشهرتها الأدبية فى عهد العرب.وقد ذكر العالم غزيرى أسماء نحومن ١٧٠ من الرجال البارزين وكتاباتهم من أهالى تلك المدينة ليدلل على أن العرب حفظوا لجامعتها شهرتها التى كسبتها من عهد الرومان.ومن المشهورين من أهلها الممتازين فى العهود الأحدث من ذلك جونسالفو القرطبى ،أعظم رجالها شهرة ،وهو جد معروف بلقبه « القائد العظيم فى قتاله لعرب الأندلس .

وتختلف قرطبة كل الاختلاف فى عهدها الحاضر عما كانت عليه من مجد فى عهدها القديم،فقد رأينا أن عدد بيوتها على اختلافها قد بلغ فى أيام المنصور ٢٦٢٣٠٠ فإذا جعلنا لكل بيت ثلاثة أشخاص كان عدد سكانها ٧,٠٠٠,٠٠٠ . وبعض الكتاب المحدثين يقدرون عدد سكان قرطبة أيام الخلفاء بنحو ١,٠٠٠,٠٠٠ وأنهم نقصوا إلى ٦٠,٠٠٠ فى القرن السادس عشر وأنهم الآن لا يزيدون على ٣٥,٠٠٠ على أننا إذا أخذنا بالإحصاء الذى تم سنة ١٨٠٣ فإن عدد سكان مملكة قرطبة جميعاً لم يتجاوز ٣٨٣٢٢٦ والمناطق المجاورة لقرطبة أعظم المناطق إنتاجاً للحبوب والزيتون ولم يبق من صناعاتها العجيبة التى اشتهرت بها فى يوم من الأيام إلا القليل من مصانع الأشرطة والأوسمة والقبعات والأقمشة الصوفية الخشنة ، التى إلى جانب زيادتها فى ثروة المملكة ورخائها فإنها مورد رزق للأهالى العديدين .

* * *

صفة إشبيلية

وجرينا مع مجرى النهر الكبير حتى وصلنا اشبيلية التى ظلت حاضرة أسبانيا إلى أن جاء فيلب الثانى فجعل مقر ملكه فى مدريد، لأنها أكثر البلاد توسطاً. وهذه المدينة التى كان اسمها فى أسبانيا القديمة «هيسباليس» ذات موقع تجارى ممتاز. وفى أيام الامبراطورية العربية كانت لها مكانة بارزة. فى سنة ٤١٨ من الهجرة (١٠٢٧) أصبحت حاضرة لمملكة صغيرة احتفظ ملوكها بسلطانهم خمسين عاماً تقريباً ثم تنازع الملك ولاة عدة مختلفون ما يقرب من أربعين عاماً .

وفى عام ٦٣٤ هـ أصبحت إشبيليه جمهورية ذات حكومة حرة إلى أن استولى عليها فردناند ملك قشتالة سنة ٦٤٦ هـ (١٢٤٨) بعد مقاومة عنيفة . وكانت إشبيلية فى هذا الوقت أعظم مدن أسبانيا، على حين كان جمال جوها وخصوبة الحقول المحيطة بها مقاماً مرغوباً فيه. وإن موقعها الجميل وقربها من مصب النهر الكبير مكنا لأهلها المقدامين من فرصة تجارية لم يهملوها. وكان سكان هذه المدينة فى سنة ١٢٤٧ يزيد على ٣٠٠,٠٠٠ نسمة إلا أنه فى القرن السادس عشر ذهب ثلثهم. وقد قل عددهم فى الوقت الحاضر فأصبحوا ٩٦,٠٠٠ نسمة. وقد منيت منتجاتها الصناعية بنقص نسبى ، فى جوار اشبيليه حقول الزيتون المشهورة وتسمى جبال الشرف وكان فى أيام العرب يعنى بزراعته حتى إن عددت بيوت الزارعين ومعاصر الزيت بلغت ١٠٠,٠٠٠ ، وهو عدد لا تظفر اليوم بمثله فى الأندلس كله . وقلما يجاوز محصول الزيتون السنوى اليوم ٣٢,٠٠٠ ربعاً والزيت ١١٠,٠٠٠ جالوناً من الزيت . ومن بين الآثار العربية القليلة فى إشبيليه العظيمة الشأن القصر الملكى والبرج الدوار وبقية من جامعها الأعظم. والقصر تقليد غير دقيق لعمارة الحمراء، وقد أنشىء بعد طرد العرب من المدينة . أما المسجد فهو كما يظهر من ذلك الجزء الباقى من الأسوار الخارجية، أنه كان

شبيهاً بمسجد قرطبة فى تخطيطه وكماله، ولا ينقص عنه فى الحجم كثيراً . ولقد أنشأه الملك المشهور أبو يعقوب يوسف . وعند ما وقعت إشبيلية فى يد فردناند ملك قشتالة حوله إلى كاتدرائية، بعد أن طهره على ما جرى به المألوف وأقيمت فيه الطقوس المعتادة.وقد كان ممكناً أن يبقى لهذا الغرض لولا أن ضعة البناء أصبحت لا تتفق وثراء الابرشية ومكانتها. وبعد لأى عزم رجال الدين أخيراً على أن يبنوا كاتدرائية جديدة على طراز يوائم ثروتهم النامية . ومن ثم فإن رجال الدين، نزولا على ما عاهدوا عليه أنفسهم فى مجتمعهم المقدس الذى عقد فى الثامن من شهر يوليو سنة ١٤٠١ وضعوا أساس تلك الأبنية القوطية التى هى أعظم بناء مقدس فى شبه الجزيرة الأندلسية.وقد تمت أو كادت بحلياتها الداخلية خلال ١٧٠ عاماً . وعند مقارنة هذا البناء بمسجد قرطبة نجد أن التغيير لم يوفر لا الفسحة ولا الراحة . وقد كانت رفات المقدس فردناند المباركة قمينة أن تقر بسلام فى المعبد الإسلامى كما هى فى الهيكل الجليل المقام على أنقاضه ومن حسن الحظ أن الذين نالوا المسجد بالتخريب أبقوا على أبرز معالمه، وهى مئذنته العالية، التى حرف اسمها إلى البرج الدوار، والتى انشئت سنة ١١٩٦ وقد استخدمت أولا فى أغراض علمية واتخذت برجاً للرصد ولكنها حولت لأغراض كنسية وانحط شأنها فأصبحت برجاً للحرس . أما البرج فهو بسيط ولكنه معجز، وربما كان أعلى أثر وأبعده فى القدم فى العالم المسيحى لخدمة الفلك.وقد بنى تحت إشراف الفلكى العربى الرياضى المشهور جابر الذى أشار بعض الكتاب خطأ أنه مؤلف علم الجبر . وكانت اشبيليه كغيرها من حواضر عرب الأندلس مركزاً لجامعة لعلها أنشئت قرب نهاية القرن الرابع الهجرى أو مستهل القرن الخامس الهجرى (النصف الأول من القرن الثانى عشر الميلادى) وقد بلغ غزيرى بعدد العلماء الأجلاء إلى ٧٠ عالماً ما بين أستاذ أو مقيم فى هذا الموطن موطن العلم والفنون .

* * *

فهرست الكتاب

١٩٥٥/٤٤٣٢

هذا الكتاب

مؤلف هذا الكتاب «واشنجتن إرفنج» ليس عربيًّا ولا مسلماً، ولكنه كاتب أمريكى كبير لقب أحياناً بأبى الأدب الأمريكى، كما لقب أحياناً أخرى بسفير أمريكا الأدبى. وهو حرىٌّ بأن نضفى عليه — من جانبنا — لقب سفير العرب فى الأدب الغربى. فقد عاش فى أسبانيا فترات طويلة — طالباً ودبلوماسيًّا وسفيراً — وتأثر بجو «الحمراء» وطابع العرب، فألف عنهم عدة كتب، من ضمنها هذا الكتاب الذى نشر فى سنة ١٨٣٢، والذى يعد من عيون الأدب الأمريكى، بل الأدب الغربى. وسيجد القارئ فى هذا الكتاب تسجيلا أدبيًّا منصفاً لروح عهد من أكثر عهود الحضارة العربية ازدهاراً. عهد يشهد بما كان من عظمة رسالة العرب الثقافية فى أوروبا.

وقد نشرت هذا الكتاب دار المعارف بمصر بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر.

« كتاب لا بد أن يقرأ »

